

العاصمة

روبرت ميناسه

- Author : Robert Menasse
 - Title: Die Hauptstadt
 - Translated by: Samir Graiss
 - Afaq's First edition: 2019
 - Cover Design by: Amr El Kafrawy
 - Publishing Consultant: Sawsan Bashier
 - General Manager: Mostafa Alsheikh
- ♦ المؤلف: روبرت ميناسه
 - ♦ العنوان: العاصمة
 - ♦ ترجمة: سمير جريس
 - ♦ طبعة أفاق الأولى 2019
 - ♦ تصميم الغلاف: عمرو الكفراوي
 - ♦ مستشار النشر: سوسن بشير
 - ♦ المدير العام: مصطفى الشيخ



رقم الإيداع:
٢٠١٩ / ٢٦٩٥

الترقيم الدولي : ISBN
978 - 977 - 765 - 212 - 4

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه. أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن مسبق من الناشر.

All rights are reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form, or by any means without prior permission in writing from the publisher.

Afaq Bookshop & Publishing House

1 Kareem El Dawla st. - From Mahmoud Basiuny st. Talaat Harb
CAIRO – EGYPT - Tel: 00202 25778743 - 00202 25779803 Mobile: +202-01111602787
E-mail: afaqbooks@yahoo.com – www.afaqbooks.com

١ شارع كريم الدولة - من شارع محمود بسيوني - ميدان طلعت حرب - القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت: ٢٥٧٧٨٧٤٣ - ٠٠٢٠٢ ٢٥٧٧٩٨٠٣ - موبايل: ٠١١١١٦٠٢٧٨٧

روبرت ميناسه

العاصمة

رواية

ترجمة

سمير جريس

آفاق للنشر والتوزيع

بطاقة الفهرسة

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشؤون الفنية

ميناسه، روبرت.

روبرت ميناسه : العاصمة

ترجمة: سمير جريس

ط 1 القاهرة - دار آفاق للنشر والتوزيع - 2019

568 ص، 21 سم.

رقم الإيداع 2019 / 2695

الترقيم الدولي 4 - 212 - 765 - 977 - 978

1 - الأدباء (روايات)

2 - ميناسه، روبرت

صدرت رواية روبرت ميناسه «العاصمة»

عن دار نشر «زوركامب» في برلين عام ٢٠١٧:

Robert Menasse, Die Hauptstadt

@ Suhrkamp Verlag Berlin, 2017

*«The translation of this work was supported by the
Goethe-Institut, which is funded by the German Ministry of
Foreign Affairs, within its programme Litrix.de»*

فازت هذه الرواية بجائزة الكتاب الألماني عام ٢٠١٧.



«أن نحلم، فهي السعادة،
أن ننتظر، فهي الحياة».

فيكتور هيغو^(١)

(١) في الأصل بالفرنسية:

“Rêver, c’est le bonheur; attendre, c’est la vie.» - Victor Hugo

استهلال

خنزير! خنزير! هناك! رآه دافيد دو فريند عندما فتح إحدى نوافذ غرفة المعيشة حتى يلقي نظرة على الميدان للمرة الأخيرة قبل أن يغادر هذه الشقة إلى الأبد. لم يكن إنسانًا عاطفيًا. لكنه سكن هنا ستين عامًا، ستين عامًا وهو يطل على هذا الميدان، والآن ها هو يهجر الشقة. «هذا هو كل شيء»، كانت تلك هي عبارته المفضلة؛ عندما يحكي شيئًا، أو يقدم تقريرًا أو شهادة عن شيء، كان يقول جملتين أو ثلاث جمل، ثم يختتم كلامه قائلًا: «هذا هو كل شيء». كانت تلك العبارة في اعتقاده هي الخلاصة المشروعة الوحيدة لكل لحظة أو مرحلة من مراحل حياته. كانت شركة النقل قد نقلت المتعلقات الشخصية القليلة التي سيأخذها معه إلى عنوانه الجديد. «المتعلقات الشخصية» لفظ غريب، لكنه لم يترك أثرًا في نفسه. بعد ذلك حضر رجال الشركة المختصة بإفراغ الشقة من كافة محتوياتها الأخرى، لم يأخذوا معهم كل الأشياء الخفيفة أو غير المثبتة فحسب، بل انتزعوا من الشقة كل شيء، حتى المسامير، ثم فكوا كل شيء ونقلوه، إلى أن أصبحت الشقة خالية ونظيفة. كان دو فريند قد أعد لنفسه فنجانًا من القهوة مستغلًا وجود الموقد وماكينه الإسبريسو

قبل أن يُنقلا، وراح يشاهد الرجال، مُراعياً ألا يقف في طريقهم. ظل ممسكاً بالفنجان الفارغ فترة طويلة في يده، وفي النهاية ألقى به في أحد أكياس القمامة. بعد ذلك انصرف الرجال. الشقة خالية. خالية ونظيفة. هذا هو كل شيء. نظرة أخيرة من النافذة. لا شيء بالأسفل لا يعرفه. عليه أن يغادر الشقة؛ لأن الوقت قد تغير. والآن رآه... فعلاً.. هناك خنزير في الشارع! في قلب بروكسل، في ميدان سانت كاترين. لا بد أنه جاء من شارع دو لا براي، راکضاً بامتداد السور المعدني أمام المنزل، انحنى دو فريند، ومد قامته خارج النافذة، وشاهد كيف انعطف الخنزير يميناً عند الزاوية إلى شارع دو فيوه مارشييه أوه جران، تفادى الخنزير بعض المارة، ثم كاد يركض أمام سيارة أجرة.

اندفع كاي أوفة فريجة إلى الأمام بعد الفرملة المفاجئة، ثم ارتد على مقعده. لوى وجهه. كان متأخراً وعصبياً. ماذا حدث مرة أخرى؟ في الحقيقة لم يكن متأخراً، غير أنه كان يحرص دائماً في لقاءاته أن يكون هناك قبل الموعد المحدد بعشر دقائق، لا سيما في الأيام الممطرة، حتى يذهب إلى دورة المياه ويعدل هيئته بسرعة -الشعر المبلل بالمطر، وكذلك النظارة- قبل أن يأتي الشخص الذي تواعد معه.

صاح سائق التاكسي:

- خنزير! هل رأيته، مسيو؟ لقد قفز أمام السيارة تقريباً!

انحنى السائق بشدة فوق عجلة القيادة، وواصل قائلاً:

- هناك! هناك! هل تراه؟

الآن رآه كاي أوفة فريجة. مسح بظهر يده الزجاج، ركض الخنزير إلى جانب الطريق، ولمع جسده المبلل في ضوء أعمدة الإنارة بلون وردي متسخ.

- لقد وصلنا، مسيو! لا أستطيع الاقتراب أكثر من ذلك. غير معقول! الخنزير كاد يقفز في السيارة! كنت محظوظًا، لا أستطيع أن أقول سوى ذلك!

كانت فينيا كسينوبولو تجلس في مطعم مينيلاس إلى المائدة الأولى بجانب النافذة الكبيرة التي تطل على الميدان. شعرت بالغضب من نفسها؛ لأنها حضرت مبكرًا عن الموعد. أن تكون جالسة في انتظاره عندما يأتي لم يكن أمرًا ينم عن الثقة في نفسها. كانت عصبية، وخشت أن تكون الشوارع مزدحمة بسبب المطر، فحسبت للطريق وقتًا أطول من المعتاد. تجلس الآن أمام الكأس الثانية من الأوزو. يحوم الجرسون حولها كأنه دبور مزعج. راحت تحملق في الكأس امرأة نفسها ألا تمسه. أحضر الجرسون دورق مياه آخر، ثم طبقًا صغيرًا به زيتون، قائلاً:

- خنزير!

- نعم؟

تطلعت فينيا إلى الجرسون، فلاحظت أنه يتابع المشهد في الميدان مأخوذاً؛ والآن رآته.. كان الخنزير يعدو في اتجاه المطعم، بخطوات سريعة مثيرة للضحك، هذه القوائم القصيرة التي تتحرك إلى الأمام وإلى الخلف تحت الجسد المستدير الثقيل. ظنت في البداية أنه كلب، أحد تلك الوحوش الضخمة المنفرة التي تعلقها الأرامل جيداً،

ولكن.. لا، إنه حقًا خنزير! كأنه خارج من كتاب مصور، نظرت إلى المنخار، والأذنين، كأنهما مرسومان بخطوط واضحة، هكذا يرسم المرء الخنزير للأطفال، ولكن هذا الخنزير بدا وكأنه فرّ من كتاب رعب للأطفال. ليس خنزيرًا بريًا. كان الخنزير متسخًا، لكنه بشكل قاطع خنزير مستأنس، وردي اللون، به شيءٌ من الجنون، شيء ينذر بالخطر. سالت مياه الأمطار على النافذة، لاحظت فينيا كسينوبولو على نحو غائم أن الخنزير توقف فجأة أمام بعض المارة، القوائم مفرودة، تزحلق، ألقى بنفسه على جانب الطريق، ثم انحرف عن طريقه، وركض مسرعًا واثق الخطوة مرةً أخرى، الآن في اتجاه فندق أطلس. في تلك اللحظة غادر ريزارد أوسفيتسكي الفندق. عند خروجه من المصعد شدّ قلنسوة الجاكت على رأسه وهو يعبر بهو الفندق، ثم خرج من الفندق إلى المطر. كان في عجلةٍ من أمره، رغم ذلك لم يسرع كثيرًا حتى لا يلفت الأنظار. كان محظوظًا بالمطر: غطاء الرأس، والخطوة المسرعة، كان هذا في تلك الظروف عاديًا تمامًا وغير لافتٍ للانتباه. لا ينبغي أن يدلي أحدٌ فيما بعد بأقوالٍ على شاكلة: لقد رأيت رجلًا يهرب، عمره تقريبًا كذا، وطوله تقديرًا كذا، ولون الجاكت.. بالطبع، يعرف اللون... التفت في لمح البصر إلى اليمين، فسمع صيحاتٍ منفعلة، وصرخة، ولهاثًا غريب الوقع. توقف هنيهةً، وألقى نظرةً إلى الوراء. الآن لاحظ الخنزير. لم يستطع تصديق ما رآه. خنزيرٌ يقف بين عمودين من الأعمدة الحديدية التي تحيط بالساحة المواجهة للفندق، كان يقف هناك برأسٍ منكسٍ، في وضعٍ ثورٍ على أهبة الهجوم، يشير السخريه بعض الشيء،

لكنه في الوقت نفسه يُنذر بالخطر. الأمر غامضٌ ومحيرٌ: من أين جاء هذا الخنزير؟ ولماذا يقف هناك؟ لدى ريشارد أوسفيتسكي الانطباع بأن الحياة كلها في هذا الميدان -على الأقل ما وقع في محيط بصره الآن- قد توقفت وتجمدت. عكست عينا الحيوان الصغيرتان ضوء النيون اللامع في واجهة الفندق، عندئذٍ شرع ريشارد أوسفيتسكي يعدو! ركض مبتعدًا في اتجاه اليمين، وألقى نظرةً أخرى إلى الوراء، طوّح الخنزير رأسه إلى أعلى مُصدرًا شخيرًا، وتراجع عدة خطوات، ثم استدار، وركض عبر الساحة صوب صف الأشجار المزروعة أمام المركز الثقافي الفلمنكي دو ماركتن. ظل المارة الذين تابعوا المشهد يلاحقون الخنزير بأبصارهم، ولم يلتفت أحد إلى الرجل ذي القلنسوة. الآن رأى مارتن سوسمان الحيوان. كان يسكن في المنزل المجاور لفندق أطلس. في هذه اللحظة تحديدًا فتح الشباك لتهوية الشقة، فلم يصدق عينيه: يبدو أن هذا خنزيرٌ! كان في تلك اللحظات مستغرقًا في تأمل حياته، والمصادفات التي أدت به -وهو الذي ولد وسط عائلة فلاحين بالنمسا- إلى الحياة والعمل في بروكسل، كان في مزاجٍ نفسيٍّ يجعل كل شيء يبدو مجنونًا وغريبًا، ولكن أن يعدو خنزيرٌ بحرية في الميدان، فهذا أمرٌ يتجاوز كل جنونٍ، لا بد أن هذا «مقلبٌ» من صنع خياله، مجرد انعكاس لذكرياته! ألقى نظرةً أخرى، ولكنه لم يعد يرى الخنزير.

ركض الخنزير في اتجاه كنيسة سانت كاترين، وعبر شارع سانت كاترين، وواصل عدّوه في الجانب الأيسر من الطريق متفاديًا السياح

الخارجين من الكنيسة، ثم تجاوز الكنيسة حتى وصل إلى كي أو بريك. يضحك السياح، بالتأكيد ظنوا أن الحيوان المنهك الذي كاد يتهاوى مجرد فلكلور، وظاهرة من الظواهر المحلية. سيبحث البعض لاحقاً في الدليل السياحي عن تفسيرٍ لذلك. ألا يطلقون الثيران عبر شوارع مدينة بامبلونا الإسبانية خلال أحد الاحتفالات؟ ربما يفعلون ذلك في بروكسل مع الخنازير؟ يا لمرح الحياة عندما يرى المرء أشياء يعجز عن فهمها، حيث لا يتوقع مطلقاً أن يفهم كل شيء!

في تلك اللحظة انعطف جودة مصطفى عند الناصية وكاد يصطدم بالخنزير. كاد؟ ألم يلمسه، ويحتك بقائمتة؟ خنزير؟ مرعوباً قفز جودة مصطفى جانباً، ففقد توازنه وسقط في الماء المتجمع في حفرة صغيرة. انقلب إلى الجانب الآخر مما زاد الطين بلة. لم تكن قذارة الماء الفائض عن البالوعة ما جعلته يشعر بالانسحاق، بل ملازمة ذلك الحيوان النجس، هذا إن كانت قد حدثت أساساً.

عندئذٍ لمح يداً تمتد إليه، ورأى وجه رجلٍ مسنٍّ، وجهًا حزينًا مهمومًا، مبللاً بماء المطر، كان المسن يبكي على ما يبدو. كان ذلك هو البروفيسور ألويس إرهارت. لم يفهم مصطفى جودة ما قاله، لم يفهم سوى كلمة أو كي. رد جودة مصطفى: «أو كي! أو كي!».

واصل البروفيسور إرهارت حديثه بالإنجليزية، وقال إنه وقع هو أيضاً اليوم. كان مضطرباً جداً، فاستخدم كلمة *failed* أي فشل، بدلاً من *fell*. لم يفهمه جودة مصطفى، فقال مكرراً: «أو كي!».

عندئذٍ جاءت السيارات التي تومض بضوءٍ أزرق. الإسعاف.

الشرطة. انتشر وميض الضوء الأزرق المرتعش الدوار في الميدان
بأكمله. أسرع تلك السيارات في اتجاه فندق أطلس وهي تعوي.
ثم أدت سماء بروكسل ما عليها وأمطرت. بدت قطرات المطر الآن
تومض بلونٍ أزرق، ثم هبت رياحٌ قويةٌ انتزعت من يد بعض المارة
مظلات المطر، وقلبتها. قبض جودة مصطفى على يد البروفيسور
إرهارت الممدودة ونهض. كان والده قد حذره من أوروبا.



الفصل الأول

لا توجد بالضرورة علاقات بين الأشياء،

ولكن من دونها سينهار كل شيء.

مَن اخترع المستردة؟

ليست هذه بدايةً جيدةً لروايةٍ. من ناحيةٍ أُخرى: ليست هناك بدايةً جيدة؛ لأنه ليست هناك بدايةً، سواء جيدة أو سيئة. أي جملةٍ أولى محتملةٍ هي نهايةٌ، حتى إذا تواصل الكلام بعدها. تلك الجملة تقف في نهاية آلاف من الصفحات التي لم تكتب أبدًا: ما قبل الحكاية.

عندما يشرع القارئ في قراءة روايةٍ، ينبغي عليه في الحقيقة أن يقلب الصفحات إلى الوراء بعد الجملة الأولى مباشرةً. كان ذلك هو حلم مارتين سوسمان، أن يصبح حكّاء لما قبل الحكاية. كان قد قطع دارسته في علم الآثار، ثم... ولكن الأمر سواء، هذا جزءٌ من الحكاية التي تسبق الحكاية، وعلى كل بدايةٍ روايةٍ أن تتجاهلها، وإلا فلن نصل أبدًا في النهاية إلى بدايةٍ.

جلس مارتين سوسمان إلى مكتبه بعد أن أزاح «اللاب توب» جانبًا، ثم راح يضغط على أنبوتي مستردة من نوعين مختلفين. نظر إلى المستردة على طبقه، مستردة إنجليزية حارة، وأخرى ألمانية حلوة، ثم تساءل: مَن اخترع المستردة؟ مَن خطر على باله هذه الفكرة الغريبة، فكرة صنع «صوص» يغطي تمامًا على المذاق الطبيعي للطعام، دون أن

يتسم في حد ذاته بطعم جيد؟ وكيف أمكن للمستردة أن تفرض نفسها كسلعة جماهيرية؟ إنها، هكذا قال لنفسه، منتجٌ مثل الكوكاكولا. منتجٌ لن يفتقده أحدٌ إذا لم يكن موجودًا. في طريقه إلى البيت مرّ سوسمان على فرع «دوليز» في شارع «أنسباك»، واشترى زجاجتيّ نبيذ، وبقاةً من زهور التيوليب، وسجقًا، ومستردةً بالطبع. اشترى أنبوبتين؛ لأنه لم يستطع أن يقرر ما إذا كان يريد مستردةً حارةً أو حلوةً.

والآن، ها هو السجق يئز ويقفز فوق سطح المقلاة، فالشعلة أقوى من اللازم. احترقت الزبدة، وتفحم السجق، رغم ذلك لم يهتم مارتن. جلس، وراح يحرق في دوائر المستردة على طبقه، دوائر صفراء وفاتحة قليلًا، وإلى جانبها حلقات بنية غامقة، وتلك الأشكال الصغيرة التي بدت كأنها براز كلاب. لم يرد في الكتب المتخصصة أن التحديق في المستردة على الطبق، في حين أن السجق يحترق في المقلاة، هو أحد العوارض الواضحة للإصابة بالاكتئاب، رغم ذلك يمكننا أن نفسر الأمر على أنه كذلك.

المستردة على الطبق. النافذة المفتوحة، المطر الغزير المتساقط بالخارج. الهواء الفاسد، رائحة اللحم المتفحم، طقطقة الأمعاء المتشقة والزبد المحترق، الأشكال الشبيهة ببراز الكلاب على الطبق الخزفي.. عندئذ سمع مارتن سوسمان الطلقة.

لم يفرع. كان الصوت يشبه أن يقوم أحدٌ في الشقة المجاورة بفتح زجاجة شمبانيا. ولكن، ليس ثمة شقة خلف الجدار الرقيق للغاية، بل حجرة في فندق. بجواره فندق أطلس. يا له من اسمٍ تفخيميٍّ لهذا

الفندق الصغير الذي ينزل فيه في المقام الأول ممثلو جماعات الضغط؛ يدخلونه مَحْنِي الظهر، ساحبين وراءهم حقائبهم ذات العجل. من حين إلى آخر كان يتناهى عبر الجدار إلى سمع مارتن سوسمان -دون أن يكثرث للأمر- أشياء لم يكن بالضرورة يريد أن يسمعها. تلفزيون الواقع، أو -مَن يعرف- ربما الواقع فحسب، شخير أو تأوهات.

ازداد المطر غزارة. تولدت لدى مارتن رغبة في مغادرة المنزل. كان قد استعد جيدًا للإقامة في بروكسل. في حفل الوداع الذي أقامه في فيينا، حصل على هدايا حاول أصحابها قدر جهدهم أن تكون مفيدةً ونافعةً خلال تأثيث شقته في بروكسل، ومن بينها عدة مظلاتٍ تقيه من المطر -من المظلة البريطانية كلاسيكية الطراز «لونج»، مرورًا بالألمانية «كنيربس»، ووصولًا إلى الإيطالية «ميني» بثلاثة ألوان من «بينيتون»-، إضافة إلى معطفين واقيين من المطر عندما يقود الدراجة.

جلس ساكنًا أمام طبقه محدقًا في المستردة. فيما بعد استطاع أن يقول للشرطة بدقة متى أُطلقت الرصاصة، وذلك لأنه تحمس لفتح زجاجة نبيذ عندما سمع ما ظنه فرقة زجاجة شمبانيا. كان يُرجى الشراب كل يومٍ إلى آخر النهار بقدر الإمكان، ولم يكن يحتسي الخمر أبدًا قبل السابعة مساء. ألقى نظرةً على الساعة: كانت السابعة والنصف وخمس دقائق. سار إلى الثلاجة، وأخرج النبيذ، وأغلق الموقد، ثم ألقى بالسجق في صفيحة الفضلات، ووضع المقلاة في حوض المطبخ، ثم فتح صنبور المياه. سمع «طشطشة» المياه على سطح المقلاة الساخن. «توقَّف عن البهلقة في الحيلة!»، هكذا كانت أمه تنهره عندما يجلس

أمام كتاب، محملقًا أمامه بنظرةٍ تائهةٍ، بدلًا من أن يساعدهم في تقديم العلف للخنازير أو في تنظيف الزرائب.

جلس الدكتور مارتن سوسمان هناك، وأمامه طبق عليه مستردة. صب لنفسه كأسًا من النبيذ، ثم كأسًا أخرى، النافذة مفتوحة، بين الحين والآخر كان ينهض، ويقف عند النافذة ملقيًا نظرة قصيرة على الشارع، ثم يجلس ثانية إلى المائدة. عند الكأس الثالثة نفذ ضوء أزرق من النافذة ثم عبّر جدار الغرفة. في المزهريّة الموضوعة على المدفأة لمعت زهور التيوليب بلون أزرق منسجم مع الضوء الساطع من الخارج. رنّ التليفون. ألقى مارتن سوسمان نظرة على الشاشة ليعرف من المتصل. لم يجب على التليفون.

الحكاية التي تسبق الحكاية. إنها مهمة جدًّا، وفي الوقت نفسه تبرق مهتزة في الخلفية مثل الضوء الأبدي في كنيسة سانت كاترين، على الجانب الآخر من ميدان «فيو مارشيه أو جران» حيث يسكن مارتن سوسمان.

لجأ عدد قليل من المارة إلى الكنيسة هربًا من المطر. وقفوا هناك مترددين، أو تجولوا في الكنيسة، أما السائحون فراحوا يقلّبون في الدليل السياحي الذي يحملونه، متتبعين أهم المعالم: «المادونا السوداء- القرن الرابع عشر»، «بورتريه القديسة كاترين»، «منبر على الطراز الفلمنكي التقليدي، من المرجح أن يكون من مدينة مالين»، «شواهد قبور من جيل - لامبرت جودشارل»...

ثم وميض آلات التصوير بين الحين والآخر.

على ما يبدو، فإن الرجل الذي جلس وحده على مقعد خشبي في الكنيسة كان يصلي. الكوعان على المسند، الذقن يرتاح على اليدين المتشابكتين، والظهر مقوس. كان يرتدي سترة سوداء ذات قلنسوة غطت رأسه، لو لم يكن مكتوبًا على ظهر الجاكت اسم البيرة الأيرلندية Guinness، لظن المرء للوهلة الأولى أنه راهب بزيه التقليدي.

بالتأكيد ارتدى الرجل السترة والقلنسوة بسبب المطر في بروكسل، غير أن الانطباع الذي أثاره، فضح شيئًا مبدئيًا بشأنه. كان الرجل، على طريقته، راهبًا حقًا، فهو يعتبر الرهينة -أو ما يفهمه من تلك الكلمة: النُسك، والتأمل، والتدريبات الروحية- طريقَ الخلاص في حياة مهددة دائمًا بالفوضى والتشتت. لم يكن ذلك مرتبطًا بالنسبة له بطائفة معينة أو دير، أو باعتزال العالم: بإمكان كل رجل، بل يتحتم عليه -أيًا كانت مهنته أو وظيفته- أن يكون راهبًا في مجاله، وأن يركز انتباهه على المهمة التي يقوم بها كعبدٍ لإرادة عليا.

يحب أن يتأمل في الرجل المعذب على الصليب وأن يفكر في الموت. في كل مرة كان ذلك يعني تنقية للحواس، وتجميعًا للأفكار، وحشدًا للطاقة.

كان هذا هو ماتيوش أوسفيسكي. أما الاسم الذي ناله عند المعمودية، وهو مسجل أيضًا في جواز سفره، فهو ريشارد. تحول أوسفيسكي إلى ماتيوش عندما تتلمذ في معهد أكاديمية لوبرانسكي في بوزنان حيث يحصل كل «برعم نابه» على اسم من أسماء تلاميذ المسيح الأحد عشر. عمّد ومُسح بالزيت مرة ثانية، ونال اسم «متى

العشار». احتفظ بالاسم، كاسم حركي، رغم أنه ترك المعهد. على الحدود التي كان ينبغي عليه فيها أن يظهر جواز سفره، كان يمر باعتباره «ريشارد». أما لدى المخابرات فهو كان معروفًا -استنادًا على أقوال بعض أفراد الاتصال- باسم «ماتيك»، وهو اسم الدلع لـ «ماتيوش». هكذا كان زملاؤه ينادونه. كان يقوم بمهمته باعتباره «ماتيوش»، ويتم البحث عنه باسم «ماتيك»، وكـ «ريشارد» يتسلل عبر الحدود.

لم يكن أوسفيتسكي يصلي. لم يكن في صمت يصوغ جملاً تبدأ بـ «يا رب»، جملاً ليست سوى أمنيات، مثل «امنحني القوة...» لكي أفعَل هذا أو ذلك، أو «بارك...» هذا الشيء أو ذاك. لا يتمنى المرء شيئاً من روح مطلقة صامتة. راح يتأمل الرجل المُسمَّر على الصليب. إن الخبرة التي مرَّ بها هذا الإنسان من أجل البشرية، والتي نطق بها في النهاية، هي خبرة الإنسان الوحيد تمامًا في لحظة المواجهة مع المطلق: عندما تُخَدَش الغلالة، ثم تُشَق، وتُفَتَّح، وتُخَرَق، وتُمزَق، عندما تصرخ الحياة أَلَمًا، وتتحوّل الصرخات إلى بكاء مكتوم، ثم تنتهي إلى الصمت. إن الحياة تقترب من روح القدير في الصمت فحسب، الروح التي أطلقت عكس وجودها في نزوة هائلة: الزمن. بمقدور الإنسان منذ لحظة ميلاده أن يعود بالفكر إلى الوراء، وإلى الوراء، ثم إلى الوراء، إلى الأزمان السحيقة، ولكنه لن يستطيع أن يصل إلى بداية، ولن يستطيع بمصطلح بائس مثل الزمن أن يفهم سوى شيء واحد: إنه لم يكن موجودًا منذ الأزل. كما يستطيع أن يستشرف المستقبل بالفكر، انطلاقًا من لحظة الموت متطلعًا إلى المستقبل بأكمله، ولكنه لن يصل إلى نهاية، كل ما

سيدركه هو أنه لن يظل موجودًا إلى الأبد. أما الزمن فهو تلك الفترة بين الأزل والأبد- الصخب، وتداخل الأصوات، وضجيج الآلات، وزئير المحركات، وقعقة السلاح ودوي طلقاته، وآهات الألم، وصرخات الشبق اليائسة، الفرق الغنائية المكونة من الجماهير الغاضبة والمخدوعة في بهجة، هزيم الرعد ولهات الخوف في هذه البقعة الميكروسكوبية من الأرض.

تأمل ماتوش أوسفتيسكي الرجل المعذب.

لم يفرد كفيه في وضع الصلاة. لم يضغط بأظافر أصابعه المشبكتين على ظهر اليد إلى أن تقطع المفاصل وتحمر البشرة. شعر بألم أقدم من وجوده نفسه. يستطيع أن يستدعي في كل لحظة هذا الألم بسرعة. عاش جده ريشارد في مطلع عام ١٩٤٠ تحت الأرض؛ لكي يناضل ضد الألمان في المقاومة البولندية تحت قيادة الجنرال شتيفان روفيكي. وشي به في إبريل من العام نفسه، ثم أُلقي القبض عليه، وعُذّب، وفي النهاية أُعِدِمَ باعتباره مقاومًا رميًا بالرصاص في ساحة عامة في لوبلين. كانت الجدة آنذاك حاملاً في الشهر الثامن، ورأى الطفل نور العالم بمدينة كيلس في مايو ١٩٤٠، وحصل على اسم والده. ولتجنب الالتصاق بقبيلته، نُقل ليعيش مع عائلة عمه الأكبر في بوزنان. وهناك نشأ وكبر، وفي عمر السادسة عشرة عاش الانتفاضة. انضم الطالب الفتى إلى مجموعة الرائد فرانزاك مناضلاً في المقاومة المناهضة للشيوعية. كُلف بالقيام بأعمال تخريبية، ثم بختف المخبرين العاملين لدى شرطة أمن الدولة، وفي عام ١٩٦٤ وشى به أحد الرفاق مقابل

٦٠٠٠ زلوتي. اعتُقل في شقة سرية، وعُذب حتى الموت في أحد أقبية أمن الدولة. كانت عروسه حاملاً في تلك الفترة، وجاء طفلها إلى العالم في فبراير ١٩٦٥ في قرية كويتشه جورنه، فعمّدت على اسم جده الكبير واسم والده. مرةً أخرى، ها هو ابنٌ لن يستطيع التعرف إلى أبيه. ذات مرة حكّت الأم القليل: «كنا نتقابل في الحقول أو في الغابة. كان يأتي إلى مواعيدنا الغرامية حاملاً مسدساً وقنابل».

جدٌ صامتٌ أبداً. أبٌ صامتٌ أبداً. الدرس الذي تعلمه ماتيك هو أن البولنديين ناضلوا دائماً من أجل حرية أوروبا، وكل شخص بدأ النضال شبّ ونما في صمت، وناضل إلى أن التحف بالصمت.

ذهبت أمه معه إلى الكهنة، وبحث عن مَنْ يستطيع أن يقدم له الدعم، ودفعت مالا مقابل خطابات توصية. كانت تثق في الحماية التي توفرها الكنيسة. وفي النهاية أدخلته المعهد الديني في بوزنان ليتعلم مع رفاقه. وهناك خبر بنفسه هشاشة الجسد البشري: الدم مادة تشحيم وتليين للولوج إلى غلالة الجسد، أما البشرة فليست سوى أديم رقيق نديٍّ، وعليها ترسمُ سكينٌ خرائط، الفم والعنق الصارخ ثقب أسود لا بد من حشوه إلى أن يحتضر آخر صوت، ثم يمتص الثقب في سكون ما قد تهبه الحياة. هناك تعرف إلى مفهوم جديد تماماً لكلمة «تحت الأرض». عندما حصلت «البراعم» على أسماء تلاميذ المسيح، تم اقتياد الفتيان إلى السرايب المحفورة تحت الكاتدرائية الرائعة بحق في بوزنان، إلى الأقبية السرية تحت الأرض وإلى حجرات الدفن، وذلك عبر درج حجري كان يسطح ويلمع في ضوء المشاعل، نزلوا إلى الدرج الأسفل،

عبر النفق الحجري الخشن، النفق الأخير المؤدي إلى حجرة اتضح أنها كنيسة صغيرة في عمق الأرض، كنيسة الموت والحياة الأبدية: قبو ذو سقف معقود، تم حفره في القرن العاشر الميلادي على عمق مائة ياردة في صخور الأرض البولندية المشبعة بالدماء. في واجهة هذه الحجرة صليب عملاق عليه تمثال للمسيح، طبيعي إلى درجة الرعب، وخلفه نقوش لملائكة بدت بارزة من الحجر أو غائرة فيه أو كأنها تخترقه، حية إلى درجة مرعبة في الضوء المرتعش الصادر عن لهب المشاعل. وفي الأمام تمثال للسيدة العذراء كما لم يرها ريشارد الشاب أبداً، ولا في أي كنيسة، أو في أي صورة في كتبه: كان وجهها مخفياً تماماً خلف وشاح لفته على جبهتها وأنفها وفمها، ولم يبق سوى فتحة صغيرة يرى المرء من خلالها عينيها، المحجران عميقان وميتان تماماً، وهل يمكن للمحجرين أن يكونا غير ذلك بعد كل تلك الدموع التي دُرّت خلال آلاف من السنين؟ كل هذا، وكذلك المذبح، تم تشكيله من الحجر والرواسب الحجرية التي خلفتها الطبقات الجيولوجية. مقاعد من الحجر البارد، وعليها - في ظهر ريشارد والبراعم الأخرى من التلاميذ - كان يجلس أحد عشر راهباً في ثيابهم السوداء، ورؤوسهم المحنية مغطاة بالقلنسوة. قادوا التلاميذ عبر الممر الأوسط وسط الرهبان المصلين إلى أن وصلوا إلى المسيح في الأمام، وهناك رسموا الصليب، ثم قيل لهم أن يلتفتوا إلى الورا. نظر ريشارد خلفه، فلاحظ أن جمجمة ميت تبرق تحت كل قلنسوة، أما المسبحة في يد كل راهب فكانت معلقة على أطراف الأصابع.. كان هؤلاء الرهبان هياكل عظمية.

الإنسان تحت الأرض أقرب إلى الرب منه على قمم الجبال.
دق ماتيوش أوسفتيسكي بأطراف أصابعه على جبهته. شعر بنفسه
ثقيل الجسد، عفن الرائحة. وفي تجويف بطنه، إلى اليسار تحت السرة،
شعر بحرقان. أدرك أن الموت يحترق هناك. لم يُثر ذلك خوفه. بل نزع
عنه الخوف.

كانت تلك الهياكل العظمية في ثياب الرهبان هي رفات الأسقف
المبشّر والأعضاء الذين أسسوا المعهد الديني في أبرشية «بوزنان».
منذ نحو ألف عام ظلوا هنا معتصمين بالصلاة الصامتة أبدًا. أمام هذه
الهياكل الأحد عشر كان كل برعم في المعهد ينال اسمًا من أسماء
تلاميذ المسيح. أحد عشر؟ دون يهوذا؟ بلى. ولكن من التكبر منح
تلميذ اسم بطرس، نائب المسيح الأول على الأرض. مَنْ يصطفونه،
يتحول لاحقًا من يوحنا أو بولس إلى بطرس.

ضغط ماتيوش أوسفتيسكي بكفيه على أذنيه. ما أكثر الأصوات في
رأسه! أغلق عينيه. ما أكثر الصور! لم تكن تلك ذكريات، ولا الحكاية
التي تسبق الحكاية. استحضر ذلك الآن، وهو يجلس أمام المصلوب.
مثل الحرقان في البطن. لم يشعر بخوف، شعر بانقباض الصدر فحسب،
وكان المرء سيواجه اختبارًا كبيرًا، أو سيقوم بمهمة جسيمة. الاختبار
الذي يؤديه المرء مرة واحدة في حياته هو أصعب الاختبارات. فتح
عينيه ثانية، وتطلع إلى الجرح في جانب المخلص.

كان ماتيوش أوسفتيسكي يحسد في الحقيقة ضحاياه. وقوع البلاء
أفضل من انتظاره.

نهض، وخرج من الكنيسة الحجرية، وألقى نظرة قصيرة على الجانب الآخر من الشارع حيث كان ضوء سيارات الشرطة الأزرق يتراقص أمام فندق أطلس، ثم مشى ببطء وبرأس منكس، كانت قلنسوته مشدودة إلى آخرها حتى غطت جبهته. سار في المطر إلى محطة مترو «سانت كاترين».

عندما عاد ألويس إرهارت إلى فندق أطلس، مُنع في البداية من دخوله. على الأقل فسّر يد الشرطي الواقف على المدخل والمرفوعة في اتجاهه كأمر بالوقوف. لم يفهم ما قاله الشرطي، فهو لا يتقن الفرنسية. كان قد رأى من بعيد الضوء الأزرق الدوّار الصادر عن سيارات الشرطة والإسعاف، فظنّ أن شخصاً انتحر. سار ببطء في اتجاه الفندق، وعلى الفور انتابه مرة أخرى الشعور الذي سيطر عليه في الظهيرة: وكأن الخواء الذي يسقط فيه كل إنسان، إن آجلاً أو عاجلاً، قد تمدّد في صدره وبطنه فجأة، وكأنه إعلان عن شيء أو مطالبة بشيء. منقبض الصدر، مبهور الأنفاس شعر أن الأمر معجزة، أن الخواء المتنامي من الممكن أن يتمدد إلى ما لا نهاية في غلالة الجسد الضيقة. الروح كثقب أسود يلتهم كل الخبرات التي مر بها طوال حياته ثم يُخفيها، ولا يعود يتمدد سوى الخواء، الفراغ المطلق، حالك السواد، ولكن دون وداعة ليلة تخلو من النجوم.

ها هو يقف هناك، أمام الدّرج المؤدي إلى مدخل الفندق، عظامه تؤلمه بسبب إجهاد العضلات المتوترة، وخلفه عدد قليل من الفضوليين

محبى الفرجة. عندئذٍ قال بالإنجليزية إنه نزيل في هذا الفندق، وإن لديه غرفة، لكن ذلك لم يغير شيئاً من وضع الذراع الممدودة. كان الموقف في رأيه سورباليّاً للغاية، لدرجة أنه لن يتعجب لو ألقوا القبض عليه. لكنه لم يكن مجرد رجل طاعن في السن بدأ جسده يخذله على نحو نهائي، إنه أيضاً البروفيسور المتقاعد د. إرهارت الذي ظل طوال نصف حياته يمثل سلطة علمية. قال بحسم إنه سائح. يسكن هنا! في هذا الفندق. وهو يرغب الآن في التوجه إلى غرفته. اصطحبه الموظف إلى «اللوبي»، ثم أوصله إلى رجل في منتصف العقد الخامس يبلغ طوله نحو المترين، يرتدي بدلة رمادية ضيقة للغاية. طالبه الرجل بأن يبرز بطاقة هويته.

لماذا وقف البروفيسور برأس منكس؟ سلط بصره على البطن الكروي المنتفخ لهذا الرجل، وشعر فجأة بالشفقة. هناك بشر يبدوون في وجودهم الفيزيائي الضخم أقوياء للأبد، يتمتعون دائماً باللياقة، لا يمرضون أبداً، إلى أن يرقدوا فجأة وكأن البرق أصابهم، ويقضون نحبهم في عمر يقول عنه الناس: ليس هذا عمراً يتوفى المرء فيه. كانوا يشعرون بالفخر بسبب بنيتهم الجسدية التي تجعلهم يعتقدون أنهم خالدون مخلدون، طالما أن باستطاعتهم أن ينصبوا قاتمهم أمام الآخرين وأن يسيروا في الاتجاه الذي يريدونه. لم يواجه هؤلاء الناس أبداً سؤالاً حول القرار الذي سيتخذونه إذا تقدموا في السن ومرضوا مرضاً عضالاً، أو تحولوا في غضون فترة قصيرة إلى حالة تستوجب الرعاية. هذا الرجل هش ومتعفن في داخله، وسيسقط قريباً، لكنه لا يعلم.

قدم له البروفيسور إرهارت جواز السفر.

- متى وصل؟

- *Parlez-vous français? No? English?*

- متى غادر الفندق؟ وهل كان متواجدًا في الفندق بين الساعة

السابعة والثامنة مساءً؟

- لماذا كل هذه الأسئلة؟

- فريق التحقيق في جرائم القتل. هناك رجلٌ لقي مصرعه بالرصاص

في إحدى غرف هذا الفندق.

تؤلمه ذراعه اليمنى. فكر البروفيسور إرهارت أنه ربما لفت الأنظار؛

لأنه يمر بيده على ذراعه المرة بعد الأخرى، ضاغطًا على الذراع ومدلجًا إياه.

أخرج من الجيب الجانبي في معطف المطر الكاميرا الرقمية وضغط على زر التشغيل. استطاع أن يظهر له أين كان: التوقيت مثبتٌ على كل صورة.

ابتسم الرجل. وشاهد صورةً بعد أخرى. بعد الظهر في الحي الأوروبي، ميدان شومان. مبنى بيرليمون، مقر المفوضية الأوروبية، ومبنى يوستوس ليسيوس، مقر المركز الصحفي للمجلس الأوروبي. صورة لللافتة الشارع «شارع يوزيف الثاني».

- لماذا التقطت هذه اللافتة؟

- أنا نمساوي!

- آه.

تمثال «أوروبا الحلم» في شارع «دو لا لوي». التمثال البرونزي لرجل أعمى (أم أنه يسير نائمًا؟)، يقف على قاعدة التمثال ويخطو إلى الفراغ. ما أكثر ما يصوره السياح! هنا. الساعة السابعة والرابع: الساحة الكبيرة. عدة صور حتى الساعة السابعة وثمانٍ وعشرين دقيقة. ثم الصورة الأخيرة: الثامنة وأربع دقائق، سانت كاترين، صحن الكنيسة. واصل الرجل الضغط على الزر لرؤية مزيد من الصور، فلم ير سوى الصورة الأولى. رجع بالصور إلى الوراء. المسيح، المذبح، وأمامه رجل يجلس على مقعد، وعلى ظهره كلمة *Guinness*. ابتسم، وأعاد له آلة التصوير.

عندما دخل ألويس إرهارت غرفته، سار إلى الشباك، ملقيًا نظرةً عبر الزجاج إلى المطر، ثم مر بيده على شعره المبتل، وأصغى إلى صوته الداخلي. لم يسمع شيئًا. عندما وصل في الظهيرة، فتح النافذة على الفور، ثم مد رأسه وجذعه ليلقي نظرة أفضل على الساحة، انحنى إلى الأمام انحناءً أكبر مما ينبغي، كاد يفقد توازنه، لم يعد يجد أرضًا تحت قدميه، ورأى الأسفلت يقترب من وجهه، سار الأمر بسرعة فائقة، فدفع بنفسه إلى الوراء، ووقع على الأرض أمام الشباك، فاصطدم ساعده الأيمن بالتدفئة. جلس على الأرض ملتويًا في وضع يثير الضحك - شعر وكأنه يسقط سقوطًا حرًا، وهو ما تجنب حدوثه لتوه، شعور قد يشعر به الإنسان في الثانية التي تسبق الموت. عندئذٍ شد قامته، وجلس على السرير، لاهاثًا، ثم فجأةً اجتاحتها الحماسة: إنه حرٌّ. ما زال. مستقلٌّ

في قراره. وسوف يتخذ قرارًا. ليس الآن. ولكن في الوقت المناسب. سيقتل نفسه.. يا له من تعبير سخيف! سيقدر بنفسه مصيره، إنسان حر! كان يعرف أن عليه أن يفعل ذلك؛ فجأةً عرف أيضًا أن بمقدوره ذلك. الموت -هذا ما أدركه الآن- تافهٌ وباطلٌ وحتميٌّ، مثل آخر نقطة في جدول الأعمال. كانت تلك هي اللحظة التي لا يعود يأتي فيها شيءٌ آخر. عليه أن يقفز فوق الموت. أن يقفز.

لا يريد أن يموت كما ماتت زوجته. كانت عاجزةً في النهاية، معتمدةً عليه أن يقدم لها...

تناول جهاز التحكم عن بعدٍ وضغط على زر تشغيل التلفزيون. خلع القميص، فرأى كدمةً على ذراعه اليمنى. واصل الضغط على جهاز التحكم عن بعد. خلع السروال، وواصل الضغط! الجوارب، وواصل الضغط! السروال الداخلي، وواصل الضغط! كان قد وصل إلى محطة *Arte*. فيلم كلاسيكي بدأ لتوه: «من هنا إلى الخلود». مرت عقود على مشاهدته هذا الفيلم. استلقى على السرير. قال صوت: «هذا الفيلم تقدمه لكم وكالة *parship.de*، الوكالة الرائدة للعثور على شريك الحياة».

لم يكن من قبيل الصدفة أن «فينيا كسينوبولو» كانت تفكر في الإنقاذ في تلك اللحظة تحديدًا، عندما انعطفت سيارة الإسعاف والإنقاذ لتدخل الساحة، وعندما سُمعت صفارات الإنذار. منذ أيام وهي لا تفكر في شيء آخر، لقد تحول الأمر إلى فكرة مسيطرة، ولهذا قالت لنفسها الآن أيضًا: الإنقاذ! عليه أن ينقذني!

كانت تتناول طعام العشاء في مطعم «مينيلاس» الذي يقع في مواجهة فندق أطلس تمامًا. يجلس معها كاي أوفة فريجة الذي كانت تطلق عليه «فريزر» منذ العلاقة الغرامية العابرة التي ربطت بينهما قبل عامين. بدلالٍ لم تحسم الأمر، هل حورت اسمه الألماني «فريتس» إلى «فريزر»، أم أنها تلمح إلى الثلاجة؛ لأنه سلوكه الموضوعي المستقيم يترك انطباعًا بالبرود. فريجة رجل مرن، نحيف وطويل، في وسط العقد الرابع، يتحدر من هامبورج ويعمل منذ عشر سنوات في بروكسل، كان محظوظًا (أو بالأحرى لم يعتمد على حظه) خلال الصراعات والمكائد والصفقات التي تسبق بطبيعة الحال تشكيل أي مجلس جديد في المفوضية الأوروبية، وحقق طفرة مهمة في السلم الوظيفي: والآن كان مديرًا بالإدارة العامة للتجارة، وبذلك رئيس مكتب عظيم النفوذ لأحد أهم المفوضين في الاتحاد الأوروبي.

لم تكن فكرة اللقاء في هذا المطعم اليوناني تحديدًا -والذي اتضح أنه مطعم متوسط الجودة- في مدينة مكتظة بالمطاعم فائقة الجودة، ترجع إلى فينيا كسينوبولو، فهي لم تكن تشعر بالحنين إلى الوطن، ولا بشوق إلى مذاق أو رائحة المطبخ اليوناني. الاقتراح جاء من كاي أوفة فريجة: لقد أراد أن يظهر تضامنه مع زميلته اليونانية، الآن تحديدًا، بعد أن أوشكت الدولة اليونانية أن تعلن إفلاسها، وبعد حزمة الإنقاذ الأوروبية الرابعة المكلفة للغاية، وبعد أن أصبحت سمعة «اليونانيين» عند الزملاء ولدى الرأي العام في الحضيض. كان متأكدًا من أنه يسجل نقطة لصالحه عندما اقترح في «الميل»: «مينيلاس؟» «فيوة مارشيه أوه

جران»، عند كاتدرائية سانت كاترين، يقولون إنه مطعم يوناني جيد جداً!!»، وهي أجابت قائلة: «أوكي». لم يكن الأمر يمثل فارقاً بالنسبة لها. كانت تحيا وتعمل منذ فترة طويلة جداً في بروكسل، ولهذا لم تعد تهتم بالمشاعر الوطنية. الشيء الذي تريده هو الإنقاذ، إنقاذ ذاتها.

قال فريجة إن إطلاق اسم «مظلة الإنقاذ» على الصناديق المالية التي ينبغي أن تحول دون إفلاس اليونان، كان أمراً مضحكاً، وإن كان ذلك غير مقصود. كما تعلمين، استخدام الصور البلاغية في المفوضية ضرب من الحظ!

لم تدخل هذه الملاحظة في نفس فينيا كسينوبولو أي سرور، ولم تفهم حتى ما يعنيه، غير أنها ضحكت حتى أشرق وجهها. شعرت أنها ترتدي قناعاً، ولم تكن متأكدة ما إذا كان فريجة لاحظ ذلك، هذا التصنع، أم أنها نجحت فيما كانت تعتمد عليه دائماً في الماضي، أي الاستخدام البارع لعضلات الوجه، مع التوقيت المناسب، والأسنان ناصعة البياض، ونظرة دافئة.. كل ذلك يولد صورة لا تقاوم من الحيوية الطبيعية. التصنع يتطلب موهبة طبيعة أيضاً، ولكن فينيا كانت مهتزة نفسياً جداً بسبب التأخر المهني الذي لحق بها -في عمرها هذا! لقد بلغت الأربعين!-، ولهذا لم تعد متأكدة من الأثر الذي تحدثه موهبتها الطبيعية، أي أن تثير الإعجاب عمداً. الشكوك الذاتية، هكذا أحست، كانت تغطي مظهرها الخارجي مثل طفح جلدي.

لم يطلب كاي أوفة سوى «سلاطة الفلاحين»، الفكرة الأولى التي خطرت على بال فينيا أن تقول: أنا أيضاً. غير أنها سمعت نفسها تطلب

«جوفستي»! جاءها الطعام شبه بارد، ويقطر دسمًا. لماذا فقدت السيطرة على نفسها؟ لقد بدأ جسدها يترهل. عليها أن تحترس. صبّ النادل المزيد من النبيذ. ألقت نظرة على كأس النبيذ وقالت لنفسها: ٨٠ سعرًا حراريًا إضافيًا. راحت ترتشف الماء، ثم استجمعت قواها، ونظرت إلى كاي أوفة، وحاولت وهي تضغط بشفتيها على كأس الماء التي أمسكتها بكلتا يديها، أن تسدد له نظرة متواطئة ومغوية في آن واحد. في سرها راحت تسب وتلعن. ماذا حدث لها؟

قال كاي أوفة:

- مظلة إنقاذ! بالألمانية يُمكن نحت كلمات جديدة مثل هذه، ويكفي أن تطبعها «فرانكفورتر ألجمانية تسایتونج» ثلاث مرات حتى تصبح عادية تمامًا في نظر المثقفين. عندئذٍ لا يمكن التخلص من مثل تلك الكلمة. الرئيسة تُكرر الكلمة أمام أي كاميرا، فيتصبب المترجمون عرقًا. لا تعرف الإنجليزية والفرنسية سوى طوق الإنقاذ، أو المظلة الواقية من المطر. ولكن ما هي -هكذا سألنا- «مظلة الإنقاذ»؟ ترجم الفرنسيون الكلمة في البداية بـ«باراشوت». ولكن قصر الإليزيه اعترض: مظلة الهبوط من الطائرة لا تمنع السقوط، وإنما تبطئه فحسب، وهذه إشارة خاطئة، على الألمان أن...

عندما أكل زيتونة، ووضع النواة على الطبق، قالت فانيا لنفسها: وكأنه يمتص مذاق الزيتون فحسب، أما السعرات الحرارية فيعيدها إلى المطبخ.

عندئذ بدأ عويل صفارات الإنذار، ثم الضوء الأزرق، أزرق أزرق
أزرق أزرق...

- فريزر؟

- نعم؟

«عليك»، كادت أن تقول له: أن تنقذني. ولكن هذا مستحيل.
صححت نفسها قائلة: «أن تساعدني! لا، عليها أن تظهر بمظهر القادر،
وليس الضعيف المحتاج إلى مساعدة».

- نعم؟

عبر النافذة، نظر إلى فندق أطلس الواقع في الجانب الآخر من
المطعم. رأى الرجال يُخرجون محفة من سيارة الإسعاف، ويركضون
بها الفندق. رغم قرب مطعم «مينيلاس» من الفندق، فقد كانت المسافة
الفاصلة كبيرة إلى درجة أنه لم يفكر في الموت. لم يتعد الأمر بالنسبة له
عرضاً راقصاً، أشخاصاً يتحركون ناحية الضوء والصوت.

«عليك»، لقد نطقت بهذه الكلمة، والآن تود لو أنها لم تكن فعلت،
ولكن هذا لم يعد ممكناً، «أن تفهم... ولكنك بالفعل متفهم! أعرف
أنك تفهم أنني...».

«نعم؟»، نظر إليها.

نفير سيارات الشرطة.

عملت فينيا كسينوبولو في البداية في الإدارة العامة للمنافسة
داخل الاتحاد الأوروبي. لم يكن المفوض، رجل إسباني، يدري شيئاً

عن مجال عمله. ولكن كفاءة كل مفوض يحددها مكتبه، وهي لفتت الأنظار كعنصر متميز في المكتب الذي يعمل بكفاءة تامة. انفصلت عن زوجها. لم يكن لديها الوقت أو الرغبة في أن يجلس رجل في شقتها في بروكسل في نهاية كل أسبوعين، أو على أقصى تقدير كل ثلاثة أو أربعة أسابيع، أو أن تزوره هي في أثينا، في حين يأخذ هو في الثروة عن الحياة الخاصة بالطبقة الراقية في المجتمع الأثيني، وهو ينفخ دخان سيجاره، وكأنه كاريكاتور لثري حديث الثراء. كانت قد تزوجت وكيل نيابة، أما الذي طرده من شقتها فكان محامياً ريفياً تافهاً! صعدت درجة على السلم الوظيفي، وعملت في مفوضية التجارة. تعلق أسهم المرء في التجارة عندما يحطم العوائق التجارية. لم تعد لها حياة خاصة، لا قيود، لم تعد تعرف سوى التجارة العالمية الحرة. كانت تظن حقاً أن مستقبلها المهني سيكون مكافأة لها على جهودها لجعل هذا العالم أفضل. كانت تنظر إلى التجارة الحرة باعتبارها من الحقائق في الحياة. فالتجارة شرط من شروط العدل العالمي. المفوض الهولندي الجنسية كان من ذوي الضمائر الحية. كان مستقيماً على نحو لا يُصدّق. عملت فينيا بمشقة كي تحسب له كم «جيلدر» يكلفهم ضميره! الرجل كان لا يزال يحسب بالعملة الهولندية «جيلدر»! ما يحصل عليه من أكاليل الغار عندما تقنعه فينيا بشيء، كان يساوي قيمته ذهباً! والآن يجب أن تأتي الطفرة التالية. كانت تنتظر أن تصعد درجة أخرى في السلم المهني بعد تشكيل المفوضيات عقب الانتخابات الأوروبية. وبالفعل: لقد رُقيت، وحصلت على إدارة. ما المشكلة؟ لقد شعرت بالترقية كأنها هبوط في

السلم الوظيفي، كأنها استبعاد وإزاحة: أصبحت رئيسة للإدارة C (إدارة التواصل والإعلام) في الإدارة العامة للثقافة!
الثقافة!

درست «فينيا» الاقتصاد في كلية لندن للاقتصاد، وقامت بدراساتها العليا في جامعة ستانفورد، ونجحت في اختبارات القبول في المفوضية، والآن تجلس في الإدارة العامة للثقافة. اللعب في بنك الحظ «مونوبولي» أكثر جدية من ذلك! الإدارة العامة للثقافة إدارة هامشية، دون ميزانية، دون وزن داخل المفوضية، ودون تأثير أو سلطة. الزملاء يشبهونها بشاهد نفي وقوع الجريمة. ويا ليتها كانت كذلك! شاهد النفي مهم، كل جريمة بحاجة إلى شاهد نفي! لكن الثقافة لم تكن حتى ذرًا للرماد في الأعين؛ لأنه ليس هناك أعين تبصر ما تفعله الثقافة. إذا حدث وذهب مفوض التجارة أو الطاقة، أو حتى مفوضة صيد الأسماك، إلى دورة المياه خلال إحدى الجلسات، فإن النقاش يُقطع ولا يستأنف إلا بعد عودته أو عودتها. ولكن إذا تحتم على مفوضة الثقافة أن تنصرف، فإنهم يواصلون التفاوض دون اهتمام، لم يكن وجودها على مائدة التفاوض أو في دورة المياه يلفت انتباه أحد.

صحيح أن فينيا كسينوبولو استقلت مصعدًا ارتقى بها إلى أعلى، إلا أنه ظل متوقفًا بين طابقين.

قالت لنفسها: لا بد أن أخرج! عندما عادت من دورة المياه، وجدته يتحدث في التليفون. لم ينتظرها.

مد «فريزر» وفيينا أنظارهما عبر الواجهة الزجاجية الكبيرة إلى الفندق، صامتتين كأنهما زوجان متقدمان في العمر يشعران بالسعادة لحدوث شيء يستطيعان تبادل عدة جمل حوله.

- ماذا حدث؟

رد «فريزر»:

- لا أعرف! ربما فاجأت أحد نزلاء الفندق نوبة قلبية؟

- ولكن الشرطة لا تأتي بسبب نوبة قلبية!

- صحيح!

قال ذلك، ثم توقف برهة، وكاد يقول: بمناسبة القلب. ما أحوال حياتك العاطفية؟ لكنه تجاوز السؤال. واصل قائلاً:

- أنت تريد أن تقول لي شيئاً!

- نعم.

- بإمكانك أن تحكي لي كل شيء!

أصغى إليها، وأوماً برأسه مرة بعد أخرى، ومن حين إلى آخر كان يقول «أوكي» وهو يمطها مطاً، حتى يظهر لها أنه يتابع ما تقول، وفي الختام سألها:

- وماذا يمكنني أن أفعل لك؟

- عليك أن تعيدني. هل تستطيع أن.. نعم: تنقلني؟ أريد العودة إلى التجارة. هل تستطيع أن تتحدث مع «كينو»؟ أنت على تفاهم

جيد معه، وهو يسمع كلامك. ربما يستطيع هو أن يفعل شيئاً.
لا بد أن أخرج من الثقافة. إنني أختنق هناك!

«نعم»، قال لها. وفجأة شعر بالخوف. ربما هذه كلمة مبالغ فيها.
شعر بانقباض لم يستطع تفسير سببه. لم يتأمل أبداً حياته. في الماضي
كان يتأمل حياته... في الماضي البعيد، آنذاك لم يكن قد جمع خبرة
حياتية. كانت تلك الأفكار خيالات، أحلاماً، لقد خلط بين الأحلام
والتأمل. لا يستطيع المرء أن يقول إنه سار وراء أحلامه. لقد ذهب
إلى هناك، مثلما يذهب الإنسان إلى رصيف قطار معين، حيث تبدأ
الرحلة إلى هدف معين. منذ تلك اللحظة وجد نفسه على قضبان السكة
الحديد. كان يعلم في باطنه أن سيره على القضبان وعدم خروجه عنها
كان في كثير من الأحيان مجرد حظ، وليس شأناً لا بد من التفكير فيه.
الحياة. إما أنها تسير، أو لا تسير. إذا سارت، فإننا نقول: الإنسان يسير
ويعمل. لم يفكر في كل ذلك. كان ذلك واضحاً له ببساطة. كان يخلط
ذلك الوضوح بالأرضية الصلبة التي يمشي فوقها دون أن يضطر في كل
خطوة في التفكير بشأنها. ولكن هذه الأرضية تهتز اهتزازاً خفيفاً الآن.
لماذا؟ لم يسأل نفسه هذا السؤال. لم يشعر إلا بهذا الانقباض الخفيف.
والآن، لا بد أن أذهب إلى دورة المياه!

غسل يديه وتطلع إلى وجهه في المرأة. ليس غريباً عن نفسه. ولكن،
«ليس غريباً» لا يعني «مألوفاً». أخرج من محفظته قرص «فياجرا».
يحمل معه دائماً قرصاً. وضعه تحت أسنانه، وتناول جرعة ماء، ثم غسل
يديه مرة ثانية.

كان يعلم أن فينيا، مثله تمامًا، لا بد أن تخرج من منزلها في الصباح الباكر. أي أنها لا بد أن تذهب بعد فترة قصيرة إلى الفراش. عليهما أن يكونا جاهزين للعمل.

استقلا سيارة أجرة إلى حي «إكسيل»، إلى شقته. تظاهر بأنه يشتهيها، وتظاهرت بأنها وصلت إلى ذروة النشوة. الكيمياء بين الاثنين متوافقة. عبر النافذة لمع الضوء الأزرق الصادر عن الإعلان الضوئي لبار «الوعل الأزرق» على الجانب الآخر من الشارع. نهض كاي أوفة فريجة مرة أخرى، وشد الستارة.

هل ثمة رجل يقف عند النافذة؟ المنتقم الأسود. الشيخ. الرجل الظل. بدا وكأنه شخصية من المجلات المصورة، مرسومة على جدار المنزل المهجور: كل نوافذ هذا البيت الواقع بشكل مائل أمام فندق أطلس، على ناصية شارع «دو لا بري»، كانت مظلمة، ألواح الخشب غطت واجهة عرض المحل التجاري، وعلى الألواح المُسمَّرة تطايرت بقايا ملصقات نُزعت نصفها. وبجوارها على جدار المنزل جرافيتي، وكلمات مرشوشة بالبخاخة لا يمكن قراءتها.. أسماء أماكن، خط سري، رموز؟ وأمام المنزل سور معدني مؤقت يحيط بورشة بناء عليه لافتة باسم شركة «دي مويتز» التي تقوم بنقل مخلفات البناء. بالطبع يعرف مفتش الشرطة برَنفو أن هذا الشكل الأسود المؤطر بمربع النافذة في الطابق الأول من المنزل الميت ليس «جرافيتي». لكن الشكل بدا كذلك. في كل ركن من هذه المدينة هناك جدران لمنازل عليها

«كوميكس» تصل حتى سقف المنزل، ومنها نسخ أو تنوعات لرسومات «هيرجه» أو «موريس»، أو حيوانات «بونوم»، أو أعمال الشباب الذين يعتقدون أنهم خلفاء أولئك الفنانين. إذا كانت بروكسل كتابًا مفتوحًا، فهي مجلد «كوميكس».

خرج المفتش برنفو من فندق أطلس حتى يعطي تعليماته للزملاء في سيارة الشرطة، للمرور على المنازل المجاورة والسؤال عمّ إذا كان أحد كان ينظر ربما بالصدفة من النافذة وقت وقوع الجريمة، ولاحظ شيئًا.

- العام يبدأ بداية جيدة، يا حضرة المفتش!

رد برنفو:

- كل يوم يبدأ بداية جيدة.

خفّ المطر. وقف المفتش فاتحًا قدميه، وشد سرواله لأعلى، وخلال حديثه مع الرجال ترك بصره يتجول على واجهات المنازل المقابلة. وهناك كان يقف.. ذلك الخيال المؤطر بالنافذة.

هناك وقف حقًا رجلٌ عند الشباك. شباك منزل آيل للسقوط. ألقى المفتش نظرة إلى أعلى، وثبت نظره على الخيال. لم يتحرك الرجل. هل كان إنسانًا، أم دمية؟ ولماذا تنتصب دمية خلف ذلك الشباك؟ أم أنه خيال خادع للبصر؟ أم رسم جرافيتي؟ ابتسم المفتش. لم يبتسم ابتسامة طبيعية، بل داخلية. كلا، هناك يقف رجل! هل ينظر إلى أسفل؟ ماذا رأى؟

قال المفتش برنفو:

- هيا، إلى العمل! أنت تتولى هذا المنزل، وأنت المنزل هناك!
وأنت...

- البيت الآيل للسقوط أيضًا؟ إنه خال!

- نعم، هذا البيت أيضًا.. ألقِ نظرة إلى أعلى!
في هذه اللحظة كان الرجل الظل قد اختفى.

سار مبتعدًا عن النافذة. أين سجائره؟ ربما في المعطف. كان المعطف ملقى على كرسي المطبخ، قطعة الأثاث الوحيدة التي ما زالت في الشقة. مشى دافيد دو فريند إلى المطبخ وأخذ المعطف. ماذا كان يريد؟ المعطف. لماذا؟ وقف حائرًا مسددًا النظر إلى المعطف. لقد حان وقت الانصراف. نعم. لم يعد هنا شيء. لم يعد هنا شيء يمكن فعله. الشقة خالية تمامًا. نظر إلى البقعة المربعة على الجدار. هناك كانت صورة معلقة، «غابة عند بورتيميريك»، صورة لمنظر طبيعي ساحر. لا يزال يتذكر أن الصورة كانت معلقة هنا. كانت معلقة أمام عينيه طوال حياته، حتى سئم النظر إليها. والآن: بقعة فارغة. لا يرى المرء سوى أن شيئًا كان معلقًا هناك. حكاية حياة: إطار فارغ على ورق حائط لُصق هو أيضًا على حكاية سابقة. خلفه كان بالإمكان رؤية الحدود الخارجية للخزانة. أي الأشياء كان يحتفظ بها داخلها؟ ماذا يتجمع خلال حياة إنسان؟ القذارة خلفها! إنها تظهر عندئذ. غبار متراكم في شكل كريات، طبقة من الوساخة الرمادية الدهنية اللامعة. يمكنك أن

تنظف طوال حياتك، نعم نظف حياتك كما شئت، وفي النهاية، عندما تخلي الشقة، تخلف وراءك الوسخ! خلف كل مكان تنظفه، وخلف كل واجهة تلمّعها. إذا كنت صغير السن، فلا تحسب أنه -عندما تُخلي حياتك فجأة- ليس هناك ما هو متعفن أو يعلوه الفطر. هل أنت صغير السن وتظن أنك لم تنل شيئاً من الحياة، أو أن ما نلته كان قليلاً؟ لكن الوسخ في الخلف هو دائماً وسخ حياة بأكملها. لا تبقى سوى القذارة؛ لأنك قذارة، وتقع في القذارة. لكن عندما تتقدم في العمر، فأنت محظوظ. غير أنك خدعت نفسك، حتى وإن ظلت طوال حياتك الضائعة تنظف... في النهاية سيخلون المكان، وماذا يرى المرء؟ قذارة. خلف كل شيء، تحت كل شيء. إنه أساس كل شيء قمت بتنظيفه. حياة نظيفة. هكذا كانت حياتك. إلى أن يظهر الوسخ. هناك كان حوض المطبخ. كان يغسل بلا انقطاع. لم يملك أبداً غسالة صحون كهربائية. كان يغسل كل طبق وكل فيجان فور استخدامه. عندما كان يشرب قهوة بمفرده -وهو كان يعيش بمفرده، على الدوام تقريباً كان يعيش بمفرده- كان يحسبها واقفاً، بجانب الحوض، حتى يستطيع غسل الفجان على الفور، يحسب آخر رشفة ويفتح الحنفية، كان ذلك دائماً فعلاً واحداً: الغسيل، التحفيف، والتلميع، ثم إعادة الفجان إلى مكانه حتى يكون كل شيء نظيفاً، كان ذلك دائماً شيئاً مهماً بالنسبة له، حياة نظيفة، وفي النهاية: ماذا يرى المرء الآن، هناك، حيث كان الحوض: عفن، كريات من الغبار، وسخ. حتى في الظلام أو في العتمة، كان المرء يرى القذارة. لم يعد هناك أثاث، لقد نُقل كل شيء، لكنه لا يزال هناك، لا يزال من

الممكن رؤية الوسخ المتجمع تحت حياة مُنظّفة.

ألقي المعطف فوق الكرسي. يريد... ماذا؟ تلّقت حوله. لماذا لا ينصرف؟ عليه أن ينصرف. يولي الفرار. لم تعد هذه هي الشقة التي عاش فيها. لم تكن هذه سوى الغرف التي شهدت فترة ما قبل الحياة. أيقوم مرة أخرى بجولة؟ ولم؟ أعليه أن يحملق في غرف خاوية؟ سار إلى غرفة النوم. في مكان السرير كانت الأرضية الخشبية أفتح لونًا، المستطيل الذي ظهرت أبعاده بدا في العتمة مثل باب مسحور كبير يؤدي إلى غرفة سفلية. سار إلى النافذة متلافياً السير فوق الباب الوهمي. لماذا لم يسر فوقه، لماذا ابتعد بمسافة كبيرة في هذه الحجرة الخالية حتى لا يمر به، وكأنه يخاف من أن يفتح هذا المستطيل فعلاً ويبتلعه؟ لم يشعر بالخوف. مكان السرير كان دائماً هنا، وهو سار من الباب إلى النافذة مثلما اعتاد طوال حياته أن يصنع نصف دائرة ويلتف حول السرير لكي يصل إلى النافذة. ألقي نظرة إلى الخارج: تقريباً على مبعدة ذراع رأى سلم الإطفاء الخاص بالمبنى المجاور، وهو مدرسة. يطلقون جرس الإنذار مرة في العام على سبيل التحريب، يعوي النفير، ويتدرب التلاميذ على النزول على الدرج بسرعة ونظام. ما أكثر المرات التي وقف فيها دافيد دو فريند عند هذه النافذة ليشاهد ذلك. الهروب. تمرين عليه. في تناول يده مثلما يقولون. كان السلم في تناول يده عندما انتقل للعيش في هذه الشقة. رجح ذلك كفة الشقة بالنسبة إليه. قالت البائعة إن موقع الشقة ممتاز، فوقف دو فريند عند النافذة ونظر إلى سلم الإطفاء ووافق قائلاً: نعم، الموقع جيد! فكر أنه -إذا اقتضى

الأمر - بقفزة واحدة سيكون على الدرجة العلوية من السلم، ومن ثم يستطيع الهروب، في حين أنهم يظلون يترقون باب الشقة. كان واثقاً من قدرته على فعل ذلك، لم يراوده شك، كان سينجح. أما اليوم؛ فلا يمكن التفكير في ذلك. أصبح السلم بعيداً عن يده، لا يمكن الوصول إليه. منذ نصف قرن والأطفال الذين تدرّبوا هنا على الهرب دائماً في العمر نفسه، دائماً أطفال، هو وحده الذي تقدم في العمر، وفي الختام شاخ، أصبح ضعيفاً واهناً، فقد لياقته. نظر من الشباك ولاحظ: لم يعد في متناول اليد. تذكر أنه كان يريد أن يدخل. عليه أن ينصرف أخيراً، أن يختفي.. سار عبر الممر، لكنه لم يذهب إلى المطبخ حيث كان معطفه وبه السجائر، بل مشى إلى غرفة المعيشة. حائراً ظل واقفاً، يتلفت حوله باحثاً. غرفة خالية. كان يريد.. ماذا كان يريد؟ مشى إلى النافذة، نعم: أن يرى هذا المنظر مرة أخرى، أن يلقي نظرة على المكان الذي قضى فيه حياة مهكرة بكاملها، محاولاً أن يعثر على «مكانه في الحياة».

ألقي نظرة إلى أسفل على الضوء الأزرق. لم يفكر في شيء. شعر بالبرد. كان يعرف لماذا. لم يفكر حتى في أنه يعرف، وأن الأمر لا يستحق عناء التفكير فيه. العلم القديم يكمن داخله. هذا شيء لم يكن يحتاج إلى أن يُصاغ في رأسه. دون أن يتحرك أرسل النظر إلى عربات الشرطة في الشارع، انقبض قلبه، ثم انبسط ثانية. الروح تهز كتفها.

أثناء عمله معلماً كان دائماً يريد أن يقلع تلاميذه عن استخدام الجمل الفارغة من المعنى المليئة بـ«قال لنفسه».

ولكنهم لم يقلعوا عن ذلك. يظن الأطفال فعلاً أن الناس عندما

يكونون بمفردهم لا يفكرون إلا في عبارات تبدأ بـ «قال لنفسه» أو «قالت لنفسها». ثم يحدث تصادم بين «قال لنفسه» و «قالت لنفسها» لتنتج عبارات على شاكلة «قال» أو «قالت». أما الحقيقة فهي أن السكون النام يتمدد حتى داخل الرؤوس تحت قبة السماء الكافرة بالرب. إن ثرثرتنا ما هي إلا صدى لذلك السكون. انقبض قلبه شاعراً بالبرودة، ثم انبسط. انقبض، وانبسط. أخذ شهيقاً، ثم أطلق زفيراً. كم هو قوي نبض الضوء الأزرق! يا لنبض الضوء الأزرق!

في تلك اللحظة سمع جرس الباب. ثم خبطات قبضة على باب الشقة. سار إلى المطبخ، وارتدى المعطف. ثم مشى إلى غرفة النوم. تتالت الخبطات من الخارج على الباب. صنع دافيد دو فريند مرة أخرى نصف دائرة حول السرير عندما سار إلى النافذة. ألقى نظرة إلى الخارج. ليس في متناول اليد. جلس على الأرض، وأشعل سيجارة. الخبطات. الدق.



الفصل الثاني

الأفكار تزعج

ما لن يكون له وجود من غيرها

الاكتئاب مرض يتطلب أن يتسم المصاب به بالقدرة المالية. استطاع مارتين سوسمان أن ينجو: فهو يعمل في «فلك نوح». كان موظفًا في المفوضية الأوروبية، الإدارة العامة للثقافة والتعليم، إدارة C «التواصل»، رئيسًا لقسم EAC-C-2، أي «برنامج وإجراءات الثقافة».

العاملون في القسم كانوا يطلقون عليه «فلك نوح» فحسب، أو باختصار «الفلك». لماذا؟ ليس للفلك هدف. إنه يطفو فوق التيار، يتأرجح مع الموج، يعاند العواصف، وهدفه الوحيد هو: أن ينقذ ذاته وحمولته.

لم يمر وقت طويل حتى فهم مارتين سوسمان ذلك. في البداية شعر بالسعادة والفخر لأنه استطاع اقتناص هذه الوظيفة، وخصوصًا لأنه لم يُرسل إلى بروكسل باعتباره خبيرًا وطنيًا موفدًا من أحد الأحزاب النمساوية أو إحدى الهيئات الحكومية، بل تقدم مباشرة بطلب وظيفي إلى المفوضية، ونجح في اختبارات القبول، كان إذن موظفًا أوروبيًا بحق، دون تكليف وطني! لكنه اكتشف أن الإدارة العامة «للثقافة والتعليم» ليس لها سمعة طيبة داخل المفوضية الأوروبية،

وأن الموظفين الآخرين يقابلون العاملين فيها بابتسامة ساخرة. داخل الجهاز الإداري كانوا يتحدثون باختصار عن «الثقافة» عندما يقصدون هذه الإدارة العامة، «التعليم» كان يُحذف رغم النجاحات المهمة التي تم الوصول إليها في مجال التعليم، كتطوير وتنفيذ برنامج إيرازموس على سبيل المثال. وعندما يقولون «الثقافة» فقد كان للكلمة وقع مستخف، يشبه أن يتحدث العاملون في بورصة «وول ستريت» عن «العملات المعدنية» كهواية غريبة يمارسها أحد أقاربهم. كذلك كان صيت «الثقافة الأوروبية» سيئاً في الرأي العام، هذا إذا اهتم أحد بالثقافة أصلاً. عندما كان مارتن سوسمان لا يزال حديث العهد بالوظيفة، كان يطالع الصحف الوطنية -وهو خطأ شائع يركبه المبتدئون- آنذاك تفجر الاستياء في النمسا؛ لأنهم «هددوا» النمساويين، هكذا كتبت الصحف، بالثقافة: كل دولة من الدول الأعضاء في الاتحاد الأوروبي لديها الحق في شغل وظيفة مفوض؛ تقوم الحكومات بترشيح شخص، ثم يعهد إليه رئيس المفوضية بأحد الإدارات العامة. بعد الانتخابات الأوروبية آنذاك كانت المفوضية بصدد تعيين رؤساء جدد للإدارات، فانتشرت شائعة تقول إن المفوض المرشح من النمسا سيحصل على «الثقافة». نشب الجدل بين طرفي الائتلاف النمساوي الحاكم؛ لأن حزب المفوض المرشح ظن أن الأمر مؤامرة من جانب شريكه في الائتلاف، فاعتزوا، وبدأت الصحف النمساوية تشن حملة استهجان معتمدة على أن القراء سيقفون في صفها: «نحن مهددون بالثقافة!» أو: «يريدون إلهاء النمسا بالثقافة!».

رد الفعل هذا يبدو مثيّرًا للدهشة إذا فكرنا في أن هذا البلد... ربما لن نقول «يعتبر» ذاته «أمة ثقافية»، ولكنه على الأقل يحب أن يصف نفسه بذلك. لكن رد الفعل هذا يتطابق فعلاً مع السمعة والأهمية اللتين تتمتع بهما «الثقافة» في مؤسسات السلطة الأوروبية. تتوقف السمعة والأهمية على قدر الموازنة الممنوحة لكل إدارة، وكذلك على النفوذ المُمارس على النخبة السياسية والاقتصادية. وكلا الأمرين لم يكونا في صالح «الثقافة». في نهاية الأمر لم يحصل المفوض النمساوي على «الثقافة»، بل على «سياسة المحليات»، وهو ما أدى إلى تهليل الأمة الثقافية. وهكذا كتبت الصحف النمساوية: «لدينا موازنة قدرها ٣٣٧ مليار يورو!».

أُعطيت «الثقافة» إلى اليونان، وهو ما يبدو صحيحًا إذا فكرنا في الحضارة الإغريقية كأساس للثقافة الأوروبية، أو يبدو متهمًا على نحو يشير التأمل إذا رأينا العلاقة بين انحسار الديمقراطية في أوروبا ومجتمع العبيد في بلاد الإغريق القديمة، غير أن التفسير كان بسيطًا للغاية: لقد حلّت اليونان في المرتبة الأخيرة بسبب أزماتها التي لا تعرف نهاية، سواء الأزمة المالية أو أزمة الميزانية، وكانت بالتالي عزلاء، وعليها أن تقبل ما تحصل عليه، أي الإدارة التي لا تلقى تقديرًا كبيرًا. لم تكن «الثقافة» مهمةً وتكليفًا، بل عقابًا: مَنْ لا يستطيع أن يحسن التصرف في المال، فمن الأفضل ألا يحصل على مال في يده، إذن سينال إدارة بلا موازنة. المفوضة اليونانية، وهي امرأة نشيطة مجتهدة، ناضلت لتكوين فريق عمل قوي تثق به، وتستطيع من خلاله أن تحصل على

بعض الوزن السياسي داخل الجهاز الإداري للمفوضية. نجحت بالفعل في اجتذاب بعض مواطنيها الذين يتمتعون بسمعة ممتازة وبالخبرة في المفوضية وبشبكة علاقات جيدة مع الإدارات العامة الأخرى حتى يشغلوا الوظائف المهمة في إدارتها. وهكذا نُقلت فينيا كسينوبولو من «التجارة»، ورُقيت لتصبح مديراً لتلك الإدارة في «الفُلك» حيث يعمل مارتين سوسمان.

لم يكن بمقدور فينيا رفض الترقية. من يريد تحقيق النجاح المهني داخل الجهاز الإداري للمفوضية الأوروبية، عليه أن يبرهن على مرونته وقدرته على العمل في وظائف مختلفة. مَنْ لا يستعرض هذا الاستعداد ويرفض عرضاً بتغيير مجال العمل، يكون أمره قد انتهى. إذن، انتقلت للعمل في «الفُلك» وفي رأسها خطة أن تبرهن، هناك تحديداً، على مرونتها وقدرتها على العمل في وظائف مختلفة. بدأت على الفور في السعي إلى الانتقال الوظيفي التالي، مع مراعاة أن تكون مرئية؛ إذ إن ذلك أمر حاسم كذلك بالنسبة للترقي في الجهاز الإداري: أن تكون مرئياً، وأن تعمل بشكل يلفت دائماً أنظار الآخرين.

تعرف فينيا جيداً ما هو البؤس. لقد خبرته. كانت لديها تلك الطاقة المتوهجة التي يمتلكها في كثير من الأحيان أولئك الذين يظل يلاحقهم إلى الأبد بؤس أصلهم، فيؤلمهم في أعماق الروح، ولا يستطيعون أبداً أن يتجاوزوه، مهما ارتقوا وتقدموا؛ لأن الروح ترافقهم دائماً أينما ذهبوا. من الفرصة الأولى التي حصلت عليها في الحياة برهنت فينيا، مرة بعد أخرى، أنها مستعدة لاقتناص الفرص. إذا أشار المرء لها ناحية

باب قائلاً: إذا وجدت المفتاح، تستطيعين الخروج عبر هذا الباب إلى الهواء الطلق، عندئذٍ تبدأ في البحث الدقيق عن المفتاح، وهي على استعداد لأن تجرب طويلاً وبصبر كل المفاتيح الأخرى حتى تجد في النهاية مفتاحاً مناسباً، ولكن في وقت ما تأتي اللحظة التي تأخذ فيها فأساً وتُحطّم الباب. أمسى الفأس في النهاية هو مفتاحها الذي يفتح كل الأبواب.

لم يكن مارتين سوسمان يطيق فينيا. مناخ العمل ساء منذ دخولها إلى «الفلّك». كان واضحاً أنها تحتقر العمل الذي يُنجز هنا، وفي الوقت نفسه وضعتهم تحت ضغط هائل حتى تستعرض هذا العمل بشكل أوضح.

نامت فينيا كسينوبولو بعمقٍ. كان النوم بالنسبة لها جزءاً من تحكمها في جسدها، من الانضباط الذاتي. إنها تصل نفسها بالنوم مثل جهاز شحن. تقرب ذراعيها وساقها من جذعها، وتكور ظهرها، ضاغطة على صدرها بذقنها. وعلى الفور تبدأ في شحن طاقة لمواصلة النضال في اليوم التالي. خلال النوم وحده كانت تتوقف عن الحلم.

سألها فريزر في الصباح الباكر:

- هل صدر عني شخير؟

- لا. لقد نمت جيداً!

- مثل طفلٍ؟

- نعم.

- لا، في الحقيقة مثل جنين.
- جنين؟
- نعم. الوضع الذي رقدت فيه ذكرني بصور الأجنة! قهوة؟
- لا، شكرًا! لا بد أن أنصرف فورًا!
- أرادت أن تقبله قبلة وداع وتقول له: «لا تنسني!»، ولكنها لم تفعل، بل هزت رأسها فحسب قائلة: «لا بد...».

حصل مارتين سوسمان على أحدث المعلومات في طريقه إلى العمل. طالما كان الجو يسمح -أي إذا لم تكن تمطر- كان يستقل دراجته إلى العمل. بذلك كان يُحرك جسده قليلًا. لكن ذلك لم يكن الدافع الأساسي. كان مترو الأنفاق يصيبه بالحزن. الوجوه المتعبة الرمادية حتى في الصباح الباكر. الاستعداد المصطنع للأشخاص ذي الحقائق بالعجلات وشنط الملفات، الذين يريدون أن يظهرُوا على الدوام بمظهر الشخص الديناميكي الكفاء المستعد للمنافسة، أفتنة سيئة، وتحتها تتعفن الوجوه الحقيقية. النظرة إلى اللاشيء عندما يركب المتسولون ومعهم الأكورديون، ثم يعزفون ما يعزفونه ويمرون بكوب بلاستيكي طالبين بعض العملات. أي الأغاني عزفوها؟ لم يكن مارتين يستطيع أن يجيب عن هذا السؤال، ربما أغاني مشهورة من عشرينيات القرن الماضي وثلاثينياته، زمن ما قبل الحرب. النزول من المترو. موجات البشر المتحركة في آلية، مخترقة طريقها عبر السلاالم المتحركة

التي لا تسير، ثم تواصل التدافع في الممرات القذرة المكسوة جوانبها بألواح من الخشب الرخيص المتصل بعضه بعضًا، ممرات ورشة البناء الأبدية تحت الأرض، مرورًا بأكشاك البيتزا والشاورمة، رائحة إفرازات الأبدان والعفونة، وختامًا تيار الريح في المخرج المؤدي إلى الشارع، والصعود إلى نور النهار الذي لا يعود قادرًا على التغلغل إلى الروح المعتمدة.

كان مارتن يفضل الدراجة. أصبح بسرعة فائقة عضوًا في المجموعة الأوروبية للدراجات. أي موظف في الاتحاد الأوروبي ينضم إلى هذه المجموعة، يحصل على مدرب شخصي يعلمه الأساسيات، على سبيل المثال قيادة الدراجة عبر ميدان «مونتيجومري» واجتيازه حيًا، كما يستكشف المدرب أكثر الطرق أمانًا من الشقة إلى مكان العمل، ويتم التدريب على السير فيه معًا عدة أيام، كما يتعلم المرء كيف يلصق أثناء المرور بالدراجة الملصق المكتوب عليه «أنت تقف في الطريق!» على السيارات الواقفة على الطريق المخصص للدراجات. لا تتلف هذه الملصقات السيارات، إذ يمكن نزعها بسهولة. حققت مجموعة الدراجات الأوروبية نجاحًا كبيرًا، وخلال سنوات قليلة تضاعف عدد سائقي الدراجات في بروكسل بفضل موظفي الاتحاد الأوروبي.

أكثر ما أعجب مارتن هو المجموعات التي تتكون بشكل تلقائي خلال الطريق من الشقة إلى المكتب. عندما ينطلق من منزله صباحًا، كان يقابل الزميل الأول في «بوليفار أنسباك»، إن لم يكن قبل ذلك، ثم الثاني، إلى أن ينمو عدد سائقي الدراجات ليصبح سرّياً صغيراً، يتكون

في الغالب من ثمانية أو عشرة أشخاص.

في طريقهم إلى العمل يمرق الموظفون الألمان ويتجاوزون السرب بدراجات السباق التي يركبونها، مرتدين أزياء مناسبة للدراجة وكأن عليهم أن يكسبوا سباقًا، ولذلك كان الألمان هم الوحيدون تقريبًا الذين يستخدمون قبل بدء العمل الأدشاش الموجودة في قبو المبنى الإداري. باسترخاء يقود الهولنديون دراجاتهم من طراز «أومافيتس»، وكذلك الزملاء من الدول التي يتحدث أهلها اللغات الرومانسية. كان هؤلاء يسيرون الهوينى مرتدين زي العمل الرسمي، دون أن يتصبب العرق منهم.

يسير سائقو الدراجات بجانب بعضهم البعض، ويتبادلون الحديث، فيعرفون معلومات أكثر من التي يحصل عليها المرء في مطعم الموظفين: كل الشائعات الجديدة، والمؤمرات، والطفرات المهنية. كانت الأحاديث المتبادلة على طريق الدراجات مهمة لمتابعة آخر التطورات، بل أهم من قراءة صحيفة «يوروبين فويس»، وعلى الأقل على نفس الدرجة من أهمية دراسة «الفاينانشال تايمز».

في شارع «دوليكيويه» انضم إلى السرب بوهوميل شميكال، صديق وزميل من إدارة «سي ١» (السياسة الثقافية والحوار بين الثقافات)، ثم بعد نحو مائتي متر في شارع «أرنبرج» سمعوا صيحات كاسندرا مركوري، مديرة مكتب فينيا كسينوبولو. فرمّل بوهوميل ومارتن وانتظرا حتى لحقت بهما كاسندرا، تاركين السرب يسبقهم، ثم واصل الثلاثة طريقهم معًا.

سأل بوهوميل:

- هل عندك فكرة؟

ثم صاح مضطرباً «انتبه!»، وأشار إلى سيارة كانت تقف أمامهم على طريق الدراجات. بسرعة البرق انتشل ملصقاً من الشنطة التي علقها على كتفه، وبكلتا يديه -مواصلاً الضغط على البدال- نزع الملصق، ثم انعطف ولصقه على الشباك الجانبي للسيارة. تصاعد نفير التنبيه من أكثر من سيارة.

قال منتصراً:

- في الصميم! لقد لصق بشكل جيد!

ردت كاسندرا:

- أنت بملصقاتك تمثل خطراً أكبر من خطر السيارات.

كاسندرا امرأة ممتلئة، دائماً مهمومة، أو تنظر في طيبة، في منتصف الثلاثين، بجانبها ظهر بوهوميل شميكال القصير -رغم أنه يكبرها بعدة سنوات- مثل صبي شرير. نظر مبتسماً ابتسامة صفراء.

- والآن قل لي: هل لديك الفكرة المُنقذة لنا؟ العمل في الإدارة كلها متعطل تماماً؛ لأنه حتى الآن لا أحد...

- أي فكرة؟ لا أعرف ماذا تقصدين!

- مشروع اليوبيل الكبير! أنت لم ترد بعد على «الميل» الجماعي. وأنا أيضاً بالمناسبة.

- مشروع اليوبيل الكبير؟ لقد ظننت أن الأمر لا يحتاج إلى تعليق!

- نعم. الكل يتظاهر بأنه ميت. لا أحد يرد. لا أحد يجد الأمر مهما.
لا عجب، وخاصة إذا فكرتُ في الفشل الذي منينا به قبل خمس
سنوات!

- آنذاك لم أكن هنا.

- لماذا فشل؟ لقد كان الاحتفال في البرلمان مع السفراء الأطفال
مؤثراً للغاية! أطفال من كل أنحاء أوروبا! يعبرون عن أمانهم
عن المستقبل والسلام...

- ساندرا! السفراء الأطفال! كان ذلك استغلالاً للأطفال! لحسن
الحظ لم يلاحظ الرأي العام شيئاً! عموماً، أنا فكرتي هي...
انتباه!

وفجأة غير اتجاهه، دافعاً بمارتن إلى وسط الشارع، وفي يده ملصق
مرة أخرى، غير أنه تركه يسقط عندما أعاده مارتن مرة أخرى إلى طريق
الدراجات صارخاً فيه: «هل جُنت؟».

- نعم. رأيي هو: التعلم من التاريخ معناه، كما هو معروف: ألا
يتكرر ذلك أبداً! لا يوبيل بعد اليوم! إنه مكلف ومحرج! لا
أستطيع أن أفهم لماذا تهتم «كسينو» بالأمر إلى هذا الحد!
قالت كاسندرا:

- كل الإدارات العامة مُشتركة في الأمر. إذا بذلتُ جهداً في الأمر،
فسوف تلمع صورتها.

- إنها تمارس ضغطاً كبيراً. الاجتماع اليوم في الحادية عشرة. تريد

أن تستمع إلى أفكارنا.

فقال مارتن:

- لقد فهمت الأمر بطريقةٍ أخرى تمامًا. اعتقدتُ أن...

- الجلسة ستؤجل ربما! لم يتم التأكيد بعد، ولكن الرئيسة تريد الحصول على موعد قصير لدى الرئيس اليوم. بالمناسبة: هل يعرف أحدكم ماذا تقرأ الآن؟

- هذا أمر لا يهمني بالفعل!

- هل تقصدين: كتابًا؟ «كسينو» تقرأ؟ ساندرا، هل تخرفين؟

- كتاب، نعم. وأنا لا أخرف. لقد كان عليّ طلبه بالبريد السريع.
لن تصدقا!

- تكلمي!

- خذ حذرك!

- انتبه!

- الرئيسة تحضر نفسها منذ أيام بكل دقة للحديث مع الرئيس. تريد أن تعرف كل شيء عنه، بدءًا بعلاقاته السياسية حتى أحب الأطعمة إلى قلبه، كل شيء، حتى الكتاب المفضل لديه. ربما تحتاج إلى ذلك خلال الأحاديث الهامشية. إنها دقيقة بشكل مبالغ فيه.

- الرئيس لديه كتاب مفضل؟

قال مارتن:

- ربما «رجلٌ بلا صفاتٍ»! (٢).

- «رجلٌ بلا صفاتٍ»؟ هذا عنوانٌ جيد لسيرته الذاتية!

- هدوء من فضلكم! لقد توصلت إلى ذلك عبر قنوات خاصة.

الرئيس لديه فعلاً كتاب مفضل! رواية! هذا شيء لا يعرفه الرأي العام! وعلى ما يبدو لديه أكثر من نسخة؛ لأنه يعاود دائماً القراءة فيه. نسخة بجانب سريره. وأخرى على مكتبه في العمل. وعلى الأرجح هناك نسخة في شقة عشيقته!

لمع وجهه كاسندرا. بسبب طبقة العرق، أم ابتهاجاً؟ واصلت قائلةً:

- على أي حال، كان عليّ شراء الكتاب، والآن تقرؤه الرئيسة!

قال مارتن لنفسه: «كسينو» تقرأ أدباً! رواية! إنها مستعدة من أجل

نجاحها المهني حتى لقراءة الروايات!

جلست فينيا كسينوبولو إلى مكتبها، وراحت تقرأ. ما قرأته، أخرجها عن طورها. لديها القدرة على القراءة بسرعة كبيرة، تعلمت أن تقرأ الصفحات وكأنها تصورها، وأن ترتب المعلومات على الفور في أدراج داخل رأسها، ومنها تستطيع أن تستخرجها عند الحاجة وبسرعة البرق. ولكن: هذه رواية. لم يكن لديها نموذج أو معايير تقرأ وفقها.

(٢) رواية «رجل بلا صفات» هي أشهر أعمال الكاتب النمساوي روبرت موزيل (١٨٨٠ - ١٩٤٢)، ومن أشهر روايات الحداثة الألمانية. (المترجم).

ما المعلومات التي يتبين أنها بحاجة إليها، وأي المعلومات عليها أن تحتفظ بها في ذاكرتها؟ حياة رجل تُروى هنا.. هذا جيد وجميل، ولكن: ما علاقتها هي بهذا الرجل الغريب عنها تمامًا؟ كما أنه عاش في عصر آخر تمامًا، لم يعد أحد يفكر ويتصرف اليوم هكذا. وعمومًا: هل عاش فعلاً، أم أن كل هذا من وحي الخيال؟ حسب «جوجل» فقد عاش هذا الرجل فعلاً، وكان له دور مهم في عصره، وكان له تأثير على النظام السياسي للقارة، ومن ثم على النظام السياسي للعالم كله. ولكنه لم يكن مهمًا إلى هذه الدرجة، وإلا لكانت سمعت عنه في المدرسة. كان بالتأكيد حالة للمختصين، وحتى هؤلاء لم يتفوقوا في النهاية على تقييمهم للدور الذي قام به الرجل.

واصلت تقليب الصفحات نافذة الصبر، ثم مرت مرور الكرام على فصل. لم تفهم: الأمر لا يدور مطلقاً -على الأقل حتى الآن- حول قرارات سياسية. بل حول الحب. الرواية كلها مكتوبة من وجهة نظر امرأة تحب هذا الرجل. لكن مقالة ويكيبيديا عن الرجل تخلو من اسم المرأة. كما لم يكن واضحًا ما إذا كانت تحبه حقًا، حتى الآن الأمر غير واضح. التحدي الذي يواجهها هو أن تلفت انتباهه، وأن يكون لها تأثير عليه. ولكن إذا كانت هذه المرأة بنت خيال مؤلفة الرواية، فما هو مغزى قراءة محاولاتها -وهي شخصية مُتَخَيِّلَة- في ممارسة نفوذها على رجل كان يعيش في عصر تاريخي ولديه بالفعل نفوذ؟ إذا كانت المؤلفة تريد أن تظهر كيف تستطيع امرأة أن تمارس نفوذًا على رجال ذي نفوذ، فلماذا لم تكتب دليلًا للقارئ به إرشاداتها ونصائحها؟ بالرواية مكائد

ودسائس، وألعاب عابثة، وصراعات مع المنافسين السياسيين، ولكن في النهاية -راحت فينيا تقلب محموعة، تقرأ وصبرها يوشك على النفاد، تقرأ صفحة وتقلب عشر صفحات- وفي النهاية فإن الأمر سار في اتجاه الحب، أو بالأحرى لتوضيح كيف أن السلطة السياسية لا أهمية لها مقابل سلطة الحب. هل يمكننا فعلاً أن نقول ذلك؟ هذا جنون. الروايات محض جنون!

اتكأت فينيا على مقعدها. أهذا هو الكتاب المفضل للرئيس؟ الرئيس مجنون! هذه الأفكار الكثيرة! ما كانت تفكر فيه، وما كان يفكر فيه.. من أين للكاتبة أن تعرف ذلك؟ إذا كان لهذا الرجل وجود فعلي، فدون شك هناك مصادر محفوظة في الأرشيف، ومستندات وعقود ووثائق.. ولكن: أفكار؟ الوثائق لا تتضمن ولم تتضمن أبداً أفكاراً. إن أي شخص لا يزال يحتفظ بعقله، يتجنب كل ما قد يؤدي إلى أن يقرأ الآخرون أفكاره.

أغلقت عينيها، وفكرت فجأة في أمسية أمس مع «فريزر»، والليلة. هل فكرت فعلاً أنه... وهل اعتقد هو أنها...

جلست متخشية، ومع ذلك ظنت أنها تتأرجح. فتحت عينيها، واستجمعت قواها.. وفي تلك اللحظة نظرت إلى شاشة الكمبيوتر: رسالة جديدة من كاسندرا ميركوري. «الموعد لدى الرئيس اليوم غير ممكن للأسف. مكتب الرئيس سيقدم اقتراحات بمواعيد أخرى خلال الأيام القادمة».

أغلقت الكتاب، وأزاحته جانباً.

إلى ب. شميكال («الحوار بين الثقافات»)، م. سوسمان
(«الإجراءات الثقافية»)، هـ. أثاناسياديس («الدعم»)، س. بينيرو دا
سيلفا («التنوع اللغوي»)، أ. كلاين («الكفاءة الإعلامية»).

- توقفت فينيا هنيهة، ثم حذفت اسم هيلينه أثاناسياديس -

الموضوع: مشروع اليوبيل

تأكيد الموعد: الحادية عشرة في غرفة الاجتماعات. أنتظر
اقتراحات!

رَنّ الهاتف، ألقي مارتن سوسمان نظرة على الشاشة، كان رقمًا
محليًا، من بروكسل، رقمًا لا يعرفه، رفع السماعة وندم على الفور. كان
المتصل أخاه.

- أنا معك.

- نعم، أهلاً يا فلوريان!

- أنت تعرف أنني سأحضر إلى بروكسل.

- نعم.

- منذ أيام وأنا أحاول الاتصال بك. ولكنك لا تستقبل المكالمات.

...

- حاولت بالأمس على الأقل عشر مرات. لماذا لا ترفع السماعة

أبدًا؟ أو لا تتصل أنت؟

- مساء الأمس؟ كانت هناك مشكلة.
- لديك دائماً مشاكل. أنا أيضًا لدي مشاكل، ولهذا...
- كان...
- على كل حال: لقد وصلت. وأنا الآن في الفندق. في الماريوت.
- لدي الآن الموعد الأول. هل نتقابل لتتغشى معاً؟ حتى أي ساعة تعمل؟
- إلى السابعة، أو السابعة والنصف.
- جيد. إذن مر عليّ في الثامنة والنصف.
- في الفندق؟
- طبعاً في الفندق. ثم تأخذني إلى مكان نستطيع التدخين فيه.
- التدخين ممنوع في كل مكان.
- غير معقول. إذن: الثامنة والنصف. ولا تتأخر، يا أخي الصغير!

مشروع اليوبيل الكبير. مسز أتكينسون هي صاحبة فكرة المشروع في الحقيقة. كانت هي المديرية الجديدة لإدارة «خدمات التواصل» في المفوضية الأوروبية والمسؤولة أيضًا عن تلميع صورتها. كانت تلك الصورة، مثلما أظهر آخر استطلاع للرأي في الاتحاد الأوروبي، قد ساءت إلى أبعد حد. كان واضحًا لها آنذاك: عليها أن تقود الإدارة العامة على نحو مختلف عن سابقها. لم يعد يكفي القيام بالعمل الصحفي المعتاد وما يقوم به المتحدث الرسمي بروتينية، والتنسيق

الشكلي بين مكاتب الاستعلامات الممثلة في الدول الأعضاء. علينا اعتبار استطلاعات الرأي في دول الاتحاد الأوروبي والنتائج الأخيرة للاستبيان بمثابة حادث جسيم: قبل نصف عام قِيم نحو ٤٩ في المائة من مواطني الاتحاد الأوروبي عمل المفوضية مبدئيًا تقييماً إيجابياً، وتم اعتبار تلك النتيجة «هي الأسوأ تاريخياً»، ولم يتخيل أحد أن من الممكن تحقيق نتيجة أسوأ. والآن فإن الرقم -ومع الاستفادة من كافة إمكانيات التجميل - لم يكد يصل إلى أربعين في المائة، وهو أكبر انحدار شهده تاريخ الاستطلاع المسمى «الباروميتر الأوروبي»، انحدار أكبر مما حدث في عام ١٩٩٩ عندما انهارت نسبة التأييد بعد أن تحتم على المفوضية كلها أن تستقيل بسبب فضيحة فساد. آنذاك اعتُبر الانحدار من نسبة ٦٧ إلى ٥٩ كارثياً.. والآن، ما هذا؟ ولماذا؟

درست مسر أتكينسون الأوراق والجداول والنسب المئوية والأشكال التوضيحية والإحصائيات، وتساءلت: كيف حدثت خسارة الثقة هذه في المفوضية على هذا النحو الدراماتيكي؟ لقد احتُفي برئيس المفوضية الجديد في وسائل الإعلام الأوروبية الرئيسية وحصل على أكاليل الغار قبل أن يبدأ عمله، غير أن المفوضية لم تستفد من ذلك، كان المستفيد هو البرلمان الأوروبي الذي زاد من رصيد سمعته بنحو خمسة في المائة. ونجح الرئيس لأول مرة في التاريخ في تنفيذ «كوتة» المرأة، وذلك ليس فقط فيما يتعلق بعدد أعضاء المفوضية - ١٢ عضواً من ٢٨ هم الآن من النساء-، بل أيضاً على مستوى الإدارات: أصبحت الآن نسبة النساء نحو ٤٠ في المائة. هي شخصياً استفادت من ذلك،

وهو أمر يمكنها الاعتراف به -مثلما تقول- دون أن تضع مؤهلاتها موضع الشك؛ على العكس، لقد كان التطبيق الصارم «للكوتة» هو السبب في أنها لم تنهزم أمام الوصولي، عديم الأهلية تمامًا، جورج مورلاند، ذلك الخنزير الذي طُرح اسمه للنقاش كي يشغل هذه الوظيفة، والذي يجري الآن من مكان إلى آخر راسمًا لها صورة كاريكاتورية، كمثال نموذجي لغباء «الكوتة». وصل إلى سمعها أنه يحكي أنها بلغت من البرودة الصقيعية حد المعاناة الشخصية من يديها الباردتين، ولهذا تجلس في مكتبها واضعة يديها دائمًا في قطعة دائرية ضخمة من الفرو.. نساء!

مثل هذا الخيال يفضح المتآمر تمامًا: أن يتخيلها بقطعة ضخمة من الفرو يُظهر بوضوح رعبه التقليدي من المهبل كابن من أبناء الطبقة العليا البريطانية الذكورية.

درست مسز أتكينسون التسويق والإدارة في المعهد الأوروبي لإدارة الأعمال في لندن، واختتمت دراستها بامتياز بأطروحة عن الحالات التي يأتي فيها التسويق بنتائج عكسية. راحت تفكر: هل ينبغي عليها، حتى تُخرس مستر مورلاند وتضع حدًا لمكائده، أن تبادر بالهجوم وتستخدم الفرو بأن تجعله، حقًا، «علامة مسجلة» خاصة بها، وأن تقتني فروًا ضخما للغاية، بحيث تبدو حكاية مورلاند الكاريكاتورية بلا معنى أو طعم، ويبدو الأمر في الوقت نفسه تأكيدًا على «العلامة»؟ لكن، ليس هذا ما يشغلها الآن. تساءلت: لماذا لم يُحسن هذا النجاح الذي حققته المفوضية -"الكوتة النسائية"، هذه الإشارة الواضحة في اتجاه

دعم فرص النساء في هذه القارة- من صورة المفوضية؟ إن نسبة النساء في البرلمان الأوروبي لا تتعدى ٣٥ في المائة، لكن سمعة البرلمان أصبحت أفضل، أيضًا لدى الناخبات من كافة الفئات العمرية، وهو أمر جيد، لكن سمعة المفوضية ساءت، وهذا شيء غير مفهوم، هذه هي المشكلة.. إن مهمتها الآن هي وقف هذا التدهور، وتحويل الاتجاه. ما هي نقاط النقد؟ ما سبب الصورة السيئة للمفوضية؟ صور نمطية. أحكام مسبقة. هكذا هو الحال دائمًا. غياب الشرعية الديمقراطية، وتفشي البيروقراطية، والرغبة الجنونية في وضع ضوابط ونظم لكل شيء. اللات هو أنه ليس ثمة نقد للمهام الحقيقية التي تقوم بها المفوضية، على ما يبدو فإنها لم تكن معروفة للناس. على سبيل المثال فإن السؤال حول ما إذا كانت المفوضية «تتدخل في شؤون من الأفضل أن تُنظم على المستوى المحلي» قد حصل على موافقة ٥٩ في المائة من أصوات المشاركين، أما مقولة إنها «تقوم بمهامها بشكل سيئ» أو «سيئ للغاية» فقد حصلنا معًا على نحو ٥ في المائة من الأصوات فحسب. علينا أن نتمعن في هذا التناقض. سألت نفسها لماذا لم ينتقد أحد من أسلافها طريقة إجراء استطلاعات «الباروميتر الأوروبي»، ولماذا لم يغير أحد هذه الطريقة؟ إذا عرضنا على الناس وضع علامة على مقولة مثل «تتدخل في الشؤون التي يُفضل أن تُنظم على المستوى المحلي»، فسوف تقوم نسبة مئوية معينة بالموافقة عليها؛ وتحديدًا أولئك الذين يقولون دائمًا «هذه هي الحقيقة»، أو هؤلاء الأغبياء الذين يرددون «هذا ما أقوله دائمًا!». ولكن إذا صغنا العبارة قائلين إن المفوضية تحمي

المواطنين من الظلم الناشئ عن الاختلافات بين النظم القانونية في كل دولة، عندئذ ستختلف النتيجة تمام الاختلاف.

اتضح لها الأمر الآن: إن المهمة الملقة على عاتقها ليست تحسين صورة «الاتحاد الأوروبي»، إن عليها أن تهتم تحديدًا بصورة المفوضية الأوروبية. وبعد ساعة وانتها الفكرة التي تمكنها من ذلك. كانت تشعر بالنشوة بعد احتساء شمبانيا «شارلمان بروت»؛ ففي تلك اللحظة انفتح باب غرفتها، ورأت كاترين، السكرتيرة الخاصة بها، وهي تدخل حاملة تورتة وعليها شموع مشتعلة تطلق في الهواء نجومًا صغيرة. خلف الدخان وومضات النجوم الصغيرة لمحت - حقًا: هذا هو الرئيس، وخلفه راح عدد متزايد من الناس يتدافع للدخول إلى الغرفة، المفوض الخاص بإدارة الثقافة، مديرون، موظفون، العاملون في مكتبها كلهم، وكان الجميع يغني: «هابي بيرثداي».

كان لديها عيد ميلاد «عشري»، أتمت عقدًا وتبدأ آخر. نعم. لم تعره أي أهمية. كان زوجها في لندن، وابنتها في نيويورك. اتصل كلاهما اتصالاً قصيرًا. وليس لديها، هنا في بروكسل، أصدقاء يمكن أن تحتفل معهم. والآن تقف في مركز الاهتمام. مفاجأة. ألقى الرئيس كلمة. قصيرة. ليست رسمية، شخصية جدًا، بها إشارة ما إلى سمعتها أثارت في العموم ضحكات. ضحك لها أشخاص لا تعرفهم سوى من خلال التحية، من الطابق الثاني والثالث والرابع. فارت كؤوس الشمبانيا، وقُرعت الأنخاب، ونالت قبلات على خديها، وضغط البعض على ذراعها، أو ربت على كتفها. أظهر أشخاص لا يعرفون عنها شيئًا، أو لا

يعرفون سوى القليل، مشاعرهم الطيبة، أو استعدادهم لتكوين مشاعر طيبة تجاهها، رفع المفوض كأسه معبراً عن سعادته البالغة لأن هذه الموظفة ذات الكفاءة العالية، والإنسانة الرائعة عموماً، تعمل في فريقه، وبالذات في هذا المنصب المهم، وكم هو جيد تطبيق نظام «الكوتة»، هو شخصياً يؤيد تطبيق «كوتة» نسائية بنسبة ٩٩ في المائة، لا يريد بالطبع أن يفقد وظيفته، ولكنه سيكون سعيداً إذا أحاطت به نساء فحسب... صفاير من جانب الرجال، وصيحات نسائية: «ذكوري! ذكوري!»، ثم غطت الضحكات على الأصوات، وقطعت مسز أنكينسون التورته الموضوعية على مكتبها فوق أحد ملفات «الباروميتر الأوروبي»، فتايت التورته ونثار الكريم على الإحصائيات، رماد من الشموع المحترقة على قبر «حالة الاتحاد الأوروبي».

بعدها اختلت بنفسها من جديد، عادوا كلهم إلى أعمالهم، ووقفت هي عند النافذة الكبيرة في حجرة مكتبها مرسلتها نظرها إلى شارع «دو لا لوا»، وإلى شريط السيارات الداكنة الزاحفة اللامعة في رذاذ المطر، حكّت عينيها، ومسحت بكل يد على ظهر اليد الأخرى، ودلكت أصابعها الطويلة جداً والرقيقة والتي كانت تفقد لونها فجأة، فتصير بيضاء، ولا تعود تشعر بها. ثم جلست مرة أخرى إلى مكتبها، شيء ما كان يشغلها، فراحت تنتظر حتى يتبلور في ذهنها، ثم رأت كأس شمبانيا نصف ممتلئة، مستغرقة في التفكير راحت ترشف منه، ثم كتبت في ماكينة البحث «جوجل»: «المفوضية الأوروبية تأسيس». ما هو تاريخ ميلاد المفوضية؟ هل هناك ما يمكن أن نسميه عيد ميلاد

المفوضية؟ يوم التأسيس؟ هذه هي الفكرة: لا يكفي أن نقوم بتسويق العمل اليومي للمفوضية بأفضل شكل ممكن، علينا أن نحتفي به، علينا أن نحث الناس على التوجه بالتهنئة إلى المفوضية، لأنها تأسست، علينا أن نحتفل بها، لا أن نتسوّل قبول الناس بها، تصحيح الصور النمطية، والرد على الشائعات والأساطير. علينا أن نعمل كي تصبح المفوضية في مركز الاهتمام، لا أن يتحدث الناس بشكل مجرد وعام عن «الاتحاد الأوروبي». ما الاتحاد الأوروبي؟ مؤسسات مختلفة، تقوم كل منها بعملها على نحو منفرد، وتنوب عن مصالح متنوعة، ولكن إذا كان الاتحاد كله له معنى، فهذا بسبب وجود المفوضية التي تنوب عن الكل. هكذا ترى هي الأمر. علينا أن نخلق وضعًا تقف فيه المفوضية سعيدة، في مركز الاهتمام، كشخص يحتفل بعيد ميلاده والجميع يهنئه. هل للمفوضية عيد ميلاد إذن؟ لم يكن من السهل حسم الأمر. هل هو يوم تأسيس مفوضية السوق الأوروبية المشتركة، أم هو تاريخ تأسيس المفوضية الأوروبية بشكلها الحالي بعد معاهدة الاندماج الأوروبية؟ في الحالة الأولى ستبلغ المفوضية بعد ثلاث سنوات الستين، في الحالة الثانية ستصل بعد ستين إلى الخمسين. العيد الخمسيني يعجبها أكثر. نصف قرن. هذا أفضل في التسويق. وإذا قسنا ذلك بعمر الإنسان: فهو في كامل لياقته، محنك، ولم يسر بعد في طريق الشيخوخة. كما أن عامين فترة معقولة لتحضيرات ممتازة، أما ثلاث سنوات فقد تكون أطول مما ينبغي، وقد يخرج الكثير عن نطاق السيطرة.

واصلت البحث. هل تم الاحتفال بـ«يوبيل» قبل ذلك؟ نعم.

احتفالات متواضعة ينقصها الشغف، تُلِيت فيها كلمات جوفاء، أو كُرم فيها سابقون، وأُلقيت بها كلمات تمتدح المراحل التي سبقت الاتحاد الأوروبي، خمسون عامًا على معاهدة روما، ستون عامًا على تأسيس «الجماعة الأوروبية للفحم والصلب».. مَنْ يهمه ذلك؟ لا أحد. وفي أي شيء كان يأمل المرء عندما يعرف المتشككون والمعارضون للاتحاد الأوروبي كم كان جسيمًا تأسيس الجماعة الأوروبية للفحم والصلب؟ وكأنهم يهنتون جدًّا يعاني مرض الألزهايمر بأن عمرًا مرَّ عليه كان فيه بكامل وعيه- هذا في حين أن الأحفاد، منذ وقت طويل، يفعلون ما يلحو لهم، وعلى نحو مخالف تمامًا للجد.

لمحت جريس أنكينسون زجاجة شمانيا مفتوحة على المائدة الزجاجية أمام مجموعة المقاعد في مكتبها. ما زال هناك القليل في الزجاجية، صبت لنفسها، واحتست. كانت تشعر بالخفة والحبور عندما قررت أن ترسل رسالة إلكترونية إلى بعض الأقسام التي ظنت أنها ستهتم بخطتها، وأنها ستدعمها بأفكار أخرى. عليها، بشكل غير رسمي في البداية، أن تبحث عن أشخاص يتبنون الفكرة، قبل أن تبدأ السير في الطريق الرسمي. إن تنظيم احتفال كبير بمناسبة مرور خمسين عامًا على تأسيس المفوضية الأوروبية، هكذا كتبت، يبدو لها إمكانية جيدة لتسليط الضوء على المهام والإنجازات التي تقوم بها مؤسسات الاتحاد الأوروبي، وجعلها في مركز اهتمام الرأي العام، وكذلك لتعزيز هويتها وتحسين سمعتها، والاحتفال بها بفرح، والخروج بها من موقع الدفاع.

حذفت كلمة «بفرح»، ثم أعادتها، وأومأت لنفسها، هذا هو بيت القصيد، فركت يديها، وانتقلت خطوة أخرى إلى الأمام. في العنوان كتبت: «مشروع اليوبيل الكبير - انتهى وقت البكاء على الأطلال».

كانت فكرة مسز أتكينسون. وكانت فينيا كسينوبولو هي أول من رد على «الميل».. وبسرعة صادرت المشروع. قالت فينيا إن المشروع، لا شك، من اختصاص الإدارة العامة للثقافة. هذه هي الفرصة التي كانت تنتظرها حتى تظهر في الصورة. وهكذا جعلت من مارتن سوسمان شيئاً لا يحمل عنها عبء المشروع.

شعرت جريس أتكينسون في البداية بالسعادة لعثورها بمثل هذه السرعة على حليفة متحمسة. وفي النهاية كانت من السعادة في غاية، إذ من خلال التحمس الزائد من إدارة الثقافة التعسة نسي الآخرون أنها، في الحقيقية، صاحبة هذه الفكرة التي أمست كارثية.

أنتظر اقتراحات: هكذا قالت فينيا كسينوبولو بصوت مضطرب، الأمر في غاية الأهمية، وأنا أعلم أنكم.. نظرت إلى الفريق المتجمع، وقالت بصوت عالٍ جداً بعض الجمل مستخدمة صفات درامية ثقيلة الوقع، بالتأكيد كانت تعتبر ذلك محمّساً للآخرين، هذه اللغة العسكرية الموجهة إلى الفرقة، خفض مارتن من بصره ليتفادى نظرتها، ولهذا رأى فينيا الآن بلا وجه، لم ير سوى «التوب» اللاصق الذي ترتديه، والتنورة الضيقة المشدودة، والساقين في الجوربين الطويلين اللذين يحجبان الأنظار. قال لنفسه: هذه المرأة متخشبة داخل «كورسيه»، داخل درع واقٍ يمنع انهيارها إلى أجزاء. التنورة مصنوعة من قماش

فاخر، لكن مارتن تولد لديه انطباع بأن التنورة ستتهشم لو خبط المرء بقبضته عليها. لا يمكن أن يخلع المرء هذه التنورة، لا بد من تحطيمها و...

- إذن، ماذا نفعل؟

أظهر بوهوميل مرة أخرى روحه الساخرة الهدامة. قال:

- في البداية علينا أن نتساءل: ماذا علينا ألا نفعل؟ أن نتجنب على أي حال كل ما كان يُفعل حتى الآن في احتفالات اليوبيل: تنظيم أنشطة محرقة مخزية، يتم تخفيف أثرها بإقامتها بعيدًا قدر الإمكان عن عين الرأي العام. كتيبات من ورق مصقول لامع تُرمى بعد ذلك في القمامة. خطب جوفاء وكلام مستهلك.

- مارتن؟

لم ير رد فعل فينيا على كلام بوهوميل، كان يحرق في قدميها، في الجزء البارز الصغير من فتحة حذائها الضيق.

- مارتن؟

كان يود أن يقول: الموضوع لا يهمني. ثم قرر أن يوافق ببساطة الجميع حتى لا يعرض نفسه إلى سهام النقد.

بالنظر إلى أهمية الموضوع، هكذا بدأ كلامه متوجها إلى فينيا، فمن الواضح أن - والآن توجه إلى بوهوميل - علينا ألا نكرر أخطاء الماضي. بوهوميل محقّ عندما يذكرنا بأن... ولكن فينيا محقة تمامًا بالطبع عندما تنتظر أن... ما الأخطاء التي ارتكبت في الاحتفالات السابقة؟ لم تكن

هناك فكرة غير فكرة الاحتفال باليوبيل. ولكن مناسبة الاحتفال ليست في حد ذاتها فكرة. إن وجود هيئة منذ عدد معين من السنوات - هذا أمر جيد وجميل، ولكن ما الفكرة، ما الفكرة التي نسلط عليها الضوء؟ على الفكرة أن تكون مقنعة، وأن تشعل نار الشغف في نفوس الناس، فيرغبون فعلاً في الاحتفال بهذه المناسبة.

وهكذا دخل مارتن بقدميه إلى المصيدة. بعد تبادل أحاديث لم تصل إلى نتيجة قالت فينيا كسينوبولو:

- خلاص، من الواضح أن الوحيد الذي فكر في الموضوع هو مارتن. ما يقوله منطقيّ تمامًا. المهم هنا هو العثور على فكرة مركزية.

وهكذا كلفت مارتن بأن يطور الفكرة ويكتب ورقة بهذا الشأن.

- كم من الوقت تحتاج لذلك؟

- شهرين؟! لا بد من التمعن جيداً في الأمر، ومناقشته مع الزملاء في الإدارات العامة الأخرى أيضاً.

قالت فينيا:

- أسبوع واحد.

- مستحيل. لدي في الأسبوع المقبل رحلة عمل تحتاج إلى بعض التحضيرات و...

- طيب، لديك أسبوعان لكي تكتب بعض النقاط، تستطيع ذلك بالتأكيد! ولن نتناقش مع الزملاء إلا بعد أن نقوم نحن بتقديم

الورقة. هل هذا واضح؟ سنبادر نحن بتقديم الورقة!

كان مارتين سوسمان غاضبًا ومتوتر الأعصاب عندما غادر مكتبه في السادسة متوجهًا إلى منزله بعدما أنجز أهم ما عليه إنجازاه من العمل اليومي. في منتصف المسافة بدأ المطر يهطل، المعطف الواقي من المطر كان في شنطة الدراجة، ولكنه نسي شنطة الدراجة في المكتب. وصل إلى المنزل مبلولًا تمامًا وشاعرًا بالبرد، ودخل على الفور ليأخذ دشًا. لكن الماء لم يصل إلى السخونة الملائمة، أما ستارة الدش الباردة فقد التصقت بظهره، وكأنه مغناطيس يجذبها. حانقًا أبعد الستارة عنه، فكاد يتزعجها من الإطار المعدني المعلقة فيه، هذه الستارة السخيفة سيزيلها ويركب بدلًا منها «كابينة دُش» لها باب. عرف على الفور أن هذه مجرد فكرة من الأفكار التي لن ينفذها أبدًا. ارتدى معطف الحمام، وأخرج من الثلاثة زجاجة بيرة «جوبيلر»، وجلس في الفوتيه أمام المدفأة الحجرية المفتوحة. عليه أن يهدأ، شهيق زفير، أن يسترخي. راح يحملق في الكتب الموضوعة في المدفأة.

عندما انتقل مارتين سوسمان ليعيش هنا، لم يصدق عينيه في البداية. المدفأة لم تكن تعمل منذ أن زودت الشقة بنظام تدفئة مركزي. ثبت صاحب الشقة لو حين من الخشب في المدفأة ووضع عليهما عددًا من الكتب. ربما وجد الأمر لطيفًا وباعثًا على الراحة. رأى مارتين ذلك لاحقًا عند أصدقاء ومعارف في شقق قديمة أخرى في بروكسل: وضع الكتب في المدفأة التي لم تعد تستخدم.

في مدفأة مارتن كتب سياحية مختلفة لمدينة بروكسل، طبعات
قديمة مهترئة، تركها ربما المستأجرون السابقون، وعدة مجلدات من
موسوعة معارف من عام ١٩١٤، وثلاثة أطالس، الأطلس الأول من
عام ١٩١٠، والثاني من ١٩٤٣، والثالث من ١٩٥٥، وأكثر من عشرة
مجلدات من سلسلة «كلاسيكيات الأدب العالمي» من نادي الكتاب
الفلمنكي: «في كل مجلد أربعة أعمال كلاسيكية، مع اختصار يلائم
العصر»، نُشرت كلها في الستينيات. عندما انتقل مارتن إلى الشقة،
وقلب في الكتب ذات مساء، أصابته الصدمة، لا، هذه كلمة أكبر مما
ينبغي، لقد أثارت الكتب مشاعره على نحو غير مريح: هل هذا هو
التقدم.. التوقف عن حرق الكتب، والاكتفاء بوضع الكتب في مدفأة
باردة بعد اختصارها اختصارًا «يلائم العصر»؟

راح يحملق في كعب الكتب محتسبًا بيرته، ومدخنًا عدة سجائر.
كانت ورقة مشروع اليوبيل عبئًا كبيرًا. وكأنه متخصص في كتابة
نصوص الدعاية والإعلان، ويريد أن يبيع منتج «مفوضية الاتحاد
الأوروبي». ألقى نظرة إلى مكتبه، لا يزال الطبق هناك، وعليه المستردة
بعد أن جفت وتصلبت. ما فكرة المستردة؟ إننا نضيفها إلى الطعام.
شيء عبقري. دعاية تلفزيونية مقنعة: شابات وشبان يتمتعون بمظهر
جميل، يضغطون ضاحكين في سعادة على أنبوبة المستردة، ويغنون
منتشين: «دلع نفسك النهاردة، وحُط على الأكل مستردة!»، لا
يستطيعون السيطرة على مشاعرهم من السعادة الطاغية. على إيقاع
الموسيقى تتكوم وتعلو حلقات المستردة على الأطباق، ثم تبدأ في

التراقص مثل أفاعٍ على وقع أنغام ناي يمسكه ساحر: حُط على الأكل مستردة! لقد كان ذلك... تمالك مارتن نفسه، وارتدى ملابسه، وذهب إلى «الماريوت». أخذ معه المظلة الكبيرة التي توفر في المطر حماية لشخصين.

كان المطر قد توقف. لمع الأسفلت المبتل، وكذلك واجهات المنازل والمارة، في ضوء عواميد الإنارة وأنايب النيون في أكشاك بيع البطاطس المحمرة، وكأنَّ أسطى فلمنكيًا قد وضع طبقةً من الورنيش اللامع على هذه الصورة. عايش مارتن خلال إقامته في بروكسل هذه الأجواء المسائية بعد أيام من المطر كثيرًا جدًّا، لدرجة أنها منحته شعورًا بأنه في وطنه. نعم، هنا وطنه. اشترى سجائر من محل الهندي الذي يفتح ليلاً أيضًا على ناصية شارع «سانت كاترين». بعد الدفع كان الهندي يقول دائمًا *Dank u wel* إذا تحدث مارتن بالفرنسية، أما عندما يطلب منه مارتن سجائره باللغة الفلمنكية، فكان الهندي يشكره قائلًا *Merçi, Monsieur*. من الممكن تأويل الأمر، ولكن ربما ليس ثمة ما يؤول، هكذا كان الأمر، وبمرور الوقت أصبح ذلك، مثله مثل كل تلك الأشياء الكثيرة الصغيرة، جزءًا من شعور مارتن بأنه، وسط هذه العوالم الكثيرة، في بيته ووطنه.

لم تكن الرياح قوية، لكنها باردة، مشى مارتن بخطوات سريعة جدًّا، وهكذا وصل إلى الماريوت مبكرًا للغاية. لكن أخاه كان منتظرًا في «لوبي» الفندق، بتعبير صارم على الوجه وواثق من أنه على حق، وجه يقول: لقد اتبعت دائمًا وصايا الرب، ولذلك أنتظر أن...

يعرف مارتن هذا الوجه حق المعرفة. كل مرة يقابل فيها أخاه، يرى فيه الأب.

تعانقا، ولأن فلوريان كان يمسك ملفاً، فإن العناق كان أصعب من المعتاد.

- هل سنأخذ «تاكسي»؟

- لا. لقد حجزت في «بلجا كوين». خمس دقائق مشياً.

سارا صامتتين. وفي النهاية سأل مارتن:

- كيف حال ريناتا؟

- جيد.

- والأطفال؟

- إنهم مجتهدون. الحمد لله!

لم يكن مارتن يخجل من أصله. ولكنه لم يكن يعرف: هل مشكلته أن العائلة أصبحت غريبة عنه تماماً، أم أن المشكلة هي أن العائلة لا تتركه في حاله رغم أنها أصبحت غريبة عنه؟ توفي الأب قبل ١٨ سنة، في الثاني من نوفمبر، أي تحديداً في العيد الكنسي للموتى. مات صغيراً وعلى نحو مأساوي بشع. عندما كان مارتن لا يزال يعيش في النمسا، كان عليه أن يمر مجدداً بصدمة الثاني من نوفمبر. عندما كان يقرأ الصحيفة أو يشاهد التلفزيون أو حتى بمجرد أن يغادر المنزل، كان يتذكر يوم الثاني من نوفمبر قبل مجيئه بأيام: العيد الكنسي للموتى يقترب. ومعه: يوم وفاة الأب. معنى ذلك أن عليه أن يسافر إلى عائلته، ليس لديه حجة لأنه

يوم عطلة على مستوى الدولة، يوم تذكاري مَرَضِي عام. في بروكسل لم يكن يوم الثاني من نوفمبر يوم عطلة. يتوارى التاريخ الشخصي الخاص، أو قد يتوارى. ولكن يوم حضور أخيه هو عيد للموتى. دون أن ينطقا بكلمة حول ذلك. التهمت الماكينة الأب. سمعهم يرددون المرة تلو الأخرى: لقد التهمته الماكينة. وكأنهم كانوا يملكون ماكينة واحدة. المفزعة. حدث الأمر مثلما يحدث دائماً: طالت المفزعة ذراعه، ثم التهمته بأكمله، وظل ينزف حتى الموت. صرخ كخنزير. بعد ذلك علت أصوات تقول إنها سمعت ذلك. ولماذا لم يسرع أحد لمساعدته؟ لأن صرخات الخنازير هي أكثر الأشياء طبيعية وعادية واعتيادية في هذه المزرعة. ثمة ألف ومائتا خنزير، وعمليات ذبح يومية في المزرعة، في هذه الأجواء لا يلتقط المرء صرخة يتيمة بين كل هذه الصرخات. هذا ما قاله «فلبر»، رئيس الجزائريين. قال حرفياً: «يلتقط». ولكن كيف عرفوا أنه صرخ كخنزير؟ لا بد أنه صرخ.. هذا ما قاله الجميع. في هذه النقطة اتفقوا كلهم. لا بد أنه صرخ صرخة هائلة. ولكن لفترة قصيرة فحسب. فالإنسان يفقد الوعي بسرعة كبيرة في مثل هذه الحالات. هذا ما حدث. سار الأمر بسرعة كبيرة. بالطبع تدرك الخنازير شيئاً مما يحدث، عندما... ولكنها بسرعة تُخدر. وتبدأ الماكينة في الالتهام. كان الأب مجتهداً جداً، أراد أن يستغل الوقت ويفرم بعض نفايات الحيوانات المتبقية. آنذاك كانت المزرعة قد نمت على نحو لا يصدق، ولكن من الناحية اللوجستية لم تكن كاملة التنظيم مثلما هي اليوم. اتصلت الأم بالطبيب، كانت بالطبع مرعوبة تماماً، فاتصلت بالدكتور شافتسال،

الطبيب البيطري. ولكن السيف سبق العذل. بعد عدة أيام حكى مارتن البالغ من العمر ستة عشر عامًا في المدرسة ضاحكًا أن الأم اتصلت بالدكتور شافتسال، وعندما لم يضحك أحد، كرر: شافتسال (معنى الاسم حرفيًا: عدد الغنم) لمربي الخنازير. بعدها ظل أيامًا صامتًا، ثم ذهب إلى القس، واعترف لينال الغفران عن الخطيئة التي ارتكبتها، وهي أن يمزح بعد وفاة الوالد.

تولى الشقيق الأكبر منه بأربع سنوات إدارة المزرعة، ولي العهد، كانوا قد اتفقوا على ذلك وخططوا له، ولكن لم يكن أحد يفكر في هذا الانتقال السريع، أما هو - مارتن - المولود الثاني، «الأحمق» والخائب («لا عجب إذا كان لا يفعل شيئًا سوى القراءة!»)، فقد سُمح له بالدراسة، كان ذلك أيضًا شيئًا محسومًا: له أن يدرس ما شاء، و«ما شاء» تعني أن العائلة لم تكن تهتم بما يفعله طالما أنه غير متطلب، وليس عبثًا على أحد. درس علم الآثار.

عندما دخل الشقيقان سوسمان مطعم «بيلجا كوين»، سار فلوريان ببطء إلى وسط الصالة متجاهلاً النادل الذي وقف في طريقه، ثم صاح:

- واو! ما هذا؟ كاتدرائية؟

قال مارتن للنادل إنهما حجزتا مائدة، د. سوسمان، ثم لفلوريان:

- لا، كان هذا بنكًا في السابق. طراز «آرت ديكو» كأجمل ما يكون. سنتناول طعامنا هنا في قاعة البنك سابقًا، ثم نذهب إلى القبو، إلى مكان الخزائن الذي تحول إلى قاعة للمدخنين.

عندما تولى فلوريان إدارة المزرعة كلها، تم تعويض مارتن ماليا، وتقاعدت الأم. حصل مارتن على مبلغ ظل حتى بلوغه سن الرشد تحت وصاية مشرف مالي. لم يتساءل مارتن أبداً ما إذا كان المبلغ عادلاً، ولم يتناقش حوله أبداً. سمحت له هذه النقود بأن يدرس بشكل مريح، وأن يفكر بلا ضغط في مستقبله المهني. بكل تأكيد لم يكن تقسيم المال عادلاً إذا أخذنا قيمة المزرعة بعين الاعتبار، ولكن مارتن لم يهتم. كان المال يكفي لفتح آفاق جديدة استطاع استغلالها. ولكنهم الآن يتصرفون وكأن العائلة تركت مارتن يدرس، وهي التي مكنته من الحصول على هذه الوظيفة الممتازة في المفوضية الأوروبية، لكي يقوم في منصبه بممارسة الضغط من أجل المصالح الاقتصادية لشقيقه. لهذا يشعر مارتن بالخوف دائماً عندما يعلن فلوريان مجيئه إلى بروكسل ليقابله. كانت المزرعة أثناء حياة الأب مزرعة كبيرة جداً، وقد استطاع فلوريان أن يحولها إلى واحدة من أكبر الشركات لإنتاج لحم الخنازير في النمسا، بل في أوروبا، منذ سنوات طويلة لم يعد يقول «المزرعة»، مثل أبيه حتى الوفاة، بل «الشركة». برأيه لم يكن هناك ما هو أكثر عبثية من سياسة الاتحاد الأوروبي فيما يتعلق بإنتاج لحم الخنزير وتجارته. كما أنه يرى أن المسؤولين عن هذا الملف محض جهلة ومجانين، وأنهم مرتشون، ويتعرضون إلى الابتزاز من جانب مافيا حُماة الحيوان و«لوبي» النباتيين، أو أنهم واقعون تحت تأثيرهم الإيديولوجي. النقاش معه حول ذلك ليس مجدداً، كان جاداً في رأيه، فهو يرى كيف تسير الأمور، ويعرف الممارسة العملية. كانت لديه خبراته. بدأ ينشط

سياسيًا، واحتل مناصب عالية في جماعات تمثيل المصالح، وهكذا كان يأتي بين الحين والآخر إلى بروكسل لإجراء مفاوضات. قبل فترة قصيرة انتُخب رئيسًا لشبكة «كبار المنتجين الأوروبيين» التي تضم أهم منتجي لحم الخنزير في القارة الأوروبية. وبهذه الصفة، وباعتباره أيضًا رئيس الرابطة النمساوية لمربي الخنازير، كان لديه اليوم عدة مواعيد مع نواب في البرلمان الأوروبي، ومع موظفي المفوضية الأوروبية.

قال فلوريان بعد أن تفحص قائمة الطعام:

- انظر! «جولاش»^(٣) من لحم الخنزير في «صوص» بيرة الكرز. مشير للاهتمام. إذا كان طعمه جيدًا، فسأطلب الطريقة، وأضعها على صفحتي على الإنترنت.

طلب مارتن محارًا مع بطاطس مقلية. وزجاجة نبيذ. ثم سأله: كيف كان يومك؟ كانت سؤالًا روتينيًا سخيفًا، لم يحاول مارتن أن يلقيه على نحو يُظهر أنه مهتم فعلاً بمعرفة ذلك. كان يعرف أنه بذلك قد فتح على نفسه أبواب جهنم، ولكن هذا هو سبب الزيارة، وكان مارتن يريد أن يتحدث حول هذا الموضوع لينتهي منه.

- وكيف سيكون يومي؟ ماذا تعتقد؟ لقد قابلت أغبياء. هكذا سار يومي! لا يفهمون شيئًا. لا يقدرّون على تغيير سياستهم، ولكنهم

(٣) Gulasch: «الجولاش» في أوروبا يختلف عن الأكلة الشائعة في مصر. و«الجولاش» في أوروبا أساسًا أكلة شعبية مجرية، تتكون في المعتاد من قطع من اللحم البقري، يُطهى اللحم جيدًا في صلصة طماطم يُضاف إليه الكثير من البصل وتوابل مختلفة. أما بيرة الكرز فهو شراب شائع في بلجيكا، وفيه يخلط خلال التصنيع عصير الكرز بالبيرة. (المترجم).

يطلبون مني أن أغيّر الاسم!

- أن تغيّر الاسم؟ لماذا ينبغي أن تغيّر اسمك؟

- ليس اسمي أنا. سأشرح لك حالاً. ولكن عليك في البداية أن تعرف التالي: أي مُنتج للحم الخنازير يريد الوصول إلى السوق الصينية. الصين هي أكبر مستورد للحم الخنازير في العالم. الطلب من الصين مهول، هذه هي السوق التي تنمو.

- هذا أمر جيد. أليس كذلك؟

- نعم، من الممكن أن يكون جيداً. ولكن الاتحاد الأوروبي عاجز عن مفاوضة الصين للوصول إلى اتفاق تجاري بهذا الشأن. الصينيون لا يتفاوضون مع الاتحاد الأوروبي، ولكن مع كل دولة على حدة. وكل دولة تظن أن بإمكانها وحدها إبرام معاهدة ثنائية ممتازة تكتسح كل المنافسين، وتضمن لها وحدها الربح الأعظم، ولكن الحقيقة هي أن الصين تضرب مختلف الأطراف بعضها ببعض. مع أنه لا يمكن لدولة وحدها أن تغطي الاحتياجات الضخمة المطلوبة. ولا حتى في غضون سنوات. أعطيك مثلاً: تلقيت مؤخراً في الرابطة اتصالاً تليفونياً. كم عدد آذان الخنازير التي تستطيع النمسا أن توردها؟

- آذان خنازير؟

- نعم، آذان خنازير. كان المتصل من وزارة التجارة الصينية. قلت له: نحن نذبح في النمسا سنوياً خمسة ملايين خنزير. إذن،

عشرة ملايين أذن. رد قائلاً: هذا قليل جداً. وودعني بأدب منهياً المكالمة. هل تفهم: لنقل إن الصين تحتاج إلى مائة مليون أذن خنزير، فبإمكاننا أن نورد عشرة في المائة من هذه الكمية، لو كان لدى الاتحاد الأوروبي معاهدة مع الصين. ما الوضع الحالي؟ لم توقع النمسا بعد معاهدة ثنائية مع الصين، وليست هناك مفاوضات من أجل التوصل إلى معاهدة جماعية لدول الاتحاد الأوروبي. وأنا أتخلص من آذان الخنازير، فهي تعتبر في النمسا من نفايات الذبح، أما في الصين فهي شيء فاخر، وهناك طلب جنوني عليها. رغم ذلك نتخلص نحن منها، أو نكون سعداء إذا طلب أحد مصانع طعام القطط الحصول عليها مجاناً.

- ولكن حتى لو كانت هناك معاهدات، لا نستطيع إنتاج آذان فقط، إننا نحتاج إلى الخنزير كله. لا يمكننا من أجل الاحتياج الصيني لآذان الخنازير أن نربي ونعلف مثل هذه الكمية، ماذا نفعل بالبقية؟

- أنت عبيط أم ماذا؟ لن تكون هناك بقية. البقية موجودة لدينا الآن. نفايات الذبح. آذان الخنازير مجرد مثال. الصينيون لا يأخذون فقط الأفخاذ والأكتاف والفيليه والشحم، هذا أكيد، ولكنهم يأخذون أيضاً الآذان والرؤوس والذبول، إنهم يأكلون كل شيء، ويأخذون كل شيء. ما يعتبر عندنا نفايات يشترونه هم بسعر الفيليه. بكلمات أخرى، اتفاقية لتجارة الخنازير مع الصين ستعني زيادة في حجم المبيعات بنسبة ٢٠ في المائة لكل

خنزير، وبالنظر إلى الطلب على المدى المتوسط فسيعني ذلك نموًا قدره مائة في المائة، أي مضاعفة الإنتاج الأوروبي للحم الخنزير. ليس هناك قطاع صناعي لديه مثل هذه التوقعات.

«أفهم ذلك» قال مارتن، وهو رد لم يكن مناسبًا. هذه العبارة التي تنم عن الضجر، ومحاولة أن يكون المرء صبورًا. كان واضحًا أنه يرتدي قناع التهذيب بشكل سيئ فحسب: «أفهم ذلك!». وجه أخوه له نظرة أرعبته. فعقب بسرعة:

- لا أفهم ذلك. إذا كانت الإمكانية متوفرة، وإذا كان هناك طلب من الصين، لماذا...؟

- لأن زملاءك مجانيين. لا يعرفون أي شيء. بدلاً من إجبار الدول الأعضاء على منح المفوضية سلطة إبرام معاهدة تجارية باسم الاتحاد الأوروبي مع الصين، وفي الوقت نفسه تمويل التوسع في إنتاج لحم الخنازير، فإنهم يتفرجون كيف تلعب الصين لعبة «فرق، تسد»، ثم يتخذون إجراءات بهدف تخفيض إنتاج لحم الخنزير في أوروبا. ترى المفوضية أن عدد الخنازير في أوروبا أكثر مما ينبغي، وهو ما يؤدي إلى هبوط في الأسعار إلخ... إذن، ماذا تفعل المفوضية؟ تقليل الدعم. بل إنها حتى تصرف مكافآت لمن يغلق مزرعته. وهكذا أصبح لدينا في أوروبا الوضع التالي: إفراط في الإنتاج للسوق المحلي يؤدي إلى هبوط في الأسعار، وفي الوقت نفسه تعطيل التوريد إلى سوق تحتاج إلى إنتاج أكثر بكثير مما تنتج. هناك إجراءات تؤدي إلى مواصلة تقييد الإنتاج،

وفي الوقت نفسه لا تتخذ إجراءات للوصول إلى سوق يمكننا أن نبيع فيها ضعف ما نتج.

في تلك الأثناء وصل الطعام.

- هل يعجبك خنزيرك في بيرة الكرز؟

- ماذا؟ آه. نعم، معقول. على كل حال: المهم الآن هي الاستثمارات، وينبغي أن تكون بقدر لا تستطيع شركة وحدها أن تقوم بها. إذن، الدعم. ليس التقليل. الدعم، وسياسة نمو طموحة. أفهمني؟ بدلاً من ذلك فإنكم تقيّدوننا باللوائح. حماية الحيوان. ممنوع التربية في أقفاص حديدية، إلزام المربين بتوفير صناديق حديثة للتهوية. نظام Hdt...

لا أريد أن أسأله عن معنى ذلك.

- نظام غال. يلتهم الأرباح. هنا، أريد أن أريك شيئاً.

يفتح الملف الذي كان يحمله معه، ويقلب فيه، ثم يأخذ ورقة منه.

- هنا: إحصائية أسعار الخنازير في الاتحاد الأوروبي في نصف

العام السابق. ٧/١٥: هبوط السعر في أوروبا: ناقص ١٨ في

المائة. ٧/٢٢: الوصول إلى آخر المنحدر.. هكذا تظن! ٨/١٩:

حركة ضعيفة في الأسواق. ٩/٩: هبوط سعر الخنازير بنسبة ٢١

في المائة. ٩/١٦: تراجع شديد في أسعار البورصة. ١٠/٢١:

تراجع سعر الخنازير بنسبة ١٤ في المائة... هل أوصل القراءة؟

- لا.

- تراجع، هبوط الأسعار، الوصول إلى آخر المنحدر، هبوط آخر
للأسعار. ومع ذلك لا رد فعل من جانب الاتحاد الأوروبي. منذ
مطلع العام؛ انظر! هنا! هنا مكتوب... منذ مطلع العام يغلق كل
يوم ٤٨ مربيًا للخنازير على مستوى أوروبا أبواب زرائبهم إلى
الأبد. والآلاف الذين يحاولون الصمود، يواجهون قضايا بتهمة
المماطلة في إعلان الإفلاس. مع أن بإمكاننا أن نتج ضعف ما
نتجه الآن، والبيع بسعر يزيد بنسبة ٢٠ في المائة بالنسبة للخنزير
بأكمله، كل ما علينا أن نفعله هو الاستثمار بشكل متناغم في
البنية التحتية، والتحدث مع الصين. ولكن حاول أن تشرح ذلك
للسيد فريجة. يقول لي إن الاتحاد الأوروبي لديه فيما يخص
إنتاج لحم الخنزير أجندة أخرى للأسف. في الوقت نفسه
يمنعون الدول الأعضاء من تقديم الدعم لمربي الخنازير، وإلا
اعتُبر ذلك تشويهاً للمنافسة. هل تعرف فريجة هذا؟

- لا.

- غير معقول. إنه زميلك. لا أستطيع النفاذ إلى ما يخطط له. اسمع:

عليك أن تتحدث معه، عليك أن توضح له بينك وبينه أن....

- فلوريان! المفوضية لا تعمل مثل رابطة الفلاحين النمساويين!

- لا تحدثني هكذا! لماذا أرسلناك إلى هناك؟

- ولكن هناك شيء واحد لا أفهمه: قلت شيئاً عن تغيير الاسم؟

ماذا أراد السيد فريجة، أي اسم عليك تغييره؟

- لا، ليس فريجة. كان ذلك السادة نواب البرلمان. لم تكن بينهم امرأة واحدة. ربما كنت استطعت آنذاك أن أكون لطيفاً بعض الشيء، ولكن رجال فقط، وهؤلاء كانوا في منتهى الغباء. كانوا من الكتلة النيابية للحزب الشعبي الأوروبي. أتفهم؟
- لا.

- حزب الشعب الأوروبي. كنت أتوقع أن يكون الأمر وكأني أُلعب في ملعب، فأنا عضو في الحزب الشعبي النمساوي. هنا في البرلمان الأوروبي تُسمى الكتلة اختصاراً EPP، أي *European People's Party*.

- وبعد؟

- لقد جئت هنا باعتباري رئيساً لـ «كبار المنتجين الأوروبيين»، *European Pig Producers*، أي أن الاختصار هو أيضاً EPP - أتفهم؟ كنت مفوضاً للتحدث في نقطتين: تدعيم التوسع في إنتاج لحم الخنزير، والتنسيق بين المُصدِّرين الأوروبيين للخنازير. لم نتحدث دقيقة حول النقطتين. قال النّوّاب: علينا قبل أي شيء أن نغير اسمنا وشعارنا. ليس من المعقول ألا يظهر لمن يبحث في «جوجل» عن حزب الشعب الأوروبي EPP سوى خنازير. لا تضحك! قلت لهم إن الأمر صعب. نحن منظمة تضم أكثر من دولة، منظمة مسجلة لدى السلطات في كل دولة من الدول الأعضاء. التغيير يعني جهداً هائلاً. أتعرف ماذا اقترحوا عليّ؟ اسمنا بالإنجليزية هو *The European Pig Producers*، علينا

إذن أن ندخل أداة التعريف *the* في الاختصار، سيكون اختصارنا عندئذ *TEPP*. غير معقول، هؤلاء المستهزون بنا!

- ولكنكم لم تتفاوضوا بالألمانية.

- لا، لم يكن بين النواب ألماني واحد.

- إذن، لم يكن ذلك تهكمًا أو سخرية. إنهم لا يعرفون ماذا تعني الكلمة في النمسا^(٤).

مسح فلوريان البقية الأخيرة من صلصلة الطعام بقطعة خبز، هكذا كان يفعل وهو طفل. كانت الأم تردد دائمًا أن طبق فلوريان ليس بحاجة إلى الغسيل بعد الأكل.

- حلو بعض الشيء، «صوص» بيرة الكرز هذا. ألم تقل إن بإمكاننا التدخين في قاعة الخزائن؟ قدني إلى هناك! أحتاج بشدة إلى سيجارة الآن.

ساروا إلى البيت كأخوين، ذراعًا في ذراع، في انسجام راحا يتأرجحان ويتميلان على أحجار شوارع بروكسل. احتسبا «جين تونيك»، وتحت إغراء العرض المقدم دخنا السيجار أيضًا. كان لذلك تأثير عندما نهضا من الفوتيه، ثم تأثير أشد عندما خرجا إلى الهواء الطلق. بعد أن أوصل مارتن أخاه حتى الفندق، بدأ المطر يهطل ثانية، فلاحظ أنه نسي المظلة في «بيلجا كوين». وصل إلى بيته مبللًا تمامًا،

(٤) الكلمة تعني باللهجة النمساوية «عيط». (المترجم).

فخلع الجاكيت والبنتلون، وفتح الثلاجة، وتردد قليلاً قبل أن يخرج
زجاجة بيرة، ثم جلس بجانب المدفأة الحجرية. أعطاه أخوه مجلة
(«انظر ما أحضرته لك: أنا على الغلاف!»)، فراح يتفرج عليها الآن:
«المشروعات الضخمة! النشرة الإعلامية لـ *EPP*».



الفصل الثالث

الموت في نهاية الأمر ليس سوى بداية
لما يعقبه .

في الطريق إلى قسم المباحث الجنائية في شارع «مارشيه أو شاربون»، بجوار المحطة المركزية «جار سنترال»، توقف إميل برنفو أكثر من مرة متلفتًا حوله، تاركًا بصره ينساب على واجهات المنازل، مراقبًا الذين يؤدون مهمة أو لديهم هدف، وكأن هؤلاء هم الذين يجعلون المدينة تعمل وتسير. كان يعشق بروكسل في الصباح الباكر عندما تستيقظ. تنفس بعمق مرات عدة، تنهد، وبانقباض في الصدر لاحظ أنها ليست تنهيدة سعادة. عندما عبر الميدان الكبير، «جراند بلاس»، توقف مجددًا، وتطلع: هذه الفخامة! هذا الميدان لا يظهر جماله بحق إلا في هذه الساعة المبكرة، قبل أن تحتله حشود السياح. كان يكره السياح، هؤلاء الصيادون اللاهثون لتأكيد أحكام نمطية أحضروها معهم، أناس استبدلوا بأعينهم «التابليت» والكاميرات، يقفون في الطريق محولين المدينة الحيوية إلى متحف، والأشخاص الذين يعملون هنا إلى «كومبارس» المدينة، إلى خدم وعمال في متحف. بروكسل كانت دائمًا مدينة متعددة اللغات والثقافات، وذلك قبل أن تأتي من كافة ربوع الدنيا الحشود التي لا مكان لها في هذه المدينة. تنفس بعمق ضاغطًا حقيقة ملفاته على بطنه، محاولًا أن يوسع قفصه الصدري قدر الإمكان.

راح يحملق. مثل سائح. كم هو جميل! كم كان جميلاً هذا الميدان! لم يشعر بالسعادة، بل بحسرة مثيرة للقلق، بالأسى. في عام ١٩١٤، هكذا كان يحكي جده، كانت بروكسل أجمل مدن العالم وأغناها- ثم جاءوا بعد ذلك ثلاث مرات، مرتين بالأحذية العسكرية والبنادق، ثم بالأحذية الرياضية وأجهزة التصوير. ألقوا بنا في سجن، وعندما أطلقوا سراحنا كنا خدماً. لم يكن إميل برنفو يحب جده، نعم، كان يحترمه، وفي النهاية كان يُجله، ولكنه لم يستطع أن يحبه خلال حياته، هذا الرجل العجوز المتبرم. والآن، ها قد أمسى هو أيضاً عجوزاً. قبل الأوان بكثير. كان يعشق بروكسل في الصباح الباكر.. هذه الفكرة لم تخطر على باله أبداً من قبل. كان يعبر هذا الميدان ببساطة متوجّهاً إلى عمله. والآن رأى بروكسل مثل شخص عليه أن يودع ما حوله. لماذا؟ ليس في نيتي... واصل سيره، مسرعاً، يريد أن يحتسي قهوته وأن يهيئ نفسه لاجتماع الثامنة صباحاً. لم يكن يعلم أن هذا شيء موجود بالفعل: الهواجس. مفتش شرطة هو، لا يعتمد على الحدس والتكهنات والأحلام. كان جده يقول دائماً: الحلم بكأس بيرة لا يروي العطش. ظل المفتش مؤمناً بذلك، ولم يكن الأمر سيتغير لو كان قد امتهن مهنة أخرى.

سيكون بالفعل هذا هو اليوم الذي يتحتم عليه الوداع. ظن أن المشكلة في البطن. يضغط بطنه المتنفخ الكبير على رئته، فيتقلص حجمها، هكذا شعر بالأمر، واعتقد أن ذلك هو سبب ضيق التنفس الذي يشعر به والذي يسمعه الآخرون كتنهيدة.

كان يوماً صقيعياً من أيام يناير، تحت سماء منخفضة ذات لون

رمادي كالحديد الصلب. الأرض -التي تحتم على حفار قبور أن يحفرها- كانت صلبة مثل أحجار هذا الميدان الفخم.

ينبغي على برنفو أن يخبرهم في اجتماع الثامنة أنهم لم يعثروا على أي شيء فيما يتعلق بـ «جريمة القتل في الأطلس»، لا شيء مطلقًا. راح يمسح بكفه على بطنه مرة بعد أخرى، كان قد أكل مع القهوة قطعة «كرواسان» لا يزال فتاتها الدسم يلتصق بقميصه، كان يتحدث ويمسح، ويواصل التحدث والمسح. كان للأمر تأثير وكأنه خدعة. هناك جثة رجل، مجهول الهوية. نزل الرجل باسم مستعار في الفندق، ادعى أنه مجرّي من بودابست، لكن جواز سفره مزيف. أفادت موظفة الاستقبال أنه كان يتحدث الإنجليزية بلكنة ثقيلة، ولكنها لا تستطيع أن تحسم ما إذا كانت اللكنة مجرية. أدى رجال المعمل الجنائي عملهم بسرعة ودقة، ولكن لا البصمات ولا آثار الأسنان أو الدماء أدت إلى مؤشرات تقودهم إلى بيانات في بنك معلومات الشرطة الفيدرالية. كما لم يؤدّ تحليل الرصاصة القاتلة إلى أي نتيجة. ربما يأتي شيء من البوليس الأوروبي «يوروبول». لا يؤكد تقرير الطبيب الشرعي سوى ما هو ثابت بالدليل: كان القتل إعدامًا، رصاصة أُطلقت في القفا عن قرب بالغ. على ما يبدو لم يبحث القاتل في الغرفة عن شيء، ولم يسرق شيئًا. المتاع الشخصي للضحية الذي عُثر عليه لا يعطي مؤشرًا على هويته الحقيقية، أو الدافع المحتمل للقتل. لا شيء يلفت النظر، باستثناء الخنزير. نعم، خنزير. أفاد عديد من الذين تواجدوا وقت وقوع الجريمة بالقرب من فندق أطلس، وكذلك بعض الساكنين بجوار الفندق، بأن خنزيرًا طليقًا كان

يعدو أمام الفندق. قال المفتش إنه أمر غامض تمامًا، بعد كل التحريات والتحقيقات التي أجريت حتى الآن في هذا الحادث ليس لدينا سوى نقطة واحدة محددة يمكننا الارتكاز عليها: خنزير.. لكننا لا نعرف حتى ما إذا كان هذا الخنزير له أي علاقة بالحادث. مسح مرة أخرى على بطنه، ثم وضع كلتا يديه على بطنه، ضاغطًا عليه ومتنفسًا بعمق. هذا ما لدينا، سادتي!

لم ينطق أحد الضباط بحرف. لم يفكر إميل برنفو في أنهم ربما يخبئون شيئًا لم يعرفه بعد، أو أنهم يتكتمون على فكرة لم تخطر على باله. نهض وطلب من رجال فريقه أن يذهبوا إلى غرفة الاجتماعات.

لا نستطيع تغيير حالة الأشياء، قال لهم، ولكن نستطيع التالي: أولاً، الانتظار لمعرفة ما إذا كنا سنحصل من «اليوروبول» على رد على البيانات التي أرسلناها. ثانيًا، الخنزير. إننا لا نعرف هوية الضحية، ولكن ربما نستطيع معرفة هوية الخنزير. اغتصب ضحكة. خنزير كهذا لا يأتي سائحًا إلى بروكسل بالطائرة، ثم يتمشى في وسط المدينة. لا بد أن له صاحبًا أطلقه، أو هرب منه الخنزير. إذن علينا أن نفحص بيانات كافة مربّي الخنازير في محيط منطقة بروكسل. ثم ثالثًا، على وجه الخصوص: أرى أن أعرف من هو الرجل الذي وقف عند شبّاك البيت الآيل للسقوط. ربما يكون رأى شيئًا. ربما يكون صاحب الشقة، أو صاحب المنزل. هذا شيء من الممكن معرفته بسرعة. أريد أن أعرف ذلك عند عودتي في الواحدة ظهرًا. والآن عليّ الذهاب إلى المدافن.

المدافن وحدها لا تزال تتحلى بالتهذيب.

كانت الغرفة دافئة أكثر مما ينبغي، فسار دافيد دو فريند على الفور إلى النافذة ليفتحها. ولكنه وجد أن النافذة لا يمكن فتحها بشكل كامل، وأن الفتحة الصغيرة المتاحة لا تسمح للمرء حتى بأن يمد يده. ألقى نظرة إلى أسفل، إلى شواهد القبور المرتبة ترتيبًا صارمًا تحت السماء الرمادية العالية، وتساءل ما إذا كان ممكنًا تغيير آلية فتح الشباك، أو إزالتها بشكل كامل.

أوضحت السيدة جوزفين لدو فريند أن عليه ألا يناديها بـ «الأخت الممرضة»، فليست هذه الدار مستشفى، بل بيتًا للمسنين، أليس كذلك، سيد دو فريند؟

كانت تتحدث بصوت عال جدًا، بل كانت تصرخ، اعتادت ذلك خلال السنوات التي تعاملت فيها كثيرًا مع ثقيلي السمع. أغلق دافيد دو فريند عينيه، وكأنه يستطيع بذلك إغلاق أذنيه. الشباك.. «من أجل سلامتك...»، سمعها تصيح وتزأر، تملكته رغبة واحدة: أن تخنفي هذه المرأة. لم يكن يتحمل نبرة صوتها الذي يشبه صوت الحراس في معسكرات الاعتقال، كما لم يتحمل قناع اللطف الذي وضعته على وجهها، والابتسامة الدائمة على فمها. كان يعلم أنه يظلمها، ولكن إذا كان ثمة عدل في هذه الحياة، لما تعرض إلى هذا الموقف هنا. وقفت الآن بجانبه وصاحت في أذنه: كم هي جميلة الخُضرة الكثيرة أمام الشباك، أليس كذلك؟ أدار ظهره لها، وخلع الجاكت، ثم ألقى به على السرير. أضافت أنها وفريقها تحت أمره دائمًا، أليس كذلك؟ إذا احتاج

إلى مساعدة أو إذا واجه مشكلة، عليه أن يناديهم فحسب، هنا باستخدام التليفون الداخلي، أو هناك، بجانب السرير، بالضغط على الجرس، أليس كذلك، يا سيد دو فريند؟ نظرت حولها وعلى وجهها حماسة وكأن هذه الشقة البالغة الصغر جناح فخم، ثم فتحت ذراعيها وصرخت: هذه هي إذن مملكتك الصغيرة الآن! ستشعر هنا بالراحة!

جملة بصيغة الأمر. مندهشًا رآها تمد يدها ناحيته. استغرق الأمر وقتًا حتى صدر عنه رد فعل. عندما مد يده أخيرًا، كانت تهتم بسحب يدها مرة أخرى. بعد تردد قصير تمت المصافحة. أتمنى لك كل الخير، في تلك اللحظة لمحت الرقم الموشوم على ساعده. قالت بصوت منخفض: أليس كذلك؟ ثم انصرفت من الغرفة. تجول دو فريند ببصره في مملكته الصغيرة، وتعجب من أن ذلك لم يلفت نظره عندما عاين عدة دور للمسنين، ثم اختار هذه الدار: كل شيء في هذه الغرفة مثبت ومُسمّر. لا قطعة أثاث يستطيع المرء تحريكها أو تغيير مكانها. ليس السرير والكومودينو فحسب، بل أيضًا الخزانة، وخزانة الملابس الصغيرة ذات الأبواب المطلية بالأبيض، والفتريئة الصغيرة ذات الأبواب الزجاجية، وأيضًا المائدة الصغيرة والكنبة التي تكون حرف L حول المائدة، كل ذلك مثبت، وكذلك التلفزيون على الجدار، بل حتى الصورة فوق السرير - فينيسيا تحت المطر، تقليد رخيص للأسلوب الانطباعي - كانت موضوعة على نحو لا يمكن للمرء أن ينتزعها. لماذا فينيسيا؟ ولماذا تحت المطر؟ هل يجب على أهالي بروكسل أن يعزوا أنفسهم في خريف العمر بأن المطر يهطل أيضًا في أجمل أماكن العالم؟

مطبخ صغير. لا شيء يمكن أن يزعجه المرء أو يغيره من مكانه أو يضعه في مكان آخر. ولا حتى كرسي. كل شيء نهائي لا يمكن تغييره. سار إلى الخزانة، خلف الزجاج رأى بعض الكتب التي أحضرها معه، محشورة بين سنادتين للكتب من الخزف على هيئة خنزيرين يقرآن. هدية تلقاها في آخر لقاء جمعه مع الذين درسوا معه في الصف الثانوي، قبل أن يُحال إلى التقاعد. أراد أن يأخذ كتبًا ويوزعها هنا وهناك، على المائدة، على السرير، فهي الشيء الوحيد الذي يمكن تحريكه من مكانه في هذه الغرفة. فتح باب الخزانة، وترك نظره ينساب على كعب الكتب، ثم مرة أخرى، تردد... ماذا كان يريد؟ القراءة؟ هل كان يريد أن يقرأ؟ لا. وقف هناك يحملق في كعب الكتب، ثم أغلق الخزانة. كان يريد.. ماذا؟ الخروج؟ كان يريد الخروج. سار إلى النافذة. مدافن مدينة بروكسل. ليس ثمة شيء في متناول يديه. ولكن هناك أمل. ارتدى ملابس ثقيلة.

خطوات قليلة فحسب تفصل بين دار المسنين «ميزون هانسنس» في شارع «دو لاربر أونيك» وبين البوابة الرئيسة للمدافن. برد ثلجي. السماء الرمادية. البوابة الحديدية. شعر بالهدوء عندما رأى طيورًا، غربان وعصافير. وحيوانات خُلد كثيرة بين المقابر، لا يتذكر أنه رأى يومًا في أحد المدافن كل هذه الحفر التي تخلفها حيوانات الخُلد، بل لم يسبق له أن انتبه قبل ذلك لحفر حيوانات الخلد في مدفن. وفي كل مكان ينمو الفطر هنا بين اللباب، كميات هائلة من الفطر، هذا -هذا- لم يخطر على باله الاسم. كان يعرفه، إنه على كل حال نوع لا يؤكل.

كان ذلك هو كل شيء. ثمة مقبرة مقلوبة، بالمعنى الحرفي للكلمة، من جراء الجذور السميكة لشجرة عملاقة. وإلى جوارها ألواح القبر التي تحطمت بسبب الأشجار المتهاوية أو الغصون المكسورة. طحالب فوق الأحجار المحطمة. أشجار صغيرة زرعت حديثاً بجانب أشجار عتيقة سقطت أو أُسقطت، وترقد الآن متعفنة بين المقابر. على أرض الموت هذه احتضرت الأشجار أيضاً، وهبطت إلى جوف الأرض. أكاليل صغيرة من الجبس معلقة على شواهد القبور القديمة. في بعض الأحيان إكليان أو ثلاثة، بعض هذه الأكاليل كانت الآن أمام شواهد القبور أو بجانب القبور. وكأن أطفالاً غير أسوياء يلهون بها.

بين الحين والآخر كان يظل واقفاً أمام هذه المقبرة أو تلك، يقرأ الأسماء، ويتأمل الصور المطبوعة على المينا المزجج. كان يحب الذهاب إلى المدافن، أن يكون للبشر مقابر عليها أسماؤهم هو أمر جميل برأيه. بشر ماتوا، وبإمكان المرء زيارتهم. رأى مقابر لأطفال، ولأشخاص ماتوا صغاراً جداً، ضحية مرض أو حادثة أو جريمة قتل، مصائر مأساوية، لكن لكل منهم مقبرة. طالما وجدت مقابر، فثمة وعد بالحضارة. مقابر والديه وأخيه وجده وجدته كانت في الهواء. ليس هذا مكاناً يستطيع المرء زيارته والاعتناء به ووضع شاهد من حجر فوقه. ليس ثمة مقر أخير. ما يستقر في النفس هو القلق الذي لا يجد مكاناً للسلام. في الذكريات التي ستموت معه ثمة صورة أخيرة وحيدة لعائلته، صورة رسخت في ذاكرته بعد النظرة الأخيرة.. ولم يكن ذلك سوى ادعاء. لم ير وجه أمه، لم ير سوى يدها التي أمسكت به عند الكم

إلى أن حرر نفسه، ليس لديه صورة أخيرة للأب، لديه ذكرى صرخة فحسب: «ابق!»، الصرخة «ابق هنا! «ستودي بنا إلى كارثة!».. أما أخوه الصغير فكان بلا وجه، لا يرى سوى ظهر طفل يضغط على أمه. فيمَ عدا ذلك؟ ذكريات تبدو مسروقة من كنز ذكريات الآخرين: ذكريات الأب والأم والطفل، ذكريات من كل شكل، أسعد الذكريات. سوداء مثل رماد صور محترقة.

كان أبوه يحب كعكة الأرز، «تارت أو ري». كانت تلك ذكرى. في الوقت نفسه لم تكن شيئاً. ليس لديه صورة عن ذلك. كيف كانت العائلة تجلس حول المائدة، ثم يقول الأب بوجه بشوش لامع: «همم، اليوم لدينا أخيراً «تارت أو ري»!، أو كيف تضع الأم الكعكة على المائدة، بينما يدعو الأب أطفاله إلى التعقل: «توقف! ليس بهذه الوحشية!»، وتقول الأم: «في البداية يحصل بابا على قطعة كبيرة!»، و... الأمر على هذا النحو خطأ! لا صورة تذكارية، أو فيلم، لم ير نفسه يجلس مع العائلة حول المائدة، مع «تارت أو ري»، ليس سوى جملة: «بابا يحب «تارت أو ري»! ولكن لماذا؟ لماذا هذه الجملة؟ ومن أين أتت؟ هذه الجملة تحديداً؟ كذكرى لحياة؟ إنها في الوقت نفسه جملة ميتة، مدفونة في رأسه. عندئذ رأى شاهد قبر محفور عليه:

TOUT PASSE

TOUT S'EFFACE

HORS DU SOUVENIR^(٥)

(٥) العبارة بالفرنسية، ومعناها: «كل شيء يمر / كل شيء يُمحى / ما عدا الذكرى». (المترجم).

توقف وتمعن طويلاً في هذه الكتابة، انحنى ورفع حصاة من الأرض، ووضعها فوق هذا القبر.

كل هذه المقابر المحطمة. الطبيعة تخرب. أحجار قبور زحزحتها جذور الأشجار عن مكانها، قبور تهدمت تحت وطأة الغصون المكسورة والأشجار المحطمة، وأحجار ابتلعها النباتات التي نمت بوحشية. آثار صراع التنافس بين البشر تتحلل وتتفنن، شهوة التباهي: أضرحة آيلة للسقوط، ينتشر الفطر في جنباتها، أضرحة كان عليها أن تشهد شهادة فخمة على سلطة عائلة وثروتها، الآن تتحلل، ولا تُظهر إلا شيئاً واحداً: الفناء. وأمامها لافتات وضعتها إدارة المدافن: بنهاية هذا العام ينتهي تأجير مكان هذه المقبرة.

من دون مال تموت حتى المقابر.

كان متعباً، فكر قليلاً، أليس من الأفضل أن يرجع؟ لا، إنه يريد أن يستكشف الأماكن المجاورة لسكنه الحالي.

انعطف يساراً دون أن يلتفت إلى لافتات الطريق التي تشير إلى مقابر الجنود الألمان وأبناء دول الكومونولث والهولنديين:

„Deutscher Soldatenfriedhof“, «Commonwealth War Graves“, «Nederlandse Oorlogsgraven“

عند ذلك بدأت الصفوف المتناسقة، وعليها شواهد قبور ذات ارتفاع متساوٍ دائماً، بتمائلها اللانهائي أوحى له بهدوء درامي وجمال

بعد الفوضى الحية والصارخة في الجزء المدني من المدفن، الانعتاق
الكامل من الحياة المسلوبة، نحو الجمال والكرامة.

في عمر الرابعة والعشرين - ماتَ فداءً الوطن.

في عمر العشرين - ماتَ فداءً الوطن.

في عمر السادسة والعشرين - ماتَ فداءً الوطن.

في عمر التاسعة عشر - ماتَ فداءً الوطن.

في عمر الثالثة والعشرين - ماتَ فداءً الوطن.

في عمر الثالثة والعشرين - ماتَ فداءً الوطن.

في عمر الثانية والعشرين - ماتَ فداءً الوطن.

في عمر الحادي والثلاثين - ماتَ فداءً الوطن.

في عمر الرابعة والعشرين - ماتَ فداءً الوطن.

في عمر التاسعة والثلاثين - ماتَ فداءً الوطن.

في عمر الحادي والعشرين - ماتَ فداءً الوطن.

من أجل مجد الأمة.

*Mort pour la patrie, for the glory of the nation, slachtoffers
van den plicht.*

من يسير هنا بمحاذاة المقابر، يمر على الصفوف مثل جنرال
يستعرض جيش الموتى، مثل رئيس يستعرض حرس الشرف في العالم
السفلي. أغلق عينيه. وفي تلك اللحظة تحدّث معه شخص. رجل سأله

عن إذا كان يتحدث الألمانية أو الإنجليزية.

- بعض الألمانية.

- وهل يعرف أين هو ضريح الحب غير المشروط؟

- نعم؟

قال الرجل إنه قرأ عن ذلك في الدليل السياحي، هل تفهمني؟ نعم؟ جيد. في الدليل السياحي إذن. لا بد أن يكون هنا في مكان ما. ضريح الحب غير المشروط. لا تعرف؟ قال دو فريند إنه لا يعرف.

شكره البروفيسور إرهارت، وواصل سيره. في نهاية الطريق الذي تحيط به الأشجار لمح مبنى وقف أمامه عدد من الأشخاص، ربما يعطونه هناك بعض المعلومات. لا يزال لديه وقت. معظم المشاركين في مجموعة «حلف جديد من أجل أوروبا» سيجيئون أثناء فترة الضحى، ولهذا سيبدأ اللقاء اليوم في الواحدة ظهرًا. جاء يومين قبل اللقاء حتى يشاهد معالم المدينة، طالما أنه دُعي إلى بروكسل، وحتى لا يجلس طيلة الوقت في غرفة مغلقة مكيفة الهواء. ليست لديه التزامات أو عائلة في فيينا. من هذا المنظور كان في أفضح المواقف الممكنة بالنسبة إلى شخص في عمره: كان حُرًا. لا يزال يحصل على دعوات كهذه بفضل سمعته الأكاديمية الممتازة، كان يقبلها دائمًا، ويحضر نفسه بدقة للقاء، رغم أن لديه، أو ربما بسبب أن لديه شعورًا متناميًا بأنه لم يعد يستطيع تقديم مداخلات يتولد عنها نقاش، إنه يقدم في الحقيقة محاضرات هي

بمثابة وصيته العلمية. ولكن، في هذه الحالة يجب أن يكون الأمر هكذا: عليه إخبار الورثة بأن هناك تركة لا تتوافق مع روح العصر، وأن قبولها يمثل تحديًا لهم.

في البداية بحث ألويس إرهارت في هذا اليوم عن مقبرة أرماند مونس، رجل الاقتصاد الذي أثار في الماضي الكثير من الجدل، ثم طواه النسيان. في زمنه كان أستاذًا بجامعة لوفان، واستطاع في ستينيات القرن الماضي استحداث نظرية لعلم اقتصاد ما بعد الدول القومية، ومنها استنبط ضرورة تأسيس جمهورية أوروبا المتحدة. إن التشابك المتنامي لاقتصاديات الدول، وما ينتج عن ذلك من تبعات متبادلة، ونفوذ الشركات الضخمة متعددة الجنسيات، والأهمية المتزايدة لأسواق المال العالمية.. كل ذلك لن يتيح بعد اليوم للديمقراطيات في الدول المختلفة أن تنهض بواجبها الأساسي، أي التدخل بصورة فاعلة في الظروف التي تتحكم في حياة البشر، وتضمن بشكل دائم التوزيع العادل للثروات. «أغلقوا البرلمانات المحلية!».. كانت هذه صيحة قتالية صادرة من رجل ديمقراطي بحق، كان عليه، بالنظر إلى الموقف التاريخي، أن يخترع الديمقراطية من جديد. آنذاك، لم يُنظر إلى نظريته القائلة بضرورة موت الديمقراطية القومية باعتبارها فضيحة أو يوتوبيا مجنونة، ما يعود إلى حرية البحث العلمي المطلقة السائدة في ذلك الزمن، كما يرجع إلى الحرية نفسها عدم استطاعته فرض آرائه على رجال الاقتصاد الذين يدافعون عن الاقتصاد القومي، «المجتريين» (مثلما كان يطلق عليهم): «ساعدتنا في البداية الحرية

الأكاديمية المطلقة، حرية إلى درجة الجنون، لكنها في النهاية رسخت سلطة المجانين الحقيقيين»، هكذا كتب في مذكراته.

قبل خمسة وأربعين عامًا استمع إرهارت وهو بعد طالب غض إلى محاضرة ألقاها الأستاذ الزائر أرماند مونس في ألباخ، ومنذ ذلك اليوم اعتبر نفسه تلميذًا له. قرأ بإخلاص كل أعماله المنشورة. وعندما نشر عمله الأول، أرسل نسخة إلى معلمه الذي كان على فراش الموت. رد مونس برسالة، ولكن القدر لم يمهل تبادُل رسائل أخرى، إذ توفي مونس بعد أيام. وقف إرهارت متأثرًا أمام مقبرته:

أرماند يوزف مونس ١٩١٠ - ١٩٧٢

أمام شاهد القبر، إلى الجانب، وجد لافتة من المينا المزجج، كان مكتوبًا عليها:

«Toen hij het meest nodig was,

werd hij vergeten»

Studenten werkgroep «Moens eed»

aan de Katholieke Universiteit Leuven^(٦)

كان على القبر زهور ندية وزجاجة من «الشنابس»، وخنازير عديدة جالبة للحظ. بمختلف الأحجام ومن مختلف المواد، من البلاستيك والقماش والخشب والخزف.. لم يستطع ألويس إرهارت أن يفسر وجود الخنازير. التقط صورة، ثم صورة ثانية، في هذه المرة لشاهد

(٦) باللغة الهولندية، ومعناها: لقد طواه النسيان ونحن في أمس الحاجة إليه. «مجموعة العمل الطلابية «قسَم مونس» بالجامعة الكاثوليكية في لوفان». (المترجم).

القبر واللافتة، دون الخنازير.

عندما بحث عن مكان مقبرة البروفيسور مونس، عثر على إشارة بوجود هذا الضريح الذي يجذب السياح إلى مدافن مدينة بروكسل: ضريح الحب غير المشروط. والآن، راح يبحث عنه. كان أحد بارونات بروكسل، نسي ألويس إرهارت اسمه الآن، قد صنع ثروة من خلال مساهمته في مناجم في الكونغو البلجيكية، وخلال رحلة قام بها إلى المستعمرة وقع في غرام امرأة ملكت عليه نفسه، فأخذها معه وعاد بها إلى بروكسل حتى يتزوجها.. «زنجية!»، لم يؤد ذلك إلى نبذه عن المجتمع البروكسلي الراقي فحسب، بل أوقعه أيضًا في مشاكل قانونية عدة. لكنه استطاع -بعد صراع طويل، وبمساعدة أفضل محامي المدينة حينًا، وعبر دفع مبالغ كبيرة في أحيان أخرى- التغلب على الصعوبات أخيرًا. صمدَ عشق البارون في وجه كل العواصف. «أفضل أن أعيش منبوذًا مع هذه المرأة، عن أن ألقى الاحترام من غيرها!»، في حفل الزواج الذي سُمح به أخيرًا لم يظهر أي ضيف من الضيوف المدعوين، باستثناء الدوقة المجنونة العجوز أدولفين مارات التي دعتهما بعد إتمام القران إلى تناول الشاي في قصرها. شهد على الزواج عاملان كانا يصلحان غطاء البالوعة في الشارع أمام مكتب عقد القران، وأبديًا استعدادهما -مقابل خمسين فرنكًا لكل منهما- أن يقطعها عملهما لمدة ريع ساعة. بكلمات خالدة بررت الدوقة مارات دعوتها للعروسين لحفل استقبال في قصرها، وهو ما جلب لها العداوة: «إذا كان هو مستعدًا لمنح هذه المرأة اسمه، فبإمكانني إذن أن أقدم لها بعض الشاي!».

هذه السيدة التي تُدعى لبيلوله (احتفظ البروفيسور إرهارت بالاسم في ذاكرته، ومعناه أنثى اليسوب الصغيرة) توفيت بعد فترة قصيرة، في عام ١٩١٠، بعد ولادة ابنها الميت الذي التف الحبل السُّري على عنقه وخنقه. كاد الألم يقتل البارون -واسمه كاسبرس، فيكتور كاسبرس- فكلف معماريًا فرنسيًا ببناء ضريح فخم في مدافن المدينة تخليدًا لعشقه، وبالضريح غرفة للصلاة. بسقف الغرفة دائرة كانت مصممة بحيث ينفذ منها في كل عام، وتحديدًا في تاريخ وساعة الوفاة، بقعة ضوئية على شكل قلب، تسطع على تابوت الحبيبة.

أراد البروفيسور إرهارت أن يرى ذلك. توقع أن تكون هناك لافتات إرشادية تقود إلى مَعْلَم سياحي كهذا، ولكنه لم يجد أي شيء مماثل. أهنأك أكثر من مدفن في بروكسل؟ هل كان في مدفن آخر؟ وصل إلى المبنى الذي لمحه من بعيد والذي تجمع أمامه الآن مجموعة كبيرة من الناس.

اندهش عندما رآه بين الموجودين، لا مجال للخطأ، وقف هناك بهيئته العملاقة الثقيلة. كان هذا هو الشرطي الذي استجوبه في الفندق، لا شك في ذلك، هذا هو المفتش الضخم. بقي واقفًا محددًا في اتجاهه، فتقاطعت نظراتهما. لم يكن إرهارت متأكدًا ما إذا كان المفتش قد تعرف عليه.. غير أن المفتش تشتت انتباهه الآن، إذ اقترب منه رجلان بخطوات سريعة، وتبادلا معه التحية وبضع كلمات، ثم دخلوا المبنى الذي اتضح، وهو ما رآه إرهارت الآن، أنه مخصص لحرق الجثث.

لم تكن من مهام المفتش برنفو أن يكون حاضراً عند حرق جثة قتيل . كما لم يكن ثمة سبب جنائي . بعد جرائم القتل تُصادر الجثة ، ويقوم الطبيب الشرعي بتسريحها . بعد ذلك يُسمح بدفنها . إذا كانت هوية الضحية معروفة وإذا كان لديها أقارب ، فإنهم يقومون بتنظيم الدفن . أما إذا كانت الهوية مجهولة ، يتم حرق الجثة بعد ٤٨ ساعة من التسريح ، وذلك بتكليف من المدينة . خلال ذلك يحضر موظف من إدارة المدينة ، ويفحص الأوراق ، ويؤكد أن المتوفى هو الذي يحمل رقم الملفات الفلاني ، ثم يتلو نصاً يستغرق نحو خمس دقائق عن فناء الحياة الدنيا وعن السلام الأبدي ، وذلك حتى يتوفر القدر الأدنى من الدفن الآدمي اللائق ، ووفقاً للوائح الاتحاد الأوروبي ، وعندئذ يهبط التابوت إلى غرفة الحرق . بعد ذلك يُنثر الرماد على المرج الأخضر المحيط بالبحرقة . في الحقيقة يُلقى به ، ثم يلصق على شاهد ملصق باسم المتوفى ، وفي حالة عدم معرفته يكتب على الملصق رقم ملف المتوفى . لم يكن من المنتظر أن يحضر أحد المشتبه بهم ، ناهيك عن القاتل نفسه إلى هذه المراسم التي لا يعرف أحد مكانها أو ساعة انعقادها سوى الموظف المعني . ولكن ، هناك دائماً جمهور ، أناس يتمشون بشكل منتظم في المدافن ، متقاعدون ، أرامل ، أمهات من المنطقة المحيطة يدفعن بعربات الأطفال ، وهؤلاء كانوا يتوقفون ، إما احتراماً أو فضولاً .

غير أن المفتش برنفو لم يأتِ إلى هنا بسبب الحالة التي كان يحقق فيها ، بل لأن اليوم هو ذكرى وفاة جده . من أجل هذه المناسبة تجمع قبل سنوات عديدة حول مقبرة الجد - بطل المقاومة البلجيكية - عدد محترم

من الناس، ثم أخذ يتناقص تدريجيًا. روى حكايات، واحتسوا كؤوسًا من «الشنابس»، وغنوا أغاني. وفي النهاية النشيد القومي البلجيكي.. وعند الشدو بالمقطع الذي يقول «الأحرار أصدقاء»، بدا المسنون الذين كانوا يغنون بحماسة، بل الذين كانوا يصرخون وكأنهم فرقة من المجانين. وعندما يأتي الشطر الذي يقول: «الملك، القانون، الحرية» *Le Roi, la Loi, la Liberté!* كان هناك دائمًا شخص يسكت الكورال بحركة من يده وكأنه مايسترو، ثم يصيح: لا يمكن أن ننال كل شيء! عن أي شيء نستغني؟ فيصيح الجميع: عن الملك! وعن أي شيء لا يمكن أن نستغني؟ الجميع: القانون والحرية!

عبر هذه الطقوس دخل الخوف إلى حد ما قلب إميل برنفو وهو بعد صبي، شعر بالخزي لإحساسه بالنشوة عند مقبرة. كان يظن رائحة النفثالين المتصاعدة من بدل المسنين هي رائحة البارود. فيما بعد، بعد وفاة الوالدين، بدأ يشعر بالاحترام والإعجاب تجاه الرجل الذي أدخل الخوف في قلبه طفلًا، بل بدأ يشعر بالفخر أيضًا! وفيما بعد، عندما كانت الدموع مستعدة لكي تنفجر من أكياس الدموع التي زادت تضخمًا، وعندما أحب أن يعانق الناس الذين يتجمعون عامًا بعد عام عند هذه المقبرة، لم يعد يجد أحدًا هنا، لا أحد حيًا يمكن أن يذكره بجده، وبأعماله البطولية. رغم ذلك، في مثل هذا اليوم من كل عام كان يأتي إلى هنا ليقضي عند القبر ساعة في التأمل والوحدة. صادف الأمر اليوم أنه واصل سيره إلى محرقة الجثث، حيث كانت «القضية» التي حقق فيها تتحول رمادًا. لم يكن يتوقع أن ذلك سيجعله يتقدم في

تحرياته، ولهذا زاد عجبه عندما رأى هناك الرجل الذي تحدث معه في أعقاب التحريات الأولى في مكان الجريمة. في البداية بدا له الرجل وكأنه يعرفه دون أن يحدد من أين يعرفه، استغرق الأمر عشر دقائق حتى اتضح له من أين يعرفه. على الفور خرج من قاعة المحرقة، لكن الرجل لم يعد هناك. سار برنفو قاطعًا عدة طرق في المدفن دون أن يستطيع العثور عليه.

غادر المدفن. أمام بوابة المدافن بالضبط يقع مطعم «لا روستيك» الذي كان يتردد عليه في كل مرة يزور فيها قبر جده. سأل برنفو نفسه: لماذا سدوا الشبايك في الطابق الذي يعلو المطعم؟ من غير المعقول أن يكون الساكن هنا لا يطبق النظر إلى المدافن. لا أحد يحيط نفسه بالأسوار ويسد النوافذ؛ لأن المنظر من الشباك يجعله مكتئبًا. شخص كهذا لن يقبل أساسًا السكن هنا. أي لغز يختفي خلف النوافذ المسدودة؟ طلب برنفو كالمعتاد «ستومب»، الأكلة المفضلة للجد، كما أنها بالنسبة إليه شخصيًا مذاق الطفولة العاطفي. كان الجد يقول دائمًا: الستومب هو الستومب. المهم هنا بالطبع هي جودة السجق: لا بد أن تنفجر قشرته عندما يغرز المرء الشوكة فيه. ولذلك لا بد أن تكون قشرته من الأمعاء الحقيقية، وليس من مادة بلاستيكية كالتي يتزايد استخدامها يومًا بعد يوم، مؤشر دراماتيكي على احتضار ثقافة الطعام العمالية في بلجيكا. هنا في «لا روستيك» لا يزال «الستومب» حقيقيًا. بسيط، حقيقي، ممتاز. ومعه احتسى كأسًا من بيرة ستيلأرتويس البسيطة، من البرميل مباشرة، وفي الختام كأسًا صغيرة من شنباس «جينيفر». تنهد

إميل برنفو، ثم انطلق عائداً إلى المباحث الجنائية.

ما إن عاد إميل برنفو إلى «منجم الفحم»، مثلما كان يطلق على مكان عمله، قال له الموظف الذي يعمل في خدمة الطوارئ إن رئيس المفتشين ينتظره بالفعل، وإن عليه أن يذهب إليه في غرفته على الفور. أعلن برنفو أنه سيذهب إلى المدافن ويعود في الواحدة ظهرًا. أواموا كلهم موافقين. والآن كانت الساعة الواحدة وخمس دقائق. ألا بد أن يظهر الرئيس أهميته مرة أخرى؟ توقع برنفو أن يلومه الرئيس لأنه لم يكن هناك سبب يبرر قيامه بتمشية في المدافن، ثم يعود متأخرًا أيضًا. هز كتفيه غير مبالي، لم يهزها في الحقيقة، بالأحرى ذهنيًا، وانتظر بصبر مقدم المصعد، ثم سار بروية في الممر حتى وصل إلى حجرة الرئيس، فدق على الباب ودخل على الفور.

عالم مقلوب، هذا ما فكر فيه في تلك اللحظة: لقد عاد لتوه من المدافن، ولكن الجنازة - هكذا كان انطباعه - تمت هنا. إلى يسار رئيس المفتشين جلس القاضي المشرف على التحقيقات، وإلى يمينه النائب العام، وكلهم بسحنة جادة كالموت.

- تفضل بالجلوس، الزميل برنفو!

لم يتعجب برنفو كثيرًا لوجود قاضي التحقيقات، فهو، في نهاية الأمر، الرئيس الفعلي الذي كان يعطي تعليماته بين الحين والآخر، ويطلب دائمًا إطلاعه على سير التحقيقات. ما أرسل إنذارًا فوريًا له هو وجود النائب العام، فهذا يعني: ثمة تدخل سياسي.

ولكن بماذا يفيد الإنذار إذا لم ينطلق الجرس إلا بعد أن تكون عواقب الخطر قد أصبحت واقعاً لا يمكن تغييره؟

نعم، ما حدث هنا كان عملية دفن. دفن «ملف أطلس».

«والآن»، قال المفتش مايجرت، ثم صمت. كان برنفو مقتنعاً بأن هذا الأحمق لم يتقدم مهنيّاً إلا بالصدفة، أن يكون له هذا الاسم كان مصادفةً تعيسةً للغاية بالنسبة للمدينة. لم يقل شيئاً، راح يراقب دون تأثير كيف كان مايجرت يبحث عن كلمات. حذر برنفو في مايجرت منتظراً، فوجه الأخير نظرةً إلى قاضي التحقيق ملتصماً منه العون، فنظر القاضي إلى النائب العام الذي قال في النهاية:

— شكراً، سيادة المفتش على وقتك. لقد قمنا لتونا بدراسة جريمة القتل التي وقعت في فندق أطلس، وحسبما أعرف فإنك...

قال برنفو:

— نعم.

قال المفتش مايجرت:

— والآن...

تدخل قاضي التحقيقات، مسيو دو روهان، قائلاً:

— هناك معلومات جديدة.

الشيء الوحيد الذي كان برنفو يجده مثيراً في روهان المعجب بنفسه هي زوجته. تعرف إليها في أحد الاحتفالات بعيد ميلاد المسيح، شابة رقيقة للغاية، ذات عينيْن واسعتين مظلمتين بالأسود. في كل مرة

كانت تهم المرأة بقول شيء، كان دو روهان يخرسها مبتسمًا وقائلًا: «والآن، يا غزالتي، عليك أن تصمتي!».. اجتاحت برنفو على الفور رغبة بالنوم معها. لم يعرف ما إذا كان يشتهيها فعلاً، أم أنه اشتهى إذلال زوجها؟ كان مخمورًا إلى درجة دفعت به إلى أن يبوح لها بالأمر في أذنها، على نحو مباشر جدًا، وغبي جدًا. حدثت فيه بعينين واسعتين، فشعر بالخجل على الفور. ردت قائلة:

- اليوم غير ممكن. اتصل غدًا!

بحركة من يده تنم عن عشقه لذاته تحسس روهان تسريحة شعره المصفف بعناية تامة، ثم طلب من المفتش أول مايجرت أن يشرح للمفتش برنفو ما توصلوا إليه من معلومات.

شعر برنفو بأن عجز الشرطة هنا يصيب النائب العام بالاشمئزاز، وأنه لم يكن ينتظر سوى التحدث مباشرة وبصراحة حتى يستطيع الانصراف والاهتمام بمواضيع أهم.

قال المفتش مايجرت إن الوضع كالتالي: هناك أسباب وجيهة تجعلنا لا نواصل التحريات في هذه القضية.

- أتفهم؟

قال برنفو:

- لا، لا أفهم. هل معنى هذا: لن نواصل نحن التحريات، أم أن عليّ أنا ألا أواصل التحريات، أم أن التحريات لن يواصلها أحد؟ كانت هذه هي المرة الثالثة خلال السنوات الخمس الأخيرة التي

كان يُستدعى فيها إلى مكان الجريمة ليقف في مواجهة جثة لا يعود لها وجود في اليوم التالي. هل هذه هي الأسباب الوجيهة؟ أن بروكسل هي مدينة الحياة الأخرى؟ مدينة القيامة من الأموات؟ هل اتحدت روح القتل مع جسده ثانية، وحيثما لا توجد جثة، فلا توجد قضية؟ هل أكد الطب الشرعي ذلك؟

«طيب»، قال مايجرت، «أَتَفْهَمُ أَنْ...».

غاضبًا حدّق برَنفو في هذا الأحمق. شعره السخيف الذي يشبه شعر القنفذ. والمثبت بجيل الشعر. وكأن رابطة العنق الضيقة للغاية جعلت شعر رأسه يقف.

- أَنَفْهَمُ أَنْك، الآن، أَنْك الآن لا تفهم، ولكن...

تدخل دو روهان قائلاً:

- الموضوع بسيطٌ جدًّا، ومن السهل للغاية فهمه. لم يعد لدينا أي علاقة بهذه القضية، لا أنت، ولا نحن، ولا أي شخص هنا. وما أقوله لك الآن لشرح الأمر هو في غاية السرية، ستسمع ذلك، ولكن أحدًا لم ينطق به أبدًا، مفهوم؟ إذن: هناك مؤسسة وحيدة لديها سلطة سحب قضية كهذه منا، وأن تجعل القضية تختفي، ثم تكشف عن ملابساتها بطريقتها. هذه المؤسسة تتمتع بنفوذ قوي لأنها في الحقيقة، أي بشكل رسمي، ليس لها وجود. لا يمكن أن تمد يدك وتلمسها، هل تفهم؟ إنها تمسك بمثل هذه الحالات، ولكن أحدًا لا يستطيع الإمساك بها. الأمر يدور هنا حول مصالح...

ردد برَنفو:

- مصالح؟! -

- تمامًا. نحن نفهم بعضنا البعض.

صامتًا راح النائب العام ينقل بصره من شخص إلى آخر وهو يومئ.

قال برَنفو:

- سيبقى الأمر بيننا.

مرة أخرى أوماً النائب العام. فواصل برَنفو قائلاً:

- نعم، سيبقى الأمر بيننا، مثلما يحدث في المسلسلات البوليسية في التلفزيون.

- نعم؟

- أوامر من أعلى، تدخل سياسي لإعاقة التحقيقات، تلميحات غامضة، فيما عدا ذلك: الصمت. هذا أمر نمطي بشكل لا يمكن تحمله، ولكن النمطية لا بد بالطبع من استكمالها: من خلال مفتش يرى نفسه مجبراً على أن يواصل بمفرده...

- أنت بالتأكيد لا...

- وفي النهاية يقف كبطل...

قال النائب العام:

- أنت بالتأكيد لن تقوم بمفردك باتخاذ أي خطوات. هذه تعليمات. وكما علمت من قبل فإن طلب الإجازة الذي تقدمت به قد تمت

الموافقة عليه.

- ولكنني لم أقدم طلب إجازة!

عندئذ قال مايجرت:

- هناك سوء تفاهم بسيط، لقد قلت إن السيد المفتش برنفو لا يزال

لديه أيام إجازات كثيرة لم يستهلكها.

شعر برنفو بانقباض هائل في صدره، فتنفس بعمق، وسمع روهان

يقول:

- رائع، عليك إذن أن تستهلك الآن أيام إجازتك، استرخ، أعرف

أنك كنت تحت ضغط هائل في الفترة الأخيرة،...

نهض النائب العام، فأسرع مايجرت وروهان في الوقوف، وبيطء

وقف برنفو، هذا الرجل الذي يبلغ طوله مترين والذي يفوق الموجودين

هنا قاماً، في تلك اللحظة شعر بنخزة في صدره، فتهاوى ثانية على

الكرسي. سدد النائب العام نظرة إليه، ثم قال مودعاً: أيها السادة!

عاد إميل برنفو إلى مكتبه، فاكتشف أن ملف «أطلس» الذي يضم

تقرير الشرطة ومحاضر التحقيقات الأولى وصور مكان الجريمة وتقرير

الطبيب الشرعي قد اختفى من مكتبه. كان قد حفظ كل ذلك على

الكمبيوتر. كتب كلمة السر - لكن الملف اختفى في مكتبه الافتراضي

على شاشة الكمبيوتر أيضاً. فتح سلة المهملات الافتراضية: لم يعثر بين

المستندات المحمأة على الملف. المحضر وكل ما له علاقة بالقضية

كان قد مُحي - متى جاء الأمر بالذهاب إلى فندق أطلس، أي السيارات

وصلت في أي وقت إلى مكان الجريمة، أي الموظفين كانوا في الخدمة، التقرير الأول عن آثار الجريمة - كل ذلك انمحي، وتبخرت القضية في الهواء.

كان يلهث، فضغط على بطنه إلى أسفل حتى يخفف العبء عن رثتيه، وأخذ نفساً عميقاً، وفتح الحزام وفك زر السروال. راح يحملق في الشاشة. كم من الوقت؟ دقيقة؟ عشر دقائق؟ لاحظ أنه لم يعد ينظر إلى الشاشة، بل يلاحظ نفسه: كيف سيتصرف؟ لا يعلم. رأى نفسه جالساً مثل جثة منهارة على كرسي. عندئذ راحت أصابعه تدق على لوحة الحروف، راح يبحث في «جوجل»: ماذا كتبت وسائل الإعلام عن الجريمة في فندق أطلس؟ لا شيء. أيّاً كانت الكلمات المفتاحية التي يكتبها، لا شيء، لا نتيجة. لا مقالة في أي صحيفة. جريمة القتل لم تقع.

تطلع حوله ولاحظ الآن أن اللوح المعلق عليه الأوراق قد نُظف: لقد انتزعوا الورقة التي كتب عليها في الاجتماع الأخير بخط كبير «فندق أطلس» ثم كلمة «خنزير»، ووصل بينهما بسهم، ثم أضاف خمس علامات استفهام.

خامرته فكرة غريبة: هل هذه هي اللحظة التي عليه فيها أن يصبح أخيراً حفيداً؟

حفيد المناضل الشهير في حركة المقاومة.

تناول سماعة التليفون وطلب من رجال فرقته المجيء إلى مكتبه. كان - هذا ما شعر به - قد حسم أمره تماماً.

دخل إلى الحجرة النقيب أول، ومساعدته، وثلاثة نقباء. أغلق المفتش برنفو جهاز الكمبيوتر، وتطلع إليهم ناظرًا في وجوههم، فأدرك على الفور أنهم يعرفون، وأنهم تأقلموا مع الوضع بالفعل. كان أمرًا ميووسًا منه. نهض، وقال إنه يريد أن يودعهم لأنه سيأخذ -عندئذ لاحظ أن سرواله بدأ يهبط، فأمسك به بسرعة- سيأخذ إجازة و... لم يرد أمام رجاله أن يغلق السروال ويشد الحزام، فصاح فيهم: اخرجوا!

هؤلاء الوصوليون المتأقلمون الجبناء سينهالون عليه الآن بالسخرية من شخصيته المضحكة. دمعت عيناه، وسار إلى اللوح، وتناول قلمًا وكتب بالفرنسية: القانون، الحرية! عندئذ تذكر الكتابة التي رآها اليوم أثناء مروره بأحد القبور، وكتب بالأسفل بخط كبير:

كل شيء يمر،

كل شيء يُمحي،

ما عدا الذكرى.

تناول عندئذ حقيبة أوراقه -كانت فارغة-، وانصرف.

المنطق الرياضي الذي يصفى أشياء كثيرة، وينظم كل ما حُكي حتى الآن، يتسم بالطبع بالجنون - لكنه في المقام الأول مهدى: العالم قصاقيص ورق مثورة، وعبرها نرى العالم مثل سيفساء.

هل وُجدَ الرابط التالي بسبب زيارة برنفو لمكان حرق الجثث؟

رسالة إلكترونية جديدة: «الموضوع: أوشفيتس - زيارتك».

شعر مارتين سوسمان بالبرد. كانت السماء تمطر، ولذلك لم يحضر إلى العمل بالدراجة بل بالمترو. الريح تحت الأرض في الأنفاق والممرات كانت شيئاً مختلفاً، أكثر قسوة وعدوانية من الريح التي يقابلها أثناء قيادة الدراجة. أما الحرارة البخارية المتولدة عن الأسراب التي تكتظ بهم عربات المترو فلم تهن عليه الأمر، بل أثارت المخاوف في نفسه من الأمراض المعدية، كان يخشى بصورة خاصة أن تنتقل إليه عدوى هذه البلادة وذلك الخنوع اللذين يصيبان الناس دائماً في القطارات.

«حضرة المحترم السيد سوسمان، يسعدني أن أرحب بك قريباً في أوشفيتس!».

كان قد أحضر كوباً من الشاي من «الكانتين»، ثم جلس أمام الكمبيوتر ليرى رسائله الجديدة.

«سأحضر بالطبع لاستقبالك في مطار كراكوف، وسأقوم شخصياً بتوصيلك بالسيارة إلى المعسكر. ستتعرف عليّ من خلال اللافتة التي سأرفعها وعليها اسمك».

وضع سوسمان كوب الشاي مشمئزاً. شعر بأنه سيمرض، لأنه خوفاً من المرض كان يشرب هذا الشاي.

رحلة العمل. كل الاستعدادات تم اتخاذها في الحقيقة. يدعم الاتحاد الأوروبي قسم الدراسات والأبحاث ومتحف معسكر الإبادة الألماني أوشفيتس-بركناو، ويشارك ممثلو المفوضية الأوروبية في السابع والعشرين من يناير في كل عام بالاحتفال بتحرير المعسكر. تقرر

هذا العام إرسال مارتن سوسمان نائباً عن «الثقافة»، فهو كان مسؤولاً أيضاً على الإشراف على الدعم والرقابة على صرف الأموال.

«أود أن أعطيك، إذا سمحت لي، نصيحة قبل مجيئك. من المهم ارتداء ملابس داخلية تبعث على الدفء. أوشفيتس-بركناو باردة برداً قارصاً في هذا الوقت. ولا نريد بأي حال من الأحوال أن تمرض في أوشفيتس!

في زيارتي الأخيرة في برلين اشتريت من متجر ملابس داخلية، أفضل ملابس ارتديتها طوال حياتي. لا أعرف اسم الماركة، ولكن، من فضلك، اذهب إلى متجر واطلب ملابس داخلية ألمانية! أقول دائماً: ملابس داخلية ألمانية لأنني اشتريتها في برلين، وهي بالتأكيد صُنعت في ألمانيا. سيكون ذلك معروفاً في بروكسل. ملابس داخلية ألمانية! أنصحك بشرائها. ملابس داخلية ألمانية هي أفضل شيء لأوشفيتس!».

ضغط مارتن سوسمان على «الرد»، وكتب ثلاث جمل لطيفة، ثم فتح الرسالة التالية، ونهض وغادر الغرفة، وألقى نظرة على حجرة بوهوميل شميكال الذي كان يضرب لوحة الحروف بسرعة محمومة، ثم رفع علبة السجائر عالياً، فأوماً شميكال، وخرجا من المبنى إلى سلم الإطفاء ليدخنا سيجارة.

قال بوهوميل: *Mrzne jak v ruským filmu*. لم يفهم مارتن حرفاً بالطبع، ولكنه وافق على كلامه قائلاً: نعم، نحن بحاجة إلى ملابس داخلية ألمانية!

غادر دافيد دو فريند المدافن. كان يشعر بالبرد. لكنه تحمل ذلك، لقد عايش بردًا أشد قسوة، من دون معطف كهذا الذي يرتديه الآن. قرر الذهاب إلى «لا روستيك»، هذا المطعم الواقع في الناحية الأخرى، وأن يأكل شيئًا صغيرًا ويشرب شيئًا باعًا على الدفء، كأس نبيذ أحمر. دخل، ووجد مكانًا على اليسار مباشرة، بجانب النافذة. أحضرت النادلة القائمة وسألته:

- هل أنت من دار «هانسنس» للمسنين؟ إذن عليك إظهار رقمك قبل أن أجهز الحساب.

- رقم؟

- للحصول على التخفيض!

«لا، لا»، قال دو فريند، لم يكن يعلم شيئًا عن هذه الأرقام، على الأقل لم تقل له الممرضة جوزفين شيئًا عن ذلك اليوم، «أنا عادي، أقصد زبون عادي».

«ممتاز»، قالت واضعة قائمة الطعام أمامه. طلب كأس نبيذ أحمر، نعم النبيذ الذي يوصي به المطعم. ثم سألها:

- بالنسبة للأكل، أريد شيئًا صغيرًا، هل تنصحيني بشيء؟

قالت له وهي تدق بإصبعها على القائمة:

- لدينا الأشياء العادية. ولدينا يوميًا *Menu Anti-Crise*^(٧).

- *Menu Anti-Crise?*

(٧) أي الوجبة المضادة للأزمة. (المترجم).

- نعم. في البداية شيءٌ دسّمٌ ومشعّ جدًّا، ثم شيءٌ حلوّ جدًّا. محبوبٌ جدًّا لدينا هنا. اليوم لدينا «شوكروت على الطريقة القديمة»، وبعد ذلك «موس أو شوكولا». ١٨ يورو دون رقم. وإذا طلبت قبلها نوعين من «الفوندو» مع جبن وجمبري، فسيكون السعر ٢٥ يورو.

نظر إلى هذا الشخص المرح وتساءل: كيف يتأثر الإنسان عندما يتعامل كل يوم مع المعزين، ليس مع الموتى، ولكن مع أقاربهم. قال لها:

- إذن «منيو أنتي كريز»، دون فوندو.

- ودون رقم. *D'accord!*

جلس ينتظر مرسلاً النظر عبر النافذة إلى مدخل المدافن في الناحية الأخرى. الآن تحديداً، عن بعد، ناظراً إلى هناك، خطر على باله أن بوابة المدافن تشبه إلى حدٍّ ما بوابة معسكر التصفية في أوشفيتس-بركناو. عندئذ وصل النيذ.

البوابة الحديدية تشبه دائماً بوابة أخرى حديدية. والبرجان إلى اليمين واليسار؟ ولكن ماذا يمكن أن يُبنى إلى يمين ويسار بوابة حديدية؟ مثل الناس في المعسكر.. كانوا بشرًا، وماذا يكونون غير ذلك؟ رغم ذلك فمن الجنون أن يتولد لديه انطباع بأن هناك تشابهًا. لا تشابه. هذا هو كل شيء.

الفصل الرابع

**إذا استطعنا السفر إلى المستقبل،
فسنبعد أكثر.**

كان مارتِن سوسمان يريد أن يجتاز رحلة العمل إلى بولندا، بقدر الإمكان، دون أضرار في الجسد أو الروح. لم يتخيل يومًا أن هذه الرحلة تحديدًا ستُهديه إلى فكرة، بل إلى الفكرة الملحاحة الخاصة بمشروع اليوبيل الكبير، وأنها في النهاية تكاد تقلب حياته رأسًا على عقب.

غير أنه عانى في البداية من التحضيرات للسفر.

لقد أصابته الدهشة عندما قاطعت البائعة على الفور كلامه المتلثم قائلة: *Bien sûr*، بالطبع تعرف الملابس الداخلية الألمانية، وذكرت له ماركة معينة، وبالطبع فإن المحل -أضافت مبتسمة- يبيع هذا المنتج الألماني ذا الجودة العالية.

كان مارتِن قد سأل كاسندرا ميركوري عن إذا كانت تعرف محلًا متخصصًا لبيع الملابس الداخلية، فنصحته بالذهاب إلى «إكسيل»، في جاليري «توازن دور»، وهناك يوجد محل لديه تشكيلة واسعة، المحل اسمه «توليه»، لا، اسمه «فروند»، نعم، بكل تأكيد: فروند. على كل حال مكتوب على لافتة المحل بخط كبير جدًا «ملابس داخلية»، استخدمت الكلمة الإنجليزية *Underwear*، كما أنه سيعرف المحل على الفور من المعروض في الواجهة. عندهم كل شيء. عن نفسها، فهي لا تشتري ملابسها الداخلية إلا من هناك.

عندما عثر مارتن على المحل -Fronde Dessous-، وألقى نظرة على المعروض في الواجهة، رأى كاسندرا ذات الحنان الأموي فجأة بأعين أخرى. هنا تشتري ملابسها الداخلية؟ كاسندرا؟ ظن أنه على ما يبدو لم يعبر عما يريده بوضوح كاف، هذا دون شك سوء تفاهم. رأى، نعم، ملابس داخلية رائعة، فعلاً ملابس مثيرة، ولكن له؟ ... لأوشفيتس؟

تلقت حوله، فرأى في الجانب الآخر لافتة محل يبيع مستلزمات المغامرات، هناك يعثر المرء على كل ما يحتاج إليه حتى يتسلق جبل إيفرست... ربما عليه أن يسأل هناك عن ملابس تقيه من الصقيع، هل فعلاً فكر في ملابس تقي من الصقيع؟ هذا شيء مثير للسخرية. لم يستطع أن يقرر، وهو ما زاد من تردده: أيسير بجسده الرخو المترهل إلى المغامرين المتباهين بذكوريتهم، أم لا، كاسندرا نصحته بالذهاب إلى «فروند»، وهكذا دخل المحل بعد تفكير قصير.

عندما حاول أن يشرح للبائعة ما يريد، شعر كأنه مراهق ريفي في السابعة عشر يخاطب فتاة لأول مرة في حياته في ديسكو بمدينة كبيرة. عندما قال: «ملابس داخلية ألمانية»، أضاف:

- أقصد، هناك ملابس داخلية خاصة تبعث على الدفء، أعتقد من شركة ألمانية، لا أعرف ما إذا كنت تفهمين ما أقصد، ولكنها على كل حال دافئة جداً...

أغلق عينيه، وكأنه يخشى أن تقرأ هذه المرأة من عينيه أنه في خياله يرى نفسه مرتدياً تلك الملابس المثيرة التي ترتديها الدمية في نافذة العرض.

- بالطبع!

رأى خزانة بأدراج كثيرة، كالتي يعرفها من الصيدليات، فتحت درجًا، ثم دفعته ليعود مكانه، وفتحت آخر، وأخرجت ملابس مغلقة بالسوليفان، فتحتها أمامه على الطاولة.

- تفضل، أهذا ما تقصده؟ فائلة، سروال داخلي طويل، جوارب، وهذا هنا «مُدْفَى للنبض» لتدفئة الساعدين. مائة في المائة «أنجورا». انظر هنا، مكتوب: جودة ألمانية. أقول لك، هذه الملابس أدفاً من نار جهنم.

ضحكت، ثم أضافت:

- أو لنقل: ساونا! هل ستقوم برحلة؟

- نعم، إلى... بولندا.

- أوه! أنا لا أعرف بولندا، ولكنني أتخيل أن المرء يحتاج إلى مثل هذه الملابس هناك. إنها تقريباً سيبيريا.

ضحكت، وفتحت الغلاف، ثم فردت أمامه سروالاً داخلياً طويلاً، ومرت بيدها على القماش، وقالت:

- المس القماش من فضلك! أتشعر كم هو ناعم ودافئ؟ مصنوع من فرو الأرانب، أرانب أنجورا، أتفهم؟ ولكن من ألمانيا، يعني: بالتأكيد دون تعذيب للحيوانات. وانظر هنا، هذه الشهادة: هذه الملابس تتطابق مع اللوائح الجديدة للاتحاد الأوروبي بخصوص الملابس الداخلية.

- نعم؟

- هذا صحيح، مسيو. أنا أيضًا استغربت. كان المندوب هنا قبل فترة قصيرة وشرح لنا ذلك. الأمر يدور حول قابلية الملابس الداخلية للاشتعال. هناك لوائح تنظم هذا الآن.

ابتسم مارتن ابتسامة متكلفة:

- أتقصدين أن هذه الملابس الداخلية دافئة إلى درجة أنها قد تشتعل ذاتيًا؟

ابتسمت الفتاة:

- لا، ولكن الأمر على وجه التقريب هو: غير مسموح لها أن تكون قابلة للاشتعال. لا أعرف أنا أيضًا لماذا. والأنجورا في الأصل فرو أرنب. الفرو بالطبع قابل للاشتعال إلى أقصى حد. ولكن الآن لم يعد كذلك. لا بد أنهم رشّوا عليه مادة أو شيئًا من هذا القبيل. الاتحاد الأوروبي، أتفهم؟ ربما لأن المدخنين على وجه الخصوص يشتركون هذه الملابس الداخلية، إذ يجب عليهم دائمًا أن يقفوا في الهواء الطلق، في البرد. والآن هناك لوائح من الاتحاد الأوروبي: حتى لا يشعل المدخنون النار في أنفسهم!

تضحك قبل أن تضيف:

- أو في السرير.

- السرير؟

- نعم، إذا ذهب مدخن إلى سريره وفي يده سيجارة، ثم غلبه النوم...

- عندئذ سيشتعل السرير...

- نعم، ولكن الملابس الداخلية لن تشتعل. هناك لوائح! انظر هنا: قابلية الملابس الداخلية للاشتعال تتطابق مع لوائح الاتحاد الأوروبي...

- لا أصدق ذلك، مودموزيل.

- ولا أنا، مسيو.

أول ما فعله كاي أوفة فريجة في يوم الاثنين هذا هو المرور بسرعة على قائمة «حقيبة السفر إلى الدوحة» التي وضعتها سكرتيرته مادلين على مكتبه من أجل التوقيع عليها. أدخل فريجة هذا النظام هنا: كل يوم اثنين تضع مادلين أمامه قائمة تحدد الملابس المناسبة لمواعيده وارتباطاته يومًا بعد يوم، من الثلاثاء حتى الإثنين. في المعتاد كان فريجة يوقع على القائمة، فتقوم مادلين بإرسالها في رسالة إلكترونية إلى دوبرافكا، مدبرة منزله. عقب ذلك كانت دوبرافكا تجهز في الصباح الباكر من كل يوم ملابسه كما تنص عليها القائمة، أو ترتبها في الحقيبة قبل السفر.

كان هذا معروفًا في المؤسسة. البعض كان يتسم أو يطلق ملاحظات ساخرة حول ذلك، لكن ذلك لم يضر بسمعة فريجة، على العكس: هذا السلوك الغريب أظهر أنه شخص عمليّ إلى أقصى حدٍّ وإلى آخر تفصييلة، وأن لديه موهبة إيجاد حلول مبتكرة حتى يعرق بشكل

أقل خلال العَدْوِ، أو يتل أقل خلال السباحة. في النظم البيروقراطية تشبه هذه السمعة الحصول على أرفع درجة من درجات النبلاء.

ثمة حكاية ذات دلالة من أيام دراسة فريجة الجامعية كانت فراوكة ديستل -من قسم الطاقة- تحكيها. آنذاك كانت زميلة لفريجة في جامعة هامبورج، وسكنت معه لفترةٍ ما في شقةٍ مشتركة. قام كاي أوفة ذات يوم بتوزيع كل قمصانه الملونة والمخططة مجاناً، ثم اشترى خلال التخفيضات عشرة قمصان بيضاء متماثلة رخيصة الثمن من مركز التسوق في هامبورج. آنذاك شرح الأمر كالتالي: إنه يوفر وقتاً كل يوم في الصباح الباكر الآن؛ لأنه لم يعد بحاجةٍ إلى التفكير في أي قميصٍ يتناسب مع أي جاكيت أو بلوفر، القميص الأبيض يتلاءم مع كل شيء، أيّاً كان ما يرتديه. يستطيع الآن في الصباح الباكر، ودون أن يفكر كثيراً، أن يتناول أعلى قميص من القمصان المطوية في الخزانة، ويرتديه، وعندما يأخذ القميص الثامن يعرف أن عليه الذهاب بالقمصان المتسخة إلى المغسلة، ثم يحضرها من هناك عندما يرتدي القميص العاشر، وهكذا يبدأ في الصباح التالي بارتداء القميص الأول مرة أخرى. كان نظاماً مجنوناً إلى حد ما، تقول فراوكي، ولكنّ منطقاً يحكمه. حصل كاي أوفة على القمصان البيضاء بسعر ملائم؛ لأنها كانت موضة قديمة، لم يعد أحد يشتريها، وكان عليه أن يضع قطعة صغيرة من الخشب في حافة الياقة. كان الأمر فائناً بالنسبة له؛ فكان يقول: هذه ثقافة! كانت الأكمام أطول من اللازم، غير أنه وجد في سوق الأشياء القديمة مسّاقات كان يربطها حول عضده لضبط طول الكم. كان ذلك أيضاً بالنسبة له جزءاً

من «الثقافة القديمة». كان يعشق إكسسوارات الرجال. آنذاك بدأت دور السينما في عرض أفلام العصابات والمافيا الأمريكية، وفيها كان الرجال يضعون هذه المسّاكات حول أذرعهم، فأصبحت موضة، وفجأةً أضحى كاي أوفة بطريقته الغريبة العملية، ولا مبالاته التامة بحماقات الموضة، أحد الذين يحددون أحدث صيحات الموضة! حتى إذا أُسيء فهمه، أضافت فراوكة، فتأكد من أن ذلك يفيد سمعته.

شعر كاي أوفة فريجة بالغیظ بعد أن تفحص القائمة. كم من مرة نسيت مادلين ما كرره عليها كثيراً: إنه لا يحتاج عند السفر إلى بلد حار إلى ملابس فضفاضة خفيفة، على العكس، في الدول الحارة على وجه الخصوص لا بد أن تكون معه ملابس تبعث على الدفء، من الممكن أن تكون خفيفةً، ولكن يجب أن تبعث على الدفء، صدریات رقيقة من صوف الكاشمير مثلاً، وفي كل حال فانلات داخلية. المرء يجلس دائماً خلال المفاوضات أو الاجتماعات أو تناول الطعام في غرف مكيفة، ذات درجة برودة وحشية. أنت لا تشعر بالبرد مثلما تحس به في تلك الأماكن التي يستضيفه فيها شيوخ الصحراء، فالبرودة هناك ترفٌ، والترف هو معنى الحياة ومغزاها. إذا لم يكن المرء يتمشى في أحد شوارع الدوحة -ولكن مَنْ يفعل ذلك، ولماذا عليه أن يفعل ذلك؟-، فإن البرودة هناك أفسى مما لو جلست على دكة في حديقة عامة في شمال فنلندا.

استدعى مادلين، وأمرها بأن تعد قائمةً جديدةً. أنسى كل تلك الأشياء المصنوعة من الكتان والحريز، هذه أشياء قد تصلح

لستراسبورج في الصيف، ولكنها لا تصلح أبدًا للدوحة. صوف،
كشمير، تمام؟ صدریات وفانلات داخلية. وكوفية وشال. وضعي من
فضلك على القائمة شاحن التلفون والتابلت، وورنيش أحذية. حتى
تضعها «دوبرا» في الحقيبة.

أومأت مادلين، وسارت إلى الباب.

- مادلين!

- وي مسيو؟

- شيء آخر: ضعي على القائمة أيضًا غطاء الرأس الأزرق.

- لا!

- بلى. الواحد لا يعرف ما ينتظره. ربما يتحتم علينا أن نتمشى
مرة...

سعل سعالًا خفيفًا، ثم أضاف:

- في الهواء الطلق.

تطلع كاي أوفة فريجة إلى الساعة. والآن عليه أن يهتم بـ«شغل
الخنازير»، مثلما كان يقول.

أراد ماتيوش أوسفيتسكي أن يصلي قبل إقلاعه بالطائرة. كان عليه
أن يستجمع قواه. شعر بالعذاب لأنه صفى الرجل الخطأ.

قبل أن يمر بالتفتيش الأمني رأى نشطاء يوزعون منشورات، نحو

عشرة أشخاص، شابات وشباناً، يرتدون جميعاً «تي شيرت» أصفر، وعلى الصدر شعار لم يستطع قراءته. وقف ثلاثة رجال شرطة مترددين جانباً، بينما راح شرطي آخر يتحدث مع أحد النشطاء، وكان شرطي خامس يتحدث في جهاز اللا سلكي.

أبطأ ماتيوش من خطاه حتى يلقي نظرة شاملة على المشهد، ثم أسرع الخطى، مسافر متعجل للغاية لا يريد أن تفوته الطائرة. حاول بنفاد صبر استعراضي أن يشق طريقه في الزحام. كاد يصل إلى الحاجز، ولكن ناشطة جاءت وقطعت عليه الطريق.

- *Excuse me, Sir, may I ...*

لم تبدر عنه ردة فعل، حاول أن يتجاوزها.

- *Do you speak English, Sir? Sir?*

لم ينظر إليها، ناور بحقيبته التي جرها خلفه حتى يتجاوزها.

- *Parlez-vous français? Volez-vous vers la Pologne? Are you going to Poland? Sir? It is important, een vraag, mijnheer*

خفض رأسه، ولمح من زاوية عينه أن الشرطي يرسل النظر إليه. شعر بالقلق. كان الوضع غريباً: من الممكن أن يهرب بمساعدة شرطي يتوجب عليه التدخل إذا شعر مسافر بأن أحداً يضايقه. ولكن ماتيوش لم يرد أن يحدث ذلك، لم يرد أن يتورط في شيء يثير انتباه الشرطة هنا. مدت المرأة يدها بمنشور في اتجاهه، لاحظ أن عليه صورة رجل، بدت الصورة وكأنها صورة شخص مطلوب القبض عليه. أهو منشور

«ابحث مع الشرطة»؟ وضع ماتيوش تذكرة الطيران على شاشة الحاجز الإلكتروني، فأضاءت بلون أحمر، ماذا حدث إذن؟

- Sir, please ...

- أظهير بطائرة الخطوط الجوية البولندية؟ رحلة رقم ٢٣٦؟ لدينا معلومات مهمة...

كان يعلم أن من العبث، بل مما يزيد الأمر تعقيدًا لو قال الآن: آسف، ولكنني مستعجل! عندئذ سيكون حديث قد انفتح، وستقول إنها لن تأخذ من وقته الكثير، فيتحتم عليه أن يرد... كلا، وضع التذكرة دون أن ينطق بكلمة مرة أخرى على الشاشة، ومرة ثانية أضاءت الشاشة باللون الأحمر، مسح التذكرة عدة مرات، لماذا لا يفتح هذا الحاجز الملعون؟ في تلك اللحظة أضاءت الشاشة بلون أخضر، وانفتحت ضلفتا الحاجز، فاجتازه. وقف في الطابور المتحرك ببطء تجاه التفتيش الأمني. رأى عدة مسافرين يقرؤون منشورات. عندما مرّ بجهاز «السكانر»، راح يبحث عن لافتة إرشادية تقوده إلى قاعة الصلاة.

لا يزال لديه أكثر من ساعة حتى ركوب الطائرة. سار بحقيقته التي يجرها خلفه مارًا بالمحلات، ازدادت خطواته سرعة، ها قد وصل إلى البوابات، ولكن أين كنيسة المطار الصغيرة؟ سار عائدًا، لكنه لم يجد أي إشارة. أراد أن يصلي. لقد أطلق الرصاص على الرجل الخطأ. اتضح له ذلك بعد التعليمات الأخيرة التي تلقاها. أخيرًا اكتشف لافتة عليها شكل، هو بالتأكيد شخص راكم للصلاة، وإلى جانبها سهم يشير

إلى ممر جانبي. وهناك رأى مرة أخرى الرجل المصلي مع السهم الذي كان يشير إلى درج صاعد.

تتبع الأسهم، فوجد نفسه يفكر في القديس سبستيان الذي نفذت من صدره الأسهم. عيد هذا القديس مر قبل أيام قليلة، في العشرين من يناير، شفيع الجنود والمحاربين، وناصرهم على أعداء الكنيسة، كان قد صلى طالبًا حمايته ومساعدته في إتمام مهمته في بروكسل، ولكن خطأ ما حدث، ولم يستطع أن يشرح لنفسه ما هو. قادته الأسهم إلى ممر مراقب بكاميرات الفيديو. واصل السير برأس منكس، مازًا على جبهته بمندبل، وكأنه يمسح عرقًا، حتى لا تسجل الكاميرات وجهه - كان يعلم أنه يبالغ في الحذر: كانت كاميرات الرقابة هنا عتيقة. هل يهطل الثلج هنا في الممر؟ بالطبع لا. ولكن طوال ٤٨ ساعة تسجل هذه الكاميرا صورًا ذات نوعية غير واضحة لا يرى المرء عليها سوى هيكل رجل يبدو أنه يسير وسط ندف الثلج الهابطة من السماء. إلى اليمين واليسار أصص نباتات. من البلاستيك. نبات القنب. بلا شك، كانت هذه نباتات القنب من البلاستيك. من خطرت على باله فكرة وضع نباتات القنب من البلاستيك في الممر بجانب الكنيسة؟ وفي أي شيء فكر؟ وصل الآن إلى غرف الصلاة. كانت هناك غرفة مستقلة لكل جماعة دينية كبيرة. للكاتوليك والبروتستانت واليهود والمسلمين والأرثوذكس. وكلها خالية. ليس هذا فحسب: كانت خالية وكأن أحدًا لم يدخلها يومًا.

شعر ماتيوش بألم شديد عندما دخل غرفة الصلاة الكاثوليكية. تتسم هذه الغرفة بقبح غير معقول. غير معقول.. كان ذلك غريبًا في

مكان تُمارس فيه العقيدة. شعر بحرقان ناخز تحت سرتة، وبالعرق البارد يتصبب من جبينه. سار عدة خطوات إلى الأمام، تاركاً حقيقته، ثم أخرج منديلاً من جيب سرواله، ومسح عرقه، في حين راحت يده الأخرى تضغط على بطنه. عندئذٍ انقلبت الحقيبة، وسُمعت فرقة عندما كان ماتيوش يقف أمام يسوع المسيح وفي يده المنديل الذي مسح به عرقه. كان صدر الغرفة مكسوًّا بألواح خشبية، وعليه عُلق المصلوب، ولكن دون صليب. وكأن ابن الله لم يُثبت بالمسامير على صليب، بل على سور خشبي. على السقف عُلق كشاف كهربائي ألقى شعاعاً ضوئياً قاسياً أبيض اللون على يسوع المسيح، وكأن عليه -بعد أن ثبته بالمسامير على السور الخشبي- أن يدلي بأقواله في تحقيق أخير. أمامه وُضع هيكل خشبي صغير، لكنه بدا بالأحرى مثل أحد تلك الصناديق الموسيقية التي كان يحضرها عديد من البولنديين في نهاية سبعينيات القرن الماضي عندما يعودون من رحلاتهم في الغرب، ثم أضحت في غرف المعيشة البولندية حتى انهيار الكتلة الشرقية تذكّاراً أبدياً للتطلع إلى الحداثة. على الجدار الجانبي علقت لوحة مكونة من ثلاثة أجزاء، زيت على قماش كتان، بها تردد غريب بين التجريد والتجسيد. من الممكن التعرف في الصورة اليسرى على شمس غاربة، على الأقل على كرة حمراء تسقط على تجمع من الناس، أو على الأقل تحوم فوقهم، ربما كانوا كرادلة الكنيسة الكاثوليكية بزيهم القرمزي، وربما لم يكونوا كرادلة بل مجرد انعكاس ضوئي للشمس الحمراء الغاربة أو للهب أو لنباتات. الصورة الوسطى تظهر شيئاً يبدو مثل طبق فضائي مشطور،

وربما كانت أيضًا مصنع لحرق النفايات. أكثر الصور الثلاث وضوحًا كانت اليميني: بقعة دموية تحت ضوء أبيض ساطع، ومنه برز صليب أبيض. بجانب الصليب رسمت الجملة التالية: *LUX IBI BLUT UBI*. كان يعرف اللاتينية، تعلمها بالطبع في المعهد، لكنه لم يفهم الجملة: ماذا تعني كلمة *BLUT*؟ ما هذه الكلمة؟ «حيث الضوء، يكون...» اقترب من اللوحة، دقق النظر ليرى ما إذا كان أخطأ القراءة، وحاول أن يفك شفرة هذه الكلمة الغامضة، *BLUT*، هذه الكلمة لا يعرفها. الآن لاحظ أن الكلمة على الأرجح، لا، بل بكل تأكيد هي *DEUS*، مرسومة على نحو واهن ضبابي، وكأنها أرادت أن تختفي في ظلال الخلفية. بجانب اللوحة الثلاثية رأى تمثالين كبيرين من الخشب، ذكراه بالراحة في مغارات عيد الميلاد، وذكراه أكثر بالبراعم المرتدية ثياب النوم في معهد إعداد الكهنة.

وقف ماتيوش بتياب النوم، حافيًا على الأرضية الحجرية الباردة، كانوا يسمون ذلك «التجمع»، عندما يؤمر تلميذ بعد صلاة العشية بالوقوف منتصب القائمة بجانب تمثال قديس معين في الرواق ذي الأعمدة، مرسلًا بصره إلى أسفل، إلى الفناء الداخلي، وإلى أعلى، إلى السماء ذات النجوم، وذلك حتى يمعن التفكير في «المسائل الثلاث»، إلى أن يناديه الأب بريور لكي يعطيه إجاباته، في بعض الأحيان بعد ساعتين أو ثلاث، وأحيان أخرى لا يحدث ذلك إلا في اليوم التالي بعد الصلاة الصباحية. ما مقدار شكك في قوة إيمانك؟ وإلى أي حد أنت

متأكد من أنك ستنتصر على الشكوك؟ عبر أي أفعال تريد أن تبرهن على قوة إيمانك؟

كان ماتيوش مُثارًا على نحو غريب، لم يكن مضطربًا أو خائفًا، بل مُثارًا بكل معنى الكلمة، ثمة طاقة جنسية أو إيروتيكية عندما يحس بنعومة الحجر وبرودته تحت قدميه، البرودة التي صعدت إليه وإلى عضلاته من الأقدام، وجعلت أنسجته قاسية ومشدودة، وفي الوقت نفسه كان يشعر بسطح الحجر الناعم مثل بشرة جسد، بشرة مرمر، بشرة قديسين، بشرة والدة الإله، كانت تلك البشرة هي التي يلمسها، ويلتصق بها، ويتحد معها. كان عليه أن يقف إلى جوار تمثال القديس سبستيان، دون أن يعلم ما إذا كان الأمر محض صدفة، أم أن الأب بريور فكر في الأمر بتأنٍّ وروية عندما أمره بأن ينفذ أمر «التجمع» هنا.

لم يرد ماتيوش أن يتحدث مع الأب لأنه يشك في إيمانه، بل لأن لديه شكوكًا حول الكيفية التي يعيش بها إيمانه. كان مستعدًا للنضال، لكنه أراد أن ينجب ابنًا، مثلما فعل أبوه وجده، قبل أن يذهب إلى النضال. - هل تريد أن يعيش اسمك بعد وفاتك؟ دمك؟ شيء منك؟ ستعيش حياة أبدية عندما تموت، ولكنك تريد الاستمرار في الحياة هنا على الأرض؟

كان ماتيوش قد أصبح ريشارد مرة أخرى، ولم يستطع تقديم إجابة. التجمع. عُثر عليه قبل صلاة الصباح، ممددًا على الألواح الحجرية التي تغطي الرواق، وكأنه حاول أن يتلامس مع الحجر أكبر قدر ممكن من البشرة. هبطت درجة حرارة جسده بشدة، ثم سيطرت عليه الحمى

عدة أيام. بعد ذلك أجاب على الأسئلة الثلاث. على نحو مقنع تمامًا أرضى الأب. لكنه لم يستطع البقاء في المعهد.

الألم الحارق. حوّل ماتيوش بصره عن تماثيل المغارة، وتلفت حوله. أراد أن يصلي. لكنه لم يستطع الصلاة هنا. ضغط بيد على حجاب الحاجز، تأوه، ومسح العرق من جبينه. لم يعد لديه وقت كثير.

أخذ شهيقًا عميقًا، ثم زفره. غادر كنيسة المطار الصغيرة، وسار إلى بوابة الدخول إلى الطائرة.

كان عليه أن يعود إلى وارسو بعد أن أنهى مهمته. لكنه تسلم في الصباح من قسم الاستقبال في الفندق مظروفًا ترك من أجله. وجد بداخله تذكرة طيران إلى إسطنبول، وتأكيد حجز غرفة في فندق بإسطنبول. أدرك ماتيوش أن هذا ليس تكليفًا جديدًا، لا يمكن أن يكون كذلك. كل تكليف جديد يبدأ بحصوله على ملف عن الشخص المعني، يتضمن خطة بكل تفاصيلها الدقيقة. ولم يحدث من قبل أبدًا أن حصل جندي على تكليف جديد في اليوم التالي مباشرةً لإنهائه مهمته. إن الانسحاب في المرحلة التي تلي التنفيذ يتمتع بأهمية كبيرة لتأمين العملية، تمامًا كالتهخطيط الدقيق قبلها. ليس لديه سوى تفسير واحد: لقد هرب الشخص المعني إلى إسطنبول، لكن ذلك يعني أيضًا أنه أطلق الرصاص على الرجل الخطأ. أو أن ذلك كان فخًا. هذه هي أسهل طريقه إذا أرادوا التخلص منه: لقد أقسم على الطاعة العمياء. على المرء

أن يستدرج الحيوان إلى الفخ. أما الجندي فليس عليك سوى أن تعطيه
أمرًا بالسير إلى الفخ.

ثمة شيءٌ عفنٌ. لديهم متخصصون للعمليات خارج منطقة
«الشنجن». كان ماتيوش يثق في جواز سفره المزور تزويرًا بارعًا
وكاملًا، لكن التفتيش على حدود منطقة «الشنجن» أكثر دقةً بالتأكيد.
كانت تعوزه الثقة في أن جوازه سيصمد أمام ذلك أيضًا.

ذهب إلى المطار وحاول أن ينهي إجراءات السفر إلى وارسو
بتذكرته الأصلية. لكن الموظفة على الشباك قالت له إنه ألغى تذكرته.

- لا!

- بلى. لم تعد على قائمة المسافرين، مسيو. لقد ألغيت التذكرة
مساء أمس.

- سوء تفاهم! أريد هذه الرحلة.

- متأسفة، ولكني لا أستطيع أن أعطيك بطاقة صعود إلى الطائرة.
لم تعد لديك تذكرة لهذه الرحلة.

- ولكنني دفعتُ ثمنها!

دقت الموظفة على لوحة حروف الكمبيوتر، وألقت نظرة، ثم كتبت
مجددا، وألقت نظرة أخرى، ثم قالت:

- ثمن التذكرة بعد خصم رسوم الإلغاء تم تحويله إلى رصيد بطاقة
الائتمان الخاصة بك.

- بطاقة الائتمان الخاصة بي؟ ليس لدي... طيب! أريد إذن تذكرة

جديدة. سأشتري تذكرة جديدة.

- متأسفة جدًا، مسيو، لكن الرحلة كاملة العدد. لم تعد هناك أماكن شاغرة.

- ولكن لا بد أن أسافر إلى بولندا اليوم.

- هل أنت بولندي، مسيو؟ نعم؟ يمكننا أن نتحدث بالبولندية، *drogi Panie*^(٨). أبي بولندي. جاء إلى بروكسل وعمل سباكًا. تعرف بأمي هنا. سنجد حلًا لمشكلتك.

- *Gdy zaleje woda, trzeba wymienić rurę.*^(٩)

يوجد مكان على طائرة كراكوف بعد ساعتين. أو بعدها بساعة إلى فرانكفورت، ومنها إلى وارسو. أخذ طائرة كراكوف. كان يريد أن يعود إلى بولندا بأقصى سرعة.

وهكذا حدث أنه في النهاية جلس في الطائرة نفسها التي استقلها مارتن سوسمان. ولكن ما معنى العلاقات والتدخلات والتشابكات إذا كان المعنيون لا يعرفون عن ذلك شيئًا؟

شعر مارتن سوسمان بالغيظ؛ لأنه نفذ فكرته الخرقاء وارتدى الملابس الداخلية خلال السفر. حتى لا يشعر بالبرد عندما يصل إلى

(٨) بالبولندية، ومعناها: «السيد العزيز». (المترجم).

(٩) تعني العبارة: «إذا غمرت المياه المكان، فلا بد من تغيير الماسورة». (المترجم).

كراكوف. بمجرد أن جلس في التاكسي المتجه إلى المطار، بدأ يتصبب عرقاً مثل خنزير. كان بالتاكسي تدفئةً، وعلى الأرجح كانت التدفئة أعلى مما ينبغي. أمده فرو الأرانب على جلده بشعور مَن يعاني حمى شديدة. لماذا يقول المرء بالألمانية «يعرق مثل خنزير»؟، كابن لمربي خنازير كان يعلم بالطبع أن الخنازير لا تعرق، ولا يرشح العرق من جلدها. عندما كان طفلاً، استخدم هذا التعبير مرة.. لماذا؟ لأن هذا ما يقوله الناس. زجره أبوه. الخنازير لا تعرق. ليس عليك أن تفعل كل ما يفعله الآخرون، وإذا قال الآخرون كلاماً فارغاً، فليس عليك أن تتحدث بكلامٍ فارغٍ!

- لكن لماذا يقول الناس ذلك؟

- لأن كثيراً من الناس لديهم مشكلة مع الدم. وعندما كانوا يرون في السابق، خلال ذبح الحيوانات في البيوت، أن الخنازير تنزف بقوة، كانوا يطلقون على الدم عرقاً. كناية، فاهم؟ وقع كلمة عرق ليس شيئاً مثل كلمة دم. لا يزال الصيادون اليوم يستخدمون كلمة عرق للإشارة إلى دم الحيوانات. والكلب الذي يبحث عن الحيوان النازف المصاب بطلقة رصاص حتى يجده، يُسمى بلغتهم كلب العرق.

- لكننا نقول: سَجَقَ الدم^(١٠)، وليس: سَجَقَ العرق.

«كفى»، قال الأب، «ادخل وساعد أمك!» منذ ذلك اليوم لم

(١٠) «سَجَقَ الدم»: نوع من السجق (أو النقانق) يدخل في صنعه دم الخنزير إلى جانب الشحم وتوابل مختلفة. ويعتبر من أقدم أنواع السجق؛ إذ ورد ذكره في «أوديسة» هوميروس. (المترجم).

يستخدم مارتن هذا التعبير، ولكن الآن، في التاكسي المتجه إلى المطار، حضر التعبير فجأة مرة أخرى، في رأسه، ومعه الذكرى بأن ذلك يعني في الحقيقة الدم، سفك الدماء، أنهار الدم، حمام الدم.

عندما وصل مارتن سوسمان إلى المطار، كان قد استهلك علبة مناديل ورقية كاملة لمسح العرق. أثناء هبوطه من التاكسي كان يمسك في يده كرة من الورق المبلول. لم يعد معه مناديل ورقية، فمسح وجهه بكفه. كان وضعاً ميؤوساً منه، أخذ يعرق، ويعرق. دم. أراد أن يشتري مناديل ورقية، فراح يسير في هذا الاتجاه أو ذاك ما جعله يتفقد عرقاً أغزر. قرر في النهاية أن يذهب إلى البوابة مباشرة، ببطء قدر الإمكان، وهناك يجلس، ربما إذا توقف عن الحركة، لا يعود يتصبب عرقاً. كان غاضباً من نفسه. كان عليه أن يعرف أن ارتدائه هذه الملابس الداخلية عبثي تماماً في موقف كهذا لا يشعر فيه بالبرد. في كراكوف سيحضره من المطار، في تاكسي به تدفئة، إلى فندق به تدفئة، وهناك ستكون لديه فرصة لاستبدال ملابسه، كان بإمكانه أن يرتدي الملابس الداخلية هناك، قبل مواصلة السفر إلى المعسكر. أما الآن؛ فإن الأمر محل شك كبير: هل ستجف الملابس الداخلية المبلولة تماماً من العرق في الوقت المناسب في الفندق؟ على الأرجح سيعلقها في غرفة الفندق كي تجف، ويذهب هو إلى المعسكر دون ملابس داخلية، معرضاً نفسه لبرودة قاتلة.

شعر بالغليان داخله. بكراهية الذات. في الثامنة والثلاثين ولا يزال لا يقدر على أن يختار، وحده، ملابس ملائمة للموقف. خطر على ذهنه تعبير «مهارات الحياة العملية»، كم من مرة سمع ذلك: هذا الطفل

ليست لديه مهارات عملية! ليست لديه مهارات عملية! لحسن الحظ
لدينا فلوريان!

لم تكن هناك مسافة كبيرة تفصل بين «مهارات الحياة» و«إرادة الحياة». كان يعرف، أو يعتقد أنه يعرف العلاقة بين الأمرين. علاقة لا تنفصم. إما أن ترفع المرء إلى الذروة أو تقذف به إلى الحضيض. ينطبق هذا على الأفراد، والعائلات، والمجموعات، ومجتمعات بأكملها. كان محظوظاً: افتقاده إلى المهارات الحياتية لم يؤدِّ إلى نهاية سريعة لحياته، قد تنكسر إرادة الحياة لديه، لكنه كان يستطيع أن يسير في درب الحياة لفترة طويلة وهو منكسر. لكنه كان يشعر بالخوف، عندما تظهر في وسائل الإعلام تلك الكتب التي تتضمن نصائح وإرشادات على المرء اتباعها في الحياة. عندئذ تبدأ العبارات الفارغة الايديولوجية الواردة فيها تبرق وتلمع: «على المرء أن يتحلى بالقدره على ترك الأشياء والتخلي عنها»، أو «على المرء أن يتعلم أن يدع نفسه يسقط ويتهاوى»... إنهم لا يعلمون ماذا يقولون. باستطاعة الإنسان أن يدرس ذلك في الطبقات الأثرية الأربع عند القيام بحفريات، بدقة بالغة من الممكن تحديد تاريخ بداية الأشياء: التخلي، والسقوط، والموت الذي يبشر به أولئك الناصحون. الطبقة الثالثة.

رأى مشهداً غريباً ومحيراً قبيل الممر المؤدي إلى التفتيش الأمني. تولد لديه انطباع وكأن فريقين يقفان متواجهين في قلب تيار المسافرين، ثياب الفريق الأول صفراء، والثاني زرقاء. هل ثمة لعبة، مباراة؟ لا، ليست لعبة، ولكنها مباراة، بمعنى من المعاني. تحدثت معه شابة بزي

أصفر: معذرة يا سيدي، هل تطير إلى بولندا؟

قال لها: نعم. نظرت إليه، شعر بالإحراج، فيمّ ستفكر الآن عندما ترى وجهه المبلل وعينه الحمراءوين؟ ابتسمت، وواصلت الكلام بسرعة. إنها ناشطة في إحدى منظمات حقوق الإنسان، منظمة «أوقفوا الترحيل» و...

- نعم؟

«أوقفوا الترحيل»، قالت له مشيرة إلى الشعار المطبوع على «التيشرت» الذي ترتديه^(١١):

NO BORDER

NO NATION

STOP DEPORTATION

هناك رجل ينبغي ترحيله، و...

في تلك اللحظة اقترب منهما رجل من الفريق الأزرق، شرطي، وقال له:

- هل يزعجك أحدٌ يا سيدي؟ لمعلوماتك: هذه تظاهرة مسجلة ومصرح بها، ولكننا نستطيع أن نفضها إذا شعر المسافرون بالانزعاج.

رد مارتن سوسمان:

- لا، لا، لا مشكلة، لا مشكلة. لا يزعجني أحد.

(١١) أي: لا للحدود، لا للأمة، أوقفوا الترحيل! (المترجم).

راح يمسح العرق من جبينه إلى شعره، وكرر ذلك عدة مرات. أوماً الشرطي وابتعد، ثم خاطب مسافراً آخر كان مشتبكاً بالحديث مع أحد الناشطين.

عرف سوسمان أنهم سيُرحلون مُلاحقاً سياسياً من الشيشان تعرض للتعذيب في وطنه. من المقرر الآن ترحيله إلى بولندا، ومن هناك سيسلم إلى روسيا التي تعتبرها السلطات الحكومية مكاناً آمناً بالنسبة للشيشان. هذا ما تعتبره الناشطة استهزاءً صريحاً، لقد ثبت عدة مرات أن الشيشان المرحلين إلى روسيا يختفون في أقبية التعذيب. تعطيه المرأة منشوراً قائلةً:

- هذا هو الرجل. أصلان أخماتوف. إنه يعاني من الصدمة، والتعذيب والقتل في انتظاره. مسيو، هذه فضيحة وانتهاك لحقوق الإنسان. هل توافقني على ذلك؟ هنا مكتوب ماذا يمكنك أن تفعل كمسافر للحيلولة دون الترحيل عندما ترى هذا الرجل في الطائرة. اطلب التحدث مع الطيار، وطالبه بأن يوقف عملية الترحيل لأسباب إنسانية ولأسباب تتعلق بالأمن في الطائرة. الطيار يتمتع بالسلطة على الطائرة، وباستطاعته رفض نقل المسافرين الذين يطرون رغماً عنهم.

كانت تتحدث بسرعة متزايدة، بينما راح هو يقرأ المنشور.

- كل شيء مكتوب هنا! ارفض الجلوس في مكانك وربط الحزام، والفت نظر المسافرين الآخرين حتى يعرفوا أن سفر الرجل ليس سفراً عادياً، بل إنه يحدث عنوةً و... .

قاطعها مارتن قائلاً:

- عفواً، ولكن مكتوب هنا أن الأمر يخص الرحلة رقم ٢٣٦ إلى

وارسو. لكنني سأطير إلى كراكوف!

- أوه! معذرة! كان عليّ... طبعاً. شكرًا. أشكرك على صبرك،

وعلى تفهمك. احتفظ بالمنشور من فضلك! من أجل المعلومات

العامة. عمليات الترحيل متواصلة... شكرًا! ويومًا سعيدًا!

استدارت، فظل يتابعها لوهلة ببصره. راحت تتحدث مع مسافر

آخر. على ظهر الـ«تي شيرت» كان مكتوبًا بالإنجليزية «المقاومة
ممكنة».

عندما جلس المسافرون كلهم في أماكنهم، وأغلقت أبواب الطائرة،
نهضت امرأة وسارت إلى الأمام وهي تلقي نظرة على صفوف المقاعد
يمينًا ويسارًا. قبل أن تعبر إلى الجزء الخاص بدرجة رجال الأعمال،
وقفت مضيضة في طريقها، وسألتها:

- هل تبحثين عن دورة المياه، مدام؟ الدورة في نهاية الطائرة.

ولكن استخدام دورة المياه ليس مسموحًا به الآن، مدام. من

فضلك، لا بد من الجلوس وربط الحزام.

- لا أريد الذهاب إلى دورة المياه.

هكذا بدأت السيدة حديثها، ثم أضافت بصوت أعلى:

- أريد أن أتحدث مع قائد الطائرة! في هذه الطائرة راكب يسافر

مرغمًا. وأنا أريد أن أعرف...

- من فضلك، لا بد...

- لا بد أن نعرف ما إذا كان هذا الراكب معنا فعلاً على هذه الطائرة

ضد إرادته. من فضلك اتصلي بقائد الطائرة!

استدارت، وسارت في اتجاه الممر الأوسط بالطائرة.

- السيدات والسادة، في هذه الطائرة رجلٌ يجب ترحيله. من

فضلكم، ساعدوا هذا الرجل ألاً...

- من فضلك يا مدام! عليك الجلوس و...

واصلت المرأة سيرها في تصميم، ومرت على الصف الذي يجلس

فيه سوسمان.

- علينا أن نتيح له مغادرة الطائرة.

كان الجالس في المقعد المجاور لمارتن سوسمان يحملق في

جريدته، أما المرأة الجالسة بجانب الممر فقد أغلقت عينيها، بينما كان

الرجل الجالس بجوارها عند الشباك لا يتوقف عن المرور بإصبعه على

شاشة المحمول الذكي.

نهض مارتن سوسمان حتى يرى على نحو أفضل كيف ستتطور

الأمور. أسرع مضيئة إليه، وطالبت بالجلوس فوراً، ثم ربط الحزام.

قال لها:

- نعم، لحظة من فضلك! لا أريد سوى...

وفتح مكان الحقائب اليدوية، ليخرج من جيبه علبة «لبان

بالنيكوتين». ظلت المرأة واقفة، ثم التفتت إلى مسافر، وسألته:

- هل أنت السيد أخماتوف؟

لم تصدر عن الرجل ردة فعل. كان قد شد غطاء الرأس على رأسه،
لاصقاً ذقنه بصدرة.

- أتتحدث الإنجليزية، سير؟ هل أنت مستر أخماتوف؟

رفع ماتيوش أوسفيتسكي بصره وهز رأسه. ترددت المرأة، لم تكن
للهولة الأولى متأكدة: هل ينفي قدرته على التحدث بالإنجليزية، أم ينفي
كونه الشخص المطلوب؟ تبادلا النظر. لم يفهم ماتيوش ما الموضوع
على وجه الدقة، لكنه أدرك أن هذه المرأة تعطل إقلاع الطائرة، ولهذا
كرهها. نظر في وجهها، وتلاقت نظراتهما و...

في تلك اللحظة حدث شيء في جسده. في الحجاب الحاجز، هناك
حيث شعر بالألم. وكأن شرياناً قد انفجر، والآن تتمدد الدماء وتنتشر في
بطنه، دافئة وحلوة. لم يفكر في شيء، لم تشكل جملة في رأسه. فجأة
شعر بأن جفنيه ثقيلان للغاية، راح يصارع حتى يبقي عينيه مفتوحتين،
لكي يرى هذه المرأة وهي تسدد النظر إليه، أراد أن يتمهل ويبقى في تلك
النظرة، أن يستمتع بالحنين الذي لم يعرفه من قبل، والشعور بالاطمئنان
الذي خبره، ولكنه نسيه، ولكنه يحضر الآن كصورة من الذاكرة: عندما
كان طفلاً يعاني من حمى شديدة، ثم يلمح وجه الأم وكأنه خلف ستار
من ضباب، وهي تنحني على فراش المريض وتبتسم. صورة أمه هذه،
وكأنها طيف وسط الضباب، حررته من كل خوف، حتى من خوف
الموت إذا استجاب وأغلق عينيه. كان ذلك ابتداءً. لم يعد طفلاً، كان

عليه أن يغدو قاسيًا، ولهذا فهو يحتقر العاطفية. ما شعر به الآن كان مبهمًا، ضبابيًا مثل صورة الذاكرة. الجميع يشعر بالحنين إلى طفولة مطمئنة، إما لأن المرء عايشها أو لأنه كان يفقدها، الجميع، سواء كانوا إرهابيين أو مسالمين. لم يرد سوى... نظرتها... لكن المرأة واصلت السير. رجت أن يتفهموا سبب التباطؤ في الإقلاع، وطلبت المساعدة في إعاقة ترحيل الرجل. تابعها مارتن سوسمان بنظره، الهدوء يسيطر على المسافرين، جلسوا في أماكنهم دون حركة، من نظرات البعض اعتقد أنهم متعاطفون مع المرأة، آخرون أغلقوا أعينهم، وخفضوا رؤوسهم. في تلك اللحظة وقف فجأة أحد المضيفين بجانبه:

- عليك بالجلوس فورًا، من فضلك اجلس واربط الحزام!

وضع المضيف يده على كتف مارتن وضغط ضغطًا خفيفًا، ثم زاد من الضغط. عندما ترك مارتن نفسه ينهار على المقعد، سمع صوت رجل يقول:

- كفى، اخرسي واجلسي في مكانك!

صاح صوت آخر:

- توقفي عن تعطيل الإقلاع! أنت في الطائرة الخطأ! الرجل في الطائرة المتجهة إلى وارسو! لقد كتبوا ذلك في المنشور!
ردت المرأة:

- لقد غيروا حجزه. بسبب الاحتجاجات على ترحيله. تلقيت SMS تفيد بأنه هنا، في هذه الطائرة. حتى يتمكنوا من ترحيله إلى بولندا دون لفت الأنظار.

نهض الآن شاب في الصف السابق لمارتن سوسمان مباشرة،
وصاح بالإنجليزية: «لا للترحيل!»، ومن الأمام سمعوا صوتًا نسائيًا
يهتف بالفرنسية: «تضامن!».

جلس مارتن سوسمان على طرف مقعده وأرسل نظرة إلى الورا،
إلى الممر الأوسط، فرأى المرأة تقف الآن في الصف الأخير، ثم تنحني
مقتربة من أحد الركاب. بسبب جلسته الملتوية شعر بألم شديد في
الظهر، من المنطقة القطنية حتى العنق، أراد أن ينهض، لكنه لم يرد أن
يخاطر... يخاطر بأي شيء؟ وقف، وتمطى، وضغط بكلتا يديه على
ظهره، مرة أخرى جلس الشاب في المقعد الذي يسبقه، أما المضيقة
والمضيف فقد اختفيا. سمع المرأة تقول للراكب في الصف الأخير:

- مستر أخماتوف؟ هل أنت مستر أخماتوف؟

- Yes!

نهض الرجل. هل هو حقًا؟ لم يكن مقيدًا، أو بصحبة أحد من
الشرطة. لكنه بدا دائئًا، أو هادئًا بفعل أدوية.

أرته المرأة المنشور وبه صورته حتى تتأكد، فقال: نعم!

قالت المرأة:

- خلاص، الأمر انتهى. لا تخف، ابق واقفًا، لا تفعل أي شيء،
سنغادر الطائرة.

شرع الرجل ييكى. قرب يديه من وجهه، المعصمان متلاصقان
وكأنهما مقيدان.

حضرت الشرطة إلى الطائرة، وقادت الاثنين خارجًا. صفق بعض الركاب. لماذا؟ هل بسبب شجاعة المرأة؟ أم لتدخل سلطة الدولة؟ أم لأن الطائرة ستقلع أخيرًا؟ كلٌ لديه سببه. والحصيلة: تصفيق!

ستقلع طائرة فريجة بعد أربع ساعات. أعدت دوبرا الحقيقية. لا يزال لديه موعد مع زميله جورج مورلاند من الإدارة العامة للزراعة. تتفجر دائمًا بين «الزراعة» و«التجارة» صراعات ونزاعات حول الصلاحيات، كان ذلك من التقاليد في المفوضية، حتى لا نقول إنها لعبة قديمة. ولكن الصراع تصاعد الآن، ولم يعد المرء يستطيع التعامل معه بابتسامة وبالتوصل إلى حل وسط في كل حالة، ثم الذهاب معًا واحتساء كأس بيرة، أو إذا لم تتوافق الكيمياء مع الفلاحين الأقحاح، الرفض بأدب وأسف والتعلل بضيق الوقت. لقد اندلعت الحرب الآن، وعلى المرء أن يتسلح وأن يتوصل إلى قرار حاسم. كانت الخزائير تحديدًا هي النقطة التي قادت إلى تصعيد النزاع، وهذا هو ما أطلق عليه فريجة «شغل خنازير». تريد «الزراعة» عبر تخفيض الدعم أن تقلل من إنتاج لحم الخنزير لوقف انهيار الأسعار في السوق الأوروبية، لكن «التجارة» تهدف إلى تعزيز دعم إنتاج لحم الخنزير؛ لأنها تتوقع في التجارة الخارجية، وخصوصًا مع الصين، فرص نمو كبيرة. ولذلك كانت «التجارة» تريد الحصول على تكليف بالتفاوض باسم كل أوروبا من أجل تصدير لحم الخنزير إلى بلدان غير أوروبية، وأن تفرض أن يكون إنتاج لحوم الخنزير في أوروبا متوافقًا مع الطلب في الأسواق العالمية؛

أما «الزراعة» فكانت تهدف إلى تنظيم السوق الأوروبية فحسب، وفرض معايير مشتركة تسري فيها، مع ملاحظة أن المعايير البيطرية هي جزء من مسؤولية «الإدارة العامة للصحة وأمن المواد الغذائية». وكلتا الإدارتين تريد أن يظل إبرام معاهدات التجارة الخارجية من سلطة كل دولة على حدة.

أدى هذا التنازع حول الصلاحيات إلى أن كل دولة أوروبية كانت تُجري مفاوضات مع الصين وحدها ومن أجل ذاتها فحسب، لقد تم تقسيم أوروبا، وعبر المنافسة بين الدول الأوروبية انهارت الأسعار انهيارًا كبيرًا، سواء في السوق الأوروبية، أو في التجارة الخارجية، في حين لا تستطيع دولة بمفردها أن تغطي الاحتياجات العالمية، لأن مُربي الخنازير لديها يُدفعون دفعا إلى التخلي عن مزارعهم. كان ذلك جنونًا تأمًا برأي فريجة. وهذا المورلاند يخرج عن طوره. سأل فريجة نفسه: لماذا؟ ما سبب انفعاله؟ إن المفوضية لم تحصل حتى هذه اللحظة على تكليف بالتفاوض باسم كل الدول الأعضاء، والدول الأعضاء سعيدة باستغلال الوضع الراهن من أجل مصلحتها، لتحقيق القدر الأقصى من مصلحتها. بالطبع كان ذلك استنتاجًا مضللًا، وسيلاحظون ذلك يومًا ما، ولكنه في الوقت الحاضر لم يكن يستطيع تغيير ذلك، كل ما يستطيعه هو أن يترك الملفات تعبر مكتبه، وأن يتفرج على ما يحدث بلا انفعال، وألا يضايق أحدًا بكلامه، ثم ينتهز الفرصة في وقت ما ويتقدم خطوة نحو القمة. ولكن، لا! كان الموقف برأيه يشذ عن العقلانية، ولذا فإنه لا يستطيع أن يظل بلا انفعالات. لهذا، وفرض قرار حاسم على

الآخرين، كان يعرقل العمل كالمعتاد، وحيثما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

إن النزاع بين صلاحيات الإدارات يعود إلى أن الخنزير يقع في حيز اختصاصات أكثر من إدارة: الخنزير الحي في الزريبة «ينتمي» إلى إدارة الزراعة، أما بعد الذبح، وتحول الخنزير إلى جامبون وفخذه وشرائح من اللحم أو قطع من السجق أو إلى أشياء أخرى، أي عموماً إلى «منتجات زراعية مصنعة»، فهو من اختصاص الإدارة العامة للمفوضية الأوروبية، ولا يصبح جزءاً من اختصاص إدارة التجارة إلا عندما يغادر أوروبا، أي عندما يتواجد الخنزير في سفينة شحن أو في سيارة نقل. والمشكلة هي أنه لا يمكن التفاوض حول الخنزير في الحاوية إذا لم يكن باستطاعة المرء التحكم في الخنزير في الزريبة داخل الوطن.

في هذه المسألة تتسم الإدارة العامة للمفوضية الأوروبية بالسلبية. فهناك يهتمون بوضع قواعد لإعداد قوائم للمكونات المسموح بها، وتعريف الحدود القصوى لدى استخدام الأدوية والكيماويات، وكذلك معايير الجودة. الخنزير لا يعينهم في شيء، المهم بالنسبة إليهم هو التصنيف الصحيح. لا بد من حسم المباراة بين «الزراعة» و«التجارة».

منذ أسابيع وجورج مورلاند يتهرب من الحديث مع فريجة. كان يرد على الرسائل الإلكترونية بتطمينات ووعود مثل: فلنتحدث قريباً عن ذلك، ونضع كل الحقائق على الطاولة. ولكن عندما يقترح فريجة موعداً، فقد كان يرد ردوداً نمطيةً يشير فيها إلى جدول مواعيده المزدحم جداً في الوقت الحالي. لم يصدر عن رؤساء الإدارات رد فعل. كانوا جُدّاً في مناصبهم، وكان عليهم في البداية أن يطلعوا على الملفات.

لكن الوقت أذف. لقد قطعت الحكومة الهولندية والحكومة الألمانية والحكومة النمساوية شوطاً بعيداً في مفاوضاتها مع الصين. المستشار الألمانية سافرت أثناء العام الماضي ثماني مرات إلى الصين. والأسبوع المقبل سيطير الرئيس النمساوي إلى بكين، ومعه على الطائرة وزراء، وممثلو جماعات المصالح، ونواب عن الصناعة والتجارة والزراعة، والنقطة الأهم في جدول الزيارة: تجارة لحوم الخنازير. وبعدها مباشرة سيزور الهولنديون بكين، مثلما أعلنوا. إذا نجحت إحدى هذه الدول في إبرام معاهدة ثنائية مبدئية مع الصين، عندئذ سيكون من غير المرجح سياسياً أن يحصل الاتحاد الأوروبي على تكليف بالتفاوض مع الصين. وعندئذ ستبدأ المنافسات الوحشية، وستحاول كل دولة أن تقدم عرضاً أقل لتطرد الدولة الجارة من المركب. وبدلاً من التحرك الجماعي، سيقتلون بعضهم بعضاً، وبتكالبهم الهادف إلى نمو السوق المحلي سيفجرون أزمة أوروبية. وإذا استخدمنا كلمات كاي أوفة، فقد كان الأمر واضحاً تماماً مثل مرق اللحم الصافي.

كان مورلاند يعرف بالطبع أن كاي أوفة فريجة سيقوم برحلة عمل في هذا اليوم. وكان خسيئاً عندما اقترح عليه في النهاية هذا الموعد تحديداً: ثلاث ساعات قبل ركوب فريجة الطائرة.

حافظ فريجة على هدوئه وقبّل الموعد. والآن، ها هو يجلس أمام هذا الخنزير. كان ذلك تداعي خواطر رخيص، لكن فريجة لم يستطع التفكير في شيء آخر. إنه لا يحتمل هذا المورلاند، ويعتبره غداراً ومتهكماً وغير مسؤول. كل هذا يبرر استخدام هذا التشبيه القوي. ثم شكل مورلاند:

وجهه المستدير الوردي، وفي الوسط أنفه الصغير العريض، وكأنه مقبس كهرباء. كان في منتصف الثلاثينيات، لكنه بدا أصغر كثيرًا، ابن الطبقة العليا البريطانية هذا، وكأنه بدأ يحلق ذقنه مؤخرًا، ولهذا يلمع خداه بلون أحمر ملتهب. شعره الأحمر غزير يقف مثل شعر فرشاة.

يتحدر فريجة من عائلة معلمين في هامبورج. التوجه الدولي الذي يغلب على المدينة التجارية العريقة، وإدراك الذنب التاريخي للألمان، ورغبة أخلاقية قوية في أن يسود السلام والعدل في العالم، واجتهاد شخصي واستقامة، وارتياب وتشكك في الموضة والذوق السائد - هذه هي الأوتاد التي دقها والداه في الأرض لرسم حدود الحقل الذي نما فيه وترعرع. كان يدرك أنه يظلم مورلاند. لكنه كان مدركًا أيضًا أن لديه أسبابًا وجيهة كل الوجاهة.

عندما راح فريجة يشرح وجهة نظره للأمور، كان مورلاند يحدق في أظافر أصابعه. أغلق فريجة عينيه، لا رغبة لديه في رؤية طريقته المتعجرفة هذه. مورلاند محق في كل نقطة. نعم، هذا صحيح. هذا هو الوضع. لم يكمن الفارق بينهما في أن فريجة يقيم الوضع تقييمًا مختلفًا، بل في أن مورلاند يرى موقفه عقلائيًا ويدافع عنه، في حين أن فريجة يريد الخروج من ذلك الوضع.

عندئذ قال فريجة:

- أو كي جورج، تخيل أنك فلاح من الأقنان المملوكين لسادتهم!

- ولماذا ينبغي عليّ أن أفعل ذلك؟

- مجرد تلاعب بالأفكار! إذن...

- لا أحب أن أتلاعب بمثل هذه الأفكار!

- طيب. كان لدينا ذات يوم نظام القناة^(١٢). *Right*? تعرف هذا النظام. والآن تخيل التالي: أحد الفلاحين الذين أجبروا على العمل لدى إقطاعي يذهب إلى سيده ويقول له إنه يريد أن يتحدث معه.

- وهل كان يُسمَح للعبيد بأن يتحدثوا مع أسيادهم هكذا؟

- لا أعرف، الأمر سيان، المهم هنا هو ما يقوله القن، وليس العبد، ولكن ليس لدي مانع إذا أسمىناه عبدًا، سيان. إنه يقول: سيدي، إن نظام القناة ليس جيدًا على الإطلاق، إنه غير جدير بالكرامة البشرية، ويتعارض مع الإنجيل...

- هل وردت هذه الحكاية في الإنجيل؟ لا أعرفها.

- مكتوب في الإنجيل أن كل الناس سواسية أمام الرب، وكانت تلك هي الحجة التي استخدمها القن، إذن...

- وهل كان يعرف القراءة من الأساس؟ واللغة اللاتينية؟ حسب علمي كانت الأناجيل في العصور الوسطى مكتوبة باللاتينية فقط، ومعظم الناس كانوا أميين.

(١٢) نظام القناة كان منتشرًا في العصور الوسطى، ويُعتبر حالة من الرق أو العبودية. كان الإقطاعي يمتلك الأفتان الذين يعملون لديه مقابل توفير الحماية والأجر عن عملهم. لم يكن مسموحًا للأفتان بمغادرة مزرعة السيد، أو أن يتزوجوا دون إذنه. (المترجم).

- أوكي. من غير إنجيل. على كل حال، فإن القن ليس موافقاً على نظام القنانة. وهو يقترح على سيده ذاكرًا بعض الأسباب العقلانية أن يمنحه الحرية. كيف سيكون رد السيد؟

- أنت ستقول لي ذلك.

- سيشرح للفلاح أنه قن؛ لأن أباه كان أيضًا قنًا، وكذلك جده لدى جد السيد، هكذا هو العالم، ومنذ أجيال، منذ بدء الخليقة، ولا بد أن لذلك معنى.

- سأطلق على ذلك حجة عقلانية، أليس كذلك؟

- أوكي، جورج. والآن قل لي: هل لا يزال لدينا نظام القنانة؟

- لا أعرف. في مكان ما في العالم تقصد؟

- جورج! مرة ثانية! فلاح من القنانة في مكان ما في أوروبا يشكو من...

- أعتقد أنهم سيقطعون جسده إربًا إربًا، ولن ينال حرته.

- بالضبط. والسيد يقول له: الوضع كان دائمًا هكذا. والآن، أسألك مرة ثانية: هل لا يزال لدينا نظام القنانة؟ أترى؟ ما أريد الوصول إليه: كل ما قلته صحيح، وصائب كل الصواب، ولكن فقط «داخل الصندوق» *inside the box*. ولكن من الناحية الموضوعية فإن الوضع لا معنى له، ولا يمكن أبدًا الحفاظ عليه على المدى البعيد. مرة بعد أخرى اختفت أشياء بدت أنها ستظل إلى الأبد،...

- أتعني الاتحاد الأوروبي؟

- لا، أقصد المصالح الوطنية. الأمر بالفعل عبثي، عندما تشكل الدول الأوروبية سوقًا مشتركة، ولكنها لا تفرز سلوكًا جماعيًا في التجارة الخارجية. كل خنزير يغادر أوروبا يصل إلى السوق العالمية بفيزا من إحدى الدول. أوكي، هكذا هو الأمر، ولكنه سيتغير يومًا ما؛ لأن الأمور تتغير. ولهذا يمكننا أن نبدأ من الآن بجعل الأمر أكثر عقلانية.

- سأفكر في حكاية القنانة، وإن كنت غير متأكد ما إذا كان هذا المثال ينطبق عليه فعلاً وصف «المثال الجيد».

كان كاي أوفة فريجة يعرف بالطبع لماذا يقاوم مورلاند تطوير السياسة المشتركة للاتحاد الأوروبي: لأنه ليس أوروبيًا، بل بريطانيًا في المقام الأول، ولم يُرسل إلى المفوضية باعتباره موظفًا أوروبيًا، بل باعتباره بريطانيًا يعمل وسط الموظفين الأوروبيين. وكانت السياسة الحديدية لبريطانيا العظمى هي إعاقة أن يذهب جزء ولو صغير من السيادة الوطنية إلى بروكسل. بأموال الاتحاد الأوروبي جددوا مدينة مانشستر التي كانت متهاكة تمامًا، لكنهم لا يشعرون بالامتنان، بل يعتبرون واجهات منازل مانشستر المتأنقة الآن دليلاً على أن الرأسمالية في مانشستر تنتصر دائماً على كل المنافسين. لعل هذا الخنزير الرخو، المُعطر يبدأ يومه بالتغني بالنشيد الوطني *Rule Britannia!* خلال احتسائه شاي الصباح... تنفس فريجة عميقًا، ثم نهض قائلاً:

- Well، عليّ التوجه إلى المطار الآن، فلنواصل حديثنا الأسبوع القادم!

- في أي وقت تريد!

كان فريجة قد استعد بمشهد ختامي قوي. قال أثناء ارتدائه المعطف:

- بالمناسبة، أعتقد أن المعلومات وصلتك. الحكومة الألمانية ستبرم في الأسابيع القادمة معاهدة تجارية ثنائية مع الصين. أوكي، هي تقتصر على تجارة الخنازير. ليس هذا بالأمر المهم جدًا بالنسبة للمملكة المتحدة.

- أهذا مؤكد؟

- نعم، هذا أكيد.

زرر فريجة معطفه، ووضع المستندات في شنطة أوراقه.

- هذه المعاهدة حصرية، وهي في الواقع الباب الذهبي لدخول الاقتصاد الألماني إلى السوق الصينية. والأمر هنا لا يدور حول إحصائيات التصدير فحسب.

صافح مورلاند.

- المستثمرون الكبار سيحللون الأمر جيدًا، وستظهر أسواق المال ردود فعل. سوق المال في مدينة لندن ستفقد جزءًا من أهميتها، وستتصاعد أرباح البورصة في فرانكفورت على نحو هائل.

ربت فريجة على كتف مورلاند.

- أليس الأمر غريباً؟ بسبب خنازير ألمانيا تجد بريطانيا نفسها في وضع يدعو إلى الرثاء؟ أوكي، عليّ أن أنطلق الآن. اتصل بي الأسبوع القادم، لا بد حتماً أن نواصل حديثنا. أنا متأكد من أننا سنجد طريقاً للتعامل مع الأمور بشكل عقلائي، وأكثر عدلاً. ولكن لا بد أن تتفق المفوضية على ذلك.

فتح فريجة الباب، ثم التفت ملقياً نظرةً أخيرةً على مورلاند، وقال وهو يهز رأسه: «خنازير!» ثم ضحك. كانت الابتسامة لا تزال على شفتيه وهو جالس في التاكسي في طريقه إلى المطار.

واحد وأربعون.. اثنان وأربعون.. ثلاثة وأربعون.. أربعة.. خمسة.. ستة.. سبعة.. ثمانية.. تسعة وأربعون.. خمسون! التنفس الصعداء! واحد وخمسون.. اثنان وخمسون.. ثلاثة.. أربعة..

سار إلى منتصف الشارع، مع كل خطوةٍ يخطئ الأرض بقدميه، هذا هو لهاث الخطوة، سبعة ثمانية وتسعة وخمسون ستون! ثم تنفس الصعداء! واحد وستون اثنان ثلاثة... لماذا يُحصي الخطوات؟ يريد أن يعرف عدد الخطوات من بوابة المدخل حتى النهاية، من المدخل حتى النهاية، حتى مخرج النهاية، يريد أن يحيط بأبعاد هذا المكان، طريق المعسكر هذا الذي يبدو بلا نهاية، طريق اللانهاية. امتد الطريق أمامه بريئاً مغطى بالثلوج البيضاء، الساحة كلها هنا بريئة بيضاء. لماذا يربط الناس بين البياض والبراءة؟ حتى هنا، في هذا المكان، لون البرد القاتل تحت ضوء الموتى في شمس الشتاء. بخار الأنفاس أمام الفم،

عند كل رقم، ستة.. سبعة.. ثمانية.. تسعة وستون سبعون! هبت رياح
ثلجية في وجهه.

في تلك اللحظة شعر مارتن سوسمان بضغط خفيفة على كتفه،
واحد وسبعون.. اثنان وسبعون.. ثلاثة و- يد على كتفه: من فضلك،
لا بد أن تربط الحزام!

فزع، وفتح عينيه. نعم، قال، طبعاً!

طائرة العودة من كراكوف إلى بروكسل. هل يلهث؟ يتنفس
بصعوبة. أغلق حزام الأمان، ومد يده إلى الفتحة التي تنفث الهواء البارد
فوقه وأغلقها. عندئذ انغلقت العينان، وشعر بالعرق البارد على جبهته،
كان يشعر بالبرد. لقد أُصيب بالبرد طبعاً. كان خائفاً من هذه الرحلة،
رغمًا عنه وبمقاومة داخلية كبيرة استعد لزيارة النصب التذكاري
والمتحف، كان يخشى الصدمة، أن يرى ما لا يوصف. لكن التحنيط
المتحفي يقتل الموت، والتعرف على شيء يحول دون صدمة المعرفة.
الماكينات التي تقدم، مقابل عشرة زلوتي، المشروبات الساخنة أو قطع
الشوكولا للسائحين في المعسكر، أثارت الصدمة في نفسه أكثر من
تلك الأكوام من الشعر والأحذية أو النظارات التي رآها كثيرًا في صور
أو في أفلام وثائقية. أما أكثر الأشياء رعبًا فهو البرد. إنه يتسلل إلى كل
مكان، إلى البشرة، والعظام، الطبقة الثلجية الرقيقة في الدهليز الطويل
للتاريخ. في الخيمة الاحتفالية في أوشفيتس كان الأمر محتملاً بعض
الشيء، لكن بركناو فظيعة، لم يشعر ببرد مثل هذا أبداً طيلة حياته.
كانت جدته ترتدي عدة تنانير وصدریات فوق بعضها البعض، وكانت

تكرر القول: «من يتدفأ، ينج!» مرتدية طبقات فوق بعضها كانت تقف أيضاً في الزريبة، في دفء الزريبة. وفي البرد القارص اعتادت أن تقول: «هكذا يجلب الإنسان لنفسه الموت!» هذه الذكرى، أثناء رحلة العودة إلى شقته المدفأة في بروكسل، ولدت لديه شعورا بالخجل، وكأنه قال لجاره الجالس بجانبه بصوت عال: في بر كناو، هناك جلبت الموت لنفسى. أقول لك: البرد هناك! كيف يمكنني أن أصفه لك؟ لقد جلبت لنفسى الموت!

أخذ نفساً عميقاً. أنفه مسدود. ثناءب، في الحقيقة أخذ نفساً شرهاً، ثم بدأ في النعاس مرة أخرى. كان يجلس في صف من ثلاثة مقاعد، مقعده بجانب الممر. سمع الأصوات الصادرة عن المرأتين الجالستين بجواره، وكأنهما يأتیان من بعيد، وكأنهما محض ذكرى. كانتا تتحدثان بالألمانية، بمرح وحيوية.

رأى نفسه يقطع طريق المعسكر ثانية، لاهئاً، يُحصي الخطوات كمن أصابه مس، مقاوماً الريح، تعمق في السير وقد أحنى هامته، غطت الغيوم السماء مثل جفون ثقيلة، واكتست الساحة الرحبة البيضاء بلون الرماد. أحس أن كل شيء داخله يستسلم، لم يقاوم هذا الشعور. سقط رأسه على صدره. عندئذٍ شعر بريحٍ في ظهره، وكأنها تحمله حملاً، لم يجد أرضاً تحت قدميه، طار. تعجب من أنه استطاع الطيران، في الوقت نفسه كانت لديه ثقة عجيبة، كان الأمر منطقيّاً على نحو ما، بديهيّاً تماماً، أن يصعد في الهواء بهذه الخفة متخليّاً عن جسده. هل كان ينظر إليه أحد؟ تملكته رغبة أن ينظر العالم كله إليه وأن يرى كيف يحلق،

ويصعد إلى السحاب كأنه دوامة، كأنه أرجوحة، شاقاً طريقه في تيارات الهواء. سمع الصوتين الألمانين، قريبين، وبعيدين، كانا يتحدثان عن شيء مختلف تماماً، عن الفن والأدب، عن كتب، فرأى كتباً مفتوحةً تحلق في الهواء مثل طيور، ملأ شدوها الأجواء، في حين أرسل هو البصر إلى الحقل الواسع. من أعلى -تعلم ذلك في الفصل الدراسي الأول لعلم الآثار- يستطيع المرء أن يشاهد ما يخفيه سطح الأرض، المرء يرى عمقاً لا يلاحظه عندما يسير فوق الأرض. عندما يسير المرء وتلفت حوله، يرى فضاءً مُغطى بالثلوج. فإذا طار المرء فوقه، يلاحظ بنية، مساحات تختلف عن بعضها البعض، الحقل ينقسم إلى عدد من الحقول. تبعاً لما يكمن تحت السطح -أرض بكر أو ركام الحضارة المدفون، جثث، أحجار من أطلال مبانٍ، مياه جوفية، أقبية عتيقة ونظم صرف صحي، أو حفر مردومة كانت تستخدم خزاناً للصرف الصحي أو كمراحيض- يكون رد فعل السطح مختلفاً، تنمو نباتات أكثر أو أقل، كلما زاد التاريخ، ظهرت تفاصيل أكثر من الحقل عند إلقاء نظرة من عل. على طبقة الأرض الرقيقة فوق أحجار الحضارات الآفلة تنمو نباتات أقل كثافة مما ينمو فوق مقبرة جماعية حيث ينمو العشب ويشق طريقه مثلما يتوقع المرء: بسرعة يغطي المقبرة! الفروق واضحة أيضاً حتى في المساحات المغطاة بكاملها بالثلوج: درجة حرارة الأرض في المناطق البكر تختلف عنها في الطبقات الرقيقة التي تقع فوق أحجار أو التي تغطي الخشب العطن أو المقابر الجماعية، حتى بعد مرور عقود فإن تحلل الجثث لا يزال يُدْفئ التربة، ولذلك قد تكون الثلوج

جليدية، أو لا تعدو طبقة ثلجية رقيقة، أو تكون الطبقة زجاجية بدأت في الذوبان. من يطير فوق هذه الأرض، يتعرف على الفروقات ويعرف أين عليه أن يحفر.

رأى أمامه البروفيسور كرنستسجر، معلمه القديم، الذي كان يقول: علم الآثار الحديث لا يبدأ بالحفر، بل بالطيران!

فجأة وجد البروفيسور يجلس بجانبه في الطائرة، ويقول له شيئاً - ماذا؟ لكن الأزيز القوي في الأجواء منع مارتن من أن يفهمه على الفور، رأى البروفيسور وهو يشير بإبهامه مرة بعد أخرى إلى أسفل، أثناء ذلك كان يصبح بشيء. ماذا؟

- إلى الأسفل! إلى الأسفل!

الآن فهم ما يقصده: عليه أن ينزل! لدينا مهمة أخرى. علينا، نحن علماء الآثار، أن نكشف بالحفريات عن الحضارات المطمورة، لا أن نكشف عن جرائم!

- ولكن...

نسير على أرض غير مستقرة، ولكننا نمشي بخطى ثابتة، بالأحذية ذات الرقبة التي نرتديها، ندك الأرض دكاً، حتى إذا سرنا بخفة، كل خطوة تدهس الأرض، المهم أن تكون الأقدام دافئة، رأى مارتن أحذية برقبة، في كل مكان أحذية برقبة تبعث على الدفء، وسمع الآن، بوضوح أكبر، الصوتين اللذين ظل يسمعهما طوال الوقت، صوتي المرأتين.

- أرى أن الرواية جيدة. لكن الأحلام أثارت ضيقي.

- الرواية من الكلاسيكيات.

- نعم، لهذا أردت أن أقرأ الكتاب أخيرًا. لكنني لا أحب الأحلام في الروايات. كل فترة تحلم شيئًا يتم وصفه بمنتهى الدقة، أحلام سوريلية تمامًا، من المفروض أن توحى بالشاعرية. الأمر في رأيي كالتالي: أستطيع فهم ما تراه إحدى الشخصيات أو تعايشه، أما الأحلام...

- لكن أحداث الرواية تجري في زمن الفاشية. من الممكن أن تتاب المرء كوايس عندئذ.

- لا، الأمر في رأيي كالتالي: عندما يرد حلمٌ في كتاب، فإنني أفضل أن أكون أنا النائمة.

رأى مارتن كل تلك الأحذية ذات الرقبة، دافئة ومريحة، فصل من مدرسة ألمانية في رحلة إلى أوشفيتس. معلمة: تورستن! ماذا بك؟ أتحلم؟ تعال وانضم إلينا!

صبيان يتحدثان بالتركية. أحد المعلمين يطالبهما بعدم التحدث بالتركية هنا، أحدهما يجيب قائلاً: هنا بالذات لن نتحدث بالألمانية!

شعر مارتن بالدوار. شعر وكأنه يلف حول نفسه، بسرعة متزايدة، كل شيء حوله يغيث، وفي بعض الأحيان فحسب تبرق صورة، ويسمع جملة، شخص ما يقول شيئًا عن الفحم، تلميذ يسأل: ما الفحم؟ يسمع صوتًا يقول: كابتن الطائرة يتحدث إليكم. اربطوا الأحزمة، مطبات هوائية.

يقف مارتن سوسمان أمام المحرقة في المعسكر الرئيس بأوشفيتس. كان قد رأى غرفة الغاز، وأفران الحرق، تمامًا كما في الصور التي شاهدها من قبل، صور بالأبيض والأسود، ما رآه الآن كان حقًا بالأبيض والأسود. شعر... بماذا؟ لا يستطيع القول، لم يجد كلمة مناسبة؛ لأن كلمة «متأثر» لم تعد كلمة ألمانية، بل أضحت نوعًا من اللاصق الألماني الذي يوضع على الروح. كانت تلك فكرة، ولكن في الحلم كان يقف أمام نفسه. كان يقف أمام المبنى مشعلًا سيجارة. عندئذٍ ظهر فجأة رجلان بزيٍّ رسميٍّ، ركضا في اتجاهه، خبط أحدهما اليد الممسكة بالسيجارة، وقال الآخر شيئًا بالبولندية، ثم بالإنجليزية:

- *No smoking here!*

على صدر مارتن تأرجحت البطاقة المعلقة المكتوب عليها «ضيف شرف في أوشفيتس»:

«GUEST OF HONOUR / GOSCHONOROWY / EHRENGAST

in Auschwitz».

لوح بالبطاقة في وجه الرجلين، وفي تلك اللحظة جاء السيد تسيرومسكي يعدو، ثم صاح قائلاً:

- السيد الدكتور، السيد الدكتور، علينا أن نتوجه إلى الخيمة! الاحتفال سيبدأ.

استيقظ من أفكاره على وقع اهتزاز الطائرة وتأرجحها. طفل يصرخ.

في اليوم التالي أبلغ أنه مريض. ظل خمسة أيام لا يغادر شقته.
ثلاثة أيام كان مصابًا بالحمى. في اليوم الخامس سجّل فكرته، ووضع
التخطيط الأولي لمشروع اليوبيل.



الفصل الخامس

ليست الذكريات

أقل مدعاةً للثقة من أي شيء آخر

نتخيله .

الحب تَخِيل. لم تفهم فينيا كسينوبولو أبداً كل هذا الضجيج المصنوع حول الحب. كانت تنظر إلى هذا الشعور مثل مخزون في عالم آخر، مخزون لم يثبت وجوده، كالماء في المريخ. يقرأ الناس عن ذلك في تلك المجلات الملونة، مثل «كريسي كارديا» أو «ليون»، التي تتحدث عن غراميات ممثلي هوليوود ونجوم البوب وحفلات الزواج الأسطورية التي تنظم للأميرات. البعض يعتبر الحب ممكناً لأنهم يشعرون بالشوق إليه، ولكن كل مَنْ عرفتهم فينيا، استسلموا يوماً ما. ذات مرة قالت أمها عند الكوافير عن الليدي ديانا العاشقة التعيسة: «هذا، ما لم تحصل عليه أبداً، لم أحصل عليه أبداً أيضاً، ولكن بثمان أرخص بكثير!».

حسب معلوماتها لم يقع إنسان واحد من عائلة فينيا في الحب؛ وذلك بمعنى أن يكون تيار المشاعر الجارف هو الذي يحمل المحب على إقامة حفل القران، أو أن يكون الإحجام عن مبادلة العواطف سبباً لحدوث تراجيديا. باستثناء عمها كوستاس، الأخ الأكبر لأبيها، الذي لم تتعرف إليه أبداً، لكنه يحيا في حكايات العائلة كشخص مجنون سار إلى الموت لأنه أحب حباً خالداً. هذا التناقض زعزع مشاعر فينيا وهي بعد طفلة: الموت بسبب الحب الخالد. الأرجح أنهم لم يتحدثوا عنه

كثيرًا كما يبدو الأمر عند تذكر ذلك، وربما يكون ما سمعته ألهب خيالها بشكل خاص فحسب، وأثار مخاوفها. العم كوستاس عاشق، وبيجنون، مثلما يقولون، ولأنه لم يستطع الوصال مع معبودته، فقد رحل وانضم إلى المقاومة. عندما سمعت الصغيرة فينيا كلمة «معبودة»، وجدت نفسها تفكر في مريم العذراء، وفي الوجد الديني، وربما لم يكن ذلك شيئًا خاطئًا تمامًا. ما شغل ذهنها أكثر في تلك الفترة هو مفهوم «المقاومة». لم تكن تعرف أي الحروب، أو الحروب الأهلية، سادت آنذاك، إذ حدث ما حدث قبل مولدها، أي أنه كان بعيدًا تمامًا مثل الحروب البيلوبونيسية التي سمعت عنها في المدرسة، أو بعد ذلك بقليل. قالوا إن العم كوستاس «لم يرجع». في خيالها كان «العم بالمقاومة» موجودًا في عالم سفلي مع الموتى الذين يعشقون عشقًا خالدًا، يحاربون التهلكة التي يسمونها «العشق» و«العبادة». تخيلت ذلك العالم السفلي مظلمًا، ورطبًا وخانقًا، يحفل بالمخاطر غير الواضحة، وعلى كل حال ليس مكانًا يود المرء الذهاب إليه - حتى وإن كانت لا تشعر برغبة تملكها مثل رغبة الرحيل بعيدا عن قريتها القبرصية التي تحترق تحت الشمس، بعيدًا عن بلدها الجاف الحافل بالحجارة وبأشجار الزيتون البائسة ذات البريق الفضي الخادع؛ أشجار تعد بالجمال الآخرين، أي السياح المفتونين الذين ينفقون في القرية ما يقيم أود أهلها الذين لم يعودوا منذ سنوات طويلة يستطيعون العيش على الزيتون. كان السياح يأتون حتى يزوروا «حمّام أفروديت»، فماء هذا النبع يهب السابحين فيه شابًا دائمًا. هنا كانت ربة الحب تلهو مع أدونيس. غير أن هذا المعلم السياحي لم

يكن سوى حوض طبيعي مختبئ في الصخور أعلى القرية، كما أنه جفّ تقريباً، وبجانبه لافتة خشبية كبيرة تحذر من شرب الماء أو السباحة فيه:

NON POIABLE WATER

PLEASE DO NOT SWIM

يلتقط السياح الصور للحوض الجاف واللافتة ويضحكون. كان أولئك إذن هم تلاميذ ربة الحب. تبع فينيا لهم بعد المدرسة زجاجات المياه المعدنية التي تحملها عبر الجبل في شنطتين تحافظان على البرودة. تدخر. تريد الرحيل.

احتاجت إلى سنوات حتى أدركت أن عمها مات حقاً منذ أمد بعيد، سقط خلال نضاله كفدائي، وطمرت جثته في مكان ما. الفدائيون، هكذا قالت لنفسها، هم أناس لا يعترفون بالواقع، ولهذا فإن ما يجمعهم مع العشاق كثير. برأيها كان الأمر جنوناً، جنوناً مطبقاً، عندما يناضل يونانيون ضد الجنرالات اليونانيين بدلاً من أن يقاوموا الأتراك الذين احتلوا نصف الجزيرة.

لدى فينيا تصور آخر عن السعادة وعن النضال الذي تريد عبره أن تجني السعادة. كانت تريد الرحيل. والتحليق عالياً. كيونانية من قبرص لديها فرصة، بعد الحصول على الشهادات الملائمة، أن تحصل على مكان للدراسة في اليونان. تريد الانتقال إلى أثينا. دعمت الأم خطة فينيا بمدخراتها المتواضعة. هل كانت فينيا تحب أمها؟ كانت تعلم أن دعمها يعني في نهاية المطاف: الفوائد وفوائد الفوائد، يعني المال الذي سترسله إلى أمها بعد إتمام الدراسة بنجاح. بذلت العائلة كل جهدها

من أجل ذلك. كان ذلك هو تعريف الحب الذي تفهمه فينيا. بهدايا صغيرة، وبعناد كبير، راح الأب يحث أشخاصًا يعرفهم، يعرفون من جانبهم أشخاصًا آخرين، إلى أن استطاع أن يحصل لفينيا على مكان في سفينة مبحرة من ليماسول إلى لافريو، سفينة بضائع لا تقل ركبًا. وافق القبطان على ركوب فينيا معهم، متسامحًا مع وجودها غير المشروع على السفينة. العبارة غالية جدًا، أما تذكرة الطيران فلا يمكن أن يوفروا ثمنها. كان عليها أن تعتمد على نفسها في الطريق من لافريو إلى أثينا. لم يكن ذلك صعبًا، فحركات النقل تتوالى دون انقطاع على هذا الطريق. تنبأت صديقة لها: ستدفعين الثمن بالجنس. لم تدفع فينيا. سمح السائقون للفتاة الجميلة الصغيرة بالصعود إلى العربة، وبجانب السائق كانت تجلس امرأة ثلجية توحى بالهيبة. في أثينا أقامت لدى عائلة تربطها بها قرابة بعيدة. مع البعد يزيد سعر التضامن العائلي. طلب الأقارب «مساهمة في تكاليف الطعام» أكثر بكثير مما أُنْفِقَ عليه في الرسائل من قبل. تبخرت الميزانية سريعًا، ميزانيتها وميزانية أمها. غير مسموح لها بأن تأخذ من الثلاجة شيئًا لم تشتريه بنفسها، رغم أنها تساهم في تكاليف الطعام. عندما كانت العائلة تأكل في المساء لحمًا، كانت تحصل هي على خضار وبطاطس، وفي النهاية على عظمة فخذه الخروف، إذا ظل عليها شيء. شعرت بالإهانة، غير أن كبرياءها لم يسمح لها بإخبار عائلتها بذلك. حزمت الشنطة التي تحملها على ظهرها وبدأت البحث. زميلة لها في الدراسة أخذتها معها إلى «سبيليا تو بلاتونا»، تلك الحانة الشهيرة لدى «الشباب الذهبي» في أثينا.

- هل الأسعار هناك غالية؟

- نعم. سندفع ثمن مشروب واحد. بعد ذلك سندعى بالتأكيد من

الرجال! أكثر الرجال إثارةً يترددون على «سبيليا»!

هناك تعرفت إلى المحامي الدكتور يورجوس خاتسوبولوس، وبسرعة أصبحت تناديه بـ«خاتس»، أو بالكلمة الألمانية «شاتس»، أي الكنز. لم يكن واضحًا ما إذا كانت تستخدم اسم الدلع لـ«خاتسوبولوس» فحسب، أم أنها تلمح إلى عاهرات النازيين اللاتي التصقت بهن في تلك الفترة وصمة أنهن «الكنز الجرماني» («جرمانيكي شاتس»). كان يورجوس خاتسوبولوس وريث مكتب محاماة استولى عليه جده خلال فترة الاحتلال الألماني، وذلك بعد أن تم ترحيل المحامي اليهودي صاحب المكتب. لم تكن فينيا تعرف شيئًا عن ذلك مطلقًا. كما أنها بالغت في تقدير يورجوس. أحضرت شنطة الظهر وانتقلت لتعيش عنده. كان أول رجل متحضر في حياتها. يكبرها بخمس عشرة سنة، كريم، رجل يتناقش مع السُّقاة في المطاعم الغالية حول أنواع النبيذ الفرنسي. كادت تعتقد بوجود ذلك الحب الذي تشعر به الأميرات. تزوجا. في حفل القران وجدت فينيا نفسها تضحك، عندما تحدث «الكنز» في كلمته أمام ضيوف الحفل عن «الحب الخالد». ذكرتها الكلمة بالحكايات العاطفية الرخيصة في مجلة «القلب الذهبي»، «كسيرسي كارديا». وبالفعل باع صور حفل الزفاف إلى المجلة - لكن المقالة المنشورة كانت صغيرة، نصف صفحة مع صورتين، فيما بعد اتضح أن فعل «باع» ليس صحيحًا تمامًا: لقد دفع من أجل النشر!

يا لفخر الوالدين! ركبهما الهم لاحقًا عندما عرفا أن فينيا غير سعيدة. لم يشعر بالقلق من أجل فينيا، بل من أجل الزواج. فقدت هذه الزيجة سحرها بسرعةٍ بالغةٍ. عندما تذهب مع كنزها إلى «الجاكوزي» في شقته، تشعر بتفاهة كل شيء بوضوح لا يحتمل: كان فخورًا جدًا بـ«الجاكوزي» الذي يملكه، لم يستمتع بالترف الذي وصل إليه، بل بالشعور أنه بذلك يثير إعجاب الآخرين. كان يستمتع برموز الحياة الفخمة، وليس بالحياة نفسها. كان مبتهجًا لأنه استطاع امتلاك هذه المرأة الشابة الجميلة، كان يعشق ذاته، أما هي فقد تولد داخلها بسرعة شعور بأنه يمكن استبدالها. كان يعتقد أنه «يصنع الحب» -وهو تعبير وجدته أسخف من أي تعبير آخر مبتذل- لكنه في الحقيقة كان يصنع الحب مع ذاته فحسب.

بواسطته دخلت إلى دوائر أخرى، وهناك لاحظت أنه ليس ذلك الرجل المهم الذي تعرفت إليه في «سيليا»، بل رجل عصبي محدود الأفق يقترب بالنفاق الرخيص من الأثرياء بحق، هو في الواقع محامي سيئ السمعة يكسب باصطياد الأسماء العفنة ما يكفي لكي يعتقد بأنه أصبح يجلس على حافة عالم المال والسلطة.

عندما بدأت فينيا تنطوي على نفسها، وتسير بحزم في طريقها الخاص، اعتقد «الكنز» فجأة أنه يحبها. كان يظهر حبه من خلال عتاب ولوم يعبر عنهما بانفعال، وعبر خوف مَرَضِي من فقدانها، معتبرًا ذلك دليلًا على حبه، وعبر عاصفة عنيفة من المشاعر قد يراها المرء رغبة في القتل. أما الفضيحة الكبيرة في رأيها فهو أنها كان يطالب فينيا بأن تشعر

تجاهه بالامتنان. هذا جنونٌ: أن تطلب العرفان بالجميل بعد أن تكون قد أشبعت رغبتك!

لقد سهّل عليها ماليًا الحياة الجامعية، هذا صحيحٌ، لكنها كانت ستنجح من دونه أيضًا، أما هو فلم يكن سيستمتع بالحياة بهذا القدر من دونها، كما أنه كان يتباهى بها ويستعرض امتلاكه لها، من دونها ما كان سيحقق ذلك القدر من الشهرة في دوائره. لقد درست علم الاقتصاد، حسابات الميزانية هذه كانت دون مستواها. كما أنها اقتنصت دون مساعدته المنحة الدراسية في إنجلترا، وبها استطاعت أن تبتعد عنه. كانت تريد الرحيل، والتحليق عاليًا.

وهكذا أصبحت زوجين في نهاية الأسبوع فحسب، ثم تباعدت الفترات الفاصلة بين لقاءهما، في البداية في لندن، ثم في بروكسل. عندما رأيته آخر مرة في فراشها، بعد أن استيقظت وتأملت خصلات شعره المجددة الرمادية المبللة بالعرق، ووجهه المنتفخ من الإفراط في الكحول، قالت لنفسها: أشعر به اليوم غريبًا عني أكثر من اللقاء الأول. كان ذلك في رأيها تعريفًا جيدًا للنهاية.

أبهجتها هذه الفكرة. كانت مسرورةً ومسترخيةً خلال الفطور كما لم تكن منذ فترة طويلة. لأن كل شيء كان واضحًا لها. كانت تلك هي اللحظة التي أظهر فيها «الكنز» عظمتة حقًا. لم يفهم الموقف على نحو خاطئ، بدا عليه أنه هو نفسه يشعر بالتححرر، كان مرحًا، وعندما غادر شقتها ساحبًا حقييته خلفه قال لها: الحب تخيل.

- نعم.

- كوني بخير!

- نعم. وأنت أيضًا.

كم كان الأمر عبثًا، عبثًا تمامًا، أن تجلس فينيا الآن إلى مكتبها، عاجزة عن العمل؛ لأنها تنتظر على أحر من الجمر، تنتظر بشوق، بشوق العاشقات - مكالمة فريزر. لقد عاد أمس من رحلة عمل إلى الدوحة، وقبل ظهيرة اليوم كان لديه موعد للحديث مع كونو، كان يستطيع أن يذكر خلاله عَرَضًا طلب فينيا، حتى يجس النبض ويعرف الإمكانيات المتاحة لنقلها من الثقافة. لقد وعدا أن يتصل بها بعد اللقاء مباشرة. كانت تجلس وتحقق في التلفون. تناول السماعة، ثم تضعها مرة أخرى. لا، لم تتصل به، عليه أن يتصل هو. تناولت هاتفها الذكي، لترى ما إذا كان أحد اتصل بها أو ترك لها رسالة - لا، وضعت بجانب لوحة حروف الكمبيوتر، ثم فحصت وصول رسائل إلكترونية، ٤٧ رسالة غير مقروءة، ولكن لا رسالة منه، تناولت الهاتف الذكي مجددًا، نعم، الاستقبال جيد بالطبع، وضعت مرة أخرى على الطاولة. ما يربكها: لا يهتمها مطلقًا ما سيحكيه فريزر عن المقابلة، ما إذا كان كونو قد لَمَحَ له شيء يمكن تأويله بأنه مستعد لدعم رغبتها في الانتقال، تقديرًا لروح المرونة - لا، لقد كانت تريد سماع صوت فريزر. أيًا كان ما سيقوله لها. سماع صوته فحسب. شعرت بنفسها وكأنها - نعم، كأنها؟ هذا جنون: إنها تتشوق إلى صوته.

حضر مارتن سوسمان إلى «الْفُلْكَ» في تمام الثامنة صباحًا. من الكانتين هبت رائحة الكرواسان الطازج فملأت البهو. هذا الشذا الذي لا يستطيع مقاومته في المعتاد، ذكره اليوم بمصنع كيميائي، فاعتبر ذلك علامة على أنه لم يُشف تمامًا بعد. أمام المصعد قابل شاين من «مجموعة عمل أوكرانيا» يعملان في الطابق السادس. أطلق بوهوميل شميكال على كل منهما «السلمندر»، وهو تعبير أصبح شائع الاستخدام الآن في «الْفُلْكَ» عندما يتحدثون عن العاملين في مجموعة العمل تلك. وهكذا كان بمقدور المرء أن يتحدث عن «السمادل»، باحتقار أو بسخرية، حتى لو كانوا يجلسون في الكانتين إلى المائدة المجاورة. قال بوهوميل شارحًا: هذا جيل جديد عندنا، ليسوا شغوفين بالفكرة الأوروبية، بل مجرد متسلقين للسلم الوظيفي في المؤسسات الأوروبية، مثل السمادل، يمكنك أن تلقي بها في النيران، لكنها لا تحترق، ولا تُباد، هذه هي صفتها الأساسية.

كانوا شبانا يرتدون بدلًا ضيقة لا غبار عليها، بربطة عنق كبيرة وشعر مقوى بالجل، بصريًا هم النقيض الصارخ للعاملين في الثقافة، يتميزون بالنعومة والليونة، كما كانوا يتسمون بتهذيبٍ رسميٍّ أطلقت كاسندرا عليه «ساحقًا»، إذا تحدثتُ خمس دقائق مع السمادل، أُصابُ بالاكْتئاب!

«ما هي مهمتكم؟»، هكذا سأل بوهوميل أحد السمادل عندما أصبح مقر «مجموعة عمل أوكرانيا» في مبنى الثقافة رغبًا عن العاملين فيه. عرف أن عليهم أن ينظموا برامج لمساعدة أوكرانيا دعمًا لحركة

الديموقراطية بعد ثورة الميدان. التحدي الذي يواجههم هو توزيع أموال ليست بحوزتهم، إذ لم توضع تحت تصرفهم موازنة جديدة خاصة بهم. ولهذا فإنهم يقومون بإعادة التغليف المعتاد. إذا لم يكن لدى المرء شيء جديد، فإن القديم يُعاد تغليفه؛ أي أنهم يغلفون برامج مساعدة قديمة وقائمة منذ فترة طويلة، ويزودونها بعناوين جديدة وشروط جديدة وخلطة جديدة، لتصبح برامج مساعدة جديدة، وهكذا تنشأ صراعات خلال توزيع الموازنات التي تم إقرارها، ما يؤدي إلى إحصائيات جديدة بنسب مئوية جديدة ومنحنيات في أشكال توضيحية جديدة تظهر ديناميكية جديدة. هذه المهمة كانت اختبارًا مثاليًا لإثبات الكفاءة بالنسبة إلى هؤلاء الشبان الوصوليين: في النهاية لا يمكن أن تربح شيئًا غير نجاتك الشخصية وسط الشروط السارية، أو استمرار الشروط القديمة مع تحسين فرصك المستقبلية.

لم يتحسن مزاج مارتن سوسمان إذن لكونه ينتظر المصعد مع اثنين من السمادل.

كيف حاله؟ بالطبع ستكون «ممتاز!» هي الإجابة الصحيحة، لكن مارتن خرج عن طوعه وأجاب «زفت!»، ثم استمتع بالنظر طويلاً في تعبيرات وجه كل منهما، مضيفاً: «لقد أصبت بنزلة برد شديدة!».

- هذا يؤسفني جدًّا!

«جدًّا»، قال السلمندر الثاني أيضًا.

والآن، قامر مارتن بكل شيء، وأضاف:

- كان الطقس شديد البرودة في أوكرانيا!

- أوه! هل كنت في أوكرانيا؟

- Yes, Sir! وليس عجباً أن ينهار نظام المناعة في جسدي!

الناس هناك محبطون للغاية، لقد خابت آمالهم فينا، في الاتحاد الأوروبي. إنهم يشعرون بأننا تخلينا عنهم...

برقت أعين السمادل:

- نعم، نحن نعرف المشكلة، أنت محقٌّ تمامًا! نحن...

- محقٌّ تمامًا!

- نحن نعرف، وعلينا الآن...

في تلك اللحظة جاء المصعد، وانفتح الباب.

- الثالث، صحيح؟

أجاب مارتن:

- نعم.

ضغط السلمندر على زر الطابق الثالث ثم السادس، وقال:

- يجب علينا أن نتواصل معهم بطريقة أفضل. أنت محقٌّ تمامًا!

ولهذا فإننا نركز كل جهدنا الآن على التواصل!

- يجب على المفوضية أن تسوق نفسها بشكل أفضل، ونحن...

توقف المصعد وانفتح الباب. تسوق نفسها! لو علم هؤلاء، معنى

ما يقولون! هكذا فكر مارتن، قبل أن يقول:

- مع السلامة!

- أتمنى لك يومًا جميلًا!

- يومًا جميلًا! وشفاء عاجلاً!

انغلق باب المصعد خلف مارتن. أخذ شهيقًا عميقًا، بفمٍ مفتوح؛ فأنفه مسدودٌ. لقد حضر مرةً أخرى إلى العمل أبكر من اللازم. من ناحية أخرى: عليه أن ينتهي من كتابة الورقة الخاصة بمشروع اليوبيل حتى يرسلها أخيرًا إلى «كسينو». كان بإمكانه أن يفعل ذلك من البيت، ولكنها -حسب معرفته بها- ستطلب منه الحضور فورًا إلى غرفة الاجتماعات حتى تتحدث معه ومع عدد من الزملاء من القسم عن الورقة. إذن، عليه أن يكون متواجدًا ومستعدًا.

مرّ بمكتبها، الباب مغلقٌ. واصل سيره ومرّ بمكتب بوهوميل، الباب مفتوحٌ. كان يقف على سلمٍ في قلب الحجرة، عندما رأى مارتن حياه قائلاً:

- مرحبًا!

- مرحبًا!

كان رأس مارتن يعمل ببطءٍ بالغ، لم يخطر على ذهنه إلا بعد وصوله إلى غرفته أنه كان يجدر به التوقف وسؤال بوهوميل عما يفعله على السلم. سيّان. ظل يعمل على النقاط التي سجلها معدلاً في الصياغات لمدة ساعةٍ بدت له وكأنها الأبدية، ثم أرسل عبر «الميل» إلى كسينو. بعد ذلك انهمك في قراءة الرسائل الإلكترونية التي تراكمت أثناء

غيابه، والرد عليها. معظم الرسائل لم تعد بحاجة إلى ردٍّ، أو أصبحت خلال فترة مرضه غير ذات موضوع. وجد رسالة من فلوريان. «أخي العزيز، أيها الغريب عن العائلة! سأطير الأسبوع المقبل إلى بكين، وفد اقتصادي مع رئيس جمهوريتنا ورئيس الغرفة الاقتصادية. على ما يبدو -لقد حصلت على المعلومات التي حصل عليها الموفد التجاري النمساوي في بكين- ستتوج المفاوضات بالنجاح الذي سيتضح لاحقاً أنه كارثة. الرئيس لا علم له بشيء، والمعاهدة المقرر التوقيع عليها تعرضنا إلى الابتزاز. إنني أتساءل: من الخنازير في هذه الحالة؟ عليك حتماً ولا بد...». نهض مارتن سوسمان وتمطى. أراد أن يدخن، يحتاج احتياجاً ماساً إلى سيجارة. إذن فهو ليس مريضاً جداً. لم ترد كسينو بعد. ألقى نظرة في اتجاه بوهوميل، لكنه لم يعد هناك. السلم أيضاً اختفى. خرج مارتن إلى سلم الإطفاء ودخن سيجارتين وهو يرتعش برداً، ثم عاد إلى حجرته. أخذ يكتب تقرير رحلة العمل، ووضع كشافاً بمصروفاته خلال الرحلة، ثم أنهى بعض المعاملات الإدارية، أي: عباً جداول ما، ثم رد على الاستفسارات الواردة من الطلبة.. مرةً أخرى وصلته رسالتان من طالبين يريدان التدرب في المفوضية. قام بتحويل الطالبين إلى الموظف المختص. طالب آخر كان يكتب رسالة الدكتوراه في الدراسات الأوروبية بجامعة باساو الألمانية عن موضوع السياسة الثقافية الأوروبية، انطلاقاً من جملة الفرنسي جان موني: «إذا استطعت البدء مرةً ثانية، فسأبدأ بالثقافة». لا يعرف مارتن السبب، غير أنه يتلقى مثل هذه الرسائل الإلكترونية بمعدل رسالتين كل أسبوع. التمس

الطالب ردًا من الإدارة العامة للثقافة بالمفوضية الأوروبية، تعلن فيه موقفها من جملة مونييه. الإجابة كانت بديهية. ليس هناك ما يثبت أن مونييه قال حقًا هذه الجملة أو نشرها في مكان ما. وحتى لو كان قالها، فإنها -هكذا دون أي شرح إضافي- لا توضح إطلاقًا ما المقصود على وجه التحديد بـ«البدء بالثقافة». أن نغني نشيد البهجة لبيتوفن، ثم نقوم بتأسيس الوحدة النقدية؟ الثقافة هي في حد ذاتها كونية، تجمع دائمًا بين البشر وتربط بينهم، هذه الرابطة كان لا بد من تحقيقها أخيرًا على المستوى السياسي أيضًا. إن التبادل بين الثقافات المحلية -الذي أثبت بالفعل أهميته القصوى في تلاحم أوروبا- لم يكن ممكنًا، وبشكل متزايد، إلا عبر الإنجازات السياسية للمشروع الأوروبي. عبر سقوط الحواجز، وحرية السفر والتنقل، وحرية التجارة في سوق مشتركة.

توقف عن الكتابة. هل كانت تلك عبارات جوفاء؟ من ناحية أخرى: أهنئك حقيقة يمكن تكرارها مئات المرات دون أن تتحول إلى عبارات جوفاء؟ أجهده أنفه المسدود، خشي أن يتطور الزكام إلى التهاب في الجيوب الأنفية، شعر بنبض مقلق في الجبهة. لماذا قضى كل هذا الوقت مع رسالة الطالب؟ ورقته الخاصة بمشروع اليوبيل - ألم تكن العبارات التي كتبها هناك جوفاء؟ لم يصل بعد رد من كسينو. أثار ذلك استغرابه. ألقى نظرة على ساعته. الساعة الواحدة. ولا رد فعل من كسينو. لماذا لا ترد؟

نهض، وخرج من حجرته، خرج من زنزانه العمل. في الممر تقابل مع بوهوميل.

- أنت مريض؟

- نعم.

- أتعاني من آلام الحب؟

- لماذا تقول ذلك؟

- هكذا تبدو. مشوشًا تمامًا.

وقف دافيد دو فريند في وسط حجرته وسأل نفسه: لماذا أقف هنا؟
كان ينوي فعل شيء، يريد شيئًا - ولكن ماذا؟ لا، لم يعد يتساءل، بل
ينظر حواليه وكأنه يبحث عن شيء يشغله، أو - ونظره على التليفون -
كأنه ينتظر شيئًا، نعم، وكأنه ينتظر مكالمة تليفونية. جلس على فوتيه
وعينه على التليفون. منسي! انتابه شعور بأنه منسي، نساه تمامًا كل
الناس، حتى الموت نسيه. من لا يزال يتذكره؟

ضوء يناير، مساحة فضية رمادية في إطار النافذة، مثل باب صندوق
أمانات أو باب خزانة. المفتاح مفقود، والأرقام منسية. أو الباب
الحديدي لمخبئًا تحت الأرض، وخلفه نفق مظلم يقود إلى الموت.

نهض ثانية، واقترب من النافذة. تحته المدفن. من يتذكره إذن؟
كلهم يرقدون هناك، تحت الأحجار وتحت الغبار الرمادي. كلا، ليسوا
كلهم.

أصبح يحب العزلة عندما مات المقربون منه واحدًا بعد آخر.
أولادهم ساروا منذ سنوات طويلة في طرقهم الخاصة التي قادتهم

بعيداً، إلى عالم أكثر سعادة، أو إلى تعاسةٍ مختلفةٍ تماماً. في الفترة الأخيرة التي قضاها في «سانت كاترين» كان يتلقى التحية في الشارع بين الحين والآخر- مَنْ ألقى التحية؟ تلميذ سابق، غزا الشيب شعره هو أيضاً! رد التحية مندهشاً. هذا هو كل شيء. والآن، ها هو يجلس وحده في دار المسنين «هانسنس»، عليه أن يتقاسم قاعات جماعية مع أشخاص من جيله، لكنهم لم يكونوا يوماً من معاصريه؛ لأنهم لم يكونوا مضطرين لمشاركته خبراته، التقدم في العمر هو الشقاء بالنسبة لهم، أما شقاؤه فهو الحياة. كلا، ليس ثمة ما يمكن مشاركته، باستثناء الروائح والإفرازات، أقراص النفتالين في البدل والملابس، البول والعرق، وخلايا الجسد المتحللة، الدموع وحدها لا رائحة لها. كان يريد النسيان، غير أن ذلك أدى إلى نسيانه هو فحسب.

جلس إلى المائدة. رأى قلمًا. نهض مرة أخرى، وتلفت حوله، لا بد أن يكون دفتر ملاحظاته في مكان ما هنا. أين دفتر الملاحظات؟ قبل عدة أيام مرت عليه دكتورة، محللة نفسية في إحدى المصالح الحكومية المسؤولة عن دور المسنين، لكي تتحدث معه حول ما يُطلق عليه «التأقلم والتكيف»، حول ماذا؟ حديث حول الرعاية. لقد أحضرت معها الدفتر الكبير. لقد جاءت إلى هنا حتى -هكذا قالت- تسهّل عليه الدخول في خريف الحياة وتساعد في تشكيل خريف حياته، وبخاصة لكي تنزع عنه المخاوف التي قد تتنابه بسبب قدوم خريف حياته، لم تتوقف عن تكرار كلمة «خريف الحياة» إلى أن قاطعها دافيد دو فريند قائلاً: ستكون كذبةً أيضاً، ولكنها كذبة لطف قليلاً إذا قالت بدلاً من

«خريف العمر» ببساطة «هذه الفترة من العمر». إنه يعرف بطبيعة الحال أنها الفترة الأخيرة، رغم ذلك قد تكون هناك أيام مشمسة، لا مساء أبدًا فحسب. كانت السيدة الدكتورة حريصة على مشاعره. أما أكثر ما لم يستطع تحمله هو أن هذه المرأة النحيفة قد حلقت شعر رأسها تمامًا - لماذا؟ هل هذه هي الموضة الآن؟ لقد لاحظ في الفترة الأخيرة رؤوسًا صلعاء في الشارع، شبان بصلعة وأوشام. هل يعلمون ماذا يفعلون، الرسالة التي يرسلونها، الإيحاءات التي يثيرونها؟ كان يريد نسيان الرؤوس الصلعاء والهياكل العظمية، ولكنهم يرسلون إليه هذه المرأة. جعله ذلك عدوًا. انصرفي! إنك تهينني - ثم انفعلي انفعلاً مسرحيًا: إنكِ تهينين ذاكرة العالم!

السيدة الدكتورة كانت حريصة على مشاعره. استفسرت عما يقصده، ثم شرحت له الأمر قائلة: لقد اجتازت علاجًا كيميائيًا. سرطان الثدي. لكنها مهمة بمواصلة العمل؛ لأن... خجل دو فريند من نفسه. وصمت. صمت وتركها تتكلم، لن يقول كلمة خاطئة بعد الآن، بين الحين والآخر يومي، كما أوماً عندما سحبت دفترًا من شنطتها ووضعته على المائدة قائلة: لقد أحضرت لك معي هذا. نصيحة صغيرة: دوّن أفكارك ونواياك. إنني أعرف هذا الشعور، صدقني: تخطر على بال الإنسان فكرة، ثم ينساها. ولكن إذا كتبتها على الفور، فيمكنك دائمًا أن تتأكد ما إذا كنت فعلت ما نويت أن تفعله، وما إذا كنت اهتممت بما فكرت فيه. إنه تدريبٌ جيدٌ لمقاومة النسيان، إذا اعتاد المرء كتابة كل شيء بشكلٍ دائمٍ.

أين الدفتر؟ هناك. بجانب الفراش.

جلس إلى المائدة، وتناول قلمًا. الدفتر من الحجم الكبير، في أعلاه شريطٌ مقوّى بالكارتون، وتحتّه يمكن فصل الأوراق عن الدفتر. على هذا الشريط رأى شعار منطقة بروكسل: «بروكسل لن تنساك!».

«Bruxelles ne vous oublie pas! / Brussel zal u niet vergeten!»

أراد وضع قائمة، أن يكتب أسماء كل الذين نجوا معه ولا يزالون على قيد الحياة، أو ربما لا يزالون على قيد الحياة طالما لم يصله خبر وفاتهم بعد. لماذا؟ ما زالت لديه ذكريات. إنها تتزاحم. في ذاكرته تلمع أسماء، رأى وجوها، وسمع أصواتًا ذات نبرة معينة، رأى أعينًا داكنة، ورأى إيماءات وحركات، كما شعر بالجوع، مفرمة الحياة التي تلتهم شحوم الجسد ثم تفتت العضلات، ثم الروح أيضًا التي يكتشفها المرء -هذا إذا اكتشفها- عندما يتحول الجوع إلى كناية: الجوع إلى الحياة. كان يشعر بهذا الجوع الآن، ليس بقوة مثل الماضي، ولكنه شعر به، كما كان يريد وضع هذه القائمة و... رفع بصره. «الجوع» كلمة خاطئة، المرء يصف بكلمة الجوع شعور الشَّبَعَى الذين تنازلوا عن تناول وجبة من وجبات الطعام. ليس لذلك أي علاقة بالجوع الذي عايشه ونجا منه. لا يتحدث الأحياء والناجون اللغة نفسها إلا بالمصادفة، إنهم يقعون دائمًا في سوء تفاهمٍ عندما يستخدمون الكلمات نفسها.

شرع يكتب: «ناجون». هذا هو العنوان الذي اختاره لقائمه، هذه هي فكرته: مَنْ يتحدث لغته ولا يزال على قيد الحياة؟ في تلك اللحظة رن التليفون. توقف. ثم بدأ يكتب كلمة «ناجون». أثار التليفون أعصابه، فوضع القلم على المائدة ورفع السماعة.

كانت السيدة جوزفين. لماذا لم يأت لتناول الطعام؟ إنه بالتأكيد لم ينسَ الطعام؟ علينا أن نأكل شيئاً، أليس كذلك يا سيد دو فريند؟ كانت تصرخ في السماعة. نحن لا نريد أن نجوع، أليس كذلك؟

إنه الوحيد من بين «المتحركين» الذي لم يأت إلى صالة الطعام...

- الوحيد ماذا؟

- لدينا اليوم سمك وأرز وخضار، لذيذ وصحي. ...

- نعم، نعم، لم ألتفت إلى الساعة. سأجىء حالاً.

ربط دافيد دو فريند كرافطة حول عنقه، وارتدى الجاكت، ثم استقل المصعد إلى صالة الطعام في الطابق الأرضي. ألقى نظرةً باحثاً عن مائدة يستطيع الجلوس إليها بمفرده. لا. اندفعت السيدة جوزفين في اتجاهه، وقادته إلى مائدة. قالت إنها سعيدة لمجيئه، لقد شعرت بالقلق. لا نريد أن تحدث لنا إغماءة، أليس كذلك يا سيد دو فريند؟

جلس إلى المائدة رجلان وامرأة. عرفته السيدة جوزفين بهم: قاض متقاعد، وأستاذ جامعي سابق متخصص في التاريخ، وموظفة سابقة في دائرة الأحوال المدنية، الثلاثة أرامل. اتسموا كلهم باللفظ البالغ، وعلى الفور شعر دو فريند تجاههم بالاشمئزاز. كانوا -راح دو فريند

يبحث عن كلمة معينة- كانوا... ماذا يقولون؟ إنهم هنا منذ فترة طويلة، يعرفون النظام وبنية المكان والعادات، ولديهم علاقاتهم مع الإدارة ومع العاملين. كانوا يعرفون المكان حق المعرفة، وتكيفوا على الحياة فيه. ليس هذا فحسب: بمقدورهم مساعدة وافد جديد أو جعل حياته جحيماً. اتضح له ذلك بعد مرور دقائق قليلة. ثم انطرح السؤال: ماذا كنت تفعل خلال حياتك؟

فهم دو فريند بالطبع ما يودون معرفته، أي مهنة مارسها، لكن السؤال أصابه بغصة أثناء تناوله الحساء. سعل، وعلى الفور جاءه طبق السمك، بينما كان الجالسون معه إلى المائدة يتناولون طبق الحلو، «كريم دو ليه». أراح دو فريند طبق الحساء بعيداً، وشرع يأكل السمك. كان يأكل بسرعة، ليس لأنه أراد أن يلحق بهم، بل لأنه أراد أن ينتهي من هذا الغداء بأسرع ما يمكن حتى ينصرف. ازدرد السمك ازدراداً، وفجأةً شعر بشوكة تدخل قصبته الهوائية وتظل عالقةً به. سعل بشدة عدة مرات للتخلص من الشوكة، ولكنه شعر أنها بقيت في مكانها واستقرت الآن بالعرض. اتابه رعب، لهث، وراح يتنحج بقوة المرة تلو الأخرى، ويأخذ نفساً عميقاً، ثم يفره بقوة. قفز واقفاً، وانحنى، ثم حاول بالتعاقب أن يبلع الشوكة أو يخرجها، لكنها تمسكت بمكانها في القصبه الهوائية، ومنعت عنه الهواء. ضرب صدره بيده، وسعل بكل قوته. تلون العالم بلون أحمر أمام عينيه، فصرخ. في البداية «آآه» متحشجة طويلة، ثم سب ولعن. قفز البروفيسور والموظفة من مكانهما، ونظرت السيدة جوزفين إليه. خبطه البروفيسور على ظهره وأمره: تنفس! ثم كرر أمره: تنفس! تنفس! حاولت الموظفة

تقديم كأس ماء له، ووقفت السيدة جوزفين خلفه، ولفت ذارعها حول صدره، ثم ضغطت عليه وهزته. بكوعيه حرّر نفسه وهو يلهث.

حاولت الوظيفة السابقة أن تضع إصبعها في فمه، لكن دو فريند دفعها بعيداً، فترنحت وسقطت على أحد الكراسي. صرخ بهيستيرية: غير معقول، لقد نجوت من معسكر التصفية والآن أحتضر بسبب شوكة. وفجأة توقف لأنه لاحظ أنه لم يعد يشعر سوى بأثر خفيف للشوكة، ولم يعد حتى يستطيع القول ما إذا كانت لا تزال حقاً في حلقه. وأخيراً قال: خلاص، خلاص.

- كل شيء تمام؟

- نعم.

- أكيد؟

- نعم.

- هل تحتاج إلى طبيب؟

- لا.

تنفس دو فريند عدة مرات بعمق، واعتذر، ثم انصرف إلى غرفته. في غرفته تمدد، لكنه شعر بقلقٍ عظيمٍ منعه من البقاء راقداً، فنهض وجلس إلى المائدة. الدفتر هناك. عليه كلمة بخط يده: «ناج». انتوى قبل ذلك، قبل الغداء، أن يكتب «ناجون» وأن يضع قائمة، لكن التليفون أزعجه. الآن مكتوب «ناج» فقط، هذا هو ما كتبه. لماذا؟ أشعل سيجارة وأغلق عينيه.

كان حفار القبور، تحديداً، هو الذي يعرف الطريق إلى «الحب الأبدي». سأله البروفيسور إرهارت في نهاية المطاف عن ضريح الحب غير المشروط، وكان الرجل يعرف. قال له وهو يستند على جاروفه: اسمه ضريح الحب الأبدي، وليس الحب غير المشروط. ثم أضاف: لا أعرف مطلقاً ما إذا كان لذلك وجود، الحب غير المشروط. الحب الأبدي، نعم. أنت تقصد الضريح بالقلب المنير فوق التابوت، أليس كذلك؟ نعم. لست هنا في المدافن الصحيحة. ضريح الحب الأبدي موجود في مدافن «لاكن».

- أين؟

- لاكلن. في شمال بروكسل.

استقل سيارة أجرة، وغفا أثناء الرحلة التي استمرت أكثر مما توقع، وعندما وصل إلى لاكلن انتابته حالة غريبة من الذهول. لا تزال ذراعه ذات الكدمة تؤلمه، ولكن الآن، في حالته التي تشبه حالة المسرّنم، شعر أن هذا الألم ليس سوى ضغطٍ خفيفٍ لطيفٍ، وكأن زوجته المتوفاة علقّت ذراعها في ذراعه، شعر بها بجانب ذراعه وكأنها تسير معه، راح في كل خطوة يؤقلم مشيته على إيقاع خطواتها وسرعتها. هذا جنون بالطبع. هز رأسه، حاثاً نفسه على الرجوع إلى العقل، بالمعنى الحرفي للكلمة. شعر الآن بالألم أقوى في ذراعه، كما أحس بالخدر المزعج في قدميه المتورمتين اللتين يخطو بهما بحذر كأنهما طرفان اصطناعيان لم يعتدهما بعد.

بعد بوابة المدخل مباشرة، وجد مكتب إدارة المدافن. وهناك حصل، بناء على رغبته، على خريطة للجبانة بها إشارات لمقابر المشاهير والمعالم الأثرية والأماكن التذكارية المهمة تاريخياً. وضع الموظف علامة X خصيصاً على مكان ضريح الحب الأبدي. تعجب البروفيسور من أن الموظف أجاب عن استفساره بوجه حزين للغاية، وأنه سلمه الخريطة بملامح كاد يستولي عليها الفزع. ما حكاية هذا الضريح؟ لماذا يؤدي مجرد السؤال عنه إلى رد فعل كهذا؟ ثم فكر أن هذا بالتأكيد من أمراض المهنة. الرجل يعمل في المدافن، ويوماً ما أصبح وجهه قناعاً للمواساة. وهكذا كان يرى الحب الأبدي - في شكل ضريح - ليس سوى حالة وفاة.

لم يتجاوز البروفيسور إرهارت وفاة زوجته بعد. سأل نفسه: هل لديه الوقت الذي يزعمون أنه يُشفي كل الجراح؟ وإذا كان لديه، فهل يتمنى هذا أصلاً؟ لقد جعله الألم الذي شعر به منذ الاحتضار البشع لزوجته ثم وفاتها - نعم: جعله يشعر بالذكرى الحية للسعادة الكبيرة المتأخرة التي عاشها معها، وكان متأكداً من أن هذه الذكرى ستتحول إلى مجرد عبارة فارغة من المعنى إذا التأم جرحه حقاً.

سار بالخريطة في يده فوق طريق مفروش بالحصى، وتعجب من أنه لم يسمع صوتاً. في كل الأفلام والروايات يصدر الحصى في الطرق صوتاً. توقف. الهدوء شاملٌ. في صمت كانت غصون الشجر تهتز في الريح، خفقات أجنحة الغربان لا صوت لها. على مبعدة كبيرة أمامه قطع بعض الأشخاص الطريق ذي الأشجار على الجانبين، كأنهم

خيالات تعبر ساكنة، مثل الغيوم الرمادية في السماء. واصل سيره، نعم، حقًا: كأن طبقة قطنية موضوعة على الحصى، سمع خطواته الآن خافتة تمامًا.

عندئذ وقف أمام المقبرة. تأكد مرارًا من أنه فعلاً أمام الضريح الذي يبحث عنه، ضريح الحب الأبدي، لا شك في هذا. كان الأمر محزنًا. ماذا كان ينتظر؟ بالطبع ليس هذا «تاج محل»، لكنه كان ينتظر شيئاً يوحى بالشموخ، شيئاً يجسد، بأجمل المقاييس البشرية، خبرة الحب اللانهائي وفكرته، الخلود في مادة الخلود: الحجر. أما هذا الذي يراه فهي أطلال. انكسر السقف الذي صممت فيه بدقة الفتحة المشهورة التي ينفذ منها شعاع ضوئي على شكل قلب فوق التابوت، وهبط الجانب الأيسر للضريح في الأرض، فنشأت بين الألواح الحجرية شقوق وانزياحات، ومن بينها نمت أعشاب، البوابة الحديدية المزينة بشعلتين على شكل قلب، صدئة ومغلقة بسلسلة، مأل أحد البابين مخلفاً شقاً يمكن عبه إلقاء نظرة إلى الداخل. لكن ما يرى لم يكن التابوت، بل قاذورات، وحتى نفايات من البلاستيك. كيف دخلت إلى هنا؟

إلى اليسار انغرزت في الأرض بشكل مائل لافتة خشبية بدائية، تعطن خشبها ونمت عليه الطحالب. تشير اللافتة إلى أن تأجير المقبرة انتهى مع حلول أغسطس ١٩٩٠، وأن على أقارب المتوفى، إن وجدوا، أن يتصلوا بإدارة المدفن. إلى جوار تلك اللافتة علقت لافتة أخرى من المينا المزجج بإطار حديدي تفيد بأن هذا الضريح من المعالم الثقافية.

فُتِنَ ألويس إرهارت بفكرة الحب الأبدي التي تفهم الأبدية حرفياً، حتى إنها تضمن ذكرها. ولكن طالما كانت الأبدية من صنع الإنسان، وطالما أنها ليست مطلقة بل هي علاقة بين البشر، في الحقيقة هي اتفاق، ولذلك فإنها تنتهي، ككل ما يصنعه البشر، بسرعةٍ وبلا رحمةٍ.

كان ينبغي عليه أن يعرف ذلك. لقد احتاج إلى فترة أبدية صغيرة، وتحديدًا حتى عامه الستين، أي أربعون سنة من سنوات الزواج إلى أن أحس بهذا الإحساس بشكل عميق: الإحساس بالحب الأبدي. عندئذ قال لها: سأحبك إلى الأبد!

يا لها من كلمات كبيرة! لقد تعجب من نفسه حقاً عندما نطق بهذه الجملة. انتابه آنذاك الشعور بأنه وصل إلى مبتغاه. ثم تعجب لاحقاً؛ لأنه لم يدرك على الفور أن الأبدية لا وجود لها. ليست الأبدية إلا استراحة قصيرة في رحلة التاريخ. كان قد قال لها: أعرف أنني سأحبك إلى الأبد، وبعد عامين فحسب ماتت زوجته. وسواء كان هناك حياة بعد الموت أو لا، أي الحياة الأبدية، فإن الجملة التي قالها عن الحب الأبدي تشبه الشعور الذي تثيره: إنها مجرد ذكريات، وتاريخ.

كلمات كبيرة! في الحقيقة كان الأمر هكذا: كان على ألويس إرهارت أن يبلغ الستين حتى يعرف أن ما يُسمى «الجنس الجيد» موجودٌ حقاً. في عمره كله لم يفهم الهمسات والثرثرات المتنامية حول «الجنس الجيد». هل قال حقاً «في عمره كله»؟ بالتأكيد أخذ هذا التعبير عن أبيه، كان يستخدم مثل هذه الصياغات. على كل حال: «الجنس الجيد»، كان يعتبر ذلك هراء، وأدلجة مشكوك في أمرها

للغريزة الإنسانية التي لا يمكن تفسيرها أو شرحها على نحو مفهوم، ولا حتى بالتقريب، كالسؤال عن ماهية «المطبخ الجيد» بالنظر إلى غريزة الأكل. ينتمي ألويس إرهارت إلى حزب «الإنسان يأكل ما يُقدم له على المائدة في البيت». يشعر الإنسان بالامتنان، ويرسم على الأكل علامة الصليب. هو ابن فترة ما بعد الحرب، ابن إعادة الإعمار، ويعرف ما هي الاحتياجات البشرية، كما فهم سريعاً أن الرغبات تتزايد مع نمو الرخاء، لكنه لم يفهم لماذا يجب أن يكون الجنس الجيد والحر حقاً من الحقوق، وشيئاً يُناقش على المستوى السياسي ولا بد أن يُنتزع انتزاعاً، وكأنه إعانة اجتماعية من حق أي مواطن، مثل حق دخول الجامعات أو الحق في راتب بعد التقاعد. كان ذلك في ستينيات وسبعينيات القرن الماضي، وكان جيله هو الذي أعلن «الثورة الجنسية»، لكنه لم يكن بينهم.

كان أبوه يملك محلاً لمستلزمات الرياضة في «مارياهيلفر شتراسه»، أحد الشوارع التجارية الكبيرة في فيينا. موقع جيد إذن، ولكن بم يفيد أفضل المواقع التجارية في زمنٍ بلا قوةٍ شرائيةٍ؟ افتتح الأب المحلّ متحمساً ومخاطراً في عام ١٩٣٧، كان شاباً مفتوناً آنذاك بـ«العصر الجديد»، زمن ما بين الحربين. ولماذا المستلزمات الرياضية؟ كان الأب لاعب جمباز متعصباً، يطلق على نفسه «أخ الجمباز»؛ لأنه كان عضواً في جمعية «آباء الجمباز» في فيينا، كما كان لاعب كرة، يلعب في نادي «فكر فيينا» *Wacker Wien* حيث حصل على مكان في الفريق الأول بدلاً من اللاعب يوزف فهال الذي انتقل إلى نادي

«أوستريا» الفيناوي. «اليهودي فهال جلب لي الحظ بطمعه»، حكى له والده، «مقابل عشرة شلنات عن كل مباراة انتقل ليلعب مع أوستريا، وهكذا انتقلت أنا إلى الفريق الأول، وكنت أكثر من راضٍ عندما أحصل على خمسة شلنات في المباراة!».

افتتاح المحل التجاري. لكن التجارة سارت بشكل سيئ. من يشتري أحذية كرة قدم في زمن البطالة الجماعية والتضخم المتوحش، إذا كانت النقود لا تكفي لشراء أحذية عادية؟ أطفال كثيرون كانوا يذهبون آنذاك حفاةً إلى المدرسة.

راح الأب يلمع الدراجات في المحل، وبين حين وآخر يبيع فائلة رياضية من فائلات لاعبي الجمباز، حتى أوشك على الإفلاس. تولد لديه بصيصٌ من الأمل في عام ١٩٣٩ عندما نجح عبر علاقاته في بيع مجموعة كبيرة من الخيام وأدوات المائدة المستخدمة في الميدان لـ«الشعب الفتى» ولـ«شبيبة هتلر في فيينا»، لكنه في العالم التالي أغلق المحل. وفي عام ١٩٤٤ نسفت القنابل البيت في «تسولر-جاسة» حيث عاش الوالدان اللذان نجيا لوجودهما في المخبأ الحامي من الغارات الجوية. انتقل الوالدان ليعيشا في مخزن المحل الذي كان لا يزال قائماً في «مارياهيلفر شتراسه». وهناك رأى ألويس إرهارت نور العالم. كانت الأم تحب أن تقول «أنت ابن المخزن»، وهو كان يرى الجملة عاديةً جداً مثل: «كانت فترةً صعبةً». عندما أصبح طالباً أدرك المعنى الآخر للكلمة باللغة الألمانية، وأنها تعني أيضاً «معسكر»، لذلك اعتبر جملتها تهكمية للغاية، فصرخ في وجهها كي لا تكرر هذه العبارة ثانية.

احتاج إلى سنوات حتى فهم أن أمه أكثر سذاجة من أن تكون مذبنة، أو أن ذنبها يكمن في سذاجتها، ولهذا فإنها لا تستحق أي اتهام. عندما تقول إن ابنها «لويسل» الذي رأى نور العالم في مخزن محل هو «ابن المخزن»، فإن ذلك لا يتعدى تلاعباً بالكلمات بالنسبة إليها، وهو شيء اعتادته، لأنهم كانوا يعيشون حياة صعبة، وكانت العبارة محض فكاهة عاجزة وسط البؤس العاجز الذي كانت أمه تحيا فيه. كانت «أما ألمانية» استغلوا قلبها الكبير وقدرتها على التعاطف مع القربيين منها، دون أن تفهم ذلك مطلقاً. رفع النازيون تصوراتها عن النساء والأمومة إلى مصاف المثال، وهذا المثال -وهي لم يكن لديها مثال آخر- لا يمكن إلغاؤه بسبب هزيمة في حرب. لقد انتصر المثال على الزمن، وذلك في زمن سيئ، وسينتصر بالأحرى في الأزمنة الأفضل. «الاستعداد للتضحية»: كانت هذه هي أيضاً إحدى كلماتها، وهي كانت تلتزم بهذه الصفة، وبالأحرى الآن، خلال دراسة ابنها في الجامعة، وكانت تبكي عندما يعود السيد الطالب إلى البيت ثم يسبها ويصفها بأنها «ساحرة نازية». الآن تقول جملاً تبدأ بكلمات مثل: «عندما أغيب ذات يوم عن هذه الحياة...» - عندئذ سيفتقدها. عندئذ سيفهم ما فعلته من أجله. عندئذ سيرى أن... عندئذ سيرى ما... عندئذ سيرى كيف... عندما تغيب ذات يوم عن هذه الحياة. إنها -التي ينظر إليها ابنها على أنها لا تزال تعيش في الزمن الماضي- تنتظر العدالة في الحياة الأخرى، في روحها كانت تتصارع أشكال عدة من الأبدية، الأمس الأبدي والحياة الأبدية بعد الموت. كثيرًا ما كان ألويس يتجنب أمه، يتجنب رؤيتها

عندما كان يستذكر دروسه على مائدة المطبخ، يتجنب الحديث معها، والخلاف، والدموع، كان يسير إلى «مارياهيلفر شتراسه»، إلى المحل، حيث يجلس بمذكراته في المخزن. لكن ذلك لم يكن نكوصًا، ولا عودة إلى «ابن المخزن». كان هروبًا إلى الأمام. إلى المستقبل الذي بدأت ملامحه تتضح. الانتعاش الاقتصادي أصبح واضحًا ومحسوسًا، ازدهرت تجارة الوالد يومًا بعد يوم. منذ بطولة العالم لعام ١٩٥٤ أصبحت أحذية كرة القدم الجديدة، المزودة بدعامات أسفل النعل، هي أعظم أمنيات كل الصبيان الذين يعلبون الكرة، والآن، في مطلع الستينيات، كان لدى معظم الآباء المقدرة المالية على تلبية هذه الأمنية لأبنائهم. وكرات أصلية من الجلد. وملابس أصلية. كل شيء لا بد أن يكون «أصليًا»، لا تقليدًا أو بديلًا، لم يعد أحد يرضى بما هو «موجود»، وبما كان يرضى به خلال فترة التقشف. الموجود الآن معروض في واجهات المحال التجارية وعلى أرفف السوبر ماركت، وباستطاعة المرء شراؤه، وبمقدوره اقتناؤه. مثل الأم التي تشتري الآن زبادي «فرو» المخلوط بالفاكهة، بدلًا من مزج اللبن الرائب في كوب زجاجي بالمربي التي صنعتها بنفسها كما كانت تفعل في الماضي. ما صنعتها بنفسها كان بديلًا، أما ما اشترته فكان أصليًا. ازدهرت تجارة الأب الآن، فوظف بائعًا، السيد شراميك، أحد معارفه السابقين من أيام نادي الجمباز، ثم عين أيضًا فتاةً متدربةً، اسمها ترودة.

الآنسة ترودة. كانت في السادسة عشر، لها جسد قوي تتحرك به بليوننة بين الأرفف. مثل حيوان أصيل، هكذا فكر ألويس الذي لم يكن

متأكدًا ما إذا كان هذا الإيحاء غيبًا إلى حد ما. كان لها «رأس صبي»، أي قصة شعر قصيرة كانت الشابات آنذاك يعتبرنها حديثة، وكان ألويس يراها لطيفة وجديدة إلى أقصى حد. القماش القديم لمعطف العمل الأزرق كاد يشف عن جسدها عندما تعبر الطرق التي تغمرها أشعة الضوء النافذ من الشباك، في تلك اللحظات كانت ملامح جسدها وكأنه يمر عبر أشعة إكس. كانت فتاة جادة جدًا، ولكن في بعض الأحيان، عندما يقول شيئًا، كانت تضحك ببراءة وفرح يخلبان عقل ألويس، وبدلاً من أن يستذكر دروسه كان يفكر كيف يمكنه أن يجعلها تضحك في المرة القادمة. لفت نظره أنها كانت تتحجج بأي شيء حتى تذهب إلى المخزن لتلقي نظرة عليه. لكنها لم تكن تضحك على النكات التي كان يحضرها انتظارًا لمجيئها.

تزوجا بعد عام. كان ألويس بحاجة إلى تصريح بالموافقة على الزواج من والده، أما ترودة فكانت مسجلة باعتبارها امرأة بالغة تيتمت في الحرب.

الهروب إلى الأمام: الانتقال من البيت والحياة في مكان آخر. والد ألويس إرهارت كان يعرف من زمنٍ سابقٍ رقيقًا بالحزب ذا نفوذٍ في توزيع شقق الإسكان الشعبي في مدينة فيينا. وهكذا حصل الزوجان الشابان على شقة بإيجارٍ بخسٍ في «مجمع فريدريش إنجلز» السكني في الحي الحادي عشر، وذلك في العام الذي تم فيه إجراء عملية تجديد وإحلال للحروف الحمراء على واجهة هذا المجمع السكني التابع للحي. كان النازيون قد نزعوا كلمة «فريدريش» وحرف «ز» من إنجلز،

وهكذا كان اسم الوحدة السكنية في عهد النازية «مجمع إنجل»، أي «مجمع الملائكة».

في مجمع «إنجلز» السكني المُجدّد، وفي شقتيها الشعبية الصغيرة كان ألويس إرهارت أبعد ما يكون عن السكن المشترك و«الكوميونات» حيث كان يدور النقاش آنذاك حول الثورة الجنسية.

بعد أربعين عامًا، أدرك ما هو «الجنس الجيد»، وأن هذا الشيء الرائع موجودٌ حقًا.

ظلامًا بعد أن افترق الحب عن الرغبة فراقًا مبيّنًا. ظلامًا بعد أن هجر الحب والرغبة معًا البيت. دخل مسكنهما بدلًا من ذلك الاحترام والتكاتف. في دائرة الأصدقاء والمعارف كان ألويس إرهارت الوحيد الذي لم يتفصل عن زوجته. كان يقول: هذه زيجَةٌ صالحةٌ.

ذات يوم أحد أطلالا في النوم، ولسبب ما لم يستيقظا في وقتٍ واحدٍ كما اعتادا. يوم مشمس، أشعة الضوء دخلت عبر نافذتي غرفة النوم ووصلت حتى الفراش. نظر إليها. ألمه ظهره، فوضعت يدها عليه. رمش في الضوء، ثم - لماذا فعل ذلك فجأة؟ جلس وتغطى ثانية. رفع قميص النوم، فشعر بنخزة ألم قصيرة في المنطقة القطنية وكأنها مسّ كهربائيٌّ. تأوه، وخلعت هي القميص. ابتسمت. مندهشة؟ متسائلة؟ تأمل جسدها، تفحصه، قرأ كل تجعيدة وكل شعيرة دموية زرقاء أو حمراء، وكل ثنية دهنية وكأنه يطالع خريطة مرسوم عليها طريق طويل مشترك بينهما، طريق حياة بقممه وقيعانه، ضم جسدها مُستثارًا، بكى، وضمها، النور، صورة جسدها وكأنه يعبر أشعة إكس، ثم فجأة، وهو في

ذروة تهيجه أحس بالتوحد معها، والوصال بين روحيهما.

ضحكت. ترودة. تلامست روحاهما. كان ذلك هو السر، فكر
ألويس إرهارت، هذا هو إذن «الجنس الجيد» الذي منح إشباعاً لم
يختبره حتى تلك اللحظة، والذي أشعل الرغبة والشهوة مرة بعد أخرى:
لمس الجسد على نحو يمس الروح.

بعد عامين ماتت ترودة. الحب الأبدي. ما أقصر الأبدية!

- استراحة تدخين؟

- أوكي!

ولكن سرعان ما عقب بوهوميل:

- لا، انتظر! ليس على سلم الإطفاء. الجو باردٌ جدًّا، وأنت مريضٌ
بالفعل. تعال إلى حجرتي!

«ولكن هذا...»، أشار مارتن بسبابته إلى أعلى؛ لأنه لم يعرف ماذا
يعني «جهاز إنذار الحريق» بالإنجليزية. فهمه بوهوميل، فقال:

- لقد أخرجت البطارية منه. الجهاز ميت الآن.

جلس بوهوميل إلى مكتبه ورشق سيجارة في فمه، ثم ابتسم كصبي
صغير وقح. جلس مارتن سوسمان على كرسي الزائرين أمامه، ورفع
بصره إلى السقف.

- وزيادة في الأمان لصقت شريطاً على المستشعر. ولعة؟

أشعل مارتن سيجارته. قال بوهوميل:

- أنا موظف، ومعتاد على تأدية المهام التي تتطلب اجتهدًا. لصق شريط على جهاز إنذار ميت - أليس ذلك كناية عن عملنا! على الأقل لن نشعر بالبرد هنا. ولكن قل لي: ماذا كنت تفعل في أوكرانيا؟

- أنا؟ في أوكرانيا؟ ما الذي جعلك تعتقد ذلك؟

- سمعتُ ذلك. حكى لي سلمندر أنك كنت في أوكرانيا، وما قلته أنت عن أوكرانيا كان في رأيه قيمًا جدًا...

- كلامٌ فارغٌ! ما الذي يجعلهم يقولون ذلك؟ لقد كنتُ في بولندا. أوشفيتس. أنت تعرف!

- ولهذا تعجبتُ. ما الذي نستنتجه من ذلك بخصوص مجموعة العمل لدينا؟ هل يظن السمادل أن أوشفيتس تقع في أوكرانيا؟

- وإذا كان الحق معهم؟ أوشفيتس موجودةٌ في كل مكان.

- أنت تُعاني من الحمى.

- نعم.

- لماذا لا تذهب إلى البيت وتدخل سريرك؟

- أنتظر كسينو. لا بد أن أتحدث معها.

أخرج مارتن هاتفه الذكي، وخلال ذلك تعثرت أصابعه في شريط البطاقة التي كان يعلقها في أوشفيتس، والتي كان لا يزال يحتفظ بها في جيب الجاكت، ألقي نظرة ليعرف ما إذا كانت كسينو أرسلت له

رسالة، وفي اللحظة نفسها، بعد غرفتين، ألقت فينيا كسينوبولو نظرة على هاتفها الـ«بلاكبيري» لترى ما إذا كانت قد وصلتها أخيراً رسالة من فريزر. هذا التزامن ليس مُختلِقاً، كما لم يكن مصادفةً، بل هو مجرد الاحتمال الأكبر: ففي تلك الأثناء كانت فينيا تتفحص هاتفها كل دقيقة. أخرج مارتن بطاقة أوشفيتس من الجاكت، ووضع هاتفه في الجيب.

- كيف كان الحال في أوشفيتس؟

قال مارتن معطيًا البطاقة لبوهوميل:

- هكذا!!

رد بوهوميل:

- ضيف شرفٍ في أوشفيتس؟ غير معقول!

- اقلب البطاقة، واقرأ المكتوب!

- حافظ على هذه البطاقة ولا تفقدها. في حالة ضياعها ليس لك

الحق في البقاء في المعسكر... هل هذا... هذا...

قلب بوهوميل البطاقة عدة مرات، ثم أضاف:

- هل هذا حقيقي؟ أنت حصلت على هذه البطاقة في أوشفيتس؟

وعلقته وتركتها تتأرجح على رقبتك؟ تتكلم بجد؟

- طبعاً، هذا أمر جَدِّي جداً. في الذكرى السنوية لتحرير أوشفيتس

يغلق المعسكر أبوابه أمام السياح، ويأتي رؤساء دول وكبار

ممثلها ودبلوماسيون من كل الدول التي يمكنك تخيلها،

وبالطبع هناك إجراءات أمنية، أعني: أنا أتفهم هذا، ولكن...

- ولكن هذه البطاقة مثل نكتة سخيفة، مثل تقليد ساخر...

- نعم، كل شيء. عندما أردت إشعال سيجارة في الطريق الذي

يشق المعسكر، في الهواء الطلق، في طريق المعسكر، وقف

فجأة رجل أمامي ومنعني من التدخين: *No smoking in*

Auschwitz.

هز بوهوميل رأسه ونفخ الدخان، ثم قال:

- هتلر لم يكن مدخنًا.

- الأمر كان مهزلة. وهو ما ينطبق أيضًا على ماكينة تقديم المشروبات

الساخنة في المعسكر. الشركة المشرفة على الماكينات اسمها

Enjoy! (استمتع!). البرد كان فظيعةً في أوشفيتس، وكنت

سعيدًا؛ لأنني وجدت قهوة ساخنة. ولكن ربما تصينا الأمور

العادية تمامًا بالصدمة أو الدهشة عندما تحدث حيث لا تتوقعها.

أقصد أن هذه البطاقة ليست تقليدًا ساخرًا لأي شيء، إنها عادية

ل للغاية. كونها مثيرة للسخرية، وأن عليهم أن يصيغوا العبارات

بشكل آخر، أو تشكيلها على نحو آخر.. كل هذا لا نفكر فيه

إلا هناك فحسب. كل شيء يجب أن يكون مغايرًا لما هو عليه

الآن: هذه الفكرة لا تخطر على بالنا إلا في ذلك المكان. ولكن،

إذا قلّبتنا الأمر الآن، إذا رأينا العادي في كل مكان، المعتاد، في

ضوء ذلك... أتفهم ما أقصد؟ ولذلك قلت قبل قليل: أوشفيتس

في كل مكان. لكننا لا نرى ذلك فحسب. إذا استطعنا رؤية ذلك، فسندرك الغريب والتهكمي في الأشياء العادية التي من المفروض أنها أضحت في أوروبا ردًا على أوشفيتس، الدرس الذي تعلمناه من التاريخ. لا تفهمني بشكل خاطئ، الموضوع ليس موضوع البطاقة وتشكيلها على نحو يراعي المشاعر، وليس موضوع ماكينات قهوة أكثر مراعاةً للمشاعر، أقصد المبدأ في حد ذاته...

- نعم، أوكي.

أطفأ بوهوميل سيجارته. برأيه أصبح الحديث فلسفيًا أكثر من اللازم، فهو يتسم بطبيعةٍ مرحةٍ، ويرى أن بعض السخرية تكفي تمامًا لكي تكون إنسانًا نقدياً معاصراً. لم تكن لديه طموحات وظيفية، ولكنه من ناحية أخرى لم تكن لديه رغبة في المخاطرة بما وصل إليه وظيفيًا أو ما قد يصل إليه. تربطه بمارتن علاقة مودة، لكن سوداوية نظرت كانت تجهد في بعض الأحيان.

راح ينظر إلى منفضة السجائر متأملًا. كان من الحديد الزهر الأسود، وتمثل بصورة كاريكاتورية شخصًا أفريقيًا بشفتين غليظتين وشعرٍ مجعدٍ وتنورةٍ قصيرةٍ، أما كفه فهو على شكل صحن صغير لاستقبال رماد السجائر. كان الأفريقي يجلس على قاعدة مكتوب عليها بالفرنسية: «الكونغو تتلقى الحضارة البلجيكية». قبل عدة سنوات اشترى هذه المنفضة في سوق البراغيث في بروكسل، وتحديدًا في ساحة «دوجو دو بال».

واصل مارتن حديثه:

- أتعرف...

- نعم؟

في تلك اللحظة دخلت كاسندرا الغرفة، تعجبت عندما رأت
سحابات الدخان. أطفأ مارتن سيجارته في المنفضة التي لم تلفت نظره
سوى الآن، أما بوهوميل فقد صرخ:

- حريق! الغوث! الملفات! الملفات! اتصلي بالمطافي!

ضحك ونهض، ثم فتح الشباك، مضيئاً:

- لا تقلقي، لقد قتلت جهاز إنذار الحريق.

فقال كاسندرا:

- أطفال أأنتم! مارتن! نبحث عنك في كل مكان! كسينو تريد أن

تتحدث معك!

لم يمض وقت حتى أصبح الخنزير نجماً إعلامياً. بدايةً ظهر تقرير
قصير في الصحيفة المجانية «مترو» يتحدث عن رؤية بعض المارة في
ساحة «سانت كاترين» لخنزير طليق. كان التقرير مصاغاً بأسلوبٍ
ساخرٍ، وكأن المارة يزعمون أنهم رأوا طبقاً فضائياً، ومع التقرير طُبعت
صورةٌ من الأرشف لخنزيرٍ لطيفٍ، وتحت الصورة عبارة: «مَن يعرف
هذا الخنزير؟».

في أعقاب نشر التقرير تلقت الصحيفة اتصالات متزايدة ورسائل

إليكترونية تفيد بأن أصحابها قابلوا الخنزير هم أيضاً، ويشكون لأنهم أبلغوا الشرطة، لكنها لم تأخذهم مأخذ الجد، كما اشتكوا من أن الصورة ونبرة التقرير تمثلان تهويماً لما حدث، وخداعاً للرأي العام؛ لأن الحيوان الذي رأوه كان أكبر بكثير وأكثر عدوانية، وربما يكون خنزيراً برياً، وهو على كل حال كان يمثل خطراً عاماً.

أدركت «مترو» أن بإمكانها الاستفادة من الحكاية، وهكذا أعقبت التقرير بموضوع على الصفحة الأولى. سأل المحررون بالصحيفة سكان «سانت كاترين» «مواطنين قلقين» شعروا بأنهم خُذلوا، ولم يعودوا يعرفون ما إذا كانوا يستطيعون ترك أطفالهم يذهبون إلى المدرسة دون مرافقة شخص بالغ، أو ما إذا كان بمقدور النساء الخروج وحدهن من المنزل طالما أن هذا الخنزير البري المسعور لا يزال طليقاً، ربما، ولا يزال يعيثُ فساداً في الشوارع. مدام ألويس فورير توجهت بسؤال إلى صحيفة «مترو» ما إذا كانوا ينصحون باستخدام رشاش الفلفل المسيل للدموع دفاعاً عن النفس في حالة ظهور الخنزير البري، وهو ما أجاب عليه بالنفي البروفيسور كورت فان دير كوت، الأستاذ بالجامعة الهولندية في بروكسل الذي توجهت إليه الصحيفة بالسؤال. رشاش الفلفل سيزيد من هيجان الخنزير البري، أو *Sus scrofa* وهذا هو المصطلح العلمي. ولهذا لا ينصح باستخدام الفلفل، وأيضاً الملح والكمون، إلا مع الخنزير المحمر. هذه النكتة السخيفة التي قالها البروفيسور الذي كان حتى تلك اللحظة مجهولاً لدى قطاع عريض من الرأي العام، والذي كان -وهو ما عُرف الآن- باحثاً في علم السلوك، ومجال تخصصه الذئاب، تسبب في

سبيل من الشتائم في وسائل التواصل الاجتماعي، أدى إلى انتقال شرارة هذا الخبر إلى الصحف الأخرى. نشرت صحيفة «لو سوار» مقابلة مع رئيس شرطة دائرة وسط المدينة، وهو فلمنكي كان منذ فترة طويلة هدفًا لسهام الصحيفة. نشر المقابلة ارتبط برغبة الصحيفة في إعدام هذا الرجل الساذج الذي انتحر أمام الرأي العام بأقواله («ما الإجراءات المتخذة؟») «لقد أعطيت تعليماتي لصائدي الكلاب في المدينة بالقبض على الخنزير إذا رأوه» «ولماذا لصائدي الكلاب؟» «لدينا كلاب مشردة كثيرة. ولهذا وظفت المدينة صائدي كلاب. ولكن ليس لدينا صائندو خنازير.» عن ذلك علقت الصحيفة قائلة: «إن خطته ممتازة، تمامًا كلغته الفرنسية»).

تزايد عدد شهود العيان الذين راحوا يتصلون بالصحف، وشرعت صحيفة «دو مورجن» كل يوم في طبع خريطة لبروكسل الكبرى، وعليها أعلام صغيرة تحدد مكان وزمان رؤية الخنزير مرة أخرى. ومما لفت الأنظار في النهاية أن الخنزير أصبح يظهر في كل مكان؛ فعلى سبيل المثال رآه الناس خلال يوم واحد في «أندرلخت»، وبعد ذلك بفترة قصيرة في «أوكلا»، وبعد ذلك شوهد مرة أخرى في «مولينيك».

حاول البروفيسور كورت فان دير كوت إنقاذ سمعته العلمية فنشر في «دو مورجن» تعليقاً موضوعياً تمامًا قارن فيه بين السرعة القصوى التي يمكن أن يصل إليها الخنزير أثناء عدوه، والمسافة التي ينبغي عليه أن يقطعها بين الأماكن المذكورة، وبذلك أثبت أننا - من الناحية التجريبية البحتة - أمام إمكانييتين: إما - النظرية الأولى - أن لدينا هنا

أكثر من خنزير واحد، فحسب الشكل التوضيحي الذي يبين الطريق والوقت فمن المستحيل أن يتواجد خنزير واحد في كل مكان يدعي شهود العيان أنهم رأوه فيه. أو - النظرية الثانية - ليس ثمة خنزير، بل خنزير وهمي في رؤوس السكان الفاقدين للثقة على نحو غير مسؤول، أي أننا أمام إسقاط هيستيري جماعي؛ صحيح أن هناك بعض حالات مؤكدة تاريخياً لمثل تلك الهستيريا الجماعية - على سبيل المثال ما ورد في تاريخ مدينة نورنبرج من مشاهدة وحيد القرن في المدينة عام ١٢٢١-، لكنه يتشكك في أن تكون حالة الخنزير في بروكسل حالةً شبيهةً حقاً: ففي كل الحالات التاريخية كان الأمر يتعلق بكائناتٍ خرافيةٍ لا بحيواناتٍ هي في الحقيقة أليفة، إلى ذلك، لم يظهر منذ نهاية العصر الوسيط أي حيوان خرافي بسماط خارقة للطبيعة، مثل التواجد في أكثر من مكان، ولم يُذكر شيءٌ كهذا أبداً. وبناء عليه فإنه يستنتج أننا في هذه الحالة لسنا أمام خنزير متوهم ولا أمام خنزير مفرد، بل أمام قطيع من الخنازير شوهد كل منها في أماكن عدة من مدينة بروكسل.

قطيعاً! وماذا يفعل رئيس الشرطة؟



الفصل السادس

هل يستطيع أحدٌ

التخطيط لعودة المستقبل؟

الماضي يشكل المستقبل، دون الالتفات إلى الحياة^(١٣).

من الصعب أن نقول لماذا جعلت هذه الجملة فينيا كسينوبولو سعيدةً، أو -إذا كانت كلمة «سعيدة» أكبر من اللازم- لماذا جعلتها في مزاج رائق. اتصل فريزر بها، أخيراً اتصل بها وقال لها إن انتقالاً قريباً إلى إدارة عامة أخرى يكاد يكون مستحيلاً. لقد شكَّلت المفوضية من جديد منذ فترة قصيرة، والرئيس ينتظر من الموظفين، الآن على وجه التحديد، وخصوصاً على مستوى القيادات، أن يحتفظ كلٌّ بمكانه في الوقت الحالي. من المبكر جداً أن يحدث نقل من إدارة إلى أخرى. ثم أضاف فريزر *but* حتى يؤكد بشكل خاص على المعلومات التي سوف تلي، *but*، ثم توقف برهة -في تلك الأثناء كانت كسينو تفكر في كلمة زبدة بالإنجليزية *butter*، والتانجو الأخير في باريس، ثم في كلمة «الفراشات» *butterflies*، وشعرت بالفراشات في بطنها، مثلما يقولون بالإنجليزية تعبيراً عن الوقوع في الحب، على الأقل شعرت بهذا الإيحاء. كرر فريزر *but*، ثم أضاف أن السيد كونو وكبار الموظفين الآخرين ذوي النفوذ يلاحظون نشاطها، ويقدرّون عملها وإنجازاتها

(١٣) العبارة في الأصل بالإنجليزية: The past forms the future, without regard to life.

حتى الآن، يقدرونها حقًا كل التقدير، لكن الأمر الآن ليس ما تتمناه هي، بل أن تظل مرئية وتلفت الأنظار مرة بعد أخرى. أصغت كسينو، لم يخب أملها، كان الأمر «أوكي»، نعم نعم، كان «أوكي»، ثم لم تعد تعرف ما قالته، كيف كان الانتقال من موضوع إلى آخر، على كل حال قالت فجأة هذه الجملة بالإنجليزية: «الماضي يُشكّل المستقبل، بغض النظر عن الحياة». ظلت هذه الجملة تشغلها، ففكرت في معناها لفترة بعد انتهاء المحادثة التليفونية، ثم ترجمتها إلى لغتها الأم، لتكتشف أن كل كلمة لها أهمية خاصة في الترجمة، ليس فقط في ترجمة المعاهدات الدولية والقوانين، بل أيضًا في -نعم، في ماذا؟- في جملة شخصية تمامًا. جملة بسيطة. عن الحياة. حياتها. جملة حياة، واضحة تمامًا مثل مادة قانونية، لكنها كانت باليونانية -وهو ما أثار استغرابها- تتطلب تأويلات تجعل الجملة ملتبسة ومرتبكة تمامًا... كيف تترجم كلمة *the past* إلى اليونانية؟ الماضي، *parelthón*، والتاريخ، *istória*، كلمتان غير متطابقتين إلى حد كبير باليونانية، أما الكلمة الإنجليزية فهي تتضمن أيضًا التاريخ *history*. كل ما حدث؟ ما حدث لمن؟ التاريخ الشخصي؟ أي كل ما عاشه الإنسان، السيرة الذاتية؟ أم أن المقصود بشكل عام هو تاريخ العالم؟ الكلمة بالإنجليزية تفتح باب التأويل لكل ذلك، ومع ذلك يشعر المرء أنها في منتهى الدقة. أما في اليونانية فعلى المترجم أن يوضح المقصود، وهو ما يؤدي إلى وضوح أقل في المعنى، وإلى تضيقه، فيتحول إلى تأويل. هل للماضي بداية محددة ونهاية محددة، أم أن بدايته ونهايته غير محددة؟ هل يكرر نفسه أم أنه لم -أو

بالأحرى لا- يتكرر؟ إن صيغة الفعل اليوناني تتوقف على ذلك، الفعل بالإنجليزية في المضارع، ولكن في الترجمة ينبغي، ربما، اختيار الزمن، الماضي البسيط أم الماضي البعيد، وذلك وفقاً لتعريف المرء لما فعله الماضي. ملأ السرور نفسها؛ لأن هذه الجملة الإنجليزية كانت في نهاية الأمر تعبر عن التالي بدقة: أن أصلها يتناقض مع حياتها، ربما يكون هذا الإدراك هو الترجمة، أو على الأقل تأويلاً مناسباً للجملة:

«The past forms the future, without regard to life».

أمرت بإحضار مارتن سوسمان. حضر أخيراً إلى غرفتها، وبقي واقفاً في تردد. ابتسمت فينيا. استغرب مارتن، فهو لم يعتد منها على ذلك. أن تستقبله بابتسامة. أن يكون وجهها بشوشاً. لم يكن بمقدوره سوى أن يفهم الأمر على نحوٍ خاطئ. هل أعجبتها ورقته إلى هذا الحد؟ لم يتوقع ذلك، بل لقد ندم على أنه كتب الورقة وأرسلها وهو محموم، أي من دون سيطرة على أفعاله، من ناحية أخرى...

البدلة هي السبب. بدلة مارتن الرمادية الرخيصة المنبجعة عند الركبتين والمرفقين. أي رجل لديه أقل قدر من الشعور بالأناقة -فكرت فينيا- لن يشتري أبداً بدلة مثل هذه. ولكن الرجل الذي ليس لديه أي فكرة عن الأناقة أو أي تطلع إليها، لن يشتريها أيضاً. ذلك الرجل سيرتدي أي شيءٍ عمليٍّ ومريح، دون تفرقة كبيرة، ولكنه لن يرتدي أبداً أبداً بدلة بلون الفأر. تطلعت فينيا إلى مارتن وتخيلته وهو يدخل متجراً لبيع الملابس، في القسم الذي يُسمى تسمية غير ملائمة له إطلاقاً، قسم «السادة»، ثم وهو يمر ببديل عديدة معلقة دون أن تعجبه، وفجأة يشير إلى

هذه البدلة الرمادية ويقول: أريد أن أجربها.

- تفضل بالجلوس يا مارتن.

كان المنظر بالنسبة إليها مضحكًا. صورته وهو يرتدي هذه البدلة في كابينة تغيير الملابس، ثم يتأمل نفسه في المرآة، ثم يقول: نعم! مضبوطة! ثم وهو يتحرك أمام المرآة رائحًا غاديًا، وبعد ذلك يقول للبائع: سأشتريها، سأخرج بها، ضع البدلة القديمة في الكيس من فضلك!

تحتم عليها أن تكبت ضحكة.

شعر مارتن بسعادة قلقة. شعور مُربك. سألها:

- هل قرأتِ ورقتي؟

- نعم، بالطبع.

لم تستطع تحويل عينيها عن مظهره، كانت نظراتها المبتسمة ثاقبة لبدلته مثل إبر تثقب «عروسة» ورقية. يرتدي دائمًا بدلة رمادية، لم تره أبدًا على صورة مختلفة. تخيلت أنه بحاجة إلى بدلة جديدة. البدلة الوحيدة الجديدة التي بإمكانه أن يرتديها ويتعرف على نفسه بها أمام المرآة، كانت -مرةً أخرى- بالدرجة نفسها من اللون الرمادي. لو ارتدى بدلةً أخرى، فسيقول لنفسه: لستُ أنا هذا. العادة لا تمنح الأمان، بل تجعل الإنسان قلقًا، قلقًا تجاه أي شيءٍ آخر. بدلة مخططة: رسمية أكثر مما ينبغي. زرقاء، ستكون صالحة أكثر لليل، لا للنهار. قماشة أفتح لونًا، هذا شيء للغندور شديد التألق. أي نقشة أو تفصيلة على

الموضة، ليس ذلك صالحًا للعمل، المكتب ليس مكانا لعرض الأزياء. تخيلت فينيا كيف يبذل البائع جهده لإيجاد بدائل، كلا، كلا، يبدأ مارتن في التصبب عرقًا، يكاد الرعب يستولي عليه، البدلة الرمادية مناسبة، سيقول، سأبقى مع الرمادي، هذا أنا. الرجل ذو اللون الرمادي.

خففت فينيا كسينوبولو رأسها، كانت قد طبعت الورقة التي تضم أفكار مارتن ووضعتها أمامها على المكتب، مرت بقمة الإصبع الأوسط بخفة على الورقة، من أعلى إلى أسفل، ومن أسفل إلى أعلى، ثم نهضت، وتطلعت إلى مارتن قائلة:

- أوشفيتس! ماذا جعلك تفكر في أوشفيتس؟ لا بد أن أعترف أنني أُصبت بالرعب عندما قرأت ذلك. اعتقدت أنك... انتظر! هنا: أوشفيتس كمهد المفوضية الأوروبية. مكتوب هنا! قلت لنفسني عندئذ: هذا جنون. ماذا بك يا مارتن؟ أنت مريض؟

كان مارتن يتصبب عرقًا، فمسح بيده العرق من جبهته إلى شعره، ثم قال:

- كنت مريضًا عدة أيام، نعم. أُصبت بالبرد في... أُصبت بالبرد خلال الرحلة، ولكن، حالي الآن أفضل.

- جيد. ولكن، هل بإمكانك أن تشرح لي ذلك؟ إننا نبحث عن فكرة نستطيع، أو يجب تركيز الضوء عليها في احتفال اليوبيل. كنا متفقين على ذلك: اليوبيل مناسبة، ولكنه ليس فكرة. إذن، كيف يمكننا أن نجعل الناس يلاحظون أهمية المفوضية، ليس هذا فحسب، كيف يمكن أن أعبر عن ذلك؟ أننا sexy، أن لدينا

جاذبية، أن لدينا شيئاً -تتنحج-، نعم، أن الناس سعداء لوجود
المفوضية. أن الناس يتوقعون منا شيئاً. أن ثمة ما يربطنا. أتفهم؟
هذه هي الفكرة. وأنت تأتي بأوشفيتس.

قبل نصف ساعة فقط، حينما كان يدخن في حجرة بوهوميل، كان
مارتن سوسمان سيسعد لو أخبرته كسينو أن اقتراحه هراء كامل، وأن
علينا أن نلقي به في سلة المهملات وننساه. كان يخشى ذلك، لكنه في
الحقيقة كان يأمل حدوثه. الأفضل أن يشعر الآن بإهانة قصيرة، هكذا
قال لنفسه، من أن يقوم بالعمل كله الذي سيؤدي دون شك إلى سلسلة
من التعقيدات والمشاكل في العمل. ولكن، معاملة كسينو له الآن، هذه
المرأة المصفحة، المبتسمة، التي فاجأته في البداية، لكنها في الحقيقة
كانت تبدو وكأنها صورة لذاتها، صورة معدلة ببرنامج «الفوتوشوب»،
هذا التكلف الخالي من الروح الذي كان يجلس أمامه وهو يتصبب
عرقاً... لا، لا يستطيع أن يقبل ذلك. كان...

- لقد شرحت في الورقة لماذا علينا أن ننطلق من أوشفيتس. أوكي،
كانت رؤوس أقلام فحسب، لقد اعتقدت...

- إذن، اشرح لي الأمر مرة ثانية يا مارتن!

نهضت. كانت ترتدي «جُبية» ذات «سوستة» حمراء مثبتة بشكل
قُطري. قال مارتن لنفسه: وكأن حِجرها ملغى! لكنه مزود بآلية لفتحه
بسرعة البرق إذا أرادت!

- قهوة؟

على مائدة صغيرة جانبية رأى ماكينة قهوة «نسبريسو» خاصة بها.

- حليب؟ سكر؟

هز مارتن رأسه نافيًا. جلست ثانية خلف مكتبها، واضعة فنجان القهوة بين يديها. وجد مارتن نفسه يفكر في أنه أمسك كوب القهوة في أوشفيتس هكذا تمامًا، حتى يدفع أصابعه المتجمدة بردًا. سعل مارتن، اعتذر، ثم أضاف:

- هذه هي فكرة المفوضية، وهذا هو المكتوب في الوثائق التأسيسية، إعلان النوايا آنذاك، والاتفاقيات الجانبية! أوكي، يبدو الأمر مجردًا إلى حد ما، ولكنه واضح كالشمس: ليست المفوضية مؤسسة دولية، بل مؤسسة فوق-دولية، أي أنها لا تتوسط بين القوميات، بل تقف فوق الأمم، وتمثل المصالح المشتركة للاتحاد ومواطنيه. إنها لا تبحث عن حلول وسط بين الأمم، بل إنها تريد أن تتجاوز الصراعات القومية والتناقضات الكلاسيكية على نحو ما بعد قومي، أي على نحو مشترك. أي أن هدفنا هو ما يجمع بين مواطني هذه القارة، وليس ما يفرق بينهم. قال مونييه...

- من؟

- جان مونييه. كتب قائلًا: المصالح القومية هي شيء مجرد، أما المشترك بين الأوروبيين فهو شيء ملموس. لاحظت فينيا أن رسالة إلكترونية قد وصلتها. قالت: «نعم، ثم؟».

قومي، فوق- قومي، هذه في نظرها سفسطة، إنها قبرصية، ولكن وفق الهوية القومية فإنها يونانية. أَلقت نظرة على «الميل» وعرفت أنه من فريزر. فتحتة وقالت:

- وما علاقة ذلك بأوشفيتس؟

- إن جوهر المفوضية، أو ما ينبغي عليها أن تكونه، لم يتبلور إلا بعد أوشفيتس. إنها مؤسسة تعمل على أن تتخلى الدول تدريجيًا عن حقوق السيادة القومية...

كتبت فينيا «متى؟ أين؟» ردًا على سؤال فريزر ما إذا كانت لديها رغبة ووقت لتتعشى معه. قال مارتن:

- أوشفيتس! لقد جاء الضحايا من كل الدول الأوروبية، كانوا يلبسون الملابس المخططة نفسها، وعاشوا جميعهم في ظلال الموت نفسه، وكان لديهم كلهم -بعد النجاة- الرغبة نفسها، أي ضمان الاعتراف بحقوق الإنسان في المستقبل القريب والبعيد. لا شيء في التاريخ جمع بين الهويات والعقليات والثقافات المختلفة في أوروبا، بين الأديان وما يطلق عليه العرقيات المختلفة والإيديولوجيات المتعادية سابقًا، لا شيء جمع بينها على هذا النحو، لا شيء خلق أساسًا مشتركًا لكل البشر مثل خبرة أوشفيتس. الأمم والقوميات والهويات القومية، كل هذا أصبح لاغياً وباطلاً، سواء كانوا إسبانيين أو بولنديين، إيطاليين أو تشيكًا، نمساويين أو ألمانين أو مجريين، كل هذا أصبح لاغياً، الدين والأصل، كل هذا كان قد زال وحل محله حنين

مشترك، ألا وهي أمنية النجاة، أمنية الحياة في كرامة وحرية.

الإيطالي؟ (فريزر).

أوكي! (فينيا).

- هذه الخبرة والاتفاق على ألا تتكرر هذه الجريمة أبداً، هي التي جعلت مشروع الوحدة الأوروبية ممكناً. أي وجودنا ذاته! ولهذا فإن أوشفيتس...

تطلعت فينيا إلى مارتن، وقالت:

- But ...

- هذه هي الفكرة! التغلب على الشعور القومي. ونحن حماة هذه الفكرة! وشهودنا هم الناجون من أوشفيتس! ليس الناجون شهوداً فحسب على الجرائم التي ارتكبت في المعسكرات، إنهم شهود على الفكرة التي انبثقت عن ذلك، الفكرة التي برهنت على وجود شيء مشترك، و...

«باستا ديفينا»، ١٦ شارع «دو لا مونتين»، الثامنة مساءً؟ (فريزر).

أوكي! (فينيا).

شعر مارتن أن كسينو تتأمل فيما قاله، فواصل قائلاً:

- إن ضمان أن نحيا في كرامة وسعادة وأن تشملنا حقوق الإنسان قد أصبح حقاً أبدياً منذ أوشفيتس، أليس كذلك؟ هذا شيء يفهمه أي شخص. وهذا ما يجب علينا أن نوضحه: إننا مؤسسة هذا الحق. حماة هذه المعاهدة التي ستسري إلى الأبد. لن يتكرر

ذلك أبداً... هذه هي أوروبا! نحن مغزى الحكاية!
مندهشة نظرت فينيا إليه. هذا الرجل الرمادي المتصبب عرقاً أصبح
فجأةً حيواً.

- من أجل ذلك سار بشر لمواجهة الموت، موتهم كان جريمة،
جريمة ليس لها أي معنى إطلاقاً بالنسبة لكل فرد منهم، ولكن
تبقى هذه النتيجة: لقد ساروا لمواجهة الموت، وهذا شيء
سيبقى حتى الأبد!

حتى لو لم تكن كسينو واعيةً لذلك فعلاً، غير أن كلام مارتن بدا
وكأنه صدى يأتي من الأعماق المظلمة، من مغارة حكايتها السابقة، كان
يبدو مثل: ساروا إلى الموت خالدين.

تطلعت إلى مارتن. بدت الآن جادة للغاية، ومتأملة للغاية. تساءل
مارتن ما إذا كان قد استطاع إقناعها الآن، رغم أنه لم ينتهِ بعد من عرض
حججه.

لم تفكر فينيا أبداً في حياتها، وإذا فعلت ذلك، فإنها كانت تفكر
في الإمكانيات، في الأهداف، ولكنها لم تفكر في حالتها النفسية
ومشاعرها، كل ذلك كان بالنسبة لها مزاجاً متقلباً.

- هل معك سجائر؟

متعجباً قال مارتن:

- نعم، بالطبع.

وقفت فينيا، وفتحت النافذة، وقالت:

- هل تعطيني واحدة؟

- لم أكن أعلم أنك تدخين.

- أحياناً. نادراً جداً. سيجارة.

كادا يتلامسان وهما يقفان ويدخانان في الزاوية الضيقة أمام درفة الشباك المفتوح. انتظر مارتن أن تقول شيئاً، تولد لديه انطباع أنها تريد أن تقول شيئاً، غير أنها راحت تنفخ الدخان بوجه متقلصٍ يميز المدخن غير المحترف. الهواء عند النافذة صقيعي. في النهاية قال مارتن: إنها الفرصة الأخيرة!

نظرت إليه مندهشة. قال مارتن لنفسه إن البرودة فظيعة أمام الشباك المفتوح، ينبغي عليهما أن يقتربا من بعض أكثر حتى يدفئ كل منهما الآخر، ارتعب من الفكرة، وحاول أن يأخذ مسافة منها. قالت له:

- ماذا؟

- عددهم يقل يوماً بعد يوم. وقریباً جداً لن يبقى أحدٌ نجا من معسكرات الإبادة. هل تفهميني؟ علينا أن نسلط عليهم الضوء في احتفال اليوبيل. هذه هي الفكرة: إنهم شهود على الجرائم البشعة التي ارتكبتها القومية في أوروبا القديمة، وفي الوقت نفسه هم شهود على كل القواسم المشتركة التي تبلورت في المعسكرات بشكل راديكالي، أعني...

البرد فظيغٌ عند الشباك المفتوح.

- ... والمفوضية هي المسؤولة عما يجمعنا بخصوص الكرامة

والوضع القانوني، ولهذا...

ألقي مارتن بالسيجارة من النافذة، ثم تراجع خطوة، أطاحت فينيا كذلك بسيجارتها، ثم أغلقت النافذة.

- هل يعرف أحد عدد الذين لا يزالون على قيد الحياة؟

- لا أعرف. كل ما أعرفه هو أنهم لم يتعدوا العشرة في يوم الذكرى السنوية لتحرير أوشفيتس، وكلهم، في تقديري، بين الخامسة والثمانين والخامسة والتسعين. يُقال إن أكثر من مائتين جاؤوا للاحتفال قبل عدة سنوات.

- طيب. إذن عليك أن تعرف: كم عدد الذين يعيشون اليوم؟ ثم علينا أن نتناقش حول: كيف سنفعل ذلك على وجه التحديد، كيف سنضعهم في مركز الاحتفال؟ كلهم، أو ... أتعرف ماذا أرى الآن أمام عيني؟ آلاًفاً... بالتأكيد لا يعيش اليوم عددٌ كبيرٌ كهذا! لا، انتظر! إذا دعوناهم جميعاً مع عائلاتهم وأقاربهم، وأطفالهم وأحفادهم وأحفاد أحفادهم، عندئذٍ سيبلغون ربما الألف، عندئذٍ، ماذا أقول (تحرك يديها حركة واسعة المدى)... عندئذٍ نعلن أنفسنا جميعاً أبناء رمزيين لهم، ونعلن أطفالنا أحفاداً لهم و...

- لا أعرف على وجه التحديد، ولكني أعتقد أن أغلب أبناء وأحفاد الناجين من أوشفيتس لا يعيشون في أوروبا.

- نعم. ولكن: هل يغير هذا شيئاً في الأمر؟ نعم، ربما. إذن...

فكرت قليلاً، ثم أضافت:

- النقاط الأخرى في ورقتك جيدة، ستركها الآن هكذا. هذه هي الأشياء المعتادة التي لا بد من التفكير فيها في احتفال كهذا. ولكن ما نحتاج إليه بسرعة الآن هي الحقائق والأرقام. كم عدد الذين ما زالوا على قيد الحياة، وخصوصاً في أوروبا؟ استغرقت في التفكير مرة ثانية. وسأل مارتن نفسه ما إذا كان عليه أن يجلس مرة أخرى. ولكن لم يبدر منها أي إشارة أنها ستجلس. كانت تقف أمام النافذة، مرسله بصرها إلى الخارج، وأخيراً قالت:

- ربما يكفي واحد. في الحقيقة، لسنا بحاجة إلا إلى شخصية واحدة، ترمز إلى أوروبا الموحدة، وإلى ما يجمعنا، شخصية ترمز إلى أهمية عملنا هنا.

في البداية تريد آلافًا، والآن واحدًا فقط؟ في أي اتجاه ينبغي عليه السير الآن؟ تطلع إليها، أما هي فقد أرسلت نظرة على ملابسها، ومسحت الرماد من فوق بلوزتها.

عندما ذهب البروفيسور إرهارت إلى الاجتماع الأول لمجموعة «حلف جديد من أجل أوروبا»، كان هو الوحيد الذي يحمل معه شنطة فيها أوراقه. هذا غريب حقًا: لفت ذلك نظره على الفور، وشعر أن الآخرين لاحظوا ذلك أيضًا، إما بابتسامة ساخرة، أو باندعاش فحسب، ولكنهم لاحظوا ذلك على كل حال.

كان آخر مَنْ وصل لأنه ضل طريقه في البداية. انعقد الاجتماع في «ريزيدنس بالاس»، خلف مبنى البلدية في شارع «دو لا لوي»، وهو في الحقيقة عنوان لا يُخطئه أحد؛ إذا خرج المرء من محطة مترو «شومان»، وجد نفسه يقف أمام المبنى تقريبًا. ولكن بجانب مبنى البلدية كانت هناك ورشة بناء، وأمامها أُغلق الرصيف أمام المشاة بشبكات حديدية ومربعات خرسانية. اعتقد ألويس إرهارت أن عليه أن يدور حول ورشة البناء بأكملها حتى يصل إلى مبنى البلدية، ولذلك واصل سيره في شارع «دو لا لوي»، لكنه لم يجد إمكانية للانعطاف يسارًا للوصول إلى شارع موازٍ يعيده إلى الجهة الخلفية من مبنى البلدية. في تلك اللحظة لمح مدخل محطة مترو «مالبيك»، معنى هذا أنه من محطة «شومان» قد رجع محطة مترو كاملة سيرًا على قدميه. غير معقول أن تكون التحويلة طويلة هكذا! من ناحية أخرى: لم ير إمكانية أخرى، فواصل سيره مترددًا مسافةً أخرى. عندئذٍ رأى أخيرًا شارعًا جانبيًا في الجهة اليسرى. انعطف يسارًا، شارع «دو تريف»، ثم مرةً أخرى يسارًا، إلى شارع «جاك دو لالان»، كان يقرأ أسماء الشوارع وكأن وجودَ أسماء للشوارع التي ضل طريقه فيها أمرٌ مهدي. بقي واقفًا، ثم أخرج من حقيبة الأوراق خريطة لمدينة بروكسل، وبحث عن الشارع، فوجد أنه إذا واصل سيره في شارع «جاك دو لالان» فسيصل إلى «شوسيه دتريبك» الذي يؤدي إلى شارع «دو لا لوي»، ولكن دون إمكانية -على الأقل لم تظهر على الخريطة- للوصول إلى المدخل الخلفي لمبنى البلدية. لذلك، استدار وعاد الطريق كله. عند وصوله إلى ورشة البناء مرة ثانية، اكتشف أن

هناك فتحة صغيرة غير ظاهرة بين الحواجز الحديدية والخشبية تصله بمبنى «ريزيدنس بالاس».

عندما دخل المبنى، لم يكن يعرف بالطبع إلى أين عليه أن يتوجه. في وسط البهو رأى نقطة استعلامات جلست فيها فتاتان أجابتا البروفيسور إرهارت على أسئلته بأكبر قدر من اللطف والبشاشة. لا، هما لا يعرفان أين يقع مركز السياسات الأوروبية في المبنى. أما مجموعة الخبراء باسم «حلف جديد من أجل أوروبا» فهي مجهولة تمامًا بالنسبة إليهما. هل لديه اسم؟ أعطاهما البروفيسور إرهارت اسمه، فقامت إحدى الفتاتين بكتابته على الكمبيوتر، ثم قالت بابتسامة بشوشة إنها آسفة، آسفة جدًا، ولكن ليس هناك أحد بهذا الاسم يعمل هنا. قال البروفيسور:

- ولكن هذا اسمي، لقد اعتقدت أنك أردت الحصول على...
أوكي، أريد الذهاب إلى... انتظري!

فتح حقيبته، كان قد طبع «الميل» الذي يضم كافة التفاصيل التنظيمية للاجتماع الأول. سحب الورقة من الحقيبة، ثم قال للفتاة:

- هنا، مستر بيتو، مركز السياسة الأوروبية، الاجتماع الأول لمجموعة «حلف جديد من أجل أوروبا»، انظري! قاعة «كونستام»، الدور الرابع...

- أوه! إذن كل شيء واضح! الدور الرابع! المصعد هناك، في الخلف، إلى اليمين.

كان آخر من وصل إذن. ولكنه لم يكن متأخرًا كثيرًا عن الموعد. لو

لم يكن ضل الطريق، لوصل قبل مواعده بكثير. إنه دائماً أول الواصلين؛
لأنه يخشى الوصول متأخراً.

كان يحمل حقيته طوال الوقت في يده اليسرى، بسبب الآلام التي لا
يزال يعانيها في ذراعه اليمنى. شعر الآن بالألم عبر ذراعه اليسرى أيضاً. رفع
الحقيبة، وضمها بذراعيه متعامدين إلى صدره. أراد أن يخفف عن ذراعيه،
لكن الأمر بدا وكأنه يستخدم الحقيبة كدرع، وكأنه لخوفه أراد أن يتحصن.
كانت تلك هي الصورة التي أعطاها للآخرين عندما دخل القاعة.

سار في اتجاهه رجل يتسم ابتسامة عريضة.

- مستر إرهارت؟

- نعم.

- البروفيسور من النمسا!

- من فيينا، نعم.

- أنا أنطونيو أوليفيرا بيتو، رئيس المجموعة. سعيد بحضورك.

كان الرجل يتحدث الألمانية بطلاقة.

- آسف للتأخير، ورشة البناء...

أجابه الرجل وهو يضحك بمرح:

- نعم، أوروبا ورشة بناء مربكة. ولهذا نحن هنا، مهمتنا هي أن

نناقش السؤال: ما الذي نبنيه هنا؟

- لستُ معمارياً، و...

- هههه، سخرية فييناوية، أليس كذلك؟ رائع. أقترح إذن أن تتناول في البداية بعض الطعام، ثم نبدأ بالتعارف بعد عشرين دقيقة في قاعة الاجتماعات. لست معماريًا، هههه، رائع!

وقف ألويس إرهارت هناك، بحقيقته أمام صدره، ونظر حوله. رأى «بوفيه» على مائدة، ورجالاً ونساء يقفون بجانب مجموعة من الموائد العالية، هؤلاء هم أعضاء مجموعة الخبراء، كل منهم يتناول طعامه بشوكة بلاستيكية من طبق ورقي، كانوا يتبادلون الحديث والنظرات، أو لا يتحدثون، ويتسممون متبادلين النظرات.

أمسك ألويس إرهارت بحقيقته باليد اليسرى مرة ثانية، حتى تكون اليمنى حرة، فيمسك بها الطبق، ولكن كيف يمكنه الآن وضع «سلطة المكرونة» أو «الروزيف» على طبقه؟ حشر حقيقته تحت إبطه الأيسر، وتناول طبقًا باليسرى، وحاول باليمنى أن يغرف شيئًا من وعاء سلطة المكرونة... عندئذ وقعت الحقيقة على الأرض، فانحنى ليلتقطها، فاندلقت على الأرض السلطة التي غرفها على طبقه. وضع الحقيقة على الأرض، لكنها انقلبت. الغريب أن ذلك جعله عصبياً: أن الحقيقة لم تبق واقفة، بل ملقاة على الأرض. أمسك بها وسندها على الجدار. أقلقه ذلك على نحو ما: أن تكون الحقيقة مستندة إلى الجدار، بينما يأخذ هو طعامه من البوفيه، بعيداً عنها. وضع طبقه إذن، وأحضر الحقيقة مجدداً، ووضعها بين قدميه، ثم راح يأخذ طعامه من البوفيه. والآن، عليه أن يسير إلى إحدى الموائد العالية. حاول أن يمسك الطبق باليمنى، وباليسرى كوباً به عصير تفاح، وأن يسير خطوات صغيرة ضيقة، والحقيقة بين

قدميه، لكنه كاد يتعثّر، فدفع الحقيبة بقدمه دفعة خفيفة، وسار خطوة، ثم دفع الحقيبة بقدمه دفعة أخرى لكي يصل إلى المائدة أمامه، الآن، إن لم يكن قبل ذلك، كان قد أصبح، أو أصبحت حقيقته في مركز الاهتمام. لاحظ البروفيسور إرهارت أن أحدًا هنا ليس لديه حقيبة غيره، البعض كان يحمل حقيبة ظهر، فكانوا يقفون واثقين من أنفسهم بظهورهم التي تشبه سنام الجمل، ولكن بأيدي خالية، الآخرون كان معهم حقائب ذات عجل تركوها جانبيه، مستندين عليها في استرخاء. أما هو، الرجل العجوز بحقيقته المدرسية.

كانت حقًا حقيقته المدرسية. كان قد حصل عليها متأخرًا جدًّا، في المرحلة الثانوية. قبل ذلك لم يكن لديهم نقود. أو أن أباه كان يرى أن شراء حقيبة مدرسية أمر غير ضروري، فمتجره يحفل بالشنط الرياضية في المخزن.

كانت تلك الشنط من القماش، تشبه «مِخلّة» البحارة، وتغلق بحبل يكون عندئذٍ «فيونكة» يمكن إمساك الشنطة منها. في الحقيقة كانت شيئًا أكبر من الكيس الذي يحمله العدّاؤون، وكان الصبي ألويس يخجل من نفسه؛ لأن أباه -وهو صاحب محل على كل حال، أي رجل أعمال- أجبره على أن يذهب إلى المدرسة الثانوية البرجوازية في شارع «أمرلينج» بهذا الكيس الغريب الذي لم يكن أي تلميذ آخر يحمله. وعندما حصل أخيرًا على حقيبة مدرسية حقيقية، شعر بسعادة طاغية. كانت من الجلد، ومصنوعة باليد. اشتراها الأب لدى «فاينبرجر»، صانع المنتجات الجلدية الذي يقع محله بعدهم بمسافة

صغيرة في «مارياهيلفر شتراسه». حصل الأب على تخفيض محترم من صانع الشنط بعد أن تساهل معه الأب للغاية عند شراء معدات التزحلق على الجليد لابنه.

كان ألويس فخورًا بحقيبتة الجلدية، حتى إنه كان يضعها بجانبه على السرير عندما يذهب للنوم، حتى يقع نظره عليها فور استيقاظه. كان يحب الصوت المعدني الصادر عن القفل المصنوع من النيكل اللامع عندما يضع كتبه استعدادًا لليوم الدراسي، ثم يغلق الحقيبة. من حين لآخر كان يدهن الحقيبة بورنيش حتى يظل الجلد طريًا ولا يتشقق. كانت الحقيبة مزودة بحزام يركبه المرء في حلقة مثبتة الناحية الخلفية من الحقيبة إذا أراد أن يحملها على ظهره. لكن ألويس لم يستخدم هذا الحزام أبدًا، كان يفضل أن يحمل الحقيبة في اليد مثل البالغين، كما أن الحزام ضاع منه ذات يوم.

فيما بعد ظهرت الحقائب المدرسية الحديثة، ملونة، ومطبوع عليها نقوش صارخة، مصنوعة من مادة اصطناعية ما، في الحقيقة ليست سوى كارتون مغلف بالبلاستيك، كان ألويس يشعر بخليط من الاشمئزاز والشفقة تجاه الأطفال الذين يحملون على ظهورهم في طريقهم إلى المدرسة هذه الحقائب المضحكة وعليها أشكال «سنوبي» و«باتمان». أما حقيبتة الجلدية فترافقه حتى اليوم. عبر السنوات أصبح الجلد أكثر طراوة، واكتسب لمعانًا خافتًا جميلًا. تتسع هذه الحقيبة لكل ما يحتاجه لمناسبة مثل مناسبة اليوم. غلاف شفاف من البلاستيك بداخله ورقتان بهما رؤوس الموضوعات لمدخلته التي ستستغرق خمس دقائق والتي

سليقيها - مثل الآخرين - في ندوة الافتتاح، وغلاف شفاف آخر به الرسائل الإلكترونية المطبوعة التي حصل عليها من السيد بينتو تحضيراً لهذا الملتقى، وملف به ورقته عن إصلاح الاتحاد والتي يريد أن يعرضها بمجرد أن تتاح له الفرصة، ودفتر ومقلمة. سأل نفسه عما أحضره الآخرون في حقائبهم المنتفخة المجرورة على عجلات أو المحمولة على الظهر.

تبادل الكلمات الأولى الودودة عند إحدى الموائد. أوه، هل أنت بروفيسور إرهارت؟ سعيد جداً بلقائك. يسعدني أيضاً. سعيد للغاية. أنا، أنا، نعم وأنا... هذا. هذه. هذا. يسعدني التعرف عليك. يسعدني التعرف عليك. شرع فرنسي يحكي شيئاً، الفرنسية التي تعلمها البروفيسور إرهارت في المدرسة لا تكفي لكي يفهم لهجته الفرنسية، إلى أن لاحظ أن الفرنسي يتكلم الإنجليزية، فانهمك البروفيسور في تناول سلطة المكرونة. عندئذ صفق أنطونيو أوليفيرا بينتو عدة مرات وصاح:

- سيداتي سادتي، هل تسمحون؟ من فضلكم، نريد أن نبدأ.

بهذه السرعة! شعر البروفيسور إرهارت الآن بأنه في المكان الخطأ، أو بأن أفكاره لن تجد فرصة وسط هذه المجموعة. كلهم متشابهون جداً. هو وحده المختلف. أخبروه بأن مجموعة الخبراء الجديدة هذه ستجتمع ست مرات خلال هذا العام، لمدة يومين في كل مرة، لكي تقدم في النهاية إلى رئيس المفوضية ورقة تضم نتائج تحليلاتهم واقتراحاتهم للخروج من الأزمة ولتقوية الاتحاد. تعجب ألويس إرهارت من أن

الوقت المتاح هو اثنا عشر يومًا فقط، موزعين على مدار العام، لتقديم خطة لحل الأزمة الأوروبية. غير أنه رأى في الدعوة فرصة أيضًا لتغذية هذه المنظومة بأفكاره.

والآن، ها هم يجلسون جميعًا في دائرة داخل قاعة «ماكس كونستام». أخرج ألويس إرهارت من حقيته الورقة التي كتب عليها رؤوس الموضوعات لكي يستند إليها في مداخلته الأولى، أما الآخرون فقد أخرجوا كلهم من حقائب الظهر أو الحقائب ذات العجلات أجهزة اللابتوب أو التابلت. بابتسامة مشرقة على وجه رجل يعيش أسعد لحظات حياته قال أنطونيو أوليفيرا بينتو بالإنجليزية: أرحب بكم مجددًا. في تلك اللحظة سمعوا صوت ارتطام، انكمشت المرأة التي تجلس بجانب إرهارت على نفسها، وهب راجل واقفًا، في حين انزلق لابتوب من فوق ركبتي رجل آخر - ما هذا؟ اصطدم طائر بالنافذة الزجاجية، نعم، لا بد أن هذا ما حدث، طائر. ادعى رجل أنه رآه: طائر أسود كبير... نهضوا، وتزاحموا أمام النافذة، حقًا، رأوا بقعة دم صغيرة وريشة ملتصقة بالزجاج.

أمر غريب أن ألويس إرهارت - هذا الإنسان السعيد لكونه محافظًا حتى النخاع - يتحول إلى شخصية ثورية حزينة وسط هذه المجموعة.

لو لم يكن المفتش إميل برنفو في إجازة، لما وجد وقتًا ليذهب إلى الطبيب. وربما ما كان قد حاول أبدًا أن يحل لغز قضية «القتل في الأطلس».

كان يرقد بصدر عار وينطلون مفتوح على المضجع في عيادة الطبيب، ولاحظ بقلب منقبض أن الخوف تملكه، خوف هادئ أصابه بالشلل. نفس عميق! زفير! خوف حجب عنه الهواء. أمر غريب، حتى الآن لم يفكر برنفو أبدًا في موته، رغم أن الجثث تواجهه في كل مكان. لكنه هو الشخص الحي المكلف بأن ينال المذنبون المتسببون في الموت عقوبة عادلة، وهي في المعتاد «مدى الحياة»، وهي عقوبة تبدو كأنها حياة أبدية لا يعرف أحد متى تنتهي، حتى إذا أُطلق سراح الجاني قبل انقضاء العقوبة.

مطاردات وملاحظات خطيرة، تبادل إطلاق النار، والأشياء الأخرى المشابهة، تلك أمور يراها المرء في التلفزيون، لكنها غير موجودة في عمله، وإذا وجدت، فقد كان هناك متخصصون، طوال سنوات خدمته لم يمر مرة واحدة بمثل تلك الأمور، لم يمر أبدًا بموقف أشعره بخوف مميت. ولكن الآن، عند هذا الطبيب، وهو ليس طبيبًا شرعيًا ولا طبيبًا جنائيًا، بل طبيب عادي، ممارس عام يقوم بفحصه، ويضغط هنا قليلًا، ويدق هناك بعض الشيء...

زرر برنفو قميصه، بينما راح الطبيب يكتب تحويلاً إلى المستشفى لمعرفة الأسباب الدقيقة وراء أعراض المرض؛ لأن...

في تلك اللحظة وجد نفسه يفكر في الموت. موته هو. دون أن يتدلل. لدى الطبيب شكٌّ. كان يعرف شيئًا. وفي المستشفى سيؤكدون ما يعرفه الطبيب أو ما يحدثه. مرض الموت. فجأة لم يشعر برنفو بأي شكٍّ في أنه يشاهد الآن كتابة الحكم عليه بالموت، وفي الوقت نفسه

شعر بنفسه حقيقياً على نحو راديكالي كما لم يشعر من قبل. لا أحد يسقط سقوطاً مريعاً وفي الوقت نفسه يكون متوحداً مع ذاته مثل ذلك الذي يتوه فجأةً في ضبابٍ كثيفٍ لا يُخترق. الرعب وإرادة الحياة يمزقان جسده، الرأس ساخن، والصدر بارد ومتصلب. راح الطبيب يدق على لوحة الحروف، بإيقاع فوضوي، وبين الحين والآخر يحدق في شاشة الكمبيوتر رافعاً حاجبيه، «تيب» «تيب» «تيب»، صمت، «كليك»، صمت، «تيب» «تيب»، صمت، مثل قرع الطبول، ثم توقف، مثل دقات قلب يائس عبر مكبر للصوت. برنفو، وكأنه يتدرب على ترجمة جمل إلى لغة أجنبية تعلمها لتوه، أخذ يصيغ في رأسه شيئاً فشيئاً أسئلة، ببطءٍ ووجلٍ: رد فعلي، سيكون، كيف؟ رد فعلي عندما، التشخيص، عندما أحصل على التشخيص، بصورة مؤكدة؟ عدم الاستسلام والمقاومة؟ إرادة المقاومة؟ أم أنني سأنهار، وأستسلم؟ أكذب على نفسي، وأدعهم يكذبون عليها، أتعلم بجنون بالأمل؟ هل سأشعر بالثناء للذات - أم الرغبة، هل سأستطيع أن أشعر بالرغبة، أن أتعلم الشعور بالرغبة، الرغبة في المتع الأخيرة؟ هل سيتمكنني الغضب، أم، أم سأكون رقيقاً؟ رقيقاً مع مَنْ؟

تنحج الطبيب، وفجأةً وجد برنفو نفسه يتسم. سقياً لعهدٍ كان المرض فيه شيئاً مريعاً فردوسياً... بسرعة شديدة، ولفترة لا تزيد عن ثانية، مرت هذه الصورة برأسه: هو، يتدفأ في فراشه الوثير، وقد تحرر من المدرسة، مستمتعاً بحنان الأم وعطفها، يدها على جبينه الساخن، أقصى درجات الرعاية، تعد له الشاي، وللتغلب على وهنه تطبخ له

طعامه المفضل. النعاس، الأحلام، القراءة. الخبرة حلوة المذاق، خبرة الحب في شكل عطف وقلق. ثم اليقين: كل شيء سيكون على ما يرام. كل شيء كان على ما يرام...

تحدث الطبيب في الهاتف... غداً في الصباح الباكر غير ممكن؟ فهمت... إذن، الواحدة ظهرًا؟ اتفقنا، جزيل الشكر، أيها الزميل!

قال له الدكتور:

- غداً في الواحدة ظهرًا عليك الذهاب من فضلك إلى «مستشفى أوروبا، سان ميشل» صائمًا، إذا كان ممكنًا. ومعك هذا التحويل، تفضل! لتوضيح الأمر، أعني الفحوصات اللازمة سوف تستمر ربما ثلاثة أيام. إذا استمرت أكثر من ذلك، فبإمكانك على كل حال أن تذهب إلى بيتك في نهاية الأسبوع. رئيس الأطباء، الدكتور درومون، سيقدر ذلك. لقد تحدثت لتوي معه. أنت معه في أيدي أمينة.

حدث عندئذٍ لأميل برنفو شيء غريب: كان الخوف خلاصًا له. كان ذلك شعوره حقًا، والفكرة التي سيطرت عليه أخيرًا: الخلاص.

الحكم بالموت، أو فلنقل: عندما أدرك أن الموت يهدده، شعر فجأةً أن ذلك يحرره لكي يُقدم على الفعل. يجب عليه أن يفعل ما يجب فعله. كان ممنوعًا على أعضاء الشرطة الحاصلين على إجازة أن يواصلوا تحرياتهم من تلقاء أنفسهم. ولكن، ما العقوبة التي يخشاها الآن؟ إن العقوبة الوحيدة التي يجب عليه أن يخشاها هي أن يموت وهو

يعلم أنه لم يُقدِّم على فعل ما يراه صوابًا، هذا هي الميتة الأشد إيلامًا وتعذيبًا. أستخدم كلمات منبرية رهيبة؟ التاريخ ما هو إلا حركة بندقية بين التفاهة والرغبة. والمحتضر يُدفع دفعًا مرةً إلى هذه الناحية، ومرة إلى تلك.

نهض المفتش برنفو، وألقى نظرة على الطبيب الجالس، نظرة كتلك التي كان ينظر بها جده. المقاوم الشهير الذي أطلق اسمه على أحد شوارع بروكسل. نظرة الجد التي كان يخشاها طفلًا. آنذاك، عندما كان إميل الصغير يرقد في الفراش وقد ارتفعت درجة حرارته قليلًا، يُعاني من الزكام وآلام الحلق، يرتشف من فنجان المرمية الساخن الذي أعدته أمه، الممرض كان مريحًا وفردوسيًا؛ كان جده يقف أمامه ويلقي نظرة عليه ويقول: الممرض غير مقبول. لا يمرض الإنسان إلا عندما يسقط على الأرض. عندئذ يكون قد مات. فتصيح الأم التي دخلت الغرفة لتوها حاملة المرمية الساخنة: ما هذا الكلام؟ دع الطفل في سلام! لماذا تخيفه؟

تناول برنفو ورقة التحويل إلى المستشفى، وشكر الطبيب، ثم انصرف. بأفكاره راح يلقي نظرة على الطفل الذي كانه، ارتعب الطفل، وتملكه الخوف. أما هو فلا.

كان الآن مناضلاً في المقاومة. طالما أنه لم يسقط.

la Liberté! La Loi,

القانون، الحرية!

بيطء سار في اتجاه مركز المدينة، لديه وقت عليه أن يجتازه. كان لديه موعد بعد ساعة مع صديقه فيليب جاولتير، في مطعم «لوجنبيليك»، بالقرب من «جراند بالاس».

من محل «نويهاوس» عند الساحة الكبيرة اشترى شوكولا فاخرة...

- من هذا النوع، إذا سمحت، تسع قطع في علبة صغيرة!

- تسع قطع من «لو ديزير»! *D'accord*. هل ألفها كهدية؟

- نعم، من فضلك.

- ستسعد السيدة بذلك. برأيي فإن «لو ديزير» أفضل أنواع الشوكولا التي نقدمها!

- أي سيدة؟ سأهدي الشوكولا لنفسني!

- أوه!

تطلع برنفو إلى البائعة، وشعر فجأة بالشفقة. الشفقة تجاه نفسه. لقد حطم شيئاً جميلاً، حتى لو كان وهماً لدى البائعة. لماذا تصرف بهذه اللا مبالة؟ لا يستطيع أن يسمح بذلك لنفسه بعد الآن: اللا مبالة. دفع، وتناول العلبة الصغيرة المغلفة تغليفاً فنياً، ثم قال:

- لقد أعدت التفكير في الأمر. أريد فعلاً إهداء هذه الشوكولا إلى سيدة... سيدة سحرتني اليوم بابتسامتها.

ثم قدم العلبة للبائعة، وخرج من المحل.

كل شيء على ما يرام، قال لنفسه، بصيغة تعجب، وصيغة سؤال، طالما أن الخجل يؤلمه أكثر من الخوف من الموت.

وصل «لوجنبيليك» مبكرًا ربح ساعة عن مواعده. في انتظار فيليب
راح يحتسي كأس شمبانيا.

فيليب هو رئيس مركز نظم المعلومات في إدارة شرطة بروكسل،
ويصغر برَنفو بخمسة عشر عامًا، وهو أفضل أصدقائه رغم هذا الفارق
العمرى. من بين ما يجمعهما أن كليهما «من حاملي الشال المبلول»،
هكذا كانا يطلقان على أنفسهما كمشجعين لنادي الكرة «رويال
أندرلخت». لا يكادان يفوتان مباراة تقام في بروكسل.. ما أكثر الدموع
التي سالت على شال المشجعين، ولذلك فإنه لن يحف أبدًا. كلُّ منهما
-وهذا ما تأكدا منه وهما يحتسيان البيرة بعد انتهاء العمل- كان يرى
أنه لا بد من اتخاذ موقف، من أجل بداية جديدة في النادي بعد فضيحة
الرشوة الهائلة. آنذاك انتشرت الأنباء عن أن النادي دفع للحكم رشوةً
بقيمة ٢٧ ألف جنيه إسترليني قبل مباراة العودة مع نادي «نوتينجهام
فورست» في الدور قبل النهائي في كأس الأمم الأوروبية. حتى لو كان
الموقف مجرد إشارة رمزية بسيطة، مثلًا تغيير بسيط في اسم النادي،
وذلك لتوضيح أن النادي سيبدأ من الآن بداية جديدة، ولا علاقة له بعد
اليوم بالفساد والرشاوي. رويال أندرلخت - كيف يمكن أن يبدو هذا
التغيير؟ كان رأي برَنفو حذف كلمة «رويال»، لإرسال إشارة رمزية
فحسب.

- ولكن لماذا «رويال»؟

الملك، القانون، الحرية! عن أي شيء نستطيع أن نستغني؟ الملك!
«لا روا».

ضحكا. وهكذا كانا يصلان بسرعة إلى اتفاق في المواضيع السياسية، فيما يتعلق بالنظام البلجيكي، وهذه الدولة الممزقة العاجزة التي لم يعد ملك يبقياها موحدة، بل دولة القانون في الجمهورية. رغم ذلك فقد اعتبر كلاهما قرارَ الملك بعدم تكليف حكومة في الوقت الذي كانت فيه بلجيكا ترأس الاتحاد الأوروبي - وذلك حتى لا تتعطل القرارات الضرورية بالنسبة لأوروبا عبر النزاعات الداخلية للائتلاف الحكومي - قرارًا صائبًا. قال فيليب آنذاك: لم تسر الأمور في بلجيكا يومًا أفضل مما كانت عليه في الفترة التي لم تحكم فيها حكومة.

كانا يحجان إلى استاد كونستانت فاندن ستوك في أندلخت، بيكيان وبيبلان «شال» المشجعين، ويتبادلان المزاح والدعابة. بحماسة بالغة كان فيليب يتحدث عن أنه رأى فرانكي فيركوتيرين وهو يلعب في الاستاد، وأنهم بحاجة اليوم إلى لاعب كهذا، هذاف عبقرى. رد عليه إميل قائلاً إنه لا يفقه شيئاً، فهو، الأكبر سنًا، رأى باول فان هيمست، ومقارنة به فقد كان فيركوتيرين بطة عرجاء.

- هل كان كل شيء أفضل منه الآن؟ لا شيء أفضل، ولكنه كل شيء كان ببساطة مختلفًا.

- نعم، بالتأكيد! ولكن ألم يكن أفضل؟ زمان، كان أندلخت حيًا يهوديًا من أحياء بروكسل. كان هو المركز السري لبروكسل، بسبب النادي الرياضي، وبسبب المقاهي والمجلات. الآن أصبح حيًا مسلمًا، هجره اليهود، ولا أحد من الذين أعرفهم يخطر على باله أن يقصد الحي للذهاب إلى مقهى، ناهيك عن أن يذهب مع

امرأة؛ إذ لن يُسمح لها مطلقاً بدخول مقهى مسلمين.

- أنت تعرف جيريت بيرز من قسم تأمين الأدلة الجنائية، أليس كذلك؟ لقد انتقل للسكن في أندرلخت، وهو يقول إن الشقق هناك أرخص، وإن الناس هناك تتعامل مع كل شيء ببساطة بالغّة. هو مُدخّن، ويقول إن لا أحد يهتم هناك بقرار منع التدخين. يحصل على قهوة ممتازة، والرجال من مدخني الشيعة لا يعبؤون به عندما يشعل سيجارة.

- في مولينبيك؟

- نعم. الزمن يتغير. قريباً سيتخلى النادي عن الاستاد هنا، و ينتقل إلى الاستاد الجديد، استاد الملك بودوان. سيحتفظ النادي باسم أندرلخت، ولكنه لن يلعب في أندرلخت. وستقول أنت: زمان، كان كل شيء أفضل. واليوم تشكو لأن أندرلخت لم يعد كما كان قبل عشرين عامًا.

- نعم، اليوم لم يكونوا سيئين: ١ / ٢ ضد فريق «لوفين»، هذه نتيجة معقولة.

قبل ثلاثة أعوام طلب فيليب من إميل أن يكون شاهدًا على زواجه. بعد ذلك بعام أصبح فيليب أبًا، فأضحى إميل هو إشبين «جويل» الصغيرة. عندئذٍ غدا أكثر من صديق، لقد أصبح جزءًا من العائلة.

انتهى إميل برنفو من احتساء كأس الشمبانيا وطلب كأسًا أخرى. فيليب هو الإنسان الذي يحتاج إليه الآن: مهندس كمبيوتر عبقرى،

وفي الوقت نفسه محل ثقة تامة ومتضامن معه. هكذا يأمل. كلا، بل هو متأكد.

قُدم له الكأس الثانية. راح يرتشف منها على مهل، فرأى أمامه فيليب.

- ما يبقى من حياة يبدأ بالشمبانيا، وينتهي بشاي الأعشاب! ماذا قال الطبيب؟

احتضنا بعضهما البعض، ثم جلس فيليب قائلاً:

- وما أريد أن أعرفه: هل أمسكت به واعتقلته؟

- به؟ ماذا؟ مَنْ؟

- الخنزير! ألم تقرأ الصحيفة اليوم؟

- آه، الخنزير. لديّ خيطٌ. لقد عثرنا على آثار بها حمض نووي.

عليك في الغد أن تقارن هذا الحمض النووي بالحمض النووي لكل الخنازير المسجلة في بنك معلومات اليوروبول.

قهقهه فيليب، ثم قال:

- أنت تعرف أنني دائماً في خدمتك.

- عن هذا بالضبط أردت الحديث معك.

انهمكا في الحديث والأكل والشراب:

- زمان، كان الطعام أفضل.

- أهذا رأيك؟

- نعم.
- ولكن، لم يتغير هنا أي شيء.
- نعم، باستثناء الطعام.
- كيف؟
- لحم الخروف المشوي نتناوله هنا منذ ١٥ عامًا.
- نعم، ولكنه كان أفضل.
- همم، ربما، ولكن غير ذلك... لم يتغير أي شيء هنا.
- ربما كان من الأفضل أن أطلب السمك المشوي مع «ريزوتو الهليون».
- هليون! الآن؟ في الشتاء؟
- نعم، من تايلاند، هذا هو المكتوب على القائمة.
- هليون من تايلاند، من فضلك، كفى هراء! نحن نطلب هنا دائمًا لحم خروف، وهو جيد.
- لا أعرف، طعمه مثل الجثة، لم يخطر على بالي في الماضي أبدًا أن لحم الخروف المحمر ليس إلا جثة.
- كفى هراء، ماذا حدث لك؟
- لا شيء، أنا بخير. نعم، بخير.
- حكى له برنفو أن الطبيب حوَّله إلى «مستشفى أوروبا»، وأنه سيجري فحصًا هناك في الغد.

- هل قال لك إنه يشبهه في شيءٍ مُعَيَّن؟
- لا، لم يقل غير أنه من اللازم إجراء فحص أدق.
- إنه يريد التأكد، وهذا جيد. عندئذٍ سيتضح الأمر. لو كنت مكانك، لن أحمل الآن همًا.
- نعم، ربما. ربما تكون مُحققًا. على كل حالٍ: ما زلت في حلبة المعركة.
- يعني؟
- أنت تعلم أنهم سحبوا مني قضية «أطلس» وأعطوني إجازة؟
- نعم.
- هل تعلم لماذا؟
- كنت أعتقد أنك ستقول لي.
- لكنني لا أعرف.
- لا تعرف؟ لم يذكروا لك سببًا؟
- لا.
- أحتاج إلى كأسٍ أخرى من النبيذ.
- اسمع يا فيليب، لقد مُسحت كل البيانات التي تتعلق بقضية أطلس. لقد كنتُ في مكان وقوع الجريمة، قسم تأمين الأدلة الجنائية كان هناك، كما أنني أجريت التحقيقات الأولى... كل هذا لم يعد له وجود. لقد اختفت كل الملفات والمحاضر

والوثائق ولم يعد لها أي أثر، جريمة القتل اختفت وكأنها لم تكن. ثمة جثة رأيته بنفسى. عندما عدتُ إلى جهاز الكمبيوتر الخاص بي، لم أجد شيئاً، وكأن الأرض انشقت وبلعت كل ذلك. لقد تعرضت للقرصنة الإلكترونية. وعلى الأرجح لم يتعرض جهازي فحسب للقرصنة، بل النظام الإلكتروني كله. والمدعي العام شريك في ذلك. أود أن أعرف: لماذا؟

- مفهوم.

- عليك أن تساعدني.

رفع النادل الأطباق، فأصدر فيليب بأصابعه طرقعةً مشيراً إلى المكان الذي كان طبق إميل عليه، وقال:

- الجثة اختفت!

- دعك من المزاح! آسف لما قلته من قبل. لنكن جادين الآن: لقد اختفت القضية، وإذا كان هناك شخصٌ يستطيع أن يتتبع ذلك، وأن يعرف كيف حدث ومن هو الفاعل، فهو أنت. أنت رئيس مركز نظم المعلومات، أنت تتحكم في نظام معالجة البيانات الإلكترونية في شرطة بروكسل. يجب أن تعثر على الثغرة.

- وكيف يمكنني تبرير ذلك؟ لا أستطيع أن أبدأ بحثاً كهذا في القسم دون إبداء أسباب. وخاصةً أن ذلك مخالف لتوجيهات المدعي العام.

- وهل تعلم شيئاً عن توجيهات المدعي العام؟ لا. إذن! ليس

عليك تبرير ذلك. عليك أن تفعل ذلك فحسب.

- إنه أمرٌ معقدٌ إذا شرحت لك الآن كيف يمكنني الدخول إلى الذاكرة المركزية للحاسوب، وعدد الخطوات التي تقوم بتأمين ذلك، والإجراءات البيروقراطية الكثيرة اللازمة للمضي إلى الأمام ربما خطوتين فحسب من عشرين خطوة.

- ليس عليك أن تقوم بذلك بشكل رسمي. أنا لم أسألك ما إذا كنت تعتقد أنك ستحصل على تصريح بذلك، بل ما إذا كان بإمكانك أن تفعل ذلك.

- سيكون ذلك ضد القانون.

- اسمع يا فيليب، القتل جريمةٌ يجب على النيابة العامة التحقيق فيها. فإذا لم تفعل النيابة العامة ذلك، بل على العكس حاولت أن تخفي الجريمة، فإن الدولة نفسها تكون انتهكت القانون، أما الذين يستخدمون وسائل غير مشروعة للكشف عن الجريمة فهم المدافعون عن القانون. فإذا ساعدتني ونجحنا في الأمر، فسنكون نحن عندئذٍ اللذين التزمنا بالقانون.

- طيب. سأحاول أن أفعل ذلك، في البداية من حسابك أنت. أعطني كلمة السر الخاصة بك. فإذا انكشف شيء، فستقول عندئذٍ أنك في إجازتك كنت تلعب بالكمبيوتر الخاص بك، أوكي؟

- أوكي.

- هل تأخذ «موس دو شو كولا»؟

- بالتأكيد. لماذا يجب علينا اليوم تحديدًا تغيير عاداتنا؟ كيف حال جويل؟

كان ماتيك يعرف أنه ليس أمامه فرصة لكي يهرب دون أن يترك أثرًا. لقد أصبحوا يعرفون أنه لم يصعد إلى طائرة إسطنبول. وبالتأكيد سوف يفكرون في أنه سافر إلى بولندا، رغم أنهم ألغوا تذكّره إلى وارسو. لن يكون الأمر صعبًا بالنسبة لهم أن يكتشفوا في وقت قصير للغاية أنه في قائمة المسافرين إلى كراكوف. عندما وصل كراكوف، كان يعتقد إذن أنهم وراءه بخطوة واحدة فقط. كان هذا ما تعلمه كأحد جنود المسيح خلال التدريب الأساسي: لا تحاول إطلاقًا ألا تترك وراءك آثارًا- هذا مستحيل. لا تحاول أن تمسح آثارك- لا شيء يجعل مُطارِدك متأكدًا من أنه على الطريق الصحيح مثل عثوره على آثار حاولت أنت أن تمسحها. إذا كنت لا تستطيع أن تتجنب ترك آثار خلفك، فعليك أن تترك المزيد من الآثار! آثار كثيرة، آثار متناقضة! وفي حين ينهمكون هم في تقييم تلك الآثار، تكون قد حققت بعض التقدم. فإذا عادوا من ملاحقة الآثار الخاطئة، تكون قد وسّعت المسافة الفاصلة بينكما.

بالطبع كان يعرف أنهم يعرفون أنه يعرف، ولكن ذلك لا يغير شيئًا من أنهم سيتتبعون الآثار التي يتركها خلفه، ولا يهم ما إذا كانوا يتشككون في الأمر أم يفعلون ذلك بسذاجة.

يعتقد أنه بحاجة إلى ثلاثة أيام لمعرفة ما الخطأ الذي حدث في بروكسل، ولماذا أرادوا إرساله إلى إسطنبول، على خلاف التخطيط

الأصلي. أن يكون متقدماً عنهم بثلاثة أيام، هذا شيء ممكن، هذا أمر روتيني، ثم يرى بعد ذلك ما يمكن فعله.

بعد وصوله إلى مطار كراكوف ذهب إلى الاستعلامات، وطلب منهم أن ينادوا عليه: على السيد ماتيوش أوشفيتسكي الذهاب إلى شباك شركة «كراكوف إكسبريس شاتل باستوتشاك». السيد أوشفيتسكي! السائق المخصص لك ينتظرك عند شباك «إكسبريس شاتل باستوتشاك»! يعرف أن الأشخاص الذين يُنادى عليهم تبقى بياناتهم محفوظة لمدة ثمان وأربعين ساعة. بعد ذلك سار إلى شباك شركة النقل السريع. كان قد حجز التوصيلة إلى المدينة من مطار بروكسل عبر «الميل». إذا تمكنوا من قرصنة بريده الإلكتروني، فسوف يكون لديهم الآن مؤشرا. دفع بطاقة الائتمان. المؤشر الثالث. طلب من السائق أن يقله إلى فندق «أويرويسكي» في شارع «لوبيتش».

في ظهيرة الغد سوف يعرفون ما لم يكن بإمكانه أن يخفيه على أي حال: أنه وصل إلى كراكوف. بعد ذلك بيوم سيعرفون أين سكن. لقد قدم لهم العنوان بنفسه على طبق من فضة، وبذلك وضعهم على طريق خاطئ، وسيجعلهم يسيرون وراء سراب خلال الثلاثة أيام التي يحتاج إليها: أخذ غرفة في الفندق وطلب من موظفة الاستقبال أن ترى متى سيقوم أول قطار إلى وارسو في صباح اليوم التالي. نظرت على لوحة الحروف، وتطلعت إلى الشاشة، ثم هزت رأسها قائلة:

- أتريد حقاً أن تأخذ أول قطار؟ إنه ينطلق في الساعة الرابعة واثنين وخمسين دقيقة، و...

- هذا مبكرٌ جدًّا!

- القطار التالي يقوم ٤١, ٥ ويصل في....

- القطار الذي يليه من فضلك!

- هناك قطار في ٣١, ٦، وآخر في ٤٧, ٧، و...

- قطار ٣١, ٦! متى يصل؟

- في الساعة ٥٤, ٨، والقطار الذي يقوم ٤٧, ٧ يصل في تمام

العاشرة.

- هذا متأخر جدًّا. الوصول ٥٤, ٨ ممتاز. قل لي من فضلك مرة

أخرى: السادسة و...؟

- في الساعة السادسة وإحدى وثلاثين دقيقة. من المحطة الرئيسة،

«كراكوف جوفني».

- جيدٌ جدًّا. هل يمكنك، إذا سمحتي، أن تشتري لي تذكرة

إلكترونية وتطبعينها؟ هنا بطاقة ائتماني. وسأدفع للغرفة أيضًا

الآن حتى أوفر وقتًا في الصباح الباكر.

- *Bardzo zadowolony, panie Oswiecki*، بكل سرور، سيد

أوشفيتسكي.

وضع ماتيك حقيبة الظهر في غرفته بالفندق، ثم كتب على ورق

الرسائل الخاص بالفندق رسالة وضعها في مظروف مع إحدى بطاقتي

الائتمان، ثم كتب العنوان وأغلق المظروف. بعد ذلك غادر الفندق.

بعد ظهر الغد سيكون لديهم ستة خيوط متسقة منطقيًا مع بعضها البعض تشير إلى أنه وصل كراكوف، وواصل رحلته في صباح اليوم التالي إلى وارسو. ولكنه سيبقى في كراكوف. وإلى أن يعرفوا ذلك، سيكون لديه وقت.

تمشى حتى شارع «ستاروفيسلنا»، هناك كان يعرف أحد تلك المحلات المشبوهة التي تباع هواتف محمولة مستعملة. حقًا، المحل لا يزال موجودًا. اشترى تليفون «نوكيا» قديمًا وبدائيًا، وكرتًا مسبق الدفع بمائة زلوتي. نظر ماتيك إلى الفتى الذي فتح التليفون بدبوس مثني ثم وضع الكارت، تأمله كما يتأمل المرء حيوانًا داخل قفص زجاجي، يثير النفور والشفقة في آن واحد. الفتى كله كان صرخة استغاثة، أو صرخة تستجدي الاهتمام، كما كان في الوقت نفسه استعراضًا للعناد والاحتقار. تسريحة شعره الغريبة، من الجانبين حلق شعره تمامًا، شعره الباقي طويل ومنعكش على نحو فني، الخصلات السميكّة الزرقاء والسوداء كانت مثبتة بـ«الجل». كان يرتدي «تي شيرت» أحمر، وعلى الصدر الإصبع الأوسط مشهرًا بحجم كبير. على عضده الأيمن وشم على شكل خُطّاف، وتحت امرأة عارية راكعة، محاطة بسلاسل. الأكثر أهمية من استعراضات القوة الصبيانية هذه كان ساعده الأيسر: دون شك، هذا الفتى يجرح نفسه بانتظام. مجموعة كاملة من الخطوط الحمراء، جروح اندملت حديثًا، أحدثتها على الأرجح أمواس حلاقة. خَبِرَ ماتيك ذلك في معهد إعداد الكهنة. كان يعرف هذا الشعور، عندما تُضخ هرمونات السعادة فتخفف من الألم، يحصل المرء على

تلك الهرمونات بهذه الوفرة عندما يتسبب في إيلام نفسه، عندما ينقل المرء أوجاع الروح إلى جلد ذراعه بموس حلاقة. هرمون الإندورفين وهرمون الأدرينالين. لقد سمع أن النساء يعايشن هذه الخبرة الرائعة في خضم آلام ومعاناة الولادة. إنه تدبير الرب. كانت الخدوش والجروح على الأذرع وعلى البطن شيئًا منتشرًا في المعهد، وفي بعض الأحيان كان شخصان يتبادلان جرح بعضهما البعض، على الظهر، ونادرًا على الأعضاء التناسلية.

ضغط الفتى على أجزاء المحمول إلى استقرت في مكانها وسمع تكة عالية، وضغط على بعض الأزرار، ثم نظر إلى الشاشة، فوجدها تعمل. قال له إنها مناسبة: *Dopasować!* شكره ماتيك:

- *Dziękuję!*

دفع ماتيك ثمانين زلوتي مقابل المحمول، ومائة مقابل البطاقة، ثم تردد، وتظاهر بأنه تذكر فجأة شيئًا. نظر متأملًا في محفظة نقوده، ثم قال: - لدي سؤال، ربما تستطيع مساعدتي!

أخرج ورقة بمائة يورو من المحفظة، ووضعها أمام البائع ويده فوقها.

- هل تعرف ربما أحدًا سيسافر إلى وارسو؟

سد الفتى نظرة إلى يد ماتيك الموضوعة على الأوراق النقدية.

- لا بد أن أسأل. ما الموضوع؟ أتريد السفر مع أحد؟

- لا . رسالة . يمكنه أن يأخذها معه .
- وضع ماتيك مائة يورو أخرى على الطاولة .
- ولماذا لا تذهب إلى البريد؟
- مكاتب البريد أُغلقت منذ نصف ساعة . والرسالة مستعجلة .
- أعتقد أن أخي كان ينوي السفر غدًا إلى وارسو . لديه فتاة هناك .
- لا بد أن أسأله .
- أضاف ماتيك خمسين يورو فوق النقود ، وقال :
- لا بد أن تكون الرسالة هناك في العاشرة على الأكثر .
- لن تفرق معه إذا سافر مبكرًا عن المعتاد .
- سيجب عليه أن ينطلق مبكرًا جدًّا . في السادسة والنصف على الأكثر .
- سيحتاج أيضًا إلى نقودٍ من أجل البنزين .
- ألم يكن يريد أن يسافر على كل حالٍ للقاء فتاته؟
- سحب ماتيك يده من فوق الأوراق النقدية ، وأخرج الرسالة من جيب الجاكييت ، ووضعها على النقود .
- غدًا سأعود إلى هنا في العاشرة صباحًا . إذا حصلت قبلها على SMS تؤكد...
- ورفع جهاز النوكيا عاليًا ، ثم أكمل قائلاً :
- ... وصول الرسالة ، فسوف تحصل على المبلغ نفسه مرة ثانية .

عندئذٍ سيكون لديه ما يكفي من نقود من أجل البنزين، ويستطيع
عندئذٍ أن يزور فتاته ويخرج معها عشرين مرةً. إذا دام الحب
بينهما.

- إنها وفيّة.

- هذا جيدٌ. الوفاء دائماً جيدٌ. العنوان مكتوبٌ على المظروف.

وغادر ماتيك المحل.

تمشى متمهلاً في شارع «ستاروفيسلنا» في اتجاه مركز المدينة، إلى
«رينيك جوفني»، السوق الرئيسة. إن جمال وعظمة هذه الميدان الرحب
الذي بُني في العصور الوسطى يمسان قلبه مجدداً في كل مرة يزور فيها
المدينة. كانت القصور تؤطر هذا الميدان الضخم المربع، ولم يكسر
هذه السيميترية الصارمة إلا كنيسة العذراء مريم التي برزت ببرجها
من واجهة المباني في هذا الجانب من الميدان، وكأنها تتقدمها بخطوة،
وتصدر الميدان، بوقاحة، بفخر، وتعلو على كل شيء، البرجان
مختلفا الارتفاع، في الخرافات القديمة ذكروا سبب ذلك، ماتيك كان
يعرفها بالطبع، ولكنه كان يعتبر تلك الخرافات تفاخراً وثنيّاً. في رأيه
كان واضحاً تماماً أن ثمة سبباً وحيداً لهذا الخروج عن السيميترية
والهارمونية: ليس بمقدور البشر بناء شيء كامل تام، حتى عند بناء بيت
الرب، فالكمال للرب وحده، ولخطته في الخلق. يد الإنسان عاجزة
عن الإتيان بالكمال الذي يمكن قياسه بكمال الرب، ولا حتى إذا اعتقد
الإنسان أنه بذلك يمجّد الرب أعظم تمجيد. كنيسة العذراء مريم التي
تصدر السوق، وكأنها تقف في الطريق، وتقف أيضاً في طريق البشر

الذين يريدون أن يقضوا أعمالهم، بل وتدوس على أصابع أقدامهم بشكل رمزي، وتنتصب عاليًا كي تمسك بالنجوم، أحد البرجين قصير لا يصل إليها، في حين أن الآخر قريب من السماء، تعبير عن الطموح البشري الذي ينمو، لكنه يفشل في أن يصل بشيء إلى الكمال.. هذه الكنيسة كانت في عيني ماتيك هي التعبير الأكثر مغزى عن العلاقة بين البشر والرب. وهي بذلك تختلف تمامًا عن «نوتردام».. قبل عام كان لدى ماتيك تكليف في باريس. وبالطبع أراد زيارة كاتدرائية «نوتر دام»، وبالطبع عندما وقف أمامها، أُعجب بها في البداية. ولكن.. ماذا؟ عندئذ فهم الأمر. هذه الروح محدودة الأفق، المتفاخرة بذاتها، وهي في الحقيقة ليست إلا روحًا منتفخة، هذه الروح التي وثقت في أن القواعد الهندسية، المطبقة بمقاييس ضخمة، يمكنها أن تعكس الهارمونية الإلهية للكون، هذه الروح أربكته، لأنه شعر بأنها تجديف على الله. هذا بالتأكيد هو السبب في أن الرب راح يشاهد بلا مبالاة باردة الفيلسوف المُهرطق أبيلار وهو يرتكب الرذيلة مع إلواز، ابنة أخت الشماس، على مذبح هذه الكاتدرائية. أصغى ماتيك عندما حكّت مرشدة سياحية في الكنيسة، أمام المذبح، هذه الحكاية لمجموعة سياح إنجليز لم يتوقفوا عن الضحك بصيانية خلال ذلك: وهنا، على هذا المذبح، *Ladies and Gentlemen*، حدث ذلك، هنا فضّ ييار أبيلار، الشاب الذي كان يعد أطروحة الدكتوراه في الفلسفة، بكارة حبه الكبير إلواز، ابنة أخت شماس هذه الكاتدرائية. هذه الحكاية التي رويت كثيرًا، وتغنى بها كثيرون، أبيلا وإلواز، هنا كان مذبح حبهما! كان ماتيك يرى أن قرار

البابا بأن يُخصى أبيلار قرارًا صائبًا وعادلاً تمامًا، بل يكاد يكون مخفّفًا، ولكن حتى هذه العقوبة، هكذا فكر ماتيك، التي نُفذت فعلاً كما تروي المرشدة السياحية، لم تستطع أن تمحو عار تدنيس بيت الرب هذا الذي بقي مدنّسًا. هذا ما شعر به. كنيسة السيدة العذراء هنا في كراكوف مختلفة كل الاختلاف. رفع بصره إليها، كانت الساعة قد بلغت السابعة مساءً، وكما يحدث على رأس كل ساعة بدأت فرقة البرج لموسيقى آلات النفخ في كراكوف في العزف، وارتفع صوت البوق محذّرًا من اقتراب الأعداء، ثم انتهى التحذير فجأةً، وذلك تذكّارًا لعازف البوق الذي أصابه سهم في حلقه خلال الهجوم الذي شنه التتار في عام ١٢٤١، فخرّ صريعًا قبل أن يتم النفخ في آلهة لإتمام الجملة الموسيقية. تطلع ماتيك إلى أعلى باحثًا عن البرج الشرقي حيث ينبغي أن يقف عند أحد الشبابيك نافخ البوق، غير أنه لم يستطع رؤيته، ففي تلك اللحظة انقطع العزف.

لم يدخل الكنيسة. لا يستطيع الصلاة وسط هذا الفيض من بريق آلات تصوير السياح التي لا تُحصى. استدار، وعبر الميدان، مارًا بالصالات التي كانت تباع الأقمشة قديمًا. لا يمل النظر إلى هذا المبنى، لكنه كان يعرف أيضًا أن عليه ألا يسدد نظرات متفحصة تبالغ في التفحص. كانت المحلات ذات الواجهات الجميلة تباع بطاقات السياحة وعليها صورة هذه المحال الجميلة القديمة قبل أن تتحول المحال نفسها إلى بيع البطاقات السياحية والتذكارات الرخيصة. كانت المطاعم تدعو الزبائن وتعدّهم بأطباق من المطبخ البولندي التقليدي،

في حين أنها لا تلتزم بأي تقاليد سوى الخدمة السريعة السيئة للسياح. بجانب الكنيسة، حيث كانت تنهض في الماضي المكتبة الكبيرة التابعة للدولة، رأى المحل الفخم التابع لسلسلة محلات «زارا» للموضة. بإمكان السياح أن يشتروا في صالات بيع الأقمشة سابقًا تذكارات لمدينة كراكوف القديمة اليهودية، بطاقات بريدية بها صور قديمة، وأقراصا مدمجة عليها موسيقى يهودية تقليدية، كما كان بمقدور السياح أيضًا أن يشتروا رسومًا كاريكاتورية سخيفة تصور يهودًا بأسلوب مجلة «شتورمر» المعادية للسامية، مثلًا منحوتات خشبية تصور اليهودي الجشع وفي يده كيس النقود أو العملات الذهبية.

غادر الميدان وانعطف إلى شارع «جرودشكا»؛ لأنه كان يحب في الماضي أن يشتري على ناصيته ذلك الخبز البولندي الحلو المصنوع من الأرز، المحل يبيع «البورجر» الآن ويُدعى *Quality Burger*. واصل سيره في الشارع حتى آخره، ثم تابع سيره، ومشى، ومشى مخترقًا شارع «سترادوم»، وواصل السير، صلاته الآن هي إيقاع الخطوات وصوت التنفس المنتظم، وواصل السير، إلى أن وصل إلى «باولينسكا»، كان يعرف مطعمًا صغيرًا هناك، «كوخنيا آداما»، حيث أراد أن يتناول طعامه. هنا يُقدم أفضل «بيجوس» في المدينة، وحتى لو كانت هناك مائة وصفة مختلفة لإعداد هذه البيخة، من الممكن النظر إليها باعتبارها وصفات رسمية، فإن ماتيك لم يكن يشعر بالطعم الحقيقي لهذا الطبق الشهير إلا هنا، على بعد ناصيتين من الطريق المزدهم بالسياح. هذا الطبق لا يجوز مطلقًا تقديمه مباشرةً بعد طهيهِ، فهو لا يكتسب مذاقه الطيب إلا عندما

يسخن عبر أيام مرة بعد أخرى. في مطعم «آدم» كانت قدرة «البيجوس» تظل على الموقد على الأقل لمدة أسبوع. وهكذا كان دهن الخنزير يلين ويختلط دسمه ببطء مع الكرب، كما تطلق قرون الشطة الحمراء نكهتها الكاملة، أما مكعبات اللحم فتتهزئ بشكلٍ رائعٍ، ومع ذلك: هذه الكلمات مجرد دندنة، كما أن قوافي الأشعار التي تتغنى بـ«بيجوس آداما» ليست سوى مصادفة.. المعدة وحدها ستفهم «البيجوس».

تناول ماتيك طعامه صامتًا، بالطبع، فقد كان وحده، لكنه كان يأكل دائمًا، وكأن عليه الالتزام بحظر الكلام خلال أوقات الطعام، حتى إذا كان يأكل بمفرده. صلى صلاة المائدة برأس منكسة، غمغمة قصيرة دون صوت تقريبًا، ثم تناول الطعام صامتًا. ولكن رأسه ازدحم بالأفكار في ذلك المساء، وتداخلت الأصوات فيه. سمع أمه التي حطمت ثقته فيها -الثقة بأنها تسبغ عليه الحماية والرعاية- وذلك عندما أبعدته عنها لكي تحميه، ووضعت في أحد الأقبية التي كانت تخلو من كل هذا، تخلو من هذا البخار السعيد المتصاعد في مطبخ أم مُحبّة ومبتسمة. تصاعد البخار أمامه من طبق «البيجوس»، وسمع نفسه وهو يستفيض في التحدث مع أمه أثناء تناول الطعام، «البيجوس» أو «الجلوباكي»، ورق الكرب المحشو باللحم المفروم، كان يحكي لها خيالات بطولية، لا يعرف أين سمعها، هذه الخرافات التي كان يرويها بانفعال، وهي تصني إليه مبتسمة، ثم تقول: لا تنس الأكل! آنذاك لم يكن يعرف أنها تحمل سلاحًا تحت التنورة، مسدس الأب المتوفي. أين الأب؟ لم يدرك غيابه طالما كانت تأخذ في أحضانها. لكنها فتحت ذراعيها وسلمته، في يد الرجال

القديسين الذين كان يطلق عليهم «آباء»، وفجأة أصبح له إخوة، في قبو صعد منه كأحد جنود المسيح بعد سنوات من الزهد، لكي يدافع عن وطن لم يعيش فيه أبدًا. ومن عاش في الوطن أصلًا؟ لا الجدد، ولا الأب. أما هو فهُجّر في الوقت الذي كان يريد فيه أن يدخل الوطن، من مدخل خلفي، من الباب الذي أغلقته أمه فجأة في وجهه. وسمع صوت الأب بريور الذي راح يشرح له، بتفهم وابتسامة تقطر دهنًا من «البيجوس»، أنه -ماتيوش، ماتيك العزيز- لم يتم اختياره للرئاسة قسًا، بل لكي يكون أحد جنود المسيح. كان مطيعًا، كان دائمًا مطيعًا، بداية لأنه كان يثق بالعالم، ثم لأنه تدرب على معنى الطاعة وعقلانيته، والآن وجد نفسه في مأزق، ولم يكن يعرف لماذا، غير أنه لم يشك في أنهم نصبوا له فخًا. سمع أمه، سمع الأب بريور، سمع أصواتًا، مبهمّة، غير مفهومّة، أصوات أناس لا يعرفهم، لكنهم كانوا يتحدثون عنه مثلما يتحدث المرء عن رقعة شطرنج. صاح باللاتينية: الصمت! ثم كرر الكلمة: *Silentium!*، صاح دون صوت، في رأسه فحسب. كان يريد أن يتناول طعامه صامتًا. أخذ شهيقًا عميقًا وتنهد، استقام جذعه، ثم ألقي نظرة إلى النادلة في الناحية الأخرى. كانت تقف وتدخن بجانب لافتة تقول «التدخين ممنوع».

رجع إلى الفندق سيرًا على قدميه، وأدى تمارينه البدنية في غرفته، ثم استلقى لينام.

عندما غادر الفندق في السادسة صباحًا، كانت تقف أمام الفندق الباصات السياحية التي تطوف بمعالم المدينة، «أوشفيتس. أفضل سعر!».

سار إلى حي «كاجيميرج»، وتناول فطورًا محترمًا في مطعم «روبنشتاين»، ثم اتصل بصديقه القديم «فويتشخ» الذي يعرفه منذ أيام الدراسة في المعهد، والذي حصل من الإخوة في بوزنان على الاسم الرسولي «سمعان البناء». غدا الآن كاهنًا في كنيسة دير أوغسطينوس التابعة لكنيسة سانت كاتارينا في كراكوف. كان ماتيك يعرفه جدول أعماله اليومي، لا بد أن القداس في كنيسة الدير قد انتهى، ويمكن الاتصال به من الآن حتى موعد «صلاة الساعة الثالثة».

- ماتيوش، أخي! هل أنت في كراكوف؟ كيف حالك؟

- نعم، أنا في كراكوف. أنا بخير. لا أزال أتذكر بسرور كيف كنا نتمشى في حدائق الدير ونتبادل الحديث. لا بد أن نتبادل الحديث.

- آه، الحدائق. لقد أجرتها، تُستخدم الآن موقفًا للسيارات. أمرٌ محزنٌ، لكنه مربحٌ. تجديد الكنيسة يبتلع أموالًا طائلةً. نعم، دعنا نتبادل الحديث، بعد صلاة الساعة التاسعة؟

- معي حقيقةً ظهر.

- أهلاً وسهلاً بك.

تلقت ماتيك حوله. لا أحد ينظر في اتجاهه. أراح كُم قميصه قليلاً، ومسح السكين بمنديل المائدة، ثم خدش ساعده الأيسر بضغطة خفيفة. السكين اللعين ثلم، مثل كل سكاكين المطاعم، أبعد قليلاً، ثم مرَّ على

بشرته بحافة السكين الحادة مرةً أخرى وبضغط أقوى، عندئذٍ انفتحت البشرة أخيراً عن شقٍّ صغيرٍ، وتدفق الدم، أغمض عينيه، وأبعد السكين.

في التاسعة والنصف جاءته على الهاتف المحمول رسالةٌ قصيرةٌ: «سأنقل تحياتك بكل سرور!».

لقد حصل الأخ توماش في وارسو على الرسالة. سيذهب توماش لتناول طعام الغداء، وسيدفع بطاقة ائتمان ماتيك. بعد ذلك سيذهب إلى «بوتوسكيخ»، إلى المحل الكبير المتخصص في الحقائق والشنط، وسيشتري بطاقة الائتمان حقيقيةً، ثم يشتري من المحطة بطاقة الائتمان تذكرة قطار إلى بودابست. سيتوصلون إلى ذلك. عندها سيقطع توماش بطاقة الائتمان ويرميها. قدّر ماتيك بأنه سيكون قد سبقهم باثنتين وسبعين ساعة إلى أن يفحصوا آثاره.

سار إلى دورة المياه، وترك الماء البارد ينساب على ساعده لفترةٍ طويلةٍ، حتى شعر بأن الخدر يسري في ذراعه، عندئذٍ انصرف. مشى إلى محل الهواتف المحمولة في شارع «ستاروفيسلنا». كان الفتى يرتدي «تي شيرت» اليوم السابق نفسه، وضع ماتيك النقود على طاولة البيع. كان يومًا دافئًا ومشمسًا على غير العادة في هذا الفصل من العام.

تجول متمهلاً في شوارع المدينة، في «أوليتسا يوزيفا»، حيث كانت المجموعات السياحية تسير خلف لافتاتٍ أو راياتٍ مرفوعةٍ عاليةٍ، وفي «أوليتسا بوجيكو تشاوا» انعطف يسارًا، هناك انتصبت كنيسة «كوروبوس

كريستي»، أول كنيسة كاثوليكية تقابل المرء بعد الحي اليهودي. دخلها، كما هو واضح كان القديس الصباحي قد انتهى لتوه. نهض المصلون من المقاعد، وساروا في اتجاه الباب، وقف ماتيك هناك كصخرة راسخة، على يمينه ويساره كان الناس يمرون به في طريقهم إلى الخارج، إلى أن استدار خارجاً معهم من الكنيسة، وكأنه جزءٌ من المجموعة، ثم سار راجعاً إلى «يوزيفا»، بوابة أحد المنازل كانت مفتوحةً مانحةً نظرة إلى فناء جميل مخبئ، خلف ممر آيل للسقوط مليء بأكياس الزباله، وقف أحد السياح هناك وصور المنظر بهاتفه الذكي، صيحات المرشدة السياحية: *This way, please!* قالت امرأة:

- ... would be a perfect hideaway!

فضحك رجل قائلاً: لن يمكنك الهرب!

واصلت المجموعة سيرها في اتجاه كنيسة سانت كاتارينا، حدائق خلف البوابات ذات القضبان الحديدية، مواقف سيارات في الحدائق، شرع شابٌ في العدو، عدا في اتجاه امرأة، احتضنا بعضهما بعضاً، وسارا بتؤدةٍ يداً في يدٍ، مرّاً بواجهة الدير المصمتة الصامتة، ثم عبرا الميدان الذي يضم «المذبح الألفي» الذي يتكون من مجموعة من سبعة تماثيل برونزية، تماثيل قديسين بحجم أكبر من الحجم الطبيعي، رجال الكنيسة. وقفت امرأة ألمانية أمام التماثيل قائلة:

- انظر هنا، هذا، هذا هو البابا البولندي!

رد رجلٌ:

- نعم، هذا هو فويتيل!

فيقول ثالث:

- لا، هنا مكتوب: القديس ستانيسواف (١٠٣٠ - ١٠٧٩).

يمر قساوسة، وينعطفون داخلين كنيسة القديس أوغستينوس، بعد ذلك جاءت امرأتان تحملان أكياسًا ثقيلةً، وكأنهما يعدوان خلف القسس، وبسرعة اختفتا في المنعطف. في تلك الأثناء كانت المجموعة السياحية قد واصلت سيرها، أما مجموعة التماثيل فكانت تنظر بأعينٍ ميّنةٍ إلى الساحة الخالية.

يوشك الاتحاد على الانهيار. إنه يمرّ بأكبر أزمة منذ تأسيسه. منذ سنوات عديدة وفلوريان سوسمان يعمل من أجل مشروع الاتحاد الأوروبي لمنتجي لحم الخنزير، وعن قناعة عميقة، وكان بالطبع مستعدًا أيضًا لأن يتولى المسؤولية. لا يجدر بالإنسان أن يشكو، عليه أن يتحمل المسؤولية، كان هذا هو شعار والده أيضًا. من يشيد شركة، يخاطر. كيف يمكن أن يقوم المرء بتقدير المخاطر وحسابها على نحو مسؤول؟ لا يزال فلوريان يتذكر جيدًا جلوس والديه إلى المائدة طويلاً بعد العشاء، وكيف كان كل منهما يقارن، بوجه جاد، بين الفرص والمخاطر التي يحملها الاستثمار بالقروض في وحدة للذبح الآلي. الديون قد تعني نهايتهما، ولكن الشعور بالجنين أمام هذه الخطوة قد يعني بالفعل نهاية مزرعتهم. ثمة فرصة مليئة بالمخاطر، ولكن ليس هناك فرصة آمنة. كان الوالدان يجلسان هناك ويحسبان، وبصوغان

النقاط المعارضة لهذه الخطوة، ولكن كان لديهما أيضًا حجج ترد على النقاط المعارضة وتتغلب عليها، كانا يضعان الشكوك على كفة، وعلى الكفة الأخرى للميزان يضعان الآمال، كلا، شكوك مقابل شكوك. كان فلوريان يصني إليهما، كان غريبًا أنهما لم يرسلاه لينام، ربما كان الأب يرى أن على ولي العهد أن يسمع ذلك كله، في حين كان مارتن، الأصغر، يضطجع على الكنبه ويقرأ حتى يغلبه النوم، فتحمله الأم إلى فراشه - كلا، لم يكن الأمر بهذه الرقة-، كانت تدفع به دفعًا إلى سريره. «آلهة ومقابر وعلماء»^(١٤). اندهش فلوريان، بل وتأثر لأنه تذكر الآن عنوان الكتاب الذي كان أخوه يقرؤه مرة بعد مرة، في حين أنه -فلوريان- كان يجلس هناك ويصني لما يقوله الوالدان حول ما هو بمقدورهما، وما يجب عليهما أن يتحملا مسؤوليته. آنذاك. في تلك الأمسيات الطويلة.

قاد فلوريان سيارته ببطء. لديه وقت. عليه أن يكون في بودابست في المساء، والوقت الآن بعد الظهر بقليل، ولا يتبقى سوى عشرين كيلو مترًا ليصل نيكلسدورف على الحدود النمساوية المجرية. كأنه كان غائبًا عن الواقع؛ كان قد شغل جهاز مثبت السرعة في سيارته، وراح يستمع إلى موسيقى خافتة من راديو السيارة، برنامج محلي يبث أغاني شعبية

(١٤) كتاب مشهور باللغة الألمانية يدور حول علم الآثار وأهم الاكتشافات الأثرية في العالم، كتبه الصحفي الألماني كورت فيلهلم ماريك في عام ١٩٤٩، ونُشر باسم مستعار وهو س. ف. سيرام. وبالكتاب فصل ممتع عن الأهرام وحملة نابوليون واكتشاف حجر رشيد، وما أعقب ذلك من جهود جان فرانسوا شامبليون لفك رموز اللغة المصرية القديمة، ثم اكتشاف مقبرة توت عنخ آمون في عام ١٩٢٢ على يد الأثري الأمريكي هوارد كارتير. (المترجم).

مشهورة، وبين الحين والآخر تقطعها الإعلانات باللهجة المحلية.

أغلق فلوريان الراديو.

في ذلك الوقت، عندما طَوَّر الأب المزرعة الصغيرة غير المجزية لتربية الخنازير، وجعل منها شركة لتسمين الخنازير وذبحها، وأن ينشط في جماعات «اللوبي» أيضًا. بسرعةٍ تولى مناصب في الاتحادات المتخصصة، وفي رابطة الفلاحين النمساويين. على المرء ألا ينتظر ما يفعله الآخرون لنا، على المرء أن يفعل بنفسه شيئًا، هكذا كان يقول. كان يشارك في الحديث، لكنه لم يستطع أن يحسِّن من ظروف عمل المجال، ناهيك عن أن يوقف انهيار الأسعار. وهكذا راهن على الكم، حتى يستطيع أن يغطي مصاريفه مع هامش الربح الآخذ في التناقص. زادت الاستثمارات الأخرى من عبء الديون، ولكنها رفعت أيضًا حجم المبيعات، وهو ما زاد من ثقل الأب في الهيئات التي شارك فيها. تساءل فلوريان ما إذا كان الأب -هذا الرجل الذي تزايدت وحاساسيته يوميًا بعد يوم- قد سأل نفسه مرةً في ساعة صفاء ما إذا كان خط الرجعة لا يزال ممكنًا، الرجوع إلى النقطة التي توازنت فيها الضرورة مع الحرية، حيث كان الجهد والاجتهاد يُكافئ بالرضى والأمان. من المرجح أنه لم يفعل. هناك طرق تسير في اتجاه الذهاب فحسب، دون إمكانية الدوران والعودة. مثل هذا الطريق السريع المخصص للسيارات، الذي ينساب فوقه بسرعة، أما إذا مر به في هذا الطريق شيءٌ من الاتجاه العكسي، فلا بد أن يكون سائقًا مختلًا، خطرًا على حياة الآخرين.

وفجأةً توجَّب على فلوريان أن يلبس حذاء والده ويواصل السير

في طريقه. عليه أن يتولى المسؤولية. اكتشف أن الحذاء ضيقٌ جدًا. هذا أمر غير مألوف لدى أبناء الألباء الأقوياء. ولكن بسرعة فائقة اتضح له أنه يحتاج إلى ديون أكبر حتى ينقذ ما شيده الأب، ديون تزيد بعدة أصفار عما اقترضه والده. كانت النمسا قد انضمت إلى الاتحاد الأوروبي، ولمدة طويلة لم تفهم جماعات المصالح القومية أنها وقعت في الفخ. كانت تقوم بحماية السوق المحلي الذي لم يعد له وجود إلا في رؤوس قدامى الموظفين، وارتاحت تلك الجماعات لنظام الدعم السائد والذي لم يؤدِّ إلى أسعار أكثر عدالة، بل -ومع تنامي البيروقراطية- إلى التبعية كمن يتسول الصدقات، وهي صدقات لم تكن حتى مضمونة على المدى المتوسط، كما لم يكن هناك خطة لما سيحدث بعد أن تنتهي اتفاقات المرحلة الانتقالية التي تم التوصل إليها خلال مفاوضات الانضمام إلى الاتحاد. تذكر فلوريان جلسة في غرفة الاقتصاد النمساوي في فيينا كان موضوعها وضع استراتيجيات لإنتاج لحم الخنزير. كان شابًا آنذاك، وكانت ثقته في نفسه لا تزال تنقصه كثيرًا. حذاء الأب يضغط على قدمه. اندهش من رد الفعل العدواني من جانب قدامى الموظفين عندما كان يطرح أسئلة.. وكأنه لا يطرح أسئلة، بل يضع كل شيء موضع تساؤل، وخاصة فيما يتعلق بهم هم، سادة العالم الآفل، أمراء أطلانتس.

كان ساذجًا، ولكنه أدرك أهم درس: إنه بحاجة إلى حذاء أكبر، ففي الظروف الجديدة في أوروبا لن يتقدم كثيرًا إذا اقتصر جهده على روابط المصالح القومية. آنذاك شرع في العمل مع الاتحاد الأوروبي لمنتجي لحم الخنزير EPP. وها هو الآن رئيسه منذ عام.

تجاوزته سيارة شرطة بالضوء الأزرق ونفير التحذير، ثم تبعها سيارة ثانية. وفي إثرهما سيارة إسعاف.

مرة في العام كان ممثلو الاتحاد الأوروبي لمنتجي لحم الخنزير EPP يتقابلون في إحدى المدن الأوروبية لحضور اجتماع الجمعية العمومية الذي يستمر ثلاثة أيام، وخلالها يتم انتخاب الرئيس أو تجديد فترة عمل الرئيس الحالي. كانوا يتبادلون الخبرات، ويتناقشون حول التناقضات بين التوجيهات الأوروبية واللوائح القومية الخاصة، ثم يعدون قائمة بمطالبهم الموجهة إلى الحكومات الأوروبية والمفوضية، ويعاينون مزرعة محلية. ثمة موضوع محوري في كل عام- في هذه المرة: «تصدير الخنازير خارج أوروبا».

في هذا العام وجه الفرع المجري الدعوة لعقد المؤتمر السنوي. أحدث ذلك لغطاً وفجر مقاومة في مرحلة التحضير التنظيمي للمؤتمر. للأمر أسباب شكلية وأخرى سياسية. وفقاً للوائح EPP كان أحد ممثلي الدولة الداعية ينضم إلى المجلس الرئاسي للاتحاد. لكن سمعة المجر السياسية كانت سيئة؛ لأن الحكومة المجرية قامت بكل برود بتأميم ممتلكات مربّي الخنازير الأوروبيين الذي استثمروا في المجر وشاركوا في شركات ومزارع مجرية بعد سقوط الكتلة الشرقية، ولأنها حتى الآن تجاهلت تمامًا الرسائل التحذيرية التي أرسلتها المفوضية الأوروبية مطالبة فيها الحكومة المجرية بإبداء رأيها بشأن خرق القانون الأوروبي. في نهاية المطاف طالبت المفوضية بأن تراجع الحكومة المجرية في خلال مهلة معينة عن هذه الانتهاكات. وهكذا تكونت كتلة

تطالب بمقاطعة المجر. كان الهولنديون والألمان هم الأعلى صوتًا من بين من طالبوا بنقل المؤتمر السنوي إلى مدينة أوروبية أخرى، وتم اقتراح مدريد لأن الخنازير الإسبانية من سيرانو وإيبريكو كانت تتمتع بطلب متزايد. وكان على رأس من عارض هذا الموقف النمساويون والإيطاليون والرومانيون، وتبنوا الرأي القائل بأن المؤتمر لا بد من عقده في المجر الآن تحديدًا لإرسال رسالة واضحة تفيد بأن اتحاد مربّي الخنازير يريد أن يدافع عن مصالح أعضائه في المجر نفسها.

بدأ المطر يهطل. ألقى فلوريان سوسمان نظرة على شاشة نظام الملاحة بسيارته: لم يتبق سوى عشرة كيلو مترات حتى الحدود. مرة أخرى عويل سيارات، سيارة إسعاف أخرى مرقت بجانبه.

كرئيس للاتحاد كان فلوريان مشغولًا تمامًا، حتى يحول دول انهيار الرابطة ولإيجاد حل وسط بين الأطراف. كان الحل الوسط هشًا، ولم يكن في الحقيقة غير إعلان نوايا يجب مناقشته في المؤتمر أولًا. على أي حال، كان حلًا وسطًا، وهكذا كان يمكن عقد المؤتمر في بودابست كما كان مخططًا. فرع الاتحاد في المجر أعلن كمضيف استعداداته للتوقيع على رسالة احتجاج ترسل إلى الحكومة المجرية.. فلننتظر ونرى ما إذا كان سيفعل ذلك فعلاً؛ فكبّار منتجي لحم الخنزير في المجر استفادوا من إعادة تأميم شركاتهم ومصانعهم، من ناحية أخرى: لم يعد رأس المال كافيًا في تلك الشركات، كما أن تصدير خنازير «المانجالييتسا» المجرية قد تراجع بنحو ٢٥ في المائة. ولكن هذا هو الموضوع الأساسي في مؤتمر هذا العام.

لم يكن فلوريان سوسمان متخوفاً من عدم إعادة انتخابه. لقد نجح على كل حال في التوصل إلى هذا الحل الوسطي المؤقت، وهو ما لاقي تقديرًا عامًا، كما أنه لا يوجد حتى الآن مرشح منافس له.

عويل سيارات وضوء أزرق مرة أخرى. الوميض في المرأة الخلفية ارتعش على الزجاج الأمامي الذي أصبح متسخًا بعض الشيء. شغل مروحة التهوية، ومرقت سيارتا شرطة بجانبه.

كان متأكدًا من أنهم سيعيدون انتخابه، لكنه تساءل ما إذا كان لا يزال يريد ذلك. لم يعد ساذجًا. على العكس: لقد كاد يصبح شخصًا براجماتيًا على شاكلة أولئك الذين كان يحقنهم في الماضي دائمًا؛ شخصًا لا يفعل إلا ما هو ممكن، لكنه لا يستطيع أن يفرض على الآخرين ما هو ضروري. يسير تجاه هاوية، بإمكانه أن يحاول الفرملة، لكنه لن يستطيع تحويل عجلة القيادة في اتجاه آخر.

في الحقيقة لم يكن ثمة حل للانقسامات داخل الاتحاد، هو لا يرى على كل حال أي حل: في هذا المؤتمر في بودابست كان موقف الاتحاد والمجر واحدًا في معارضة المفوضية الأوروبية، لأنها لا تستطيع أو لا تريد أن تتفاوض مع الصين من أجل رفع نسبة تصدير الخنازير، وفي الوقت نفسه يتفق الاتحاد مع المفوضية الأوروبية في معارضة المجرين؛ لأنهم ينتهكون القانون الأوروبي.

إذا انهار اتحاد المنتجين الأوروبيين للحم الخنزير، فما هو معنى تحمل المسؤولية، وكم هو عبثي ألا تريد كل ذلك، ولكنك تقول: سأتحمل المسؤولية. لماذا؟ لكي يكون المرء دمية تحركها الخبرة

لإثبات أن الناس ذوي المصالح المشتركة يمكنها أن تنظم نفسها،
ثم خوض صراعات مصالح قاسية في هذه الرابطة إلى أن تنحل كل
الروابط بينهم؟

عندئذ رأى أناسًا أمامه على الطريق السريع. مشاة! على الطريق
السريع! يأتون من الناحية الأخرى! مشاؤون مختلون! رجال ونساء
وأطفال. منحنو الظهر تحت غطاء الرأس المزودة به ستراتهم الواقية
من المطر، أو حاملين أكياسًا بلاستيكية على الرأس، بعضهم يحمل
أغطية على الكتفين أو فوق الرأس، والبعض الآخر يحمل شنطًا، أو
يجرون حقائب. مساحات السيارات تتحرك يمينًا ويسارًا، وكأنها أيد
تريد محو تلك الصور، محوها، عندئذ سمع صوت من جهاز الملاحة
بسيارته يقول: «استدِرْ لدى أول فرصة من فضلك! استدِرْ لدى أول
فرصة من فضلك!»، هذا جنون! إنه يسير على طريق السيارات السريع،
وجهاز الملاحة يقول إن عليه الاستدارة، ومشاة يأتون من الناحية
الأخرى. أضواء مصباح التحذير، وتحرك بسرعة منخفضة للغاية، عندئذ
رأى الضوء الأزرق مجددًا، وسيارة شرطة على الشريط المخصص
للسيارات العطلانة، شرطيون يحركون عصيًا مضيئةً. توقف. يتزايد
عدد الناس الذين يقتربون تحت المطر المنهمر من ضوء الكشافات.
كانوا كثيرًا... عشرات... مئات.

لم يمرّ دافيد دو فريند في حياته أبدًا، أو الأفضل أن نقول في حياته
بعد النجاة، بهذه الخبرة: أن شيئًا ما أصبح أفضل، أو أن أحدًا ساعده،

ناهيك عن أن ينقذه، إذا أظهر دو فريند لطفًا فائقًا. كما أنه لم يكن يتوقع اللطف من أي أحد. التهذب، نعم. التهذب حضارة. سلوك قويم. ينبغي عليه، بل هو يريد أن يتمسك بذلك. ولكن لماذا يجب عليه عندما يقول «سعيد جدًا بمعرفتك» أن يتصرف وكأنه حقًا سعيد جدًا؟

بإمكانه أن يظهر مشاعره إذا شعر بها حقًا. الحب، هذا الإيثار الذي يُظهر أجمل ما في المرء، والعرفان بالجميل، عرفانٌ عميقٌ ووجوديٌّ، حتى إنه قادر على استبدال الثقة المفقودة بالله. كما أنه تعلم أن يخفي مشاعره، الخوف أو الشعور بالخواء، مشاعر لا يستطيع التخلص منها، ولكنه، على كل حال، لا يظهرها. تعلم أن يكون متشككًا على نحو حساس للغاية لدرجة أن هذه السمة لا تلفت الأنظار، بل تضيء له الطريق مثل أجهزة الرؤية الليلية. ولكن اللطف، لا سيما اللطف الهجومي مع الأغراب، لم يكن في رأيه سوى تمثيل مبتذل وغريب، يشبه عينا زجاجة تنظر بلطف بالغ.

عندما غادر شقته ورأى الرجل الذي كان بصدد فتح باب الشقة المجاورة، حياه دو فريند مومئًا بتهذب: *Goedemiddag*.

Bonjour، رد الرجل، وسار على الفور خطوتين في اتجاهه، فسطع شعاع من مصباح السقف على شعره الأبيض كالثلج، ولمع كأنه هالة قديس. «بونجور مسيو».

أوما دافيد دو فريند مرة ثانية، وأراد مواصلة طريقه بسرعة، ثم تطلع متعجبًا إلى هذا الرجل الذي لمع في ضوء كشاف السقف، نظر إليه ثانية واحدة فحسب، لكنها كانت أطول مما ينبغي. كان يرتدي معطفًا واقياً

من المطر يتغير لونه عند أقل حركة من الأخضر الفاتح إلى «البيج»،
ووجهه يلمع وكأنه قد وضع عليه لتوه كريماً.

رحب به الرجل قائلاً:

- *Bonjour, Monsieur, permettez-moi de me présenter.*

ثم عرفه بنفسه، رومان بولانجيه. مشرق الوجه مديده إلى دو فريند،
وكان هذه اللحظة هي أسعد لحظات حياته.

صافحه دو فريند مصافحة رسمية، وذكر اسمه، ثم قال بالهولندية
«تشرفنا»، ثم صحح نفسه قائلاً بالفرنسية: *Enchanté!*. لا زال كل شيء في
إطار التهذب البالغ، ولكنه خشي أن يتحول ذلك إلى حديث لطيف مزعج.
- أوه، أنت تتحدث الفرنسية.

كان بإمكانه أن يقول: للأسف لا، ويعتذر ويواصل سيره، غير أنه
قال: *Oui, Monsieur.*

يجيد عديد من الفلمنك الفرنسية بدرجة معقولة، أما دافيد دو فريند
فيتحدثها بطلاقة. آنذاك، وبعد هروبه من قطار الترحيل، اختبأ عامين
لدى عائلة في إقليم والونيا، في فيلر لا فيل، من الرابعة عشرة حتى
بلغ السادسة عشرة، إلى أن وشى به أحدهم قبل نهاية الحرب بقليل.
أصبحت الفرنسية آنذاك لغته الأم الثانية، البديل عن لغة والديه، وبمعنى
وجودي كانت بالنسبة له لغة الحب. لكنه كرهها في تلك اللحظة عندما
سمع هذا الغريب -ماذا كان اسمه؟- يقول له *Quel bonheur*، ثم
يكرر «يا للسعادة»، ثم يتحدث كالشلال: إنه الجار الجديد، انتقل إلى

هنا اليوم، كم هو جميل أن يتعرف على الفور بجاره، وهو يأمل أن تكون جيرة طيبة، ولكن ليس هناك أفضل من بداية كهذه، يا للحظ أن مسيو دو فريند يتحدث الفرنسية، لقد اكتشف اليوم أن عديدًا من النزلاء لا يتحدثون سوى اللغة الهولندية، حتى من بين العاملين، لقد أقلقه هذا في البداية، أن هناك من العاملين في دار هانسنس لا يتحدثون الفرنسية، أو غير متمكنين منها، كان على إحدى النساء التي تقوم بالرعاية أن تعرفه بقواعد الدار، مدام خوديليفه، اسم لا يُنطق...

- خوديليفه.

- نعم، مسيو، هل تعرفها؟ على كل حال، لم يفهمها، ولكن لحسن الحظ كان ممكنًا أن ترعى أموره سيدة أخرى، مدام جوزفين...

- حظك طيب!

طوال الوقت راح معطف مسيو بولانجيه يغير لونه.

- نعم، مسيو، لطيفة جدًا، وخدمته جدًا، ولكن...

اكتسى وجهه بالخبث، ورفع سبابته قائلاً:

- غير مسموح لأحد بأن يناديها بـ"الأخت الممرضة"، ولكن لديها فعلاً حقٌّ، لسنا هنا في مستشفى، حتى إذا كن يرتدين قبعة على الرأس. هل تعرفها؟

أوماً دافيد دو فريند.

- على كل حال، فهو يشعر بسعادةٍ طاغيةٍ أن يكون لديه جارٌ لطيفٌ جدًا مثله.

سأله ما إذا كان منذ فترة طويلة في الدار، عليه في كل حال أن يحكي له عن خبرته ويعطيه نصائح، ربما لدى تناول الطعام، أو بعد ذلك، أثناء احتسائهما كأس نبيذ.

لم يستطع دافيد دو فريند أن يقابل اقتراحه بابتهاج، وأن يقول: نعم، بالطبع، بكل سرور. راح يبحث عن إجابة مهذبة لا تُلزمه بشيء، في الوقت نفسه شتت انتباهه أن وجه هذا الرجل ذكره بشخص، لكنه لم يدري من. خطا مسيو بولانجيه خطوة صغيرة أخرجته من الحزمة الضوئية المباشرة، فجأة لم يعد شعره ووجهه يلمعان، واكتسب اللون الرمادي، ثم قال له:

– أنا أعطلك!

هل استخدم فعلاً كلمة *arrêter*؟

– معذرة! لن أعطلك أكثر من هذا! سنلتقي بالتأكيد!

عندما دخل دو فريند قاعة الطعام، لاحظ عدم وجود مائدة يستطيع أن يجلس إليها بمفرده. أراد أن يستدير، ويذهب إلى «لا روستيك» – كان قد حصل على بطاقات التخفيض لذلك المطعم –، ولكن السيدة جوزفين فرضت في تلك اللحظة وصايتها عليه: «ها نحن قد وصلنا»، قالتها بصوت عال جداً لدرجة أنه انتفض. دفعته السيدة إلى مائدة يجلس إليها البروفيسور الذي «تعرفنا» عليه، مثلما صاحت جوزفين، أليس كذلك يا سيد دور فريند، في ذلك اليوم الذي وقعت فيه تلك الحادثة الصغيرة، بسبب أشواك السمكة، أليس كذلك، ولكن ليس هناك أي

خطر اليوم، لدينا اليوم «واترزوي» لذيذ. بروفييسور، هل يمكن للسيد
دو فريند أن يجلس معك؟

- كيف حالك؟ هل تشعر بالراحة في الدار؟ وهل لك أقارب يأتون
لزيارتك؟

أجاب دافيد دو فريند بأدب، ولكن باقتضاب بالغ، على الأسئلة
التي حاول بها البروفيسور -ماذا كان اسمه؟- أن يبدأ محادثة معه.
ثم حلت لحظة صمت بينما كانا يتناولان المقبلات، سلطة بالشمر
والبرتقال، أخذ دو فريند يفكر ما إذا كان من عدم التهذب سؤال
البروفيسور مرة أخرى عن اسمه، أي الاعتراف بأنه نسيه مجددًا، بينما
يخاطبه البروفيسور باسمه، قال لنفسه إن من الصائب لو فعل، بدلًا من
أن يبذل جهدًا كبيرًا محرجًا لكي يغطي على لا مبالاته.

لم يظهر البروفيسور أي امتعاض، بل أجاب على السؤال مبتهجًا،
اسمه جيريت رينسنبرينك، ثم أخرج محفظته، واستل منها «كارتا»
باسمه، ثم أزاح الطبق جانبًا ووضع الكارت أمامه، وأضاف: بروفييسور
في جامعة لوفان. وفجأة كان يمسك بقلم جاف في يده، وشطب من
الكارت «الجامعة الكاثوليكية في لوفان». ثم قال إنه أُحيل إلى التقاعد،
وشطب سطرًا من الكارت يذكر صفته: مدير مركز أبحاث التاريخ
السياسي. كانت أبحاثه تتمحور حول تاريخ الحركة القومية، وبصورة
خاصة تاريخ التعاون مع الأعداء في بلجيكا وهولندا خلال الحرب
العالمية الثانية. ماذا يشطب مرة أخرى؟ عنوان البريد الإلكتروني ورقم
التليفون. عقب قائلًا: لم يعد لهما وجود.

بعد ذلك قال: تفضل! وأزاح البطاقة في اتجاه دافيد دو فريند. في تلك اللحظة سُمع صوت مدوّ. سحب ميسيو بولانجيه الباب خلفه إثر دخوله قاعة الطعام بقوة أكثر من اللازم. تطلع دافيد دو فريند ناحية الباب، فرأى إميل بولانجيه يرفه كلتا يديه معتذراً: *Pardon, Messieursdames*, ثم تلفت حوله، ولمح دو فريند، فأسرع إلى مائدته مبتهجا *Puis-je me joindre à vous?*

– رائع أن نواصل حديثنا بمثل هذه السرعة.

جلس، وأوماً للبروفيسور رينسنبرينك. كانت أكثر من إيماءة، كانت انحناءة في وضع الجلوس، ثم قال:

– أنا هو الجديد. هل تسمح لي بأن أعرفك بنفسي؟ اسمي...

انطلق يهدر كالشلال، وفجأة شعر دو فريند بتعب لا يوصف. رُفعت صحنون المقبلات، وعلت قرقرة في القاعة، ثم وضعت على المائدة أطباق الـ «واترزوي»، وعلت قرقرة بعد الأخرى، ثم ساد صمت مفاجئ... كان البروفيسور رينسنبرينك قد قال إنه للأسف لا يتحدث الفرنسية.

– أوه! وميسيو بولانجيه لا يتحدث الهولندية.

طيلة حياته ودو فريند يحب أكلة «واترزوي»، على الأقل لم تكن لديه مشكلة معها، في بعض الأحيان كانت الأكلة تُقدم له، في كانتين المدرسة مثلاً كانوا يقدمون بين الحين والآخر «واترزوي»، وكان دائماً يأكل ما يقدم له. طبعاً كان يفضل عليها لحم الديك المطهو في

النيذ، إذا كان في مطعم وأراد أن يأكل لحم طيور، ولكنه لم يفكر أبدًا في أن يثير مشكلة إذا قُدِّم له طبق «واترزوي». إنه يتقبل ما يقدم له، ويشعر بالعرفان. ألقى نظرةً على قطع اللحم، ثم رفع عينيه ليلاحظ أن البروفيسور رينسنبرينك ومسيو بولانجيه ينظران إليه، بيأس؟ لا حول لهما ولا قوة؟ ولكن ذلك لا علاقة له بالـ«واترزوي»، قال دو فريند لنفسه، هذا الذي فاحت منه رائحة غريبة. هل كان ذلك نوع من التوابل لا يعرفه؟ أم أنها عفونة اللحم؟

- *Vous devez m'aider!*

- لا بد أن تساعدني، مسيو دو فريند. المسيو لا يتحدث الفرنسية، هل تتلطف وترجم لنا؟
أوماً دو فريند.

قال بولانجيه ورينسنبرينك يهز رأسه مجددًا:

- *Mon nom est Romain Boulanger*

ترجم دو فريند إلى الهولندية قائلاً:

- *Son nom est Romain Boulanger*

قال البروفيسور:

- هذه الجملة أفهمها.

- *J'étais journaliste jusqu'à récemment chez Le Soir ...*

لقد تقاعد منذ عشر سنوات، لكنه لا يزال يعمل كاتبًا حرًا، ويكتب بين الحين والآخر مقالات يعلق فيها على الأحداث الجارية. الواحد

لا يستطيع أن يتوقف، السادة يعرفون بالتأكيد أن الإنسان لا يستطيع أن يودع حياته بين يوم وليلة، ما يكتبه ليس مهمًا بالطبع، ولكنه يشعر بالامتنان لأنهم يسمحون له بالكتابة، كما أنه يشعر بالمتعة، حكاية الخنزير الشبح مثلاً، بالتأكيد قرؤوا أو سمعوا عن ذلك، هذا الخنزير الذي... ليس مهمًا...

توقف، وحرك رأسه حركة يطلب بها من دو فريند أن يترجم ما قيل للبروفيسور رينسبرينك.

قال دو فريند:

- *Allors, il a dit qu'il était un journaliste. Retraité.*

- لكنه لا يزال يكتب. عن خنزير.

نظر إليه بولانجيه متعجبًا ومترددًا، ثم أضاف دو فريند بالفرنسية: هذا هو كل شيء.

واصل بولانجيه قائلاً:

- نعم، لو كان يملك مصنعًا للنبيذ، لكان اهتم به بشغف، أو لو كان لديه على الأقل بيت وحديقة، لاقتصر اهتمامه الآن ربما على تقليد الورد والقراءة. ولكنه لم يكن يمتلك سوى شقة، شقة كبيرة جميلة في حي إكسيل، ولكن ماذا بإمكانه أن يفعل فيها، ثم توفيت زوجته، بعدها شعر بالضيق من كل شيء، الشقة، كانت شقة كبيرة، لكنها أشعرته بالضيق، بعد وفاة زوجته لم يعد بإمكانه أن يحيا حياة عادية، أن يواصل حياته اليومية، لم يتبق

أمامه سوى المشي بخطى متثاقلة من هذا الجدار إلى ذلك، ولم يعد بمقدوره أن يدير ذلك...

- نعم؟

- أن أدير ذلك، أصبح كل شيء أكثر مما ينبغي، وفي الوقت نفسه أقل مما ينبغي. هل يفهم السادة، عمومًا لم تعد هذه حياته... سأله البروفيسور بالهولندية عما قاله.

أخذ دو فريند نفسًا عميقًا وكرر ما قاله بولانجيه، وعندما رأى ملامح الدهشة على البروفيسور رينسبرينك، أضاف بأن هذا مفهوم. أن مسيو بولانجيه بعد وفاة زوجته...

قاطعته بولانجيه قائلاً: *Oui, Monsieur!*

ثم أضاف بالفرنسية:

- لكن، أنت، كنتُ أعتقد...

في تلك اللحظة شعر دو فريند بانقباض في الصدر حجب عنه التنفس، في الوقت نفسه شعر بسخونة. كان الخجل حارقًا. لقد أدرك أنه...

لم يقم بترجمة ما قاله مسيو بولانجيه من الفرنسية إلى الهولندية، كل ما فعله هو تكرار الكلام بالفرنسية.

نكس رأسه، ونظر إلى قطع اللحم في طبقه، ثم نهض وسار خارجًا من قاعة الطعام التي انغلق بابها بصوت مدوّ.

الفصل السابع

**كيف لا يؤمن الإنسان بالمستقبل
إذا كان يعرف أن مصيره الموت؟**

ازدادت الأيام دفئًا، بالنسبة إلى هذا الفصل من العام كان الطقس دافئًا على نحو غير معهودٍ. عند اللقاء في الممرات أو المطعم أو المصعد كان الموظفون يتبادلون الملاحظات المرححة حول زيادة درجة حرارة الكوكب الناتجة عن الاحتباس الحراري.

- هنا في بروكسل نحن الرابعون قطعًا من هذا التطور!
- وهذا ما سيجعل الناس يشيرون إلينا بأصابع الاتهام مرةً أخرى: امتياز آخر لموظفي بروكسل!
- أنتم تدينون لي بالجو الدافئ، فأنا أستعمل دائمًا الرشاشة المحتوية على الغاز لإزالة رائحة العرق!
- ولكننا نضر أنفسنا بلوائح المناخ التي نصدرها!
- لا أحد يلتزم بها على كل حال... سترون، قريبًا سينمو النخيل هنا في بروكسل!

هذه التعليقات كانت صادرة بالطبع من «الفُلك»، وليس من الإدارة العامة لسياسات المناخ، وفي الحقيقة لم يضحك أحد على النكات المبتذلة المتبادلة في الأحاديث الهامشية، بل كان مصدر المرح هو ببساطة شروق الشمس منذ أيام في تلك المدينة المطيرة، وفي فصل

من فصول العام يتسم في الأساس بالبرودة. عكست الوجوه المشرقة للناس الشمس التي سطعت في عيونهم، كما تلالأت الشمس على زجاج النوافذ، ولمعت على أسطح المركبات في الشارع.

بعد الحديث مع كسينو راح مارتين سوسمان يعمل على ورقة مشروع اليوبيل، كانت قد أبدت بعض الملاحظات المكتوبة، ووفقها كان ينبغي عليه أن يعدل من الورقة أو يضيف إليها أجزاء أخرى حتى تصبح أساساً للمشاورات مع الأقسام الأخرى. هذه هي الخطوة التالية. كان قد وعد بأن يسلم الورقة في نهاية الأسبوع، ولكن لا تزال هناك بعض المسائل المعلقة، على الأقل سؤال كبير لم يُجب عنه. عليه أن يتحدث بأسرع ما يمكن مع بوهوميل بشأنه لأنه هو المختص بذلك. ذهب إليه في غرفته، وسأله عمّ إذا كانت لديه رغبة في تناول شيء خفيف في الغداء.

- يمكننا في هذا الطقس الجميل أن نتمشى في ساحة جوردان. وأن نذهب مثلاً إلى «براسيري لاسبيريه». أعتقد أن بإمكاننا حتى أن نجلس في الهواء الطلق.

- فكرة جيدة! هل أتصل وأحجز مائدة؟

- نعم، من فضلك، وسأحضر الجاكت خلال ذلك.

في شارع «جوزيف الثاني» كانت تسير جرارات زراعية.

- هل هذه مظاهرة فلاحين؟

- ماذا؟

كرر مارتن صارخًا:

- مظاهرة فلاحين؟

هز بوهوميل كتفيه.

طابور طويل من الجرارات الزراعية. بعضها كان موصولًا بعربة وقف فيها أناس يهتفون بشيء تلاشى في صخب المحركات والنفير والصفارات.

كانت الشوارع الجانبية مغلقة بسيارات الشرطة التي تقف عَرْضًا.

سار مارتن وبوهوميل في اتجاه «رون- بوان شومان»، كان من المستحيل تبادل الحديث. لاحظا أن جرارات أخرى تتهاذى من شارع «أرشميد» ومن ميدان «أفنيو دو كورتنبرج»، جرارات عليها روث بهائم، وفي وسطها مجموعة من الناس يمسكون بمذارٍ ومحشّاتٍ. بدا المنظر مهددًا، وفي الوقت نفسه خارجًا عن إطار الزمن، الغضب مرتديًا أزياء فولكلورية. كانت الجرارات تقف في دوار ميدان شومان، وبين مبنى المفوضية ومبنى المجلس، وحتى عمق شارع «لا لوي». كانوا يفرغون روث البهائم في الشارع، ويرفعون اللافتات، تصاعدت في الأجواء رائحة الديزل، كما حلقت في ضوء الشمس سحب سوداء من عادم الجرارات، في أحد العربات وقفت شابة، عارية الصدر، وهي تلوح بعلم فرنسا الثلاثي الألوان. توقف مارتن ونظر إليها، فأشار له شرطيون بأن يواصل السير، وقالوا ذلك بالفرنسية والهولندية:

- *Continuez s'il vous plaît, doorlopen alstublieft!*

أرشدت الشرطة المارة للمرور بين الحواجز، وهكذا وصلا إلى شارع «فروسار»، كانت الأجواء هنا أكثر هدوءاً، لكنهما واصلا السير صامتين حتى وصلا ميدان جوردان.

في المطعم، أو بالأحرى: أمام المطعم، إذ كان الطقس يسمح بالفعل بالجلوس بالخارج، أشعل كل من مارتن وبوهوميل سيجارة، ملقيين نظرة على قائمة الطعام، ثم طلبا «طبق اليوم»، «واترزوي من البحر»، ونيبذاً أبيض وماء. نفخ بوهوميل حلقات من الدخان في الهواء قائلاً:

- وكأنا في إجازة، أليس كذلك؟ إنني أخشى العودة إلى الوطن.

- العودة إلى الوطن؟ ماذا تعني؟

- ينبغي عليّ السفر يوم الجمعة إلى براغ. أختي ستتزوج يوم السبت.

أحضرت النادلة النبيذ، فرشف بوهوميل رشفة من كأسه، وقال:

- وسيكون ذلك فظيلاً. ستتزوج كفيتوسلاف هانكا... لا يعني لك الاسم شيئاً، ولكنه معروفٌ جيداً في براغ، بل إن لديه سمعة سيئة. إنه... كيف يمكن أن أعبر عن ذلك بالإنجليزية؟ نحن نقول: *křikloun*. نعم، «بلطجي». نائب راديكالي نسبياً من حزب «أوسفيت»، هذا هو حزب القوميين لدينا، وبالطبع فهو مُعادٍ راديكالي للاتحاد الأوروبي. الأمر جنوني تماماً، أليس

كذلك؟ أنا أعمل في المفوضية الأوروبية، وزوج أختي يعمل على تدمير الاتحاد الأوروبي.

- بجد؟ ولا تقل لي الآن أنك شاهد على الزواج.

- لا، بالطبع لا. ليست أختي عديمة المشاعر إلى هذا الحد. حتى الآن. كان الأمر واضحًا حتى أنها لم تفكر حتى في سؤالي. لكنني وجهت لها السباب تقريبًا عندما حكّت لي عن حبها. لقد عرفت بالموضوع من التلفزيون، إذ إنني أشاهد بين الحين والآخر الأخبار التشيكية عبر الإنترنت. ثم شاهدته في تقرير عن حفلة خيرية. خيرية! هؤلاء القتلة ينظمون حفلات خيرية للمجرمين الفقراء! ورأيت، السيد النائب، وسمعت صوتًا يقول: بمرافقة صديقتة الجديدة الساحرة... ومن أرى؟ أختي! اتصلت بها على الفور ولُمتها. لم تقل إلا: رجال!

- رجال؟

- نعم، تقصد أن الاختلافات السياسية هي لوثة رجالية. اختصاص النساء هو الحب، أما اختصاص الرجال فهي الصراعات الحمقاء.

- هذا هو رأي أختك؟

في تلك اللحظة قُدم الطعام. وضع بوهوميل ملعقته في الطبق، وأخذ يحركها من أسفل إلى أعلى، وكأنه يريد أن يرفع الطبقة السفلية إلى أعلى، ثم هز رأسه قائلاً:

- أُنستطيع أن تتخيل العرس؟ الاحتفال بالعرس؟ العصابة الفاشية

في براغ كلها ستكون حاضرة، وكفيتوسلاف باع حقوق الصور
إلى بلسك...

- إلى مَنْ؟

- بلسك. صحيفة. ترجمتها: البرق. صحيفة صفراء.

- «البرق»؟ على ما يبدو عكس «التنوير».

تقلصت ملامح وجه بوهوميل. أضاف مارتن:

- لو كنتُ مكانك، لن أسافر.

- إنها أختي. كما أن أُمِّي قالت: إذا لم تأتِ، سأقتل نفسي.

كرر مارتن:

- لو كنتُ مكانك، لن أسافر.

سيطر عليه الاندهاش. كان يحب بوهوميل، ويعتقد أنه يعرفه. لم يكن يعتقد أن زميله الذي لا يحمل همًّا، الذي كان قبل قليل يرمش بعينه بمرح في الشمس، يمكن أن يعاني من مثل هذه المشكلة الوجودية. كان يعتقد أنه... قال بوهوميل شيئًا، لم يفهم مارتن سوى كلمة «فترة ما قبل الحرب»- هل قال حقًا فترة ما قبل الحرب؟ في تلك اللحظة رن هاتف مارتن، أجاب قائلاً: سأعاود الاتصال بك، أنا الآن في اجتماع. ثم سأل بوهوميل:

- معذرة، ماذا قلت؟

انهمك بوهوميل في تناول طعامه بالملعقة، وفجأة أزاح طبقه قائلاً:

- أنا في الحقيقة لا أحب ذلك!

- ماذا؟

- لست مؤرخًا، ولكن ذلك كان بالنسبة لي دائمًا تاريخًا، تاريخًا موعلاً في القدم، أنفهم، عصر حجري، وهذا الفصل من العصر الحجري كان اسمه «فترة ما قبل الحرب»: إن التناقضات السياسية الراديكالية تمزق العائلات، فيذهب أحدهم إلى الفاشيين، ويذهب الآخر إلى الشيوعيين، وهكذا. هل لم أركز جيدًا في المدرسة؟ ولكنني متذكرٌ، هذا هو ما روي لنا: في قديم الزمان، في الأزمان المظلمة، كانت الكراهية السياسية تمزق العائلات. أي كابوس هذا؟ لماذا أعيش مع عائلتي اليوم، اليوم، في تلك الأزمان المظلمة؟ على فكرة، لن يذهب أبي إلى العرس.

- وليس هذا سببًا لأملك كي تنتحر؟

- لا، على العكس. يناسبها لو انتحر هو. لقد انفصلا، والمحاكم تنظر الآن في قضيتهما.

أراد مارتن أن يتناقش مع بوهوميل في شيءٍ مهمٍّ له علاقة بمشروع اليوبيل، لكنه أجل ذلك إلى حين عودته إلى المكتب. لقد شعر الآن بأن عليه - هو تحديدًا - أن يدخل بعض السرور إلى قلب بوهوميل المرح بطبعه. رفع كأسه قائلاً:

- أستطيع أن أعزبك: فكر في هيرمان فان رومبوي!

نظر إليه بوهوميل نظرةً متسائلةً.

- عليك أن تتخيل الأمر: فان رومبوي كان رئيس المجلس الأوروبي، أي رئيس الاتحاد الأوروبي، أما أخته فكانت رئيسة حزب الماويين البلجيكي، وأخوه كان نائباً في البرلمان عن الحزب القومي البلجيكي، وأحد عتاة الانفصاليين الفلامنك. قرأت في الصحيفة أن العائلة لا تلتقي سوى مرة في العام: في عيد الميلاد المجيد!

كان بوهوميل يحتسي النبيذ، فانفجر ضاحكاً:

- في عيد الميلاد! رئيس الاتحاد الأوروبي والقومي والماوية!

- ثم ينشدون جميعاً ترنيمة عيد الميلاد: «ليلة هادئة»!

- ليلة هادئة! هههه! هل هذا صحيح؟

- نعم. يقولون ذلك. هذا ما قرأته في مقالة في «دي مورجين».

عقب بوهوميل ضاحكاً:

- فلنشرب كأساً أخرى!

عندما عادا إلى المكتب كانت المظاهرة قد انفضت. سارا عبر ميدان شومان بين الحواجز وروث البهائم الذي كان يُجرف على عربات النظافة التابعة للمدينة. فاحت رائحة منفرة. وضحكت الشمس.

في طريق العودة إلى المكتب كان بوهوميل صامتاً ومتأملاً. في المصعد قال لمارتن:

- سألني رحلة الطيران يوم الجمعة. لن أذهب إلى العرس. لا أريد أن أظهر في صورة مع كفيتوسلاف هانكا تُنشر بعد ذلك في «بليسك».

- وأمك؟

- سأقول لها: سأحضر في عيد الميلاد.

ثم لكم مارتن على عضده، وقال مبتسمًا:

- ليلة هادئة!

بعد نصف ساعة جلس مارتن وبوهوميل وكاسندرا في غرفة الاجتماعات حتى يناقشوا تطورات العمل في مشروع اليوبيل. في تعليقها على ورقة مارتن قالت كسينو إنه من اللازم معرفة عدد الذين لوحقوا بسبب الهولوكوست ولا يزالون على قيد الحياة، وكذلك عدد الناجين منه. هل هناك سجل مركزي للناجين من معسكرات الإبادة والتصفية؟ كم عدد الذين يعيشون في أوروبا، وكم عددهم في إسرائيل والولايات المتحدة أو في أماكن أخرى؟ هل توجد مؤسسة تمثل الناجين يمكنها أن تكون شريكًا نتعاون معه عند تنظيم الحدث؟

هذه الأشياء ينبغي معرفتها لاتخاذ قرار بشأن ما إذا كنا نستطيع حقًا دعوة كل الناجين من الهولوكوست إلى بروكسل، أو على الأقل مجموعة منهم تكون ممثلة لهم تمثيلًا حقيقيًا.

قال بوهوميل:

- لقد فوجئنا بذلك للغاية. توقعنا بالطبع أن يوجد سجل مركزي للناجين من الهولوكوست. ولكننا لم نجد شيئاً.

كاسندرا:

- كل المؤسسات التي طلبنا منها معلومات لم تقدم رداً. ياد فاشيم، على سبيل المثال. لا إجابة. بعد أن سألنا مرةً أخرى جاءنا رد، ولكنه ليس رداً. هنا، تفضلوا: لقد أُحيل «الميل» إلى الموظف المختص. وبعد ذلك لم يحدث شيئاً طوال أيام. كتبت إليهم مرةً أخرى وسألتهم أن يذكروا لي اسم هذا الموظف وعنوانه الإلكتروني حتى أتصل به مباشرة. لا رد. حتى اليوم. ثم: مركز فيزنتال في لوس أنجيلس. لا رد. وبعد السؤال ثانية حصلنا على إجابة تفيد بأن توثيق ضحايا المحرقة ليس من مهام مركز فيزنتال. وقالوا إن بحوزتهم قائمة بمجرمي الحرب النازيين الذين لا يزالون على قيد الحياة، وقد نشروها على موقعهم الإلكتروني، ولكن ليس لديهم سجل للناجين من المحرقة؛ علينا أن نتوجه إلى مركز ياد فاشيم. قمنا بإحالة هذا الميل إلى ياد فاشيم، مع الرجاء مرةً أخرى بإعطائنا معلومات.. لا رد. كتبنا لكل المراكز التذكارية، أوشفيتس، بيرجن-بيلزن، بوخنفالدي، ماوتهاوزن، إلى آخره، فلم نحصل على رد إلا من ماوتهاوزن.

- وماذا كتب مركز ماوتهاوزن؟

- هنا: قالوا إن عندهم قائمة بأسماء الناجين من معسكر ماوتهاوزن نفسه، ولكن حتى هذه القائمة ليست كاملة، هذه الفوضى تعود

إلى عملية التحرير التي حدثت في مايو ٤٥. إن الناجين الذين استطاعوا مغادرة المعسكر توجهوا إلى مكاتب وهيئات حكومية عديدة لطلب المعونة واستخراج أوراق، لكن ذلك لم يسجل بشكل مركزي. ومن البيانات الشخصية غير الكاملة التي بحوزة مركز ماوتهاوزن، ليست لديهم بيانات حديثة إلا من جزء صغير فحسب، وحتى هذه البيانات ليست مؤكدة. إن الأشخاص الذين لهم عناوين في المركز يُدعون كل عام إلى احتفال التحرير. مَنْ لا يجيب على الدعوات عدة أعوام، إما أن يكون توفي، أو غير ببساطة محل إقامته. أحالنا مدير مركز ماوتهاوزن التذكاري - انتبهوا مفاجأة! - إلى ياد فاشيم، كما أحالنا إلى مؤسسة المحرقة التي أسسها ستيفن سبيلبرج. وهي معلومة شيقة! وأرسلوا لنا مع الميل نص قَسَم ماوتهاوزن، حتى يذكروننا - أي يذكرون المفوضية - بأن معاهدة روما تستند إليه. يقول المدير - لحظة، نعم، هنا: إن شعار «أوشفيتس لن تتكرر أبداً» إشكالي لأنه يعطي الأولوية لمعسكر، أي أنه يضع ترتيباً للمعسكرات، لكن قَسَم ماوتهاوزن عالمي التوجه، ولهذا فإنه يتصدر مشروع الوحدة الأوروبية، حتى وإن كان المرء اليوم لم يعد يسمع عن ذلك شيئاً. أوماً مارتن، وقال: وهذا هو السبب في أننا... ثم توقف، واستكمل قائلاً:

- نحن نستخدم أوشفيتس كشفرة، ولكن الرجل في الحقيقة فهم فكرتنا. وهل كتبت إلى سبيلبرج؟

- نعم.

- لا رد؟

- بلى. المختصر المفيد. ليس لديهم سوى قائمة بأسماء الناجين الذين كان لديهم استعداد بأن يحكوا كشهود حكاية حياتهم أمام الكاميرا. ولكنهم لا يعرفون العدد الإجمالي للناجين من المحرقة الذين لا يزالون أحياء، بل إنهم حتى لا يعرفون عدد الشهود الذين ظلوا أحياء بعد التصوير معهم. لقد تم تصوير الأشخاص الذين سجلوا أنفسهم من تلقاء أنفسهم. والأرشيف متاحٌ للجميع. ويمكننا أن نسأل عن مزيد من التفاصيل في...

- ياد فاشيم.

- تمامًا. بمعنى آخر: نحن لا نعلم أي شيء.

عقب مارتن:

- هذا غريبٌ فعلاً. هذا جنونٌ كاملٌ. لقد سجل النازيون في قوائم كل إنسانٍ رُحِّل إلى معسكر التصفية، بالاسم والبيانات الشخصية وتاريخ الميلاد والمهنة وعنوانه الأخير، أعطوهم رقمًا مسلسلًا، كان هناك إحصاءٌ دائمٌ لهم، وبكل دقةٍ كانوا يحذفون القتلى من القوائم... وبعد التحرير يتبخر كل هذا في الهواء...

- البيروقراطية النازية!

- لكن ماذا حدث بعد ذلك؟ كان ينبغي حصر الناجين لكي...

تدخل بوهوميل معارضًا:

- لا. كثيرون لم يكونوا يريدون أو يستطيعون العودة إلى بلادهم التي هُجروا أو رحلوا منها. لم يهتم أحد بوضع قائمة جديدة للأشخاص المُهَجَرين، أو للنازحين الذين أطلق عليهم آنذاك *displaced persons*. لقد أعطوهم إسعافات أولية، ثم سمحوا بالرحيل للذين يستطيعون الرحيل.

رد مارتن:

- لا أستطيع تصديق ذلك. لقد جمع ياد فاشيم أسماء كل الذين قتلوا في المعسكرات، ولكنهم لا يهتمون بأمر الناجين؟ لا أستطيع تصديق ذلك. لا بد من وجود هذه القائمة، ولكن يبدو أن هناك من يريد إبقاءها سرية.

تدخلت كاسندرا قائلة: *Come on, Martin*، ثم أكلمت:

- لا توجد مؤامرة. وماذا سيكون مغزاها؟ هناك أسباب كثيرة وراء عدم معرفتنا برقم الناجين. ربما انتقلوا بعد التحرير من مكان إلى آخر دون أن يتركوا عنواناً، إذ لم يكن لديهم عنوان بعد. وعندما بدؤوا في مكان ما يبنون حياتهم مرةً أخرى، لم يكتبوا إلى معسكرهم السابق لكي يخبروه كيف يستطيع أن يتصل بهم الآن... مارتن، من فضلك، عليك أن تتفهم أن الناجين من معسكرات التصفية ليسوا روابط خريجين! أوكي، البعض يتصل بالمراكز التذكارية، ويعلن استعدادهم أن يكون شاهداً على تلك الفترة وأن يتحدث عما عايشه، البعض تردد على احتفالات التحرير، والبعض زار المعسكرات بعد عقود، مع أحفادهم، كان

ذلك هو انتصارهم على هتلر، ولكن البعض أراد ألا تكون له أي علاقة بذلك، كما أن البعض توفي بعد فترة قصيرة من التحرير. لقد نجوا من المعسكر، هذا صحيح، ثم فجأة ماتوا موتاً طبعياً في فترة ما بعد الحرب، البعض شعر بالخجل ولم يكن يريد ألا يسجل مرة أخرى في سجلات ما، البعض صمت لأنه لاحظ أن لا أحد يريد الاستماع إلى حكايته، ولا حتى في إسرائيل أعطى أحدٌ أذنًا صاغيةً لأولئك اليهود الذين يثيرون الخجل والخزي وهم ينتظرون دورهم لكي يُدَبِّحوا. كيف يمكن تسجيل كل ذلك في سجلات نظامية؟

قال بوهوميل:

- لدينا مشكلة. القائمة التي طلبتها كسينو ليس لها وجودٌ. ومن العبث الوصول إلى السبب. ولكن هناك حل بسيط للمشكلة. عن أي شيء نتحدث أصلاً؟ عن سرديّة المفوضية الأوروبية. أنت تقول إنها ولدت ردّاً على الهولوكوست، وحتى لا يتكرر أبداً، وأننا نضمن السلام وسيادة القانون. أوكي، ولكن لكي نثبت ذلك، لسنا بحاجة إلى قائمة كاملة بأسماء الناجين الذين لا يزالون على قيد الحياة. هل تريد أن يوقفوا طابورا في شارع «دو لا لوي»؟ ثم تقوم بإحصائهم؟

- كفى! اسكت من فضلك!

تدخلت كاسندرا قائلةً:

- هناك ناجون من المحرقة، وهم معروفون. يمكننا أن نضع قائمة

بهم ثم نرى مَنْ منهم يستطيع أن يوجه رسالة في احتفالنا...

- هل سألتهم «يوروستات»؟

رد بوهوميل:

- ولماذا نفعل ذلك؟

فأجابه مارتن:

- من فضلك يا بوهوميل! لدينا جهاز أوروبي للإحصائيات. لديهم إحصائيات لكل شيء. وهم يعرفون كل شيء. إنهم يعرفون عدد البيض الذي تضعه الدجاج في أوروبا. سيعرفون أيضًا عدد الناجين من الهولوكوست الذين يعيشون اليوم في أوروبا. كاسندرا، من فضلك أرسلني طلبًا إليهم، وسنواصل الحديث عندما نحصل على رد.

كتبت كاسندرا «يوروستات» في دفترها، ثم تطلعت إلى مارتن:

- لا أريد أن أعلق، ولكن لماذا تريد الحصول على إحصائية، على رقم، وتحديدًا عن أناس حُولوا من قبل إلى أرقام؟

فتحت كاسندرا زر كم بلوزتها، ورفعت الكم عاليًا، وكتبت بالحبر

رقم ٨٥١١١٧ على ساعدها، ثم مدته في اتجاه مارتن.

- ماذا... ما هذا؟

- تاريخ ميلادي.

في كثير من الأحيان يعمل مارتن سوسمان حتى الساعة أو الساعة والنصف مساءً. لذلك لم يشعر بتأنيب ضمير عندما غادر اليوم مكتبه في الرابعة والنصف. لم يعد لديه شيء مُلحٌ، وما قد ينشأ في الساعة التالية من أعمال روتينية، يمكنه أن ينجزها في الصباح. ليس لديه ما يأكله في البيت، لكنه لا يشعر بالجوع. قرر أن يحتسي كأس بيرة في طريقه إلى المترو، في الحانة الأيرلندية «جيمس جويس» في شارع «أرشميد». رأى سيارات مصفحة تسير في الشارع. واصل السير، إلى «بوليفار شارلمان»، وهناك -وأيضاً في شارع «لا لوي»- سارت مركبات عسكرية بدا سطحها المصفح المطلي بالأخضر والبني وكأنه يتلعب أشعة الشمس الغاربة. طاف الجنود بالشوارع، وقامت الشرطة بإرشاد المارة لكي يعبروا بنى الحواجز الحديدية في ممرات ضيقة تؤدي إلى المترو، في حين ظل المخرج المباشر أمام مبنى رئاسة الاتحاد مغلقاً.

هذا الوضع ذكر مارتن بفيلم رآه يوماً ما، فيلم «زد» أو «مفقود»، أو بالأفلام الوثائقية التي يشاهدها في التلفزيون. كان نادراً ما يتفرج على التلفزيون، لكن إذا تنقل بين القنوات عندما يمتنع عليه النوم فإنه يتوقف دائماً عند الوثائقيات التاريخية، التاريخ يشير اهتمامه أكثر من القصص، لا سيما الأفلام الوثائقية التاريخية التي تسحره، وأيضاً تلك النشرات القديمة التي كانت تقدم في دور العرض قبل الفيلم الروائي في حين يقص صوت جهوري مفعم بالأهمية قصصاً عن أزمان غابرة. تراءت له مثل هذه الصور الآن، صور الدبابات في ميدان فنتسل بعد سحق «ربيع براغ»، وصور السيارات المصفحة التي جابت شوارع سانتياجو دي

شيلي بعد انقلاب بينوشيه، والحضور العسكري في شوارع أثينا بعد انقلاب الجيش في اليونان، لقطات مهتزة بالأبيض والأسود التقطها هواة على أفلام ٨ مللي سوبر، مأخوذة من أخبار تلفزيونية قديمة. تولد لدى مارتن الانطباع بأن هذه الأفلام التاريخية تُعرض الآن في الشارع الذي سار فيه، محدثة واقعًا افتراضيًا، وكأن ما ينقصه هو مشغل ألعاب الفيديو. مثل خنافس ضخمة كانت الدبابات تتحرك في الشوارع التي خلت من السيارات، انكمش المارة القلائل وهم يسرون مسرعين بجوار المنازل والحواجز الحديدية إلى أن ابتلعهم مدخل محطة المترو. لم يشعر مارتن بالخوف، تذكر أن القمة الأوروبية لرؤساء الدول والحكومات الأعضاء منعقدة. ما يراه هنا هي الإجراءات الأمنية المصاحبة. دخل حانة «جيمس جويس»، عند البار وقف رجال يرتدون البدل وقد خففوا من إحكام ربطة العنق وهم يثرثرون. *Happy Hour* كانت المشروبات مخفضة الآن في هذه «الساعة السعيدة».

في طريق العودة اشترى ست زجاجات من بيرة «جوبيليه» من المحل على ناصية شارع «سانت كاترين».

حيا البائع بالهولندية «جودن أفوند»، فرد الأخير بالفرنسية قائلاً: «بونسوار مسيو».

وعند الوداع انعكس الوضع:

- *Au revoir!*

- *Tot ziens.*

في المنزل خلع سرواله الضيق الذي كاد يفتق، شعر بالاحتقار تجاه نفسه بسبب ذلك، دون أن يجعله ذلك يقرر شيئاً. لا يُحسب الزمن في بروكسل بالسنين، بل بالكيلو جرامات. بالقميص والسروال الداخلي دخن سيجارة عند الشباك المفتوح، ثم جلس على الفوتيه عند المدفأة التي وضع فيها كتباً قديمة، ثم أشعل شمعة. لماذا؟ لأنه وجدها أمامه. احتسى البيرة، وراح يتفرج على الحشرات التي دخلت إلى حجرته من النافذة المفتوحة، باحثة عن ضوء الشمعة، ثم تطير في اللهب وتحترق.

هذا دليل بالنسبة له على عدم وجود إله، ولا هدف أو مغزى من وراء عملية الخلق، أي لا عملية خلق. فما مغزى خلق جنس لا ينشط إلا ليلاً، لكنه -في الظلام- يبحث عن الضوء حتى يحترق فيه؟ ما نفع هذه الحشرات؟ ما المساهمة التي تقدمها للتوازن البيئي المزعوم أو المأمول؟ لقد تكاثرت على الأرجح بشكل من الأشكال، وجاءت ذريتها إلى العالم، لكنها -كمن أنجبها- ظلت طوال اليوم المنير في مكان معتم ما، لكي تخرج بعد أن تسود العتمة باحثة عن الضوء الذي سطع وهي نائمة، وهكذا تُنهي حياتها على الفور بسبب غريزة غريبة تدفعها إلى الموت. في الغروب تبدأ رحلتها إلى الموت. تلتصق الحشرات بالنوافذ التي يسطع الضوء خلفها وكأن الزجاج يقدم لها الغذاء، وتحلق حول المصابيح والفوانيس، وكأنها ستجد بالقرب من النور شيئاً آخر غير العمى المؤقت، وعندما تكتشف شمعةً أو مصدرًا آخر للنار، تلقى مصيرها، الموت الفوري الذي تندفع إليه، أي إلى الظلمة التي جاءت منها.

دون تخطيطٍ مسبقٍ قرّر المفتش برّنفو النزول في محطة «شومان» بدلاً من البقاء في المترو حتى محطة «ميرود». بين هاتين المحطتين كان يقع «بارك دو سانكانتونير»، المعروف عمومًا بحديقة «يوبل»، حيث نوى أن يقوم بتمشية منعشة في هذا اليوم المشمس الجميل. أمر نفسه بهذه التمشية بعد أن أثقله الخوف البارد الذي تلبسه في المترو، الخوف من ماسورة جهاز الرنين المغناطيسي التي سيدخلونه فيها في المستشفى. لديه ما يكفي من الوقت، بعصبية كان قد غادر المنزل مبكرًا جدًا.

كان مخرج «يوستوس ليبسيوس» مغلقًا، دفعته الحشود دفعًا إلى مخرج «بيرلمون» حيث حدث تدافع لأن السلم المتحرك الذي أراد استخدامه للصعود كان معطلًا. اضطر الناس إلى استخدام الدرج، لكنهم كانوا يقفون بين الحين والآخر ويلتصقون بطرف الدرج حتى يفسحوا مكانًا للنازلين. في الوقت نفسه كانوا يُدفعون دفعًا ممن وراءهم، ويُخبطون خبطًا بالحقائب المجرورة أو المحمولة على الظهر. ضغط برّنفو على حقيته الصغيرة حتى التصقت بجسده، وسمع صرخات تناهت إليه من أعلى، من المخرج. صغير حاد. بعض المارة الذين صعدوا السلم، استداروا وعادوا من حيث أتوا. تزايد عدد الذين هبطوا من أعلى. لم يفهم برّنفو ما يحدث، لكنه ترك نفسه يهبط، وسبح مع الحشود حتى وصل إلى رصيف المترو. جاء قطار، فركب برّنفو حتى محطة «ميرود» التالية.

يقع مطعم ومقهى «لا تيراس» بجانب مخرج محطة المترو مباشرة، في «أفنيو دى سيلت». أراد أن يحتسي هناك كأس بيرة حتى يحين موعده. كان عدد كبير من الزبائن يجلسون بالخارج، مع ذلك وجد مائدة شاغرة. ورغم أن المقهى يقع في شارع ضخم وصاخب، فقد شعر إميل برنفو أنه في واحة من الهدوء عندما جلس خلف ساتر من النباتات الخضراء. هدوء. التفكير بهدوء. ماذا؟ في أي شيء؟ عليه أن يأخذ قرارًا مصيريًا. كان ينظر إلى الأمر بهذه العاطفية: قرار مصيري. وكان يشعر في اللحظة الراهنة بعبء أكبر من قدرته على التحمل. رغم أنه عاش بعض الوقت منذ أن أخبروه أنهم طردوه من وظيفته، لم يفعلوا ذلك شكليًا، ولكن واقعيًا: لقد شعر بأنه يُطرد من حياته، ولا يزال يشعر بأن ذلك حدث «فجأة»، غريبٌ أن تستمر «فجأة!» كل هذه المدة.

في الوقت نفسه تساءل عن معنى أن يأخذ قرارًا مصيريًا، لا لشيء سوى لأن هذه الكلمة تدور في رأسه، في حين أنه لا يعلم حتى...

جاء النادل، فطلب برنفو بيرة.

- هل ترغب في تناول الطعام أيضًا؟

أجاب برنفو بالنفي. لا يريد سوى بيرة.

... في حين أنه لا يعلم حتى ما إذا كان لا يزال لديه وقت في هذه الحياة.

أحضر النادل البيرة، ووضع إيصالًا بثمنها على المائدة، وورقة مكتوب عليها: «محموزة من ١٢ ونصف». طلب النادل الحساب على الفور. من الساعة الثانية عشرة والنصف... أي بعد عشر دقائق. كان من

الواضح أن النادل يريد أن تصبح المائدة شاغرة في أسرع وقت ممكن لتكون متاحة لشخص قد يأتي ويريد تناول طعامه.

كان برنفو دائماً شخصيةً مهيبَةً، بسبب حضوره الجسدي وحده، وبهيئته التي تملأ المكان. كان الآن كالمخدر، وعندما تطلع إلى النادل شعر بنفسه صغيراً وهشاً.

نهض. وتنفس عميقاً ونفخ جسده.

- كان عليك أن تقول لي فور جلوسي أن المائدة محجوزة! ليس لدي رغبة في أن أقذف البيرة بسرعة في جوفي! إنك تضع هذه الورقة بكلمة «محجوز» أمام أنفي بعد أن طلبت، وهذا أمر أجده تهكمياً ومهيناً. مع السلامة!

- ولكن... مسيو! لا تستطيع، انتظر! لا تستطيع أن تمشي هكذا! عليك أن تدفع ثمن البيرة.

- لماذا؟ لن أشربها.

- عليّ إذن أن أstdعي الشرطة.

- هنا، بطاقة العمل! وكأنك استدعيتني!

- أوه! متأسف، سيادة المفتش! بالطبع يمكنك أن تظل جالساً هنا قدر ما أحببت، بالطبع سوف أنقل الحجز إلى مائدة أخرى، سيادة المفتش!

- لم تعد لدي رغبة!

مر ذلك الحوار بسرعة في خياله، ورغم أنه طفوليٌّ جدًّا، فقد أشعره أكثر بالإهانة. دفع الحساب فعلاً، وقال:

- لا مشكلة، ينبغي عليّ الذهاب على كل حال بعد عشر دقائق.
لدي موعد و...

- وماذا؟

أعطى برنفو النادل بقشيشاً ضخماً. وظل يحملق أمامه لدقائق، وحدث في البيرة... كيف استطاع أن ينسى أن...؟ نهض وانصرف دون أن يتناول رشفة واحدة من كأسه.

عبر إميل برنفو «أفنيو دي سيلت»، وسار في شارع «دوليتهاوت». نسي الرقم، ولكنه واصل السير، وقال لنفسه إنه سيتعرف على المستشفى حتى دون أن يعرف رقمها في الشارع.

لم يتعرف عليها. سار أبعد مما يجب. في لحظة ما اتضح له ذلك، فاستدار راجعاً. سيصل تقريباً بعد الموعد بدلاً من الوصول قبله بكثير. كان يتصبب عرقاً. سيثير أسوأ انطباع في الاستقبال ولدى الحديث الأولي مع الطبيب.

هناك! الآن رآه. مستشفى أوروبا. بدا من الخارج مثل كاتدرائية مبنية على الطراز القوطي الجديد. لهذا مرّ بالبنية دون أن يشعر. من يتوقع أن يبدو مستشفى مثل دار عبادة تاريخية؟

دخل المستشفى، فوجد نفسه فجأة في محطة فضاء: مساحات بيضاء مصنوعة من اللدائن، أسطح من الألومنيوم الفضي اللون، ضوء

أزرق، شرائط ضوئية ملونة على الأرضية كنظام إرشادي إلى الأقسام المختلفة. تعجب برنفو من أن الناس الذين يسرون هنا أو يجلسون لا يحلقون في الفضاء دون جاذبية. من ناحية أخرى: كان الأمر عاديًا تمامًا، مجرد بهو استقبال في مستشفى. كل شيء يمكن غسله، ويلمع كما يليق بمستشفى. لم يبدُ المكان كأنه صورة نمطية لفيلم من الخيال العلمي إلا لأن المرء يدخله عبر واجهة كاتدرائية قوطية.

وقف برنفو أمام اللائحة الإرشادية. كان أول ما التفت إليه بوعي هو «قسم الأمراض النفسية والعصبية». بعد ذلك رأى «قسم الأمراض الباطنة». أطاع النظام الإرشادي وسار وراء شريط ضوئي أزرق.

التسجيل، الاستقبال، تحديد غرفه له، الحديث الأول مع الطبيب عن التاريخ المرضي. عندئذ شرح له الدكتور درومون الفحوصات التي يعتبرها لازمة، وأنه من الممكن إجراؤها كلها أثناء يومين. سيوزع المواعيد وفق ذلك. بعد ذلك - بالتأكيد - سيكون لدينا تشخيص لأسباب أوجاع برنفو. هل السيد المفتش صائم؟ أجاب برنفو بالإيجاب. لم يأكل اليوم ولم يشرب شيئًا. جيدًا جدًا، قال رئيس الأطباء، نستطيع إذن أن نبدأ بفحص الدم. ستقوم بذلك الممرضة آنة. سأوصي بأن تحصل بعد ذلك مباشرة على شيء تأكله.

بعد أن أخذت عينة من دمه، أحضرت الممرضة شايًا مع بسكويتٍ وعددٍ من حبات الفراولة، وسألت برنفو أيضًا عن رغباته فيما يتعلق بطعام العشاء.

- من الورقة المعلقة على سريرك أرى أنك...

نظرت الممرضة إليه، ثم أكلت:

- لا تسير على نظام غذائي معين. إذن: الطعام العادي. بإمكانك الاختيار بين اللحم والأكل النباتي.

ألقي برَنفو نظرة على طبقه، وعلى قطعتي البسكويت وثلاث حبات الفراولة، ثم قال:

- كلاهما من فضلك، يا مدام.

- نعم؟

- أعتقد أن بجانب اللحم أشياء أخرى؟

- لدينا كفتة «بوليت سوس لابان».

- ومعها؟

- بطاطس مهروسة وجزر.

- أرايتِ؟ هذا نباتي. سأخذ إذن الكفتة، وبهذا أحصل على لحم وطعام النباتي.

شعر برَنفو بالخوف كما لم يشعر به أبداً. شيء ما داخله تمرد، وأجبره على أن يتصرف وكأنه لا يأخذ كل ما يحدث بجدية. البيجامة على سريرهِ مثل جثة بلا جسد. على مشجب بجانب السرير كان الروب الصباحي معلقاً بارتخاء: إنه هو، بعد اختفائه. لم يخلع ملابسه، ولم يرقد بعد على السرير. انصرفت الممرضة. أكل قطعة بسكويت، واحتسَى رشفة شاي، وابتسم عندما ضبط نفسه وهو يصيخ السمع

بنفس مكتوم، ثم يفتح باب الغرفة ويلقي نظرة إلى اليمين وإلى اليسار، ليرى ما إذا كان أحد يراه. غادر الغرفة، واستقل المصعد إلى البهو حتى يحتسي بيرة في الكانتين.

لا كحول في كانتين المستشفى. لذا خرج من عالم المحطة الفضائية، عبر الواجهة القوطية الجديدة، إلى الهواء الطلق، وسار خطوات عدة في تيار الناس الذين لا يفكرون في الموت، ووجد مقهى في الشارع، فطلب بيرة.

- كأس صغيرة، مسيو؟

- كأس كبيرة، من فضلك.

جلس في مواجهة صيدلية.

كان يتصبب عرقاً، فمسح بمنديله العرق من جبينه. هل هو محموم؟ لا، اليوم، ببساطة، حار. ألهمت الشمس النافذة من بين شمسيتين مؤخر رأسه وظهره. حرك كرسيه إلى الجانب قليلاً، وخلع سترته.

رن تليفونه المحمول. كان فيليب على الخط.

- اسمع، لدي ما أحكيه لك. ليس على التليفون. لم تتضح الصورة بعد، ولكن هناك، ماذا أقول؟ فلنقل هناك بعض العوارض المَرَضية اللافتة جدًّا. لا أعلم ما إذا كان بإمكانني أن أواصل، المخاطرة كبيرة جدًّا. لا بد أن نتحدث في الأمر. هل نستطيع أن نلتقي في الغد؟

أجاب برَنفو قائلاً:

- أنا في المستشفى. أنت تعرف أنهم يجرون لي فحصًا شاملاً.
لديّ في الغد سلسلة من الفحوصات، ولكن...

- وكيف حالك؟ ماذا يقول الطبيب؟

- كما قلت أنت: عوارض مَرَضِيَّة لافته، ولكن الصورة لم تتضح
بعد. هل لديك وقت مساء الغد؟

- في المساء المبكر. في السادسة والنصف أو السابعة.

- جيد. زرني، إذن، في مستشفى أوروبا، «رو دو لينتهاوت». إذا
جئت بالمترو، فالمحطة هي «ميرود».

- *D'accord!*، إلى اللقاء غداً.

نزل إميل برنفو في غرفة بسريرين، لكن السرير الثاني شاغر لحسن
حظه. وهكذا استطاع في المساء أن يجري عدة اتصالات تليفونية دون
أن يزعج أحداً أو أن يشعر بنفسه مجبراً على الخروج من الغرفة، كان
بإمكانه أن يشغل جهاز التليفزيون -المثبت أمامه على الجدار فوق
مائدة الطعام- ويطفئه دون أن يجد نفسه مجبراً على التوافق مع أحد.
شاهد أخبار المساء، أذاعوا مقابلة مع رئيس الشرطة الذي نفى عن
نفسه تهمة التقاعس، فمن الصعب الإمساك بخنزير إذا لم يكن المرء
يعرف متى وأين سيضرب ضربه في المرة القادمة... سأل برنفو نفسه:
هل قال فعلاً «يضرب ضربه»؟ في تلك اللحظة سألته الصحفية عما
يعنيه بـ «يضرب ضربه». يعني بذلك أن يظهر ويشيع الاضطراب بين
المارة، مع أن... بعصية أغلق برنفو الجهاز، وهو ما كان يستطيع

فعله لأنه بمفرده في الغرفة. وهكذا كان بمقدوره في تلك الليلة التي شعر فيها بقلق كبير جدًا أن يظهر قلقه بلا مراعاة لأحد: أن يتقلب في فراشه، أن ينهض مرة بعد أخرى لشرب ماء في الحمام، أن يذهب إلى دورة المياه ويستخدم السيفون الذي كان يصدر خريرًا عاليًا جدًا لدرجة أزعجته، كان بمقدوره أن يسب ويلعن عندما يصطدم في طريقه إلى الفراش بحافة السرير، وأن يصدر شخيرًا أو ريحًا دون أن يلتفت إلى أحد أو يراعيه.

ولكن محاباة الحظ له انتهت في اليوم التالي. في الصباح الباكر نُودي عليه ليذهب إلى إجراء تخطيط كهربائي للقلب، وعندما عاد إلى غرفته وجد رجلًا على السرير الثاني. كان يتكئ على الجزء العلوي المرفوع من السرير. رجل رقيق جدًا، شاحب جدًا كأنه شفاف، وشعره الخفيف الأشقر كان مفروقًا بصرامة. يرتدي بيجامة، يشبه قماشها قماش البدل! حرير أزرق داكن، والخطوط الرقيقة المتوازية باللون البرتقالي. كان يجلس القرفصاء، وعلى حجره لابتوب.

لا يزال مصطلح «خارج بُطينية» ينبض في رأس برنفو، وكأنه مغلف بقطن طبي وسط الكلمات المهدئة للطبيب الذي حدثه عن اضطراب في نظم القلب. والآن ها هو الرجل في غرفته -الذي يحيي ببهجة وكأن الحماسة غلبته لأنه لم يعد وحيدًا في الغرفة. رد برنفو على التحية، ووقف الآن بين السريرين، ثم أومأ للرجل مرة أخرى، فلمح شعارًا مخيطًا على صدر البيجامة، ثعبان بلون أزرق فاتح... ماذا؟ مد الرجل يده في اتجاه برنفو قائلاً: اسمي موريس جيرونيه.

تشرفنا. بانحناء عرفه برَنفو بنفسه. لقد انحنى في الحقيقة حتى يحدق بدقة في الشعار، الثعبان مرسوم على شكل حرف S، وبجانب الثعبان كلمة «سولفاي»، وتحتها كلية بروكسل لعلوم الاقتصاد. تملكك الدهشة برَنفو. هو شخصيًا يملك شالًا و«تي شيرت» لنادي أندرليخت، كما أنه أهدى ابنته الروحية جويل بمناسبة العماد محمولًا ذكيًا باللوان نادي أندرليخت، اشتراه على سبيل الفكاهة من محل المشجعين بالنادي؛ لكنه لم ير ولم يسمع أبدًا عن شخص يشتري بيجامة عليها شعار جامعة.

أراد مسيو جيرونيه بالطبع أن يتبادل معه على الفور حكايته مع المرض، غير أن برَنفو لم يقل إلا أنه هنا لإجراء بعض الفحوص، مجرد إجراء احترازي. فقال جيرونيه:

- نعم، سيجدون شيئًا، إنهم يجدون دائمًا شيئًا، تأكد أنهم ابتداء من الخمسين يجدون شيئًا، وإذا لم يجد الأطباء شيئًا لدى شخص تجاوز الخمسين، فإنني عندئذ أتساءل: ماذا درسوا إذن؟ في هذه الحالة ينبغي على المرء أن يغير المستشفى. ولكن، لا تخف، أنت هنا في أيد أمينة، «أوروبا» أفضل مستشفى، هنا يجدون دائمًا شيئًا. وجدوا المشكلة عندي في الطحال. أليس هذا غريبًا؟ الطحال تحديدًا. ستتساءل الآن: ما الغرابة في ذلك؟ قل لي ماذا يفعل الطحال، ما مهمته؟ أترى! أنت لا تعرف. لا أحد يعرف، اسأل أصدقاءك، معارفك، اسأل الناس في الشارع. الكبد، نعم! القلب، أكيد! الرئة، الكلّي، لا نحتاج إلى دراسة

الطب لكي نعرف ماذا تفعل هذه الأعضاء وما وظائفها. ولكن الطحال.. قل لي أنت: ما مهمة الطحال؟ أترى؟ هذا عجيبٌ حقاً! الطحال يحيا في الظل. مع أن كافة الأعضاء الأخرى التي نعتقد أننا نعرفها ونعتبرها مهمة جداً لن تستطيع إطلاقاً أن تعمل على المدى الطويل لولا وجود الطحال. الطحال يراقب كل الأعضاء الأخرى، يعرف كل شيء، ويفحص الأعضاء الأخرى دون توقف. إنه يحمي الأعضاء الأخرى من الإصابة بالمرض، ويزيل الجزيئات الضارة من الدم، ويخزن كريات الدم البيضاء ثم يطلقها عند الحاجة، بل من الممكن أن نقول: إنه يرسلها مثل فرق هجومية. لا يلاحظ القلب شيئاً إذا واجه الكبد مشكلة، أو العكس، تحاول الكليتان أن تقوما بواجبهما، سواء كانت الرئتان تعملان كما ينبغي أو لا، ولكن الطحال يلاحظ كل شيء، وله رد فعل على أي شيء. وكل ما يفعله الطحال تتأثر به الأعضاء الأخرى. الطحال هو أعظم ما يتواصل بين الأعضاء، وفي الوقت نفسه فهو جهاز المخابرات الذي لا يشعر به أحد. ولماذا لا يشعر أحد بالطحال؟ لماذا لا يعرف أحد ما يفعله الطحال؟ بسبب ذلك تحديداً: لأنه في المعتاد لا يلفت الانتباه. الطحال عضو لا يسبب مشاكل إلا نادراً. إنه يحل مشاكل الأعضاء الأخرى، وبقدر الإمكان يدفع الأمراض عنها، ولكنه لا يكاد يصاب بمرض أبداً. أتعرف ماذا أظن؟ أظن أن نظريات «السايكوزوماتيك» فعلاً على حق، هناك علاقة بين الانفعالات النفسية والأمراض الجسدية.

هذا ما أظنه. يمكنك أن تتناول طعامًا صحيًا كما شئت، ولكنك ستصاب بأمراض في المعدة إذا كنت دائمًا مجبرًا على «ابتلاع» أشياء، بالمعنى المجازي للكلمة. أنفهم ما أقصد؟

- نعم هذا معروف.

- أترى! والمشكلة عندي في الطحال. هذه ليست صدفة. أنا تقريبًا طحال، من الناحية المهنية، ومنذ فترة لاحظت أنني لم أعد أستطيع التحمل، لم أعد أستطيع قبول أداء واجبي، و...

- ومهنيًا... ماذا تفعل؟ أعني: الطحال ليس مهنة.

تأوه برنفو. وقال جيرونيه:

- إنني أعمل في المفوضية الأوروبية، في الإدارة العام للاقتصاد والماليات. أنا مسؤول عن التواصل. أنا تقريبًا هو العضو الذي يتواصل مع مختلف الأعضاء، ويبقى في الظل. عليّ أن أربط وأنسق بين الأعضاء الذين يعمل كل منهم على انفراد، عليّ أن أعد العمل، وأخيرًا وليس آخرًا: أن أكتب الخطب التي يشرح فيها المفوض للرأي العام ما نفعله. والآن، تخيل جسدًا رثته مثقلة بدخان سجائر لا تنقطع، والكبد مرهق بسبب الإفراط في تناول الكحول، والمعدة متعبة من المواد الكيميائية المستخدمة في صناعة الأغذية، وعليك أنت أن تنزع السموم من كل الجسد... وتكتب الخطب التي يعلن بها الفم أن كل شيء في أفضل حال، أن الجهود الكبيرة المبذولة تضمن أن يقوم الجسد بعمله على نحو أفضل، مثلًا من خلال القيام بتر كل الأصابع

وذلك لتوفير وقت قص الأظافر. لم أعد أستطيع القيام بذلك،
مسيو برنفو. بدأ الأمر قبل ثلاث سنوات، آنذاك واجهتني مشاكل
لأنني لم أعد أعمل كما ينبغي. وصلتني دراسة أعدتها جامعة
وبستر وبورتسماوث بالتعاون مع الجامعة الاقتصادية في فيينا...
انتظر!

راح يدق على لوحة الحروف في اللابتوب!

- هنا! لقد احتفظت بها. *The Impact of Fiscal Austerity on*

Suicide Mortality. هذا فظيع. دراسة طويلة الأمد عن العلاقة
بين برامج التقشف المتبعة في اليونان وإيرلندا والبرتغال وإسبانيا
وتطور نسب الانتحار في تلك الدول. لا أريد أن أسبب لك
الملل بالإحصائيات والأرقام، ولكنني سأقرأ لك الفقرة التالية
فقط: مع بداية برنامج التقشف في اليونان قفزت نسبة الانتحار
في السنة الأولى ٤, ١ في المائة، يبدو ذلك قليلاً، رقمًا صغيرًا،
ولكن من فضلك: إنهم بشر. والآن، انتبه: في العام الثالث صعد
المؤشر إلى أعلى على نحو تراجيدي، وهكذا نواجه رقمًا يجعلنا
نتحدث عن وباء، ٢, ٩١ في المائة من حالات الانتحار تخص
أشخاصًا فوق الستين تعرضت رواتبهم بعد التقاعد أو تأمينهم
الصحي إلى التقليل أو ألغى كليةً، وفي العام الرابع زادت
نسبة الأشخاص فوق الأربعين في إحصاء الانتحار، وغالبيتهم
عاطلون عن العمل لمدة طويلة، يعيشون وحدهم. في العام
الخامس يتطابق التراجع في رقم العاطلين عن العمل مع الفارق

الهامشي بنسبة ٨, ٠ في المائة من رقم حالات الانتحار في العام.
والآن، الوجه الآخر، انتظر...

راح ينقر على اللابتوب.

- هنا: إيرلندا. المثال المفضل لدى المفوض الذي أعمل معه.
هنا قفزت نسبة النمو الاقتصادي! هؤلاء هم التلاميذ النجباء!
ولكن ماذا تظهر هذه الدراسة: نسبة الانتحار التي ارتفعت على
نحو تراجيدي من قبل لم تنخفض. تظهر الدراسة أن الازدهار
الاقتصادي لم يصل إلى الأماكن التي دُمرت فيها الشبكة
الاجتماعية من قبل. أتفهم؟

اهتزت طاقتا أنف الرجل الرقيقتان.

- أعترف بأنني كنت غاضبًا عندما قرأت ذلك. كتبت ورقة
للمفوض، لمؤتمر يوم الأربعاء في المفوضية، ولا أزال أتذكر
الجملة الأولى فيها: «نحن قتلة»، وحددت عدة نقاط عليه، أي
على المفوض، أن يقترحها حتى تكون المفوضية أهلاً للقيام
بواجبها، ألا وهو حماية المواطنين الأوروبيين. أرسلت نسخة
من الورقة إلى المدير العام، وهو، على كل حال، مختص
باقتصاديات الدول الأعضاء، على كل حال. منذ ذلك الحين
وأنا أتلقي الشكاوى. إنه الطحال، لم يعد يستطيع تنقية الجسم
من السموم...

في هذه اللحظة دخلت الممرضة.

- مسيو برنفو؟ سأصحبك إلى الفحص بالموجات فوق الصوتية.
اعتذر برنفو لزميله في الغرفة، ومشى في أعقاب الممرضة. كاتب
خطب لا يتوقف عن الكلام، هذا أكثر مما يحتمل. وإن كان عليه أن
يعترف: في الحقيقة فإن هذا الرجل يشبهه، وكأنه رفيق سلاح.

الكدمة الموجودة في ساعد البروفيسور إرهارت -والتي حدثت
له بعد سقوطه على المدفأة في الفندق- تحولت إلى بقعة بلون أزرق
غامق ذات أبعاد محترمة. بدت البقعة كأنها وشم سيئ الصنع يظهر
المساحة الجغرافية لأوروبا.

بعد جلسة المجموعة التي تتأمل في أحوال أوروبا، امتنع البروفيسور
إرهارت عن الذهاب مع الآخرين لتناول وجبة عشاء مشتركة، وهكذا
عاد مباشرة إلى «سانت كاترين» مستخدماً المترو. والآن، ها هو
يجلس في حديقة مطعم ومقهى «فان جوخ» بجانب الكنيسة مباشرة.
خلال سيره من محطة المترو إلى الفندق رأى المحار وسرطان البحر
والكابوريا معروضة على الثلج المجروش، فقرر على الفور أن يجلس
إلى مائدة وأن يستمتع بالطعام والوقت. كانت تلك فكرته حرفياً: أن
يستمتع بوقته. كنوع من التعزية للنفس. وكنوع من العناد. بعد الصدام
المهين الذي حدث قبل ذلك خلال الجلسة.

أكثر ما أثاره هو ما تفوه به ذلك الاقتصادي الألماني في خضم النقاش
الحامي الذي دار بالإنجليزية، إذ قال بالألمانية متوجهاً إلى إرهارت: «لا

تكن متطرفاً!.. متطرف! لقد كان عليه هو بالتحديد ألا يكون متطرفاً في ذلك النقاش الغبي إلى أقصى حدود الغباء. كان خبيراً مالياً يوناني يصف بدقة متناهية كيف حدثت الديون في اليونان، وشرح بسلطة رجل نأى بنفسه واستقر مطمئناً في أوكسفورد أن التغلب عليها لن يحدث إلا بتقليصات عميقة أخرى في نظام التأمين الاجتماعي اليوناني. على الفور وافقه على ذلك باحث سياسي، وتحديدًا من إيطاليا، ودعا إلى ضرورة الالتزام بمعايير الاستقرار. قال ذلك وهو يحرك يديه بالسبابتين المفرودين راسماً رقم ٨ في الهواء وكأنه يقود كورال أطفال. الفيلسوف الفرنسي -في البداية اعتبر إرهارت ذلك شيقاً، أن يُدعى فيلسوف إلى دائرة الخبراء هذه- أصر على تعزيز المحور الفرنسي الألماني من جديد، وهو مطلب وافقت عليه حتى الزميلة الرومانية. تفجر اختلافٌ ضئيلٌ في الرأي بين الألمانين فحسب، اللذين لم يستطيعا الاتفاق حول ما إذا كان على ألمانيا أن تتولى «القيادة في أوروبا» «بثقة أكبر» أم «بتواضع أكبر». هكذا سارت الأمور، وتساءل إرهارت: ماذا حدث لأولئك الأشخاص الذين أفنوا سنوات من عمرهم يدرسون ويكافحون من أجل أن يحصلوا على منصب بروفيسور ويتولوا مناصب ذات مسؤولية، ثم لا يفعلون الآن إلا شيئاً واحداً: أن ينصحوا بتنفيذ سياسة في المستقبل لا تختلف عما يتم تنفيذه من سنوات، وكأنهم عثروا بذلك على الصيغة السحرية المفقودة. صرخ إرهارت عندئذ: إننا لا نحتاج إلى مجموعة خبراء من أجل التوصل إلى هذه النتيجة، إننا بحاجة إلى جريدة صفراء فحسب!

عندئذٍ تفجر النقاش، إلى أن صاح هذا الألماني - الذي كان اسمه مجهولاً تماماً كبروفيسور في الاقتصاد، سواء في جامعته آخن أو في الجامعات الأخرى، متوجّهاً إلى إرهارت بالألمانية: «لا تكن متطرفاً!».

قال بروفيسور بريطاني في علم الثقافات، من جامعة كامبريدج، إن الأساس المشترك لأوروبا هو المسيحية، وإننا نعيش اليوم أن هذا الأساس المشترك الفريد يضع من تحت أقدامنا، سواء من الناحية السياسية المجتمعية عمومًا، أو من ناحية السلوك الفردي.

عندئذ انتفض البروفيسور إرهارت، ثم...

- لا، لا أريد تحليلًا.

احتسى زجاجة النبيذ عن آخرها، ودفع الحساب، ثم انصرف. كان يتوقع حدوث أي شيء، لكنه لم يتوقع أن يرى نسخة كاريكاتورية لكل شيء. يعرف زملاء في عديد من الدول - وكان على تواصل معهم - ومعهم يستطيع المرء أن يتناقش نقاشًا مثمرًا. ثمة مبادرات عديدة، ومؤسسات خيرية، ومنظمات غير حكومية، والمرء يفترض أنها تعرف ما الأشياء المهمة في أوروبا. كان يرسل تلك المنظمات والمؤسسات، ويتابع مدوناتها. ولكن أقل القليل كان يجد طريقه إلى الرأي العام الواسع. ولهذا عقد آمالاً كبيرة على مجموعة الخبراء هذه التي تسمى نفسها «الحلف الجديد» والمتصلة اتصالاً مباشرًا برئيس المفوضية الأوروبية. مجموعة قريبة قريبًا شديدًا من السلطة. ولكن على ما يبدو فإنه لا يوجد بالقرب الشديد من السلطة سوى فقاعات، خالية من المغزى مثل فقاعات الصابون، ولكن لا يمكن إزالتها: إذا ثقتها بسن

دبوس، فإنها لا تنفجر، بل إنها بمرونة وبطءٍ تطير إلى أعلى. تعثر. كاذ. تدارك الأمر. أحجار الرصيف في بروكسل! يجلس الناس في المقاهي على الأرصفة ويرمشون بأعينهم في أشعة الشمس الغاربة. بهلوان يتلاعب بأربع، ست، ثماني، ثماني (!) كرات. عازف الأكورديون. يلقي إرهارت بعملة معدنية في قبعته، كان يعزف أغنية «أيها الصبي، عد لي قريباً!»، السياح يلتقطون باستخدام عصا «السيلفي» صوراً أمام الكنيسة. عبر إرهارت الساحة، لكنه لم يواصل السير إلى الفندق، بل انعطف إلى شارع «سانت كاترين». هام على وجهه، ملقياً نظرة بين الحين والآخر إلى واجهات المحلات، لكنه لم ير سوى وجهه الشاحب بنظارته السوداء وشعره الأبيض الواقف على رأسه وكأن مساً كهربائياً أصابه. وصل إلى شارع «دي بواسينيه»، فرأى على ناصيته مقهى، «مقهى كافكا»، وجد ذلك مناسباً، فدخل وطلب كأس نبيذ. كان الخمر قد بدأ يلعب برأسه. كان دائماً يحب الشراب، ولكنه كان يشرب في المعتاد في لحظات احتفالية، لا بدافع من الإحباط. كان قد طلب في المطعم زجاجة «شابلي»؛ لأنه تعلم أن المرء يحتسي نبيذ «شابلي» عندما يأكل محاراً. كانت زوجته تعرف مثل هذه الأشياء. ترودي. لو كانت على قيد الحياة، لاتصل بها، وقالت له: عليك أن تكون أفضل في الغد. لديك رؤية. لا تسب الآخرين! عليك فحسب أن تحاول شرح رؤيتك.

دفع الحساب وواصل السير. عبر «بوليفار أنسباك»، رأى على يده اليسرى واجهة محل قديم وجميل، بدا وكأنه محل مجوهرات أنيق، مشى في اتجاهه، لماذا؟ ليس بحاجة إلى حلي. ترودة توفيت، وهي

لم تُبدِ يومًا أي ميل للمجوهرات. الواجهة هي ما أثارت اهتمامه. على
اللافتة فوق المحل قرأ: *Mystical Bodies*.

تطلع إلى نافذة العرض. إبر وأقلام، بحجر صغير في النهاية،
رسومات - ما هذا؟ أخيرًا فهم: هذا محل متخصص في «البرسينج»
و«التاتو».

دخل المحل. تطلع إليه شاب يجلس إلى مكتب ضخم ليس عليه
شيء، مثلما يتخيل المرء مكتب رؤساء الدول.

قال إرهارت إنه يريد وشمًا. شعر أن الموقف غير حقيقي، وفي
الوقت نفسه مجسّد مثل حلم ثقيل الوطأة. اعتقد أن صانع الوشم
سيكون من رأسه حتى قدميه مغطى بالوشم، لكن هذا الشاب ليس عنده
وشم واحد، على الأقل وشم مرئي.

- أي خدمة؟

أجاب إرهارت وهو يخلع سترته، ويمد ذراعه في اتجاه الشاب:

- نعم. أريد هنا على ذراعي ١٢ نجمة خماسية، لكي... على هذه
البقعة الزرقاء.

- هذا تورم دموي.

- نعم.

- وتريدني أن أرسم فوقها نجومًا؟

- نعم، من فضلك.

- ولكن لماذا؟

- ألا تبدو مثل أوروبا؟

- نعم؟

- انظر! هنا شبه جزيرة إيبيريا، وهذا الجزء البارز، إنه بكل وضوح
طرف الحذاء ذي الرقبة، أليس كذلك؟

- إيطاليا؟

- نعم. وهنا، أترى حدود الكدمة؟ هذه هي اليونان. هذا واضح
تمامًا.

- أوكي، بكثير من الخيال. ولكن المقاييس ليست صحيحة، إنها،
لا، هذه ليست أوروبا، هذه صورة مشوهة. عمومًا، ستُشفى... أو
هذا ما أتمناه لك على الأقل.

- أنا أرى في هذه البقعة أوروبا. وأريد أن أضيف إليها النجوم. كم
يتكلف ذلك؟

- لا. لن أفعل ذلك. هناك أوعية دموية مجروحة، وشعيرات دموية
انفجرت، لن أغرز الإبرة هنا، لأنني لا أستطيع التحكم في ذلك.
لن ألمس هذه المنطقة. وبعد عدة أسابيع ستختفي هذه البقعة في
كل حال. عندئذٍ سيكون لديك النجوم، لكن الخلفية ستكون قد
اختفت، لماذا...؟

- إذن، لا نجوم لأوروبا الآخذة في الاختفاء؟

- متأسف يا أستاذ، لن أفعل ذلك.

لم يكن أحد في «الفلك» يتخيل أن يشير مشروع اليوبيل مثل هذه العاصفة العاتية في المفوضية. مع أن العاصفة أعلنت عن نفسها مثلما تعلن العواصف الكبرى عن مقدمها: عبر هدوء كاد يكون شبحياً.

بادئ ذي بدء أرسل «يوروستات» الإحصائيات المطلوبة. كان الرد مفصلاً ومطعمًا بالأرقام، لكنه لم يساعدهم.

قال بوهوميل هازًا كتفيه:

- هؤلاء هم خبراء الإحصاء!

- أنت تقصد: خبراء الإحصاء!

- نعم.

بغض النظر عن جداول الأرقام والصيغ والرسوم التوضيحية فقد أخبرهم جهاز «اليوروستات» بشيء أصاب مارتن بدهشة جعلته يقرأ الرسالة ثلاث مرات، ثم ظل ساعة كاملة يحملق في الورقة غير مصدق. قال مارتن لنفسه: ما كتبه الموظف المختص في «يوروستات» يعني في الحقيقة أن الفرد -ورغم كل التوقعات المرتكزة على الإحصائيات- ليس سوى عنصر إزعاج. يمكننا أن نقرأ رسالتهم على النحو التالي: إن الرب بإرادته التي لا تُفحص يحول كل البيانات الإحصائية المتاحة عن الإنسان إلى شيء ناقص لا يمكن الاعتماد عليه، يُظهر في النهاية أن كل البيانات الإحصائية المتاحة عن الإنسان بيانات خاطئة لا يمكن الاعتماد عليها.

قال الموظف في رسالته إننا نعرف عدد النساء والرجال الذين بلغوا التسعين ويعيشون اليوم في أوروبا، ونعرف أن الفارق في العمر المتوقع

للنساء والرجال يضيق كلما تقدم الإنسان في العمر. حسب المتوسط الإحصائي فإن النساء البالغات من العمر تسعين عامًا سيمتد بهن العمر أربع سنوات أخرى، أما الرجال فيُتوقع أن يعيشوا أربع سنوات إلا ربعًا. ولا يمكن أن نحدد إلا على وجه تقريبي عدد الناجين من المحرقة في عام ١٩٤٥. لا بيانات لدينا عن العلاقة بين الرجال والنساء. ولكن إذا افترضنا أن التوقعات المختلفة في العمر للنساء والرجال تضيق وتقترب كلما تقدم الإنسان في العمر، وإذا قمنا بتوقع متوسط العمر بالنسبة للناجين من المحرقة دون تفرقة بين الجنسين حتى نعرف عدد الذين يُرجح أنهم لا يزالون على قيد الحياة، فإن مصير هذه المحاولة الفشل؛ لأن متوسط الحياة المتوقع يختلف من بلد إلى آخر، ولأننا لا نعرف توزيع الناجين على تلك البلاد. ويختلف الأمر باختلاف البلد الذي يعيش فيه الناجي من المحرقة، أي هل يعيش في ألمانيا أم بولندا أم روسيا أم إسرائيل أم الولايات المتحدة؟ كما أن علينا أن نأخذ بعين الاعتبار الحالة المادية للشخص، هل هو مقتدر أم يعيش تحت خط الفقر؟ ثمة تقديرات أعلنها باحث ديموجرافي إسرائيلي في عام ٢٠٠٥، انظر الملاحظات، ووفقها فإن ٤٠ في المائة من الناجين من المحرقة يعيشون على خط الفقر أو تحته. حظ أولئك الناس هو بالتأكيد الأسوأ، ولهذا يمكننا أن نعتقد أنه لم يعد منهم أحد على قيد الحياة الآن، غير أننا لا نستطيع أن نبرهن على ذلك لأن ثمة إحصاء آخر يعارض ذلك: إن الأشخاص الذين نجوا في صباهم من فترات طويلة من الجوع لديهم متوسط حياة مُتوقع أعلى، ويستطيعون حتى في الشيخوخة أن يتأقلموا

جسديًا مع النقص والاحتياج بشكل أفضل من أولئك الذين لم يمروا بهذا الضغط الفسيولوجي من أجل التأقلم. ولكن من المعروف أن جزءًا كبيرًا من السكّان المدنيين، وليس فقط الناجين من المحرقة، قد عانوا من المجاعات في المناطق التي عرفت الحرب أو في المناطق المحتلة، ولهذا ليس من صيغة نستطيع باستخدامها أن نحسب العمر المتوقع والعدد المحتمل للناجين من المحرقة اليوم.

ثم عاد الموظف في «يوروستات» إلى التحدث عما ذكره في البداية عن متوسط العمر المتوقع للذين بلغوا اليوم التسعين: «إذا افترضنا أن أصغر الناجين من المحرقة والذين لا يزالون على قيد الحياة هم من مواليد عام ١٩٢٩؛ إذ إن الحد الأدنى للسن لدى دخول معسكرات التصفية كان ١٦ عامًا، أما الأصغر سنًا، فكانوا يذهبون على الفور إلى غرف الغاز؛ فإننا لا نعرف وفقًا لإحصائيات متوسط العمر المتوقع سوى شيء واحد: ثمة عدد معين من الناجين لا يزال على قيد الحياة. ولكن حتى لو عرفنا عددهم على وجه الدقة، فإننا لا نستطيع أن نجزم بأن الإحصائية لا تزال تنطبق عليهم، أي ما إذا كان المتوسط الإحصائي ينطبق عليهم. لا بد أن كل هؤلاء الأشخاص فوق التسعين، أي أن متوسط العمر المتوقع لهم نظريًا هو بين أربع سنوات إلا ربعًا وأربع سنوات. ولكن، من الممكن في غضون عام أن يكون مائة في المائة من الرقم المجهول بالنسبة لنا في عداد الأموات، أو أن يظل هؤلاء الأشخاص على قيد الحياة بنسبة مائة في المائة. كلا الأمرين يقع داخل حدود هامش الخطأ.» ثم جاءت الجملة التي راحت تتراقص أمام

عيني مارتن وكأنها مكتوبة بالخط السميك: «لكن ذلك لا يدخل في علم الإحصاء، بل في القدر!».

حوّل مارتن هذه الرسالة من «يوروستات» إلى كسينو بعد أن علق عليها. اقترح مارتن بالألا يجيبوا مؤقتًا عن السؤال المتعلق بدعوة أكبر عدد ممكن من الناجين من المحرقة (إذا استطعنا حصرهم) أو دعوة مجموعة صغيرة ممثلة للآخرين (أي ممثلين من مختلف الدول)، أو اختيار ممثل نموذجي واحد يوضع في مركز احتفالات اليوبيل. إن الفاصل الآن هو الحصول على الموافقة العامة على الفكرة التالية: ينبغي أن يكون اليوبيل مناسبة تُظهر للرأي العام الأوروبي العريض أن المفوضية ليست مجرد «الجهة الحامية لعقود الاتحاد» (وهو المكتوب على موقع المفوضية الإلكتروني)، بل هي في المقام الأول حامية عهد أكبر وأكثر شمولاً، أي ألا تتكرر أبدًا القطيعة الأوروبية مع الحضارة مثلما حدث في أوشفيتس. «هذا البند الساري إلى الأبد»، كتب مارتن، ينبغي علينا أن نظهره للناس باعتباره القلب النابض للمفوضية، فهذا هو ما يجعل المفوضية أكثر من مجرد «بيروقراطية»، ويحولها إلى «سلطة أخلاقية»، وعبر عرض آخر شهود المحرقة الأحياء فإننا نكون قد أوجدنا الرابط العاطفي اللازم مع الرأي العام فيما يخص عمل المفوضية. إن الصورة السيئة للمفوضية تركز في نهاية الأمر على النظر إليها باعتبارها مجرد جهاز إداري لمجموعة اقتصادية تمارس سياسة اقتصادية تواجه برفض متزايد من الناس. ينبغي علينا أن نصر على التذكير بالفكرة الأساسية التي عبّر عنها جان مونييه بالكلمات التالية:

«إن كل جهودنا تنبع من الدرس الذي تعلمناه من خبرتنا التاريخية: المذاهب القومية تقود إلى العنصرية والحرب، أي أنها -إذا نظرنا إلى الأمر بشكل راديكالي- تؤدي في النهاية إلى أوشفيتس».

لهذا السبب ألقى أول رئيس للمفوضية، الألماني فالتر هالشتاين، خطابه الأول في أوشفيتس. فيما بعد التقط هذه الفكرة رئيس المفوضية جاك ديلور ثم رومانو برودي. والرئيس الجديد أيضًا تحدث في الاحتفال بتحرير أوشفيتس في السابع والعشرين من يناير، وقال إن «التشابك الاقتصادي للأمم ليس هدفًا في حد ذاته لمجرد تنشيط النمو الاقتصادي»، بل هو «شرط ضروري للمعنى الأعمق للمشروع الأوروبي، وهو كبح الجموح القومي، وبالتالي التغلب على القومية التي تؤدي إلى الضغائن والروح العدوانية ضد الآخر، إلى انقسام أوروبا، وإلى العنصرية ومن ثم إلى أوشفيتس».

وفي الختام كتب مارتن في رسالته الإلكترونية إلى كسينو أنه ينصح بشدة ألا يُمول المشروع من موازنة الاتحاد الأوروبي، بل من ميزانية المفوضية وحدها. بهذه الطريقة لن يكون ثمة احتياج إلى التنسيق مع المجلس والبرلمان (وما يصاحب ذلك من مفاوضات من المتوقع أن تكون طويلة، وإلى حلول وسط غير مثمرة في نهاية المطاف)، كما أن تلميع صورة الاتحاد سيعود فضله كله في النهاية إلى المفوضية وحدها.

أطلعت كسينو مسز أتكينسون على الأمر، وطلبت منها أن يُمول المشروع من ميزانية المفوضية وحدها. غير أن مسز أتكينسون كانت

في تلك الأثناء تواجه مشاكل أخرى. قبل عدة أيام ظهرت في شبكات التواصل الاجتماعي شائعة تقول إن المفوضية - بعد أن تمت رشوتها من قبل جماعات الضغط التابعة لكبريات شركات الأدوية- تخطط لمنع «الهوميوباثي» أو الطب التجانسي. في خلال يوم واحد وصلت إلى المفوضية مليون ونصف مليون رسالة إلكترونية احتجاجية من كافة أنحاء أوروبا، الأمر الذي كاد يؤدي إلى انهيار نظام الحوسبة في المفوضية. نشرت صحيفة «بيلد» الألمانية الخبر بحروف عملاقة كعنوان رئيس على صفحتها الأولى، وإن أضافت إليه علامة استفهام، «هل جن موظفو بروكسل؟» الصحف الأخرى مثل «صن» و«كرونن-تسايتونج» و«بليسك» و«أهولا»، بل حتى «البائس» و«فرانكو سوار»، وأيضا - وإن لم يكن على الصفحة الأولى - صحيفة «ليبراسيون». كل تلك الأخبار الزاعقة صبت في النهاية في نداء للاحتجاج على الشركات الكبرى وجماعات الضغط التابعة لها لدى المفوضية. جلست مسز أتكينسون إلى مكتبها وهي تفرك يديها. كانت أصابعها الطويلة الرقيقة باردة وزرقاء. راحت تدلكها وتضغط عليها في حين راحت تفكر كيف يمكنها أن تواجه هذا الهراء على نحو فعال. البيان الصحفي الذي يتضمن عبارات نفى واضحة لم تذكره أي صحيفة سوى «نويه تسوريشر تسايتونج»، غير أنه أدى إلى سيل جديد من الشتائم في شبكات التواصل الاجتماعي: إننا نعرف الشركات الكبرى التي تستقر في سويسرا. سألت أتكينسون نفسها: لماذا تستمتع وسائل إعلام لا نستطيع وصفها بأنها صحف دعائية معادية لرأس المال بالدعوة إلى محاربة الشركات

الكبرى، وخلال ذلك تهاجم على نحو خاص المفوضية الأوروبية التي تقوم هي نفسها بمكافحة نفوذ الشركات الكبرى التي تعمل بلا ضوابط. ألم تفرض المفوضية منذ فترة قريبة عقوبات بالمليارات على مايكروسوفت وأمازون؟

مسز أتكينسون خبيرة بعلم الاقتصاد، لا بعلوم التواصل، حتى إذا كنت تلك العلوم هي مجال عملها الآن. لقد تولت عملها حتى تحسن من صورة المفوضية، وقد خططت لحملة هجومية، لكنها حتى الآن لا تفعل شيئاً سوى الدفاع. استدعاها رئيس المفوضية بسبب حكاية الطب التجانسي هذه، وسألها ما إذا كانت لديها خطة لوقف هذا الإضرار بسمعة المفوضية، ولجعل الحديث عن إنجازات المفوضية يدور بشكل أفضل.

- نعم، بالطبع.

- ومتى نستطيع أن نرى تأثير هذه الخطة؟

- هذا شيء لا أستطيع أن أحده الآن.

- إنني لن أسمى شيئاً «خطة» إلا إذا كان له تأثير مرغوب على أرض

الواقع، وهذا التأثير يمكن التأكد منه أيضاً على نحو سريع.

أجابت مسز أتكينسون: *Yes, Sir*.

راحت تدلك يديها. لم تساعدنا فكرة فينيا كسينوبولو كثيراً في هذه اللحظة. ولكنها شعرت بالامتنان لجهودها. على المدى المتوسط

أو البعيد ستساعدها. كتبت ترد عليها: «أوافق على التمويل من ميزانية المفوضية، لكنني أرجو أن تمدني بحساب دقيق للتكاليف وقائمة بالموارد اللازمة للتنفيذ، أيضًا فيما يتعلق بالموظفين. إلى الأمام!».

أعطت كسينو مارتن موافقتها. من فضلك، أريد حتى الغد مذكرة للنقاش بين الإدارات. وبها: قدر الأموال الضرورية المتوقعة، خطة زمنية، الموارد اللازمة، أيضًا فيما يتعلق الموظفين، المساهمات المطلوبة من الإدارات الأخرى.

شاعرةً بالواجب والالتزام راحت تبحث عندئذٍ بين كل الأوراق على مكتبها وعلى الطاولة المجاورة وكذلك في الأرفف عن الرواية التي لم تعد تقرأ فيها منذ قرابة ثلاثة أسابيع، الرواية المفضلة لدى الرئيس. لقد حصلت أخيرًا على موعد من مكتبه. كانت مصادفةً جيدةً. لديها الآن شيء تستطيع عرضه: المشروع الذي سيجعل الثقافة - هذه الزهرة الحية المهمة داخل المفوضية - في مركز الاهتمام العام. إن من ينجح في ذلك - وهذا ما ينبغي على الرئيس أن يدركه - يجب أن يحصل على منصب مهم في المفوضية. ومن المفضل أن يكون المنصب في الإدارة العامة للتجارة حيث تستطيع أن تعمل مع فريزر. من ناحية أخرى: هل من الجيد العمل بشكل وثيق مع الرجل الذي... ماذا؟ إنها تخجل من مجرد التفكير في كلمة «الحب». شعرت أن عليه هو أيضًا أن يتعلم تجاوز مسافة مهنية معينة. خلال تناول طعام العشاء عند الإيطالي مؤخرًا كان مهذبًا ولطيفًا مثلما يتعامل المرء مع معارف جدد أو زملاء يقدرهم

الإنسان، ولكن عندما ناما معاً، فقد بكى في النهاية. عندما مسحت دموعه من وجهه، قال لها: هذا مجرد عرق. لكنها كانت متأكدة تماماً أنها كانت دموع السعادة والتأثر.

في تلك اللحظة عثرت على الرواية. كانت تعرف ما تود أن تناقشه مع الرئيس، ولكنها فكرت في أن قراءة كتابه المفضل لن يضر، وأنها بذلك ستكون أكثر استعداداً للقاءه.

راحت تقلب في الرواية، ثم بدأت أخيراً القراءة في مكانٍ ما، ثم توقفت مصدومةً عندما قرأت هذه الجملة: «ذات مرة استدعت إخصائية تجميل لكي تجرب تنويعات مختلفة من الزينة استعداداً للحظة التي سترقد فيها في التابوت، وينظر إليها بحزنٍ عشيقها الباكي.» ما صدمها أنها كانت ترى نفسها الآن في هذا الموقف: راقدةً في التابوت، في أتم زيتها، بابتسامة على وجهها لا يستدعيها إلا التفكير في الحبيب أثناء الدخول إلى الأبدية. ثم فريزر...



الفصل الثامن

”ألقِ بنفسك في المصاعب، المصاعب الجيدة“^(١٥).

(١٥) في الأصل بالإنجليزية: “Get into trouble, good trouble.”

الضوء الأزرق يدور حول السيدة الجالسة وعلى حجرها رجل، يُذكَر منظرها بتمثال «البيتا» لمايكل أنجلو، وفوقها تحلق طائرة إسعاف مروحية. يحتشد الناس، رجالاً ونساءً، عواجيز وشباناً وأطفالاً، يتوافدون ويقتربون من هذا المشهد، البعض يظل واقفاً بعد أن شله الرعب، ويلقي نظرة، لكن الأغلبية شرعت في الركض، الركض تجاه أفراد الشرطة الذين كانوا يقفون في صف بأذرع ممتدة بموازاة طريق السيارات. قف! مكانك! حاولت الشرطة أن توقف الناس، وأن تغلق طريق السيارات السريع حتى تستطيع طائرة الإسعاف الهبوط، ولكن الحشود المتنامية هجمت على أفراد الشرطة وتجاوزتها كما تجاوزت سيارة الشرطة التي وقفت بالعرض. لم يفهم الناس الموقف، لم يروا الجرحى، ولم يعيروا أهمية لحطام السيارات، لم يفكروا إلا في أنهم يمنعون من مواصلة طريقهم، وقد يُطلب منهم الرجوع من حيث أتوا، ربما اعتقدوا أن طائرة الإسعاف المروحية طائرة تابعة للشرطة أو للجيش، إشارة تهديد عاجزة من جانب حرس الحدود النمساويين، لكنها لن تمنعهم، لقد عبروا الحدود المجرية النمساوية، لقد قطعوا كل هذا الطريق، والآن يريدون مواصلة السير إلى ألمانيا، ولن يدعوا أحداً يوقفهم.

كان الصحفيون قد وصلوا أيضًا إلى هناك، وقفوا في الطريق يصورون بالفيديو والكاميرات. وهكذا انتشرت عبر العالم كله صورة «البييتا» في قلب هذه الفوضى: المرأة المحجبة المتشحة بالسواد تجلس على حقيبة، وعلى حجرها رقد رجلٌ يرتدي بدلة رجال الأعمال. على الوجه بدت قطرات المطر كالدموع. باليمنى سندت رأسه، وباليُسرى رفعتها لأعلى، في حين أَلقت برأسها إلى الخلف ناظرةً إلى أعلى، بدت المرأة ذات الحجاب في الصورة وكأنها تتهم السماء. كانت تتطلع إلى الهليكوبتر.

كانت هذه المرأة هي الأسرع في إدراك ضرورة وضع الرجل في وضع مستقرٍّ. كانت تسحب الحقيبة خلفها عندما سمعت الضجيج، تلك الفرقة، شيئًا يشبه الانفجار. دون أن تدرك ما حدث، لاحظت أن الناس يركضون، كلٌّ في اتجاه، يقفزون جانبًا، يصرخون. وفجأةً وجدت نفسها تقف أمام حطام سيارة خرج منها رجل يتأوه.

كان الرجل هو فلوريان سوسمان.

كان الناس الذين يسرون على الأقدام في طريق السيارات السريع يمرون به، كما مرت سيارة شرطة بالنفير والضوء الأزرق، ثم واصلت سيرها لمسافة وتوقفت. لم يعد يسير إلا ببطء بالغ، ثم فرمل السيارة وتوقف. كان قد أشعل الضوء التحذيري. رأى شرطيًا يلوح بعصا مضيئة ويسير نحوه. كان الشرطي يبعد عنه عشرين مترًا تقريبًا عندما صرخَ فجأةً صرخةً جعلت فلوريان لا يرى لجزء من الثانية - كان في الوقت نفسه دهرًا - إلا هذه الصرخة، رأى فم الشرطي المفتوح في لقطة

مكبرة عبر زجاج السيارة الأمامي المبلل بالمطر، لقطة مشوهة إلى حد غريب. في تلك اللحظة هوى الشرطي جانبًا.

لم يتذكر فلوريان، فيما بعد، ذلك الضجيج، الصدمة الفظيعة، والصوت العدواني الصادر عن تحطم الصفيح وفرقة الإطارات المنفجرة، لم يتذكر سوى تلك اللحظة القصيرة التي شعر خلالها بالاندهاش أكثر من شعوره بالصدمة أو الألم، سجينًا في كبسولة ضيقة تدفعها إلى اليمين وإلى اليسار قوة هائلة. لمح، وهو محشور، صورًا باهتة، انزلق مارًا بها، فيلم مشوش، والغريب أنه بلا صوت.

لم يستعد الوعي لبرهة إلا في مستشفى الحوادث عندما حروا جسده من ملابسه بمقص كبير. فتح عينيه والمقص يمر بجذعه، يشق القميص «البولو» الذي انفتح على مصراعيه، لمح وجهًا أمامه، وسمع من يقول: أتفهمني؟ هل تستطيع أن تفهمني؟

قال شيئًا عن الخنازير، الخنازير، لم يكن ما قاله مفهومًا، ثم فقد الوعي من جديد.

كان سائق تاكسي من ولاية بورجنلاند قد قاد سيارته بسرعة جنونية عدة مرات في ذلك اليوم إلى المعبر الحدودي نيكلسدورف كي ينقل لاجئين إلى محطة السكك الحديدية في فيينا، إلى المحطة الغربية، ليواصلوا من هناك سفرهم بالقطار إلى ميونيخ. كان في عجلة من أمره، يريد أن يحضر الركاب الجدد؛ الريح سريعٌ وجيدٌ، دفع كل مسكينٍ من اللاجئين ثلاثة أضعاف الأجر دون أدنى اعتراض. في سرعته المحمومة، وجشعه، وتعجله، لم يلاحظ أن حركة السير أمامه توقفت، فاندفع دون

كابيح مصطدماً بسيارة فلوريان سوسمان.

لقد أنقذت حياة فلوريان تلك المرأة التي رفعته بحذر وأخرجته من سيارته المحطمة بمساعدة ابنها. وضعته على حجرها وسندت رأسه. انكسر عمود فلوريان الفقري العلوي، لكن عملية إنقاذه الحذرة ورقدته المستقرة حالتا دون أن يُصاب النخاع الشوكي، وإلا كان أُصيب بالشلل. لم يدرك فلوريان كل ذلك إلا عندما زاره مارتن في المستشفى ومعه الصحف التي طبعت صورة «البيتا».

- أنت على الصفحة الأولى!

وبسبب هذه الصورة شعر الغرب المسيحي -الذي كان يخشى طوفان المسلمين- بالتأثر العاطفي طوال لحظة تاريخية. والمسلمة التي أنقذت فلوريان أضحت هي السيدة العذراء، «المادونا».

كيف كان سيتغير كل شيء لو لم يتعرض فلوريان لهذا الحادث؟ ربما كان مارتن سيمنع، أو على الأقل سيقبل من الزوابع التي أثارها ورقة اليوبيل التي قدمها، لو كان قد بقي في بروكسل بدلاً من أن يسافر على الفور إلى فيينا لتقديم الدعم والمساندة إلى أخيه. وهكذا تفجرت صراعات وخلافات في المفوضية الأوروبية في الفترة التي كان فيها مارتن يهتم بأخيه، ثم تفاقمت بسرعةٍ بالغةٍ لدرجة تعذر التوصل إلى حل عقلائي، أو حتى حل وسط. ومن المتسبب في هذه الزوبعة؟ من صاحب هذه الفكرة المجنونة؟ مسز أتكينسون؟ كسينو؟ مارتن!

ولكن: هل ثمة مذنبون إذا كان الشخص لم يقم إلا بواجبه؟ ما الواجب؟ الالتزام بالقواعد البيروقراطية والطرق المحددة سلفاً؟ أم الدفاع عن مصالح يلتزم بها المرء، أو يشعر تجاهها بالالتزام؟ كل شيءٍ يفتت ويُطحن عندما يقع بين التروس الكبيرة من أعلى والتروس الصغيرة من أسفل، وفي النهاية لا يحدث شيء، حتى وإن تسبب الضجيج والصرير الناجم عن عملية الطحن في إحداث العصبية والتوتر. مع أن كسينو ومارتن كانا متأكدين تمامًا، قبل سفره إلى فيينا، من أن مشروع اليوبيل سيأخذ مساره بلا عوائق. لقد اعتبروا الهدوء الذي يسبق العاصفة غياباً للحجج المعارضة وموافقةً صامتة. لقد شعروا بالموافقة والحماية عبر ما حصلوا عليه من تشجيع وحماية من «أعلى جهة».

كانت كسينو قد حصلت أخيراً على موعد لدى رئيس المفوضية، وتحديدًا قبل انعقاد اجتماع الإدارات بيومين، وهو الاجتماع الذي دعت إليه لمناقشة مشروع اليوبيل. في الحقيقة لم يكن الموعد لدى الرئيس نفسه، بل لدى رئيس مكتبه. كان ذلك في حد ذاته تكريماً لها، وتقديرًا لعملها، واهتمامًا خاصًا بشخصها، ففي المعتاد لا ينال من هم في درجة كسينو الوظيفية إلا موعدًا لدى أحد العاملين في مكتب الرئيس في أفضل الأحوال. هل كان هذا الامتياز نتيجة لتدخل «فريزر» الذي أوصى بترقيتها؟ من ناحية أخرى: ألم تتوقع أكثر من ذلك؟ ألم تتوقع موعدًا عند الرئيس شخصيًا؟ ألم تهئ نفسها للموعد بكل دقة؟ ألم تدرس سيرته، وخصاله الغريبة، وما يحبه؟ ألم تقرأ خصيلًا كتابه المفضل؟ ولكنها أدركت الأمر عندما وُعدت بالحصول على موعد

(«ما الموضوع؟»، «سنبذل جهدنا!«)، ثم تأجل الموعد أكثر من مرة إلى أن قال لها «فريزر» أخيرًا إن الموعد لدى الرئيس لا يعني سوى موعد لدى أحد العاملين في مكتب الرئيس! لا سيما إذا كان الموظف من قسم الثقافة.

ابتسم، ثم قال لها:

- تخيلي أن الرئيس ليس موجودًا في الحقيقة. بعد جاك ديلور لم تحظ المفوضية برئيس آخر! الذين جاءوا بعده ليسوا سوى دُمى. إن مكتب الرئيس هو الذي يحرك الخيوط. كل كلمة ينطق بها الرئيس يقولها مستشاروه وكاتبو خطاباته. كل ما يقرره، تقرر منذ وقت طويل، وعندما يوقع شيئًا، فإن ثمة مَنْ يُمسك بيده. هل شاهدت في التلفزيون الرئيس خلال أحد لقاءاته برؤساء الدول وهو يشد فجأة رباط عنق أحدهم، ثم يدفع آخر دفعة صغيرة؟ هذا هو الشيء الوحيد التلقائي والمستقل الذي يُسمح لنفسه به، ما يمكن أن نسميه بصمته الشخصية على آلة السلطة، هذه هي لعبته الساخرة: الرئيس -وهو المعلق بخيوط كثيرة- يستهزئ بالوضع عبر حركات الشد والجذب والدفع، وكأنه هو الذي يمسك الخيوط ويحركها بيده. إذن، ستحصلين على موعد لدى الرئيس، ولكن لا تنتظري موعدًا مع الدمية.

بعد ذلك جلست كسينو أمام مدير مكتب الرئيس، رومولو ستروتسي، واسمه بالكامل، حسبما عرفت من ويكيبيديا، رومولو

أوجستو ماسيمو ستروتسي، البرعم الأخير -الذي لم ينجب أطفالاً- من عائلة إيطالية عريقة. تنتشر في المؤسسات الأوروبية عدة نوادر عنه وعن طريقته غير المألوفة إطلاقاً، شخص يعرفه الجميع ويلفت النظر. اندهشت كسينو عندما عرفت أن ذلك يمكن فهمه على نحو حرفي تماماً: ارتدى ستروتسي بدلة زرقاء في جيبيها العلوي منديل أصفر، وصديري أحمر يبرز كرشه ويشده في آن واحد. لم يكن بدينًا، لكن ممتلئًا وكأنه يستعرض -وخصوصًا مع لون الصديري الأحمر التحذيري- أنه ليس زاهدًا في متع الحياة. هذا أمر غير مألوف في هذا المستوى من السلطة حيث يسيطر التكنوقراط من خريجي مدارس النخبة ومدارس تفريخ الكوادر، مثل كلية الإدارة الوطنية في ستراسبورج، رجال شديدي النحافة، يرتدون بدلًا غير غالية وغير مثيرة للانتباه، ويتسمون بالزهد في كل النواحي: قادرون على التفاوض لساعات أو ليال، وكأنهم لا يحتاجون إلى طعام أو إلى نوم تقريبًا، يكتفون بكلمات قليلة، ويتجنبون حلاوة المشاركة الوجدانية حتى لا يرتفع منسوب السكر في أرواحهم، لا يحتاجون إلى الظهور علانية، إذ يكفيهم التمثيل الغذائي الذي يحدث في قلب السلطة، وهم يستغنون عن أي بريق ظاهري. تخلو حياتهم وعملهم من أي زخارف، كل شيء واضحٌ وغير مرئي في آن واحد. بمقدور كسينو أن تقيّم هذا النوع من الرجال بشكل احترافي، لقد تعلمت ذلك وتدرّبت عليه في مدارس النخبة التي درست فيها، كما أنها اكتسبت خبرة مع ذلك النوع خلال عملها حتى الآن. والآن، ها هي تجلس أمام هذا الدوق الإيطالي الذي يبدو قادمًا من عصر الباروك،

الذي يستعرض أمامها كرشه الأحمر، ويتحدث مصدرًا إشارات من يديه وكأنه مايسترو في فرقة موسيقية. راح خاتمه الضخم الذي يحمل شعار العائلة يتراقص أمام عينيها. لم يكن الأمر مثيرًا للسخرية، لقد كان على كل حال باعثًا على الرهبة والاحترام، ولا يمكن توقع أمر غير ذلك مع رجل في مثل منصبه. غير أن سلوكه أصاب كسينو بالارتباك، فلم تعرف كيف تتصرف. لم يكن يتحدث بطلاقة تامة الإيطالية فحسب، بل أيضًا الألمانية والإنجليزية والفرنسية. افتتح الحديث باليونانية القديمة وهو يلحق شفثيه سرورًا وابتهاجًا. وعندما نظرت إليه كسينو وقد عقدت الدهشة لسانها، اعتذر قائلاً إن لغته اليونانية الحديثة بدائية جدًا للأسف، ولذلك فهو يخشى أن تؤلم أذنيها، وأنه ينسى دائمًا أن اليونانية القديمة أصبحت لغة غريبة تمامًا عن اليونانيين كاللغة السواحلية.

قال لها:

- 'Εν ἀρχῇ ἦν ὁ λόγος, 'Αλλ' ὁ λόγος ἦν ἁμαρτοεπής.

- في البدء كانت الكلمة. لكن الكلمة كانت خاطئة.

ثم ضحك وعبر عن أسفه بالفرنسية قائلاً:

- *Je suis désolé.*

اضطربت كسينو إزاء هذا الهجوم المرح. قبل هذا الموعد مباشرة كانت قد حصلت على معلومات حول الكونت ستروتسي حتى تستطيع تكوين رأي حول شخصيته، وحتى لا تُفاجأ، وبالتالي حتى تستطيع خلال المفاوضات أن يكون رد فعلها سريعًا وصحيحًا

بقدر الإمكان. غير أنها لم تدرك سوى الآن، وبعد فوات الأوان، ماذا يعني في الحقيقة كل ما سمعته وقرأته عنه: كان القيصر الألماني الروماني فريدريش الثاني قد رفع آل ستروتسي إلى طبقة النبلاء. تربط العائلة علاقة قرابة ومصاهرة مع طبقة النبلاء العليا في النمسا وألمانيا والتشيك. جد رومولو ستروتسي مجرم حرب؛ إذ إنه كان قائد الفرقة التاسعة من فرق الجيش الإيطالي التي نفذت بين ١٩٤١ و١٩٤٢ في مونتنيجرو إعدامات بالجملة عبر إطلاق النار، أما أبوه فكان في عام ١٩٦٤ -كخريج من الأكاديمية الدبلوماسية- أصغر أعضاء فريق المتفاوضين الذي أعدّ لصالح الحكومة الإيطالية معاهدة الاندماج في المجموعة الأوروبية المشتركة، وهي المعاهدة التي أدت إلى تأسيس المجلس الأوروبي المشترك والمفوضية الأوروبية. العم النمساوي لوالده، نيكولاولس جراف كيفينهولر، نازي متعصب، وأصبح في يناير ١٩٤٥ -أي قبل انتهاء الحرب بشهور قليلة- نائب رئيس مقاطعة كرنتن، وفي شهر مايو اختفى عن الأنظار وسافر إلى إسبانيا، حيث عمل «مستشارًا» للجنرال فرانكو، وظل يعيش هناك بلا مضايقات حتى وفاته عام ١٩٦٧. أما خالة والدته، ماريون فون تبريتس، فقد تزوجت المناضل في المقاومة الألمانية أولريش هيسة، وكانت من الاشتراكيين الديمقراطيين، ونشطت سياسيًا في الإدارة المحلية في هانوفر، كما عملت سكرتيرة في رابطة ضحايا النازية.

تاريخ العائلة كان بالتأكيد مصدر أشهر الأقوال التي تُنسب إلى ستروتسي: أوروبا هي أنا!

- *L'Europe, c'est moi!*

تاريخ عائلي كهذا كان بالطبع ساحراً، لكنه كان أيضاً غامضاً بالنسبة إلى كسينو: كان أمراً غريباً تماماً عنها أن كل ذلك قد يظل حياً ومؤثراً. كانت لديها صورة عن العائلة، بمقتضاها يكون السلف شيئاً مجهولاً لم يعرفه أعضاء العائلة إلا بعد انبثاق عصر التصوير الفوتوغرافي، وحتى آنذاك لم يكن عضو العائلة يعرف عن أسلافه سوى الاسم؛ كانوا في الحقيقة أشخاصاً لا تختلف حياتهم كثيراً عن حياة والديها، أشخاصاً يتضامنون ويساعدون بعضهم البعض، سجناء أوضاعهم، لا بد أن الأمر كان هكذا، إذ لم يتركوا حكايات، ولكن ثمة حالات خاصة بين الحين والآخر، مثل عمها كوستاس، العم الذي عشق عشقاً خالداً، ثم، في النهاية، هناك القطيعة الراديكالية التي قامت هي بها، تاركة كل شيء خلفها. عندما قرأت كسينو في ويكيبيديا المقالة المفصلة عن رومولو ستروتسي لم تترك كل تلك الحكايات عن أصل هذا الرجل وعائلته انطباعاً كبيراً لديها: كان كل ذلك في عينيها محض ضجيج. ستروتسي هو مدير مكتب رئيس المفوضية، أما مقالة ويكيبيديا فتظهره وكأن وظيفته الأساسية هي أنه سليل آل ستروتسي، وهذا ما اعتبرته كسينو جنوناً. ما أدهشها وترك انطباعاً حقيقياً عندها هي معلومة أخرى: لقد فاز ستروتسي بميدالية في المباراة في الأولمبياد الصيفية عام ١٩٨٠: ميدالية برونزية في المباراة الفردية بالسيف.

سألت «فريزر»:

- هل كنت تعرف ذلك؟

- نعم، سمعت. كانت تلك دورة موسكو. يُقال إن ستروتسي استفاد من أن بلادًا كثيرةً جدًّا - لا أعرف عددها بالضبط - قاطعت الدورة آنذاك احتجاجًا على الغزو السوفيتي لأفغانستان. ولهذا لم يشارك بعض أمهر المبارزين في العالم.

- لكنه ربح التصفيات، وكافح، وأحرز ميدالية.

- نعم، لقد فعل ذلك. أتعرفين ما المثير في الأمر؟ هذا ما حكاه لي «كينو» عندما تحدثنا عن ستروتسي: صحيح أن الإيطاليين لم يقاطعوا الدورة، غير أنهم لم يشاركوا تحت علم بلدهم، بل تحت الراية الأولمبية: الحلقات الخمس على خلفية بيضاء. وعند تكريم الرياضيين الإيطاليين الفائزين لم يُعزف النشيد الوطني الإيطالي، بل نشيد الاتحاد الأوروبي، نشيد البهجة لبيتروف. ويُقال إن آل ستروتسي كان لديهم تأثير عظيم على هذا القرار الذي اتخذته اللجنة الأولمبية الإيطالية.

راحت كسينو تنظر إلى ستروتسي، وخاتمه الضخم يتراقص أمام عينيها. أما ما دار في رأسها عن هذا الرجل ذي الكرش الأحمر فهو: ميدالية أولمبية في المبارزة! لم تكن تعرف شيئًا عن تلك الرياضة. ولم ينبغي عليها؟ فاز ستروتسي بميدالية في المبارزة بالسيف، وليس في مبارزة الشيش. لو كانت تعرف الفارق، لاستطاعت تقدير مجرى الحديث على نحو أفضل.

توقعت أن يدخل في الموضوع بلا لفٍّ أو دورانٍ. رجل مثله وقته

محدود. سيسألها مباشرة عما يستطيع أن يفعله من أجلها، ثم يُظهر اهتمامًا أو يتصنع الاهتمام، عندئذٍ يتوجب عليها أن تعرض ما تريده بسرعة بالغة وبدقة شديدة، بهدف أن يتحول رد فعله إلى اتجاه «إظهار الاهتمام». ولكنه قال لدهشتها:

- أتعرفين ما يثير اهتمامي؟ أود أن أعرف رأيك في منع البوركي في رأيك كامرأة. يهمني حقًا. هل ترين أنه يجوز لرجال مثل عمدة نيس أن يقرروا ما يجب أن ترتدي النساء؟ أو بكلمات أدق في هذه الحالة: أن عليهن أن يخلعن ملابسهن؟ على المرأة أن تخلع ملابسها، هذه هي ثقافتنا المسيحية؟ هكذا؟ ما رأيك؟ لو كنت تعرفين عدد الرسائل التي تصلنا بهذا الشأن، والتي يطلب مرسلوها أن تعلن المفوضية موقفها.

عقد الذهول لسان كسينو.

ابتسم ستروتسي، ثم أضاف:

- أطلب أكثر مما ينبغي. رأيي الشخصي أن البوركي يقي النساء من سرطان الجلد.

لم تعرف كسينو ما إذا كان ستروتسي جادًا في سؤاله. هل ينتظر فعلاً أن...

سمعته يقول:

- لكن المطالبات بالمنع تملو يومًا بعد يوم. على أي أساس يمكننا أن نفعل ذلك؟ محاربة التعصب والتشدد؟ لا توجد لوائح تلزمنا

بفعل ذلك. لحسن الحظ. وإلا تحتم علينا أن نوصد أبواب أوروبا ونطفئ الأنوار. علينا عندئذ أن نمنع القفطان والسترايميل و...

- الشنت...؟

- السترايميل. هي القبعة الضخمة من الفرو التي يرتديها اليهود الأرثوذكس.

دون صوت تقريباً قالت كسينو:

- لكنّ هناك فارقاً.

- بالطبع هناك فارق. ثمة فروق في كل الأشياء المتشابهة. وكل ما يختلف عن الأشياء الأخرى، يتشابه! سأقول لك شيئاً: علينا عندئذ أن نمنع أيضاً بدل رجال الأعمال. إنني محاصر هنا برجال يرتدون بدلاً. وكأنهم يرتدون زيّاً رسميّاً. كلهم يشبهون بعضهم البعض. هذا فظيع. وصدقيني عندما أقول لك إن كل هؤلاء الرجال هم -بطريقتهم- متشددون ومتعصبون. هل ستقولين الآن إن عليهم أن يخلعوا بدلهم؟

عاجزة عن النطق حملقت كسينو في ستروتسي، فضحك واتكأ إلى الوراء وفتح ذراعيه عن اتساعهما. ثم انحنى إلى الأمام ولا تزال الابتسامة على شفثيه، لكنه أظهر الآن فضولاً جدّياً، وقال:

- ولكنني لا أريد أن أسرق وقتك الثمين. قل لي مباشرة ما أستطيع أن أفعله لك.

بقوله إنه لا يريد أن يسرق وقتها لم يقلب ستروتسي الموقف
بسخرية فحسب، بل ناوش الخصم مناوشةً دائريةً لخداعه مثلما سيقول
المبارز. لم تستطع كسينو أن تصد طعنته، لأنها لا تعرف ماذا يعني
«صد الطعنة». لم يكن لديها تصوُّرٌ عن مدى تأثير رياضة المبارزة على
الرجل. ولذلك لم تكن - وهي التي تستعد دائماً وبكل دقةٍ لمواجهة
كل موقفٍ - قد استعدت إطلاقاً، في الحقيقة، لمقابلة ستروتسي.
تجنب النية والواضحة للآخر، تحاشيه وخداعه، ثم الاستعداد لمناوشة
الخصم، بالمبارزات الدائرية والهجومية والطاعنة، ثم إصابة الهدف
بعد ارتباكٍ فجائيٍّ غير متوقعٍ يُصيب الخصم. وقبل أن يأتي الخصم
بحركةٍ خاطئةٍ، يكون كل شيءٍ قد انتهى، وتبدأ المصافحة، بتعبيرات
تنم عن الاحترام والتقدير البالغ. وهكذا وجدت كسينو أحد مساعديه
يرافقها حتى المصعد، ثم إلى بهو مبنى المفوضية. خرجت كسينو إلى
الضوء الباهر للشمس التي كادت تنفجر، ثم سارت كالمخدرة عائدة
إلى مكتبها في شارع «جوزيف الثاني». ما هذا الذي حدث؟

لقد أربكها بالافتتاحية غير المتوقعة باللغة اليونانية القديمة، ثم
فاجأها بالانتقال إلى الفرنسية. أجابته بالفرنسية أيضاً، رغم أنها لا
تشعر بالثقة عندما تتحدثها، كانت تفضل الإنجليزية التي تجيدها
- مثله - إجادةً تامةً. لا بد أن ستروتسي يعلم ذلك، فقد حصل بالتأكيد
قبل المقابلة على معلوماتٍ كاملةٍ عنها. بالفرنسية كان يستطيع أن
يدير الحديث بحريةٍ وأناقةٍ أكثر منها وأن يسيطر عليه تماماً. ثم حكاية
البوركيني - هل كان حقاً جاداً؟ لا يمكن أن يكون سؤاله جاداً. لقد كان

الأمر خداعًا بارعًا. استولت عليها الدهشة لدرجة أنها لم تعد متنبهة لما يقول، وفقدت تركيزها. والآن، في طريق العودة إلى مكتبها، لم تكن نتيجة المقابلة واضحة لها. على العكس: لقد قالت لنفسها مرة بعد أخرى أنها أحسنت. راحت تحلل اللحظات المفصلية في الحوار، مرة بعد مرة، وفي كل مرة على نحوٍ جديد، وكأنها تتفرج على فيلم، ثم ترجعه إلى الوراء، إلى أن صارت مقتنعة: نعم، كان انتصارًا. أظهرت نقاط ضعفٍ، ولكنه، إجمالًا، نصر!

كانت تعرف أنه يعرف أنها جاءت لكي تنتقل إلى إدارة أخرى. من أجل هذا السبب التمسّت موعدًا. وكان ذلك هو السبب أيضًا في عدم حصولها عليه لفترة طويلة؛ فالأمور لا تسير هكذا. ودون تدخل ما كانت ستحصل على الموعد أبدًا. لم تتطرق خلال اللقاء إلى هذا الموضوع بحرف. لقد قدمت مشروع اليوبيل. كانت هذه في رأيها هي المقاربة المثلى. سيرز المشروع أهمية المفوضية ومزاياها، ويحسن سمعة المفوضية لدى الرأي العام الأوروبي. هي صاحبة الفكرة والتخطيط، وهي القادرة على التنفيذ. بعد ذلك سيكون واضحًا كالشمس أنها تستحق منصبًا مهمًا في هذه المؤسسة. ليس من الداعي الآن التحدث صراحة حول هذا الموضوع. ما تحتاج إليه هو موافقة الرئيس ودعمه الرسمي. إذا صرح أن الاحتفال اليوبيلي هو رغبته، عندئذ سيكون لدينا موقفٌ لا يمكن التراجع عنه، وعندئذ سيتعاون الجميع. سلمت كسينو ورقة مارتن إلى ستروتسي، وشرحت له الخطوط العريضة للفكرة، ولفتت انتباهه خصوصًا إلى إن الأمر من شأن المفوضية، وليس

من شأن «الاتحاد الأوروبي»، المهم هو تغيير الصورة السائدة عن المفوضية باعتبارها مؤسسة من البيروقراطيين الذين يعيشون في أبراج عاجية، وتقديمتها كمدافعة عن دروس التاريخ وحقوق الإنسان. ولهذا من المهم أن يُمول المشروع من ميزانية المفوضية وحدها، كما أن المشروع بحاجة، بالطبع، إلى الدعم الكامل من الرئيس. هذا المشروع يقع بالتأكيد في دائرة اهتمام الرئيس، لا سيما في فترة كهذه تعاني فيها المفوضية من مشكلة حقيقية في سمعتها، ووفق تصورنا ينبغي على الرئيس أن يفتتح الاحتفال بخطاب يتحدث فيه الرئيس عن مبادئ...

قاطعها ستروتسي معلناً موافقته قائلاً: *D'accord, d'accord*.

- أعتقد أنني لن أبلغ في شد قوس صلاحيات منصبي إذا...

- عفواً؟

رد مبتسماً:

- أعتقد أن لديّ السلطة بأن أعطيك الآن الموافقة دون الرجوع إلى الرئيس: الرئيس يدعم الفكرة وسيلقي خطاباً في حفل الافتتاح. وسأكلف أحداً بعد لقائنا مباشرة بإعداد محضر لهذا الحديث يتضمن الموافقة، وسيُرسل إليك اليوم.

كان ذلك هو انتصار كسينو. لقد حصلت على ما تريده. كانت تردد ذلك لنفسها عندما وصلت إلى ٧٠ شارع «جوزيف الثاني»، وذهبت لتحضر أولاً قهوة من الكانتين. كانت تسير بقهوتها في الفناء قاصدة إحدى الموائد التي كان يجلس حولها اثنان من «السلمندر».

جلست معهما، وشعرت فجأةً بشعور دافئ من التعاطف مع الكونت ستروتسي. نعم، يجب منع بدل رجال الأعمال. تساءلت عن إذا كان لدى أحد سيجارة. كانت تلك هي لحظة تدخين سيجارة استثنائية. ارتد الموظفان إلى الوراء وكأنها سألت عن سم أو أفيون. في تلك اللحظة دخل مارتن وبوهوميل إلى الفناء، وفي يد كل منهما كوب من القهوة. أشارت كسينو إليهما كي يأتيا، وقالت: *Good news*.

- مشروع اليوبيل أصبح من الآن رغبة الرئيس. هل لدى أحد سيجارة لي؟

انتابها شعور غير مريح. أزاحته. أزاحت ما قاله ستروتسي في نهاية الحديث، جملتين أو ثلاث جمل عن التخطيط اللاحق:

- آه، سأهتم أنا بكيفية إشراك الدول الأعضاء في المشروع.
 - الدول الأعضاء؟ أي المجلس؟ لماذا؟ لقد اتفقنا على أن المشروع هو شأن المفوضية.
 - نعم، طبعًا. ولكن الدول الأعضاء هي التي أسست المفوضية.
- ردت كسينو:

- *Bien sûr.*

لم تنتبه كسينو جيدًا عندما قالت «طبعًا». هذه الكلمة كشفت ظهرها تمامًا، فلم تلاحظ طعنة السيف. وعلى الفور أنهى اللقاء. بهذه الكلمة، «طبعًا»، أصبحت المؤسسات الأوروبية، أي المجلس والبرلمان، شريكة في الأمر، تلك المؤسسات التي -وكما اقترح مارتن لأسباب

وجبهة- كانا يريدان أن يستبعداها من المشروع. وبدلاً من أن يتعاونوا جميعاً على شد حبل واحد، فسوف يشدون كره من الخيوط المتشابكة، فتتعدد المصالح بدلاً من أن تجتمع.

بعد مرور عدة أيام لم تعد لدى كسينو -التي كانت تطمح إلى الظهور- سوى رغبة واحدة: أن تختفي، وأن تلقي كل شيء على أكتاف مارتن الذي كان في تلك الفترة يجلس على فراش أخيه في مستشفى «لورنتس بولر» للحوادث في فيينا.

قبل سفره عُقد الاجتماع بين الإدارات المختلفة. وهناك سارت الأمور أيضاً على أحسن وجه. تجاهلت معظم الإدارات العامة الجلسة. كل موظف في المفوضية يريد أن يحرز تقدماً في مشروعه، يشعر بانزياح عبء كبير عندما يواجه باللا مبالاة العامة. هكذا يستطيع صاحب المشروع أن يخطو خطوات كبيرة، دون أن يجد نفسه مجبراً على مواجهة آراء عديدة لا تُحصى، أو آراء مضادة، أو اقتراحات غير مثمرة، أو نقد تافه، وهكذا يخلق وقائع لا يمكن التراجع عنها، فهم اطلعوا الجميع على الأمر.

بالطبع حضر الاجتماع موظف من «الإدارة العامة للتواصل»، فالمشروع كان في الأصل مبادرة من مسز أتكينسون، كما أن كسينو على اتصال منتظم مع الإدارة. كما حضرت ممثلة إدارة «الهجرة والشؤون الداخلية»، وتبين أن حضورها مفيدٌ للغاية، لأن إحياء ذكرى الهولوكوست جزء من مهام تلك الإدارة العامة، ولهذا فإنها تستطيع أن

تشارك بعلاقاتها وإمكاناتها. وحضر شاب من إدارة «التجارة» -وهو ما رتبته «فريزر»-، وكان واضحًا أنه على علم بمشروع كسينو، غير أنه لم يفعل شيئًا سوى كتابة بعض الملاحظات، وهز رأسه موافقًا بين الحين والآخر. المفاجأة كانت مجيء موظف من إدارة «القضاء وحماية المستهلك» وهو أمر له علاقة -كما اتضح- بأن الموظف المختص في هذه الإدارة بالتعاون مع إدارة «الثقافة» هو حفيد أحد الناجين الفرنسيين من الهولوكوست. أثار ذلك اهتمام مارتن على الفور: هل لا يزال جده وجدته على قيد الحياة؟ للأسف لا. منذ ما يزيد عن ثلاثين عامًا.

- لا أحد من «الزراعة»؟

هكذا تساءل مارتن ساخرًا في بداية الاجتماع. الإدارة العامة للزراعة هي القطاع الذي يحوز أكبر موازنة، إدارة تشبه دولة داخل دولة، سياستها هي فرض مصالحها بكل قوة، ولكن من المعروف عنها أنها لا تظهر إلا اهتمامًا محدودًا بمصالح الإدارات العامة الأخرى. على ذلك عَقِبَ مندوب قسم التواصل قائلاً:

- يصبح الفلاحون مسؤولين عندما ينتهي الأمر ويمر وقت كاف لنمو العشب فوقه، كما يقول المثل.

بالطبع لم يكن أحد في الاجتماع معارضًا لإطلاق حملة كبيرة لتحسين سمعة المفوضية، كما أن أحدًا لم يضع الفكرة موضع تساؤل، فكرة جعل الناجين من أوشفيتس محورَ الاحتفال بيوميل المفوضية. كما أن المعلومات المتداولة بخصوص أن هذا المشروع من بنات أفكار الرئيس -وهو ما تأكد قبل الاجتماع- أعطى دفعةً إضافية لقبول ورقة

مارتن بشكل عام، بحيث لم تُناقش سوى بضع نقاط عملية وتنظيمية: الجدول الزمني، الأموال، الموارد اللازمة، أيضًا فيما يتعلق بالموظفين. بعد أقل من ساعة ونصف كان الاجتماع قد وصل إلى نهايته، وبدا أنه جاهز للانطلاق بشكل نهائي.

عصر يوم الجمعة. في طريقه إلى المنزل اشترى مارتن سوسمان في محل الأجبان بجانب مطعم «فيو مارشييه» خبز «الباجيت» وزجاجة من نبيذ «صانسير» الأبيض، وتشكيلة صغيرة من الجبن. البائع الشاب الذي جرى ريقه وهو يقطع باستمتاع الجبن ثم لفه بحب، ألح عليه أن يجرب مستردة التين من إقليم التيسين السويسري، وهي مستردة واردة حديثاً إلى المحل. قال له:

- لن تصدق، لكنه أفضل من مستردة التين من منطقة بورغونية الفرنسية.

ولحماسته الشديدة قبلَ البائع أنامله مصدراً صوتاً. ثم أضاف:

- ومع جبن الماعز لا بد أن يأكل المرء مستردة التين، ولكن لمن أقول ذلك، أنت خبير وتعرف. ولكن هذه المرة لا بد أن تجرب المستردة من تيسين.

قال مارتن الذي لم يشتر من هذا المحل يوماً مستردة التين:

- إذن، سأخذ هذه المرة مستردة تيسين.

في البيت وضع مارتن الجبن على طبق فوق المائدة، وإلى جانبه المستردة. جبنة ومستردة؟ قطع كسرة خبز، طعمها مثل القطن. كان

الطقس حارًا وخائفًا، فخلع مارتن الحذاء والسروال، وفتح الشباك. لم يكن النبيذ باردًا. وضع الزجاج في «الفريزر»، وأخرج من الثلاجة زجاجة بيرة «جويليه»، ثم وقف أمام النافذة المفتوحة ناظرًا إلى الميدان. راح يرتشف البيرة من الزجاج، ويدخن سيجارة ملقيًا نظرةً من النافذة على الحياة الصاخبة بالأسفل، سقط رماد سيجارته، وفي الطبق ذاب الجبن وسال.

الصورة التي وقع عليها بصره من النافذة ذكرته بكتاب مصور للأطفال كان يعشقه، كان يقلب فيه ويتمعن في صوره طويلًا قبل حتى أن يستطيع القراءة. كان عنوانه «المدينة»، كتاب من الحجم الكبير يبحث فيه الطفل عن الصور، صفحاته من الكارتون المقوى السميك تظهر صورًا ملونةً صاخبةً. لم يكن عند أمه أبدًا وقت لتصفح الكتاب معه، وهو لم يعد يتذكر من أهدها الكتاب، ولكنه كان بالتأكيد هديةً، فوالده لن يشتري له كتابًا كهذا أبدًا. ولكن فلوريان، أخاه الأكبر، كان يجلس معه أحيانًا في المساء على السرير، ثم يشاهد معًا صور الكتاب، مثلما يشاهد الآن الميدان:

أين بائعة الزهور؟

هنا!

أين الشرطي؟

هنا!

أين ساعي البريد؟

هنا!

أين سيارة الإطفاء؟

هنا!

أين النافورة؟

هنا!

أين كشك بيع الخضراوات؟

هنا!

أين الرجل الذي يرتدي سروالاً قصيراً ويحمل آلة تصوير؟

هنا!

أين السيدة التي تحمل شنطة التسوق؟

هنا!

أين الجنود بالمدافع الرشاشة؟

هنا، هنا، هنا، هنا وهناك!

رن هاتفه الذكي. حذق مارتن في الشاشة، لم يكن يعرف الرقم، فاستقبل المكالمات.

بحالته هذه، بالسروال الداخلي وبزجاجة بيرة في يده، وهي يسدد نظرة فَرَعة إلى «المدينة»، عرف مارتن أن أخاه يرقد في مستشفى الحوادث.

عندما بلغ ألويس إرهارت الثانية عشرة، أصبح عضوًا في نادي «مارياهيلف» الرياضي، وهو نادٍ رياضيٌّ تابعٌ للحي، صغيرٌ ونشطٌ. حسب ذاكرة إرهارت كان الانضمام إلى النادي رغبة الوالد، وليست رغبته هو. لم يكن ثمة مجال للنقاش: على ألويس بالطبع أن يصبح عضوًا في «النادي». وإلا، ماذا سيقول الناس؟ ابن بائع مستلزمات الرياضة ليس رياضيًّا؟ كان العالم أصغر آنذاك، وكانت «هوية الحي» تلعب دورًا كبيرًا في فكر الناس. إذا كان المرء يعيش في الحي السادس، فعليه أن يعرف كل شيء، مَنْ وماذا وكيف ولماذا، مِنْ شارع «لايمجروبه» إلى «ماجدالينين - جروند»، هبوطًا إلى «جومبندورف» وصولًا إلى شارع «لينكه فينتسايله». ما زال ألويس إرهارت يتذكر والده وهو يتحدث بحماسة عن عُرس أُقيم في كنيسة «سانت إيجيد» في ميدان «جومبندورف»:

– كان ذلك أجمل عُرس في مارياهيلف!

قال: في «مارياهيلف»، ولم يقل في فيينا! فالشخص الساكن هناك هو ابن «مارياهيلف»، وعندما يتمشى في هذا الشارع في اتجاه الحي الأول، مارا بـ"بابنبرجر شتراسه"، فقد كان عندئذٍ يذهب إلى المدينة». في مقهى كافكا في شارع «كابيستران» كانوا يقولون إن ابن «إرهارت الرياضي» لا يرى إلا ومعه كتب فقط، ولم يره أحد ممسكًا بكرة أبدًا. وهكذا أصبح ألويس عضوًا في «النادي». كان عليه أن يختار «فرعًا». التمارين الرياضية الخفيفة مستبعدة، هذا شيء للنساء. الجمباز كان مجهولًا تمامًا له، وكان يخشاه في المدرسة، في حصة الرياضة لم

يكن يستطيع أن يلف لفّة واحدةً على العقلة. لكنه وجد معلم الجمباز في النادي شخصًا مرحًا ولطيفًا: يانوس جورجي، لاجئ مجري يبلغ من العمر ستة وخمسين عامًا، كان يسمي نفسه «يانوس أبو الجمباز»، كان يستقبله بلكنته المجرية الساحرة: «يمكنك أن تقضي ما شئت من وقتٍ في غرفة الجمباز، فالأشرار لا يلعبون الجمباز!» فعلاً، الأشرار لا يلعبون على العقلة أو المتوازي أو الحصان! اشتهر النادي بفرع الملاكمة، وكان يُخرّج الأبطال النمساويين في ثلاثة أوزان. قرصَ مدرب الملاكمة، توني مارشارت، ألويس في عضده، وقال بصوت مبحوح شيئاً غير مفهوم، ثم نظر إليه باحتقارٍ بالغٍ أكّد رأي ألويس في الملاكمة، وهي أنها ليست رياضةً، بل سلوكًا شاذًا يقوم به مجانين. كان على استعداد لتسجيل اسمه في فرع كرة القدم، فقد كان يعرف قواعد اللعبة، حول كرة القدم كان النقاش يدور أيضًا في المدرسة، إذن سيستطيع عندئذٍ أن يتحدث بفهم أفضل. قال لنفسه إن كل ما عليه هو أن يجري قليلًا دون أن يلفت الأنظار، فهناك من الآخرين من يريد دائمًا أن يحوز الكرة بأي وسيلة.

الكرة.

ذات يوم أعطى المدرب، السيد هوراك، ألويس كرة النادي ليأخذها معه إلى المنزل بعد انتهاء التدريب، الذي كان بالأحرى معركة في الوحل في ملعب دنتسل خلال المطر المنهمر. آنذاك كان اللاعبون لا يزالون يلعبون بكراتٍ جلديةٍ مخيطةٍ يدويًا، كرات «حقيقية»، ولهذا كانت ثمينة، وباللعب بها كان أعضاء النادي أرفع درجة من صبيان

الشوارع والحارات الذي كانوا يعلبون في الحدائق بالكرة «الشراب» المحشوة بقصاصات من القماش، أو بالكرات البلاستيكية الرخيصة التي تشبه البالونات.

كانت مهمة ألويس أن يعتني بالكرة هذه المرة، أي تنظيف الكرة التي عانت كثيرًا من الطين والقذارة وماء المطر، وأن يسد الشقوق والفتحات الصغيرة في السطح الجلدي بورنيش خاص، ثم - بعد أن تستعيد الكرة «عافيتها» عليه أن ينظفها بالفرشاة ثم يلمعها، «وكانها حذاء ستلبسه عندما تقابل القيصر».

ابتسم ألويس إرهارت ابتسامة داخلية. في الحقيقة، قال لنفسه، لقد تعلم آنذاك شيئًا لم يستطع فهمه على الإطلاق: كيف أن التاريخ يستمر تأثيره بعناد، حتى في الأشياء التافهة.

ربما غلبت السيد هوراك نوبة تربوية عندما كلفه بهذه المهمة، فاعتقد أنه يستطيع أن يحث ألويس على بذل المزيد من الجهد وأن ينصهر أكثر مع النادي. ربما لاحظ السيد هوراك أن ألويس لم تعد لديه رغبة في الذهاب إلى النادي، أو تحمل عذاب التدريب، وأن يجلس خلال المباراة على دكة الاحتياطي كدعاية متحركة لوالده، إذ كان الوحيد الذي يلبس أحدث أحذية كرة القدم المزودة بدعامات يمكن تغييرها. هذه الأحذية يمكن الحصول عليها لدى «إرهارت الرياضي».

إذن، أخذ ألويس الكرة معه إلى المنزل، وكان عليه أن يعيدها يوم الأحد قبل المباراة ضد فريق «أوتاكرينج»، وهي إحدى أهم مباريات الموسم، فالتنافس شديد مع هذا الفريق: كان فريق «مارياهيلف» يطلق

على «أوتاكرينج» باحتقار «البافاريين» أو حتى «الجرمان». كان للأمر أسباب تاريخية لم يعد أحد يعرفها بدقة. يُشاع أن «أوتاكرينج» كضاحية من ضواحي فيينا قد تأسست على يد المهاجرين البافاريين. على نحو ما انصهرت هذه الأسطورة آنذاك مع تلك الكراهية المنتشرة تجاه الألمان، الذين يُطلق عليهم في النمسا «بيفكيس»، وهم في نظر النمساويين المسؤولون بالطبع عن كل الكوارث التي حدثت في الحرب وبعد الحرب وخلال فترة الاحتلال. كان ذلك أمرًا مضحكًا، لكنه تسبب في إشعال نار الحماسة التي كانت سائدة على كل حال بسبب التنافس التقليدي بين الأحياء الواقعة في مركز المدينة مع الأحياء الواقعة على أطرافها. وصل فريق «أوتاكرينج» إلى الملعب إذن. ولم يكن بحوزة فريق «مارياهيلف» كرة.

كانت الكرة تقبع في غرفة ألويس، في ركن مظلم بجانب خزانة الملابس. لم يحضر ألويس للمباراة. عندما قرر ألا يذهب إلى النادي بعد اليوم، نسي الكرة ولهذا لم يعيدها.

يمكننا أن نتخيل القيل والقال الذي تم تبادلته يوم الاثنين في مقهى كافكا بشارع كابيستران. لم يستطع الأب إرهارت أن يزيل آثار الفضيحة إلا بعد أن تبرع للنادي بكرة «حقيقية» جديدة تمامًا، وكذلك بطقم فانلات. كما أخذ يؤنب ابنه.

جلس ألويس إرهارت على مقعد في مدافن بروكسل، ملقيًا رأسه إلى الوراء ومغلقًا عينيه، وعلى شفثيه ابتسامة. لماذا تذكر هذا كله الآن؟ أن تكون شخصًا يُعتمد عليه، قال له أبوه، هذا هو أهم شيء في

الحياة. افعل ما شئت، ولكن ينبغي أن تؤمن إيماناً تاماً بهذا القانون: تجاه مجموعتين من الناس عليك أن تكون شخصاً يعتمد عليه ويوثق به بشكل مطلق، تجاه الناس الذين تحبهم، وتجاه الناس الذين تحتاج إليهم.

رد ألويس:

- أنا لا أحب السيد هوراك.

حدق فيه الأب صامتاً.

- كما أنني لا أحتاج إليه.

- هل أنت متأكد؟ هل أنت متأكد من أنك لن تحتاج إليه؟ أو إلى

أي من زملائك في الفريق؟

حدق ألويس في الأب صامتاً.

- إذن؟ هل فهمت؟ كرر ما قلته لك.

- عليّ أن أكون شخصاً يعتمد عليه.

- تجاه من؟

- الذين أحبهم، والذين أحتاج إليهم.

- لا، يا بني، لقد تجاوزنا هذه النقطة. إذن: تجاه من؟

حدق ألويس في الأب صامتاً.

- عليك أن تكون دائماً شخصاً يعتمد عليه. مبدئياً. تجاه الذين

تحبهم، هذا أمر بديهي. ولكن أيضاً تجاه كل الآخرين؛ لأنك لا

تعرف أبداً من ستحتاج إليه، ومن يستطيع أن يلحق بك الضرر.

إذن؟

- عليّ أن أكون دائماً شخصاً يُعتمد عليه.
- وإذا وعدت بشيءٍ، فماذا عليك أن تفعل؟
- أن أفي بوعدِي.
- وإذا قبلت القيام بمهمةٍ، فماذا عليك أن تفعل؟
- المهمة عليّ، عليّ...
- أن تقوم بها، نعم.
- إذا انتظر منك أحدٌ شيئاً، ولم توضح على الفور أنك لا تستطيع أن تقوم بذلك، وإذا لم تكن عندك أسباب وجيهة لرفض القيام بذلك، فماذا ينبغي عليك أن تفعل؟
- حدق ألويس في الأب.
- بالضبط: أن تقوم بذلك. لا أريد بعد اليوم أن يلومني أحد في «كافكا» أنني لم أستطع تربية ابني. هل فهمت؟
- نعم، يا أبي.

لماذا تذكر ألويس إرهارت كل ذلك الآن؟ تأثر بعض التأثر، وشعر ببعض المرح وهو يجلس على المقعد في مدافن بروكسل، ينظر إلى أحد المقابر، وينتظر.

شعر بالغيظ لأنه سافر مرةً أخرى إلى بروكسل، لحضور الاجتماع

الثاني لمجموعة خبراء «الحلف الجديد من أجل أوروبا». شعر بالغيظ عندما حجز رحلة الطيران، وشعر بالغيظ عندما حزم حقيبته، وعندما جلس في التاكسي في طريقه إلى المطار، وفي الطائرة كان يغلي غضبًا من نفسه، كان عدوانيًا مع الموظفة الشابة ذات الصوت العصفوري التي تعمل في قسم الاستقبال بفندق أطلس؛ لأن كل شيء كان يثير أعصابه: مدعو الأهمية في بروكسل الذين يجرون حقائبهم خلفهم، هذه النخب المهمة المدعوة لاجتماعات، تبادل العبارات الجوفاء، التحول الهامس من أفكار عديمة القيمة إلى هراء متعدد اللغات، لقد بدا له الأمر عبثيًا، لا طائل منه إطلاقًا، وقتًا مهدرًا. كان يريد أن يرمي الكرة في الركن وينساها.

لكنه وافق على الحضور. كان عضوًا في هذا الفريق. أكثر من ذلك، لقد أعلن استعداداه للقيام بإلقاء الكلمة التي تفتح هذه الجولة الثانية من المشاورات. لقد تعهد بالقيام بهذه المهمة. الكرة لديه. ولهذا جاء إلى هنا، فهو شخص يعتمد عليه.

ابتسم.

كان عليه أن يفعل ذلك. الخصلة راسخة بداخله، أن يستطيع الآخرون الاعتماد عليه، وهي جعلته يتقدم كثيرًا في حياته. من «مارياهيلف»، ثم حول العالم، وصولًا إلى ذاته. مقارنةً بذلك، ما وزن خيبة الأمل التي شعر بها خلال اللقاء الأول لمجموعة الخبراء؟ ما وزن ذلك الاحتقار التافه - نعم، عليه أن يعترف، وهو المحب للناس، نعم، ما وزن ذلك الاحتقار الذي شعر به تجاه أعضاء المجموعة؟

هل يمكنه أن يعمم ويقول ذلك؟ إنهم كلهم يستحقون الاحتقار؟ هناك فروق. على الأقل درجات من الاحتقار، ودرجات من الفعالية. قسم البروفيسور إرهارت أعضاء مجموعة الخبراء إلى ثلاثة أقسام: هناك المغرورون. حسنٌ، في الحقيقة كلهم مغرورون، وهو أيضًا على نحو ما. ينبغي أن يكون المرء دقيقًا: ثمة أعضاء ليسوا سوى مغرورين. بالنسبة إليهم كانت مجموعة الخبراء تتمتع بأهمية قصوى؛ لأنهم أعضاء فيها. لا تتعدى أهمية المجموعة ذلك؛ لأن المهم هو الإحساس بأهمية الذات، وإرسال إشعاع ذلك الإحساس إلى الآخرين. إرهارت يعرف أولئك الأشخاص جيدًا، ويعرف كيف يتهامسون بنبرة توشي بالأهمية في بيوتهم، أو في الكليات الجامعية أو المؤسسات الأخرى التي يعملون بها: «بالمناسبة يا زميلي، عليّ أن أسافر غدًا إلى بروكسل، أنت تعرف أنني عضوٌ في مجموعة المستشارين لرئيس المفوضية الأوروبية!»، هذا هو أكسير الحياة بالنسبة إليهم: التأثير الذي يمارسونه على محيطهم المهني المباشر، الفخر بالوصول إلى هذه المكانة السامية التي تتيح لهم عدم الإصغاء إلى الآخرين، إنهم يعيرون آذانهم للآخرين فحسب. بسهولة يمكن إشعال حماسهم، حماسهم لأنفسهم، عندما يتحدثون ويستفيضون في العرض البلاغي للسعادة الخالصة التي يعيشون فيها لأنهم يشاركون برأيهم في الأحداث. طوال حياتهم لم يفكروا في فكرة واحدة أصيلة، كما أنهم لا يستطيعون فهم أو الاعتراف بتلك الأفكار التي لم يلوكها أشباههم مئات المرات ويزودونها بالهوامش والمراجع خشية الوقوع في خطأ. لا خطر منهم في الحقيقة. حقًا؟ إنهم أولئك

الذين يكونون الأغلبية إذا تعلق الأمر بإصدار قرارات في مجموعات كمجموعة الخبراء.

وهناك المثاليون. لكن: أليس الجميع مثاليين على نحو من الأنحاء؟ هو أيضًا. غير أن المثل التي يطمحون إليها مختلفة. ما يبدو لأحد مثاليًا يُبتغى - فلنقل مثلاً أن يكون للشخص دخل أكبر عدة مرات من الآخرين؛ لأنه يعتبر ذلك مكافأةً عن إنجازه في المجتمع الذي يقدر الإنجاز- يتناقض مع المثال الذي يطمح إليه آخر، وهو عدالة التوزيع. هذه محض أمثلة تافهة تناقش فيها إرهات في الفصل الأول الذي دَرَسَ فيه علم الاقتصاد. في الواقع فإننا لا نطلق لقب «مثالي» إلا على الأشخاص الذين لا يستفيدون من مثالياتهم. ما هم إلا مثاليون. لقد كانوا في البداية شركاء في تحالف واحد ضد المغرورين، لكن بسرعة شديدة فشل التحالف بسبب وجود نقطة معينة أو تفصيلة محددة كانت تتعارض مع مثالياتهم المُنكرة للذات. عندئذ كانوا يعترضون. كانوا منكرين لذاتهم إلى حد أنهم - "حتى يستطيعوا أن ينظروا لأنفسهم في المرأة" ويروا أنفسهم - لا بد أن يكون لديهم شيء ليس عند سواهم. هم متفردون. وعندما تأتي ساعة التصويت واتخاذ القرارات، يصبحون فجأةً متقبلين للحلول الوسط، ويصبح همهم أن يمنعوا شرًا أكبر بالموافقة على شرٍّ أصغر. غير أن «المثاليين فحسب» لا وزن لهم في الغالب عند تشكيل أغلبية، فعددهم قليل جدًا. في المعتاد يكفي «المغرورون فحسب» لتكوين أغلبية. ولكن يلفت النظر أن المثاليين يصوتون في المعتاد مع المغرورين. الظاهر أن المألوف والمفهوم

من تلقاء ذاته يبدو لهم أقل خطرًا، أو كشرٌ صغيرٌ مقارنةً بالمجهول والمُضمر الذي لا يتفق مع ضمائرهم. تلاعب سخيٌ بالكلمات، قال إرهارت لنفسه، مُضمر وضمير، اعتذر لنفسه. من ناحية أخرى، ليس سيئًا، هذا التلاعب بالكلمات. ابتسم. على كل حال، هذه التحايل يسير بشكل مدهش: الشيء المؤكد، الشيء الواقعي الذي يظهر مدعمًا بالجداول والإحصائيات، بالمربعات والأسهم، وما يمكن فعله على نحو واقعي، ثم مربعات وأسهم أخرى، على السبورة الورقية تُملاً ورقة بعد ورقة بالمستطيلات والأسهم، بالأقلام الملونة، يكفي الحركة التي تُقلب بها الصفحة وتُلقي إلى الخلف، هذه الحركة كان بها شيءٌ عظيمٌ، شيءٌ ديناميكيٌّ، وبحركةٍ واحدةٍ يخفني كل شيء! وعلى ورقة جديدة مستطيلات جديدة تتصل ببعضها البعض بالأسهم... لكن: ما هكذا يسير العالم، ولا أي عالم مضاد، وبالتأكيد أيضًا فإن العالم المقبل لا يسير هكذا. رغم ذلك لا بد من رسم مستطيل للمثاليين، ثم كتابة مثال من مُثُلهم داخله، ثم رسم عدة أسهم تنطلق من هذا المستطيل صاعدة إلى الرئيس، وعدة أسهم من أسفل إلى هذا المستطيل، وخلال ذلك يصيح المتحدث بالإنجليزية: *Demand-driven* (وفقا للطلب) *bottom-up* (من أسفل إلى أعلى) وليس *top-down* (من أعلى إلى أسفل)، وفي التو يكون المتحدث قد صنع شبكةً من الأسهم والخطوط المتشابكة التي تصل بين المستطيلات والمربعات، وفيها يجد المثاليون أنفسهم سجناء.

عندئذٍ يتسم أعضاء المجموعة الثالثة: يتسمون عارفين، مثل

الحمقى، ولكن هم يعرفون أكثر، ويضحكون أخيراً، أي يضحكون كثيراً، عندما يحول المثاليون دون وقوع أسوأ الأشياء. هؤلاء هم أعضاء جماعات الضغط واللوبي. غير أن علينا أن نفرق بدقة: أليس هو نفسه، البروفيسور ألويس إرهارت، من جماعات الضغط؟ الضغط من أجل فكرة؟ يضغط من أجل مصالح معينة، إذا كانت -حسب رأيه- تفيد الناس عموماً؟ «الضاغظون» لا يملكون فكرة كهذه، بل لا يستطيعون حتى أن يتخيلوا مجرد وجودها. المصالح العامة في رأيهم هي تلك الأشياء التي يستطيعون بيعها لعموم الناس. البيع والشراء، هذا هو عالمهم، بل إنهم ربما يعتقدون أن المصلحة العامة الوحيدة هي في ذلك العالم. إنهم لا يشاركون في المجموعات الاستشارية كممثلين لشركات كبرى، بل كممثلين للمؤسسات الخيرية التي تؤسسها الشركات الكبرى. علينا ألا نقلل من أهمية كل تلك الأشياء التي يقدمون لها التشجيع والتمويل والدعم، بل علينا حتى ألا نتذمر بسبب ما يستثمرونه في المشاريع الثقافية التي تخفي أهدافهم الحقيقية، فكل هذه الأشياء لها بالفعل فائدة مجتمعية كبيرة. لا يريد البروفيسور إرهارت أن ينكر ذلك كله، فهو رجل محنك، ليس كعالم اقتصاد فحسب، بل أيضاً فيما يتعلق بالحصول على أموال للمشاريع البحثية في جامعته. لكن ما يدفع به إلى حافة الجنون، وما يجعل شكوكه تتعاظم بشأن مجموعة الخبراء هذه، هو أنهم يهجمون على كل نقاش ويختطفونه، مستخدمين دائماً التعويذة نفسها: إننا بحاجة إلى المزيد من النمو! أيّاً كان موضوع النقاش، فإنه يقود إلى السؤال: كيف نصل إلى المزيد من النمو؟ بعض

الأظافر النامية في أصابع القدمين هي مشكلة من مشاكل النمو، هكذا عقب إرهارت ذات مرة، فحصد نظرات متسائلة ومستاءة. فقدان العام للثقة في المؤسسات الأوروبية هو من عواقب النمو الناقص، والنجاح الخطير للشعبوية اليمينية - أمر واضح تمامًا: لو كان هناك نمو أكبر، لما نمت الشعبوية اليمينية. وكيف يمكن إحداث المزيد من النمو؟ الإجابة واضحة: عبر المزيد من الليبرالية الاقتصادية. بدلًا من منح الاتحاد الأوروبي قواعد مشتركة، فإنهم يريدون من كل دولة عضو أن تلغي أكبر عدد ممكن من القواعد واللوائح. صحيح أننا بذلك لن نصبح أبدًا اتحادًا يستحق هذا الاسم، لكننا سننمو، وهذا برأيهم هو أفضل شيء للاتحاد. في النهاية - وهذا شيء واضح وضوح الشمس من الآن - فإن مجموعة «الحلف الجديد من أجل أوروبا» ستقدم ورقة إلى رئيس المفوضية تقترح فيها التالي: علينا أن نعمل على زيادة النمو. بأدب سيعبر الرئيس عن شكره، ويمتدح العمل المهم الذي قامت به المجموعة، ثم تحفظ الورقة في الملفات، دون أن يقرأها، فهو ليس بحاجة إلى قراءتها حتى يقول في خطابه المهم القادم، أو حتى في المقابلة الصحفية التالية: علينا أن نعمل على زيادة النمو!

يعلم إرهارت أن هؤلاء «الضاغطين» ليسوا بالضرورة متهمكين متشائمين، أو ليسوا كلهم. إنهم يصدقون فعلاً ما يقولون، أولاً: لأنهم لم يتعلموا شيئاً آخر، وثانياً: لأنهم تعلموا أن يكسبوا نقودهم من وراء ذلك. إنهم ينالون مكافأة مالية جيدة مقابل التعويذة التي يرددونها، أما الآخرون فيتقاضون أموالاً أقل، أو لا شيء على الإطلاق. هذه على الأقل

خبرة يمر بها المرء. ولا يمكننا أن نتهم إنساناً بأنه يسعى إلى العيش في رخاء، ولا أنه يسعى إلى الثروة، ولكن يمكننا اتهمه بالتالي: أنه يُباع ويُشترى. وهم كذلك. بمنتهى الموضوعية. بجهلهم تجاه الأفكار التي لا تتلاءم مع القالب الضيق الذي يدافعون عنه ويتلقون المال مقابله. عندما يتحدثون عن المستقبل، فإنهم لا يتكلمون عن المستقبل، بل عن تطويل الحاضر، تطويل يتم بنعومة بقدر الإمكان. هذا شيء لا يفهمونه، لأنهم يعتقدون أن المستقبل ليس إلا تحليلاً للتوجهات التي تفرض نفسها فرضاً. في الجلسة الأخيرة قال أحد المتيمين إلى «لوبي»: التطورات الآن تسير بشكل لا لبس فيه تجاه كذا وكذا، علينا أن نعمل على أن نخدم هذه التطورات! عندئذٍ رد إرهارت: في نهايات عشرينيات القرن الماضي كان تحليل الاتجاهات ينبئ بشكل لا لبس فيه عن أن أوروبا تسير في اتجاه الفاشية. هل كان من الصواب أن نعد أنفسنا للسير في هذا الاتجاه، أم كان الصواب هو مقاومته؟

أخرست الدهشة لسان المغرورين، أما أعضاء جماعات «اللوبي» فقد ابتسموا ابتسامة صفراء. السخيف هو أن المثاليين وخدمهم هم الذين هزوا رؤوسهم موافقين، لكنهم سرعان ما تخلوا عن رأيهم عندما راح إرهارت يذكر خلال شرحه تفاصيل لم يستطيعوا أن يفهموها.

نعم، كان إرهارت ساذجاً. ما نشره في الأعوام الأخيرة أدى إلى دعوته إلى هذه المجموعة. لكنه أعطى الدعوة أهمية أكثر مما تستحق. لقد ظن حقاً أن بإمكانه عبر العمل الدؤوب في هذه المجموعة

الاستشارية -وكانهم يعملون مباشرةً لدى رئيس المفوضية- أن يؤثر شيئاً فشيئاً على النخبة السياسية وبالتالي أن يغير شيئاً؛ أن يعمل على وضع خطط لإنقاذ الاتحاد الأوروبي. عندئذٍ تكون الكرة في ملعب القيادة السياسية في أوروبا.

لكن، ليست هذه قواعد اللعبة. هذا ما اتضح له سريعاً جداً. سيلقي كلمته الافتتاحية رغم كل شيء. لقد وافق على ذلك. حتى وإن كان يشعر بالغيظ الشديد؛ لأن كل شيء يدعو إلى اليأس. لقد التزم، وهو شخص يعتمد عليه. كما أنه يشعر أن يوفي دينه لمعلمه أرماند مونس الذي ينظر الآن إلى قبره. وصل في الظهيرة تقريباً إلى بروكسل، والاجتماع سيبدأ بكلمته في السادسة مساءً. لتجاوز هذا الوقت قرر أن يذهب مرة أخرى إلى مدافن بروكسل وأن يزور قبر معلمه الذي يستشهد به في مطلع كلمته: «كان على القرن العشرين أن يكون جسراً بين الاقتصاد القومي في القرن التاسع عشر والاقتصاد الإنساني في القرن الواحد والعشرين. لكن ذلك أعيق على نحو بشع وإجرامي، ولهذا تجددت فيما بعد الرغبة في هذا الاقتصاد على نحو أكثر إلحاحاً، ولكن فقط في وعي نخبة سياسية صغيرة، أما الذين جاءوا بعدها فلم يفهموا كلا الأمرين: الطاقة الإجرامية للقومية، والدروس التي تعلمها الناس من تلك الخبرة».

لقد أعاد كتابة كلمته كلياً، بعد أن قرر ألا يذهب إلى هذا النادي مرة أخرى. لم يعد يجد سبباً يجعله يحاول طوال عام وبصبر عظيم أن ينتقل من دكة الاحتياطي إلى الملعب. لن يشارك في اللعب أبداً. كان هذا

خطأه: الاعتقاد بأن بإمكانه المشاركة في اللعب، وفي الوقت نفسه تغيير قواعد اللعب. هذا غير ممكن. لن يستطيع أبداً، أبداً، أن يقنع واحداً من هذه المجموعة، إن محاولته مقضي عليها بالفشل، مثل أن يحاول أحد إيقاف سير متحرك بوضع يده عليه في كل يوم، ثم يقول للزملاء إن لديه تصوراً آخر عن العمل المفيد. إذن، سيقوم بما تعهد به ويلقي كلمته، لكن على نحو يوضح أنه سيغادر النادي بعد ذلك. لقد كتب نصاً راديكالياً، نصاً ستعتبره هذه المجموعة نصاً جنونياً تماماً. الكرة الآن معه. وقد سعى بكل أمانة إلى أن يخلصها من الأوساخ.

- هل تتحدث أنت أيضاً مع الموتى؟

تطلع البروفيسور إرهارت إلى المتحدث. كان يقف أمامه رجل مسن، اللون الأزرق الفاتح لعينيه يتناقض تناقضاً غريباً مع حاجبيه السوداوين غزيري الشعر: جعله ذلك مشعاً ومظلماً في آن واحد. له شعر خفيف، لكنه لا يزال أسود، بدا وكأن شعره مرسوم بالحبر الأسود على جمجمته المنحنية. كان يرتدي بدلة أنيقة واسعة بعض الشيء، ولا تتناسب مع هذا اليوم الحار. قال الرجل:

- *Praat U ook al met de doden?*

لم يفهم البروفيسور إرهارت شيئاً، فهو لا يتحدث اللغة الفلمنكية، وكان يعلم أن الشخص الألماني يخطئ دائماً تقريباً إذا اعتقد أنه يفهم شيئاً متشابهاً مع لغته. هل يقول له إنه لا يفهم؟ عندئذ تذكر كلمة لا أفهم، *Kannitverstaan*، ولكن قبل أن يقولها له، كرر الرجل المسن

الجملة بالفرنسية. فرنسية إرهارت سيئة، كان لمدة عام أستاذ زائر في جامعة السوربون بباريس، وكان يحاضر بالإنجليزية. اجتهد آنذاك ليتعلم الفرنسية، لكنه تعلم بسرعة أن من الأفضل أن يقول إنه لا يجيد اللغة.

ومع ذلك، استطاع أن يكون هذه الجملة:

- الموتى لا يردون.

يعلم إرهارت أن مشكلة التحدث باللغات الأجنبية -إذا لم يكن المرء يجيدها إجابة معقولة- هي أن المرء لا يقول دائمًا إلا ما يستطيع قوله، وليس ما يريد قوله. والفرق بين الأمرين هي تلك المنطقة المحرمة التي تقع بين الحدود في العالم. لقد أراد في الحقيقة أن يقول: «لقد أعطى الموتى إجاباتهم قبل أن يفكر الأحياء في أسئلتهم»، ولكن لغته الفرنسية لا تسعفه.

ابتسم الرجل المسن وسأله ما إذا كان يسمح له بالجلوس.

- طبعاً، تفضل.

جلس دافيد دو فريند، ثم قال: عدد المقاعد هنا قليل جداً! هذا هو المقعد الوحيد حتى -ومد يده على أقصاها إلى الأمام - حتى تصل إلى أبطال الحرب.

كان يلهث، فتنفس بعمق عدة مرات. المشي يجهد كثيراً. كان دو فريند يريد في الأصل أن يقضي العصر في غرفته، بعد أن يكون قد أنزل شيش الحصيرة، إلى أن تمر أسوأ فترة من تلك الحرارة البشعة. بعد

برهة في الغرفة المظلمة فقد شعوره بالزمن، ولم يعد يعرف كم انقضى عليه جالسًا ومفكرًا. أحس بالعطش.

فتح الثلاثة وأخرج دفتر الملاحظات. ذلك الدفتر الذي كتب فيه أسماء الناجين الذين تذكرهم شيئًا فشيئًا؛ لأنه تواصل معهم عبر السنين بشكل غير منتظم، أو لأنه بين الحين والآخر سمع أو قرأ شيئًا عنهم. تسعة أسماء. شُطبت خمسة منها. حُرق في القائمة متعجبًا. عندئذٍ تذكر أن عليه أن يشطب اسمًا آخر: جوستاف ياكوبوفيتش. بعد تحرير أوشفيتس درس القانون في بروكسل وباريس، ثم أضحى مدافعًا مهمًا عن حقوق الإنسان، وفي السنوات الأخيرة -لقد تقاعد منذ فترة طويلة- كان يدافع عن اللاجئين الذين يجب ترحيلهم. قرأ دو فريند خبر وفاته في الصحيفة. بحث عن القلم، ورفع شيش الحصيرة، وتعجب عندما وقع بصره على المدافن الغارقة في ضوء باهر، اللون الأخضر في تيجان الشجر، اللون الأبيض في الطرق المفروشة بالحصى، الأحجار ذات اللون الرمادي الفضي، وكان كل شيء يلمع. عندئذٍ قرر أن يخرج.

ظن ألويس أن الرجل المسن الذي جلس بجواره على المقعد يحتاج إلى أحد يتحدث معه. شعر الآن بالإحراج لأنه يجلس صامتًا بجانب هذا الرجل اللاهث؟ أبطال الحرب؟ ماذا يقصد بذلك؟ من المرجح أن هذه المدافن بها في الأمام قسم خاص بموتى الحرب العالمية. بمَ يرد على ذلك؟ راح يبحث عن كلمات. نعم، سيدي، قال في النهاية، المقاعد قليلة جدًا. ثم: هل تزور أقارب لك.. لم يعرف

الترجمة الفرنسية لـ «سقط صريعاً في الحرب»، ماذا تعني «سقط صريعاً في الحرب»؟ طبعاً كان بإمكانه أن يقول «ماتوا في الحرب»، يعرف فعل «مات» بالفرنسية - في تلك اللحظة قال الرجل:

- لا، أنا أتمشى هنا. بالنسبة لنا فإن هذه المدافن مكان للتمشية.

- بالنسبة لنا؟

- أسكن في بيت المسنين. دار هانسنس. هذا هو كل شيء.

مرّ بهما رجل أراد إرهارت على الفور أن يحييه لأنه اعتقد أنه يعرفه، بدا له شخصاً معروفاً، من أين؟ من هو الرجل؟ نعم، تذكر عندئذ، هذا هو مفتش الشرطة ذو البطن المنتفخ الضخم الذي حقق معه آنذاك في الفندق خلال زيارته الأولى لبروكسل. كان يسير بخطى مسرعة دون أن يتلفت حوله، قال إرهارت لنفسه: لقد أصبح كرشه أصغر.

ألقي البروفيسور إرهارت نظرة على ساعته. حان وقت الانصراف، حتى يغتسل قبل الذهاب إلى الاجتماع.

أبطأ المفتش برنفو من خطواته. يشعر بضيق في التنفس. قميصه المبلل بالعرق يلتصق ببطنه وظهره. خلع الجاكت. لم يقدر جيداً طول هذا الطريق المؤدي إلى مقابر الجنود. ثمة نصب تذكاري لدى مقابر ضحايا الحرب العالمية الثانية يُدعى «جدار الطلقات»، *Le Mur des Fusillés*، لا يمكن أن يخطئه المرء، هناك مقعد أمامه. طلب فيليب

مقابلته هناك. تأخر برَنفو، في حين أكد فيليب عليه في التليفون أن يحضر في مواعده تمامًا، إذ سيحضر شخص آخر وقته محدود.

- مَنْ؟

- ستري. لا أستطيع ذكر اسمه في التليفون.

- الموضوع متعلق بـ...؟

- نعم، بالضبط!

- ولماذا هناك؟

- هذا ما يريد... صديقي. وهناك نستطيع أن نتحدث بكل هدوء. لا يكاد أحد من زوار المقابر يذهب إلى النصب التذكارية، السياسيون فقط يفعلون ذلك في يوم الاحتفال بنهاية الحرب. وهذا اليوم قد مرّ. إذن، لن يكون هناك غيرنا، وعدد من أكاليل الزهور الجافة المتبقية من الاحتفال.

نظر برَنفو في ساعته. تأخر عن الموعد ربع ساعة تقريبًا. بدأ يعدو. شعر أنه يترك انطباعًا سخيًّا إلى حدٍّ لا يحتمل بحركته المتعجلة التي لم تعد مجرد مشي، لكنها أيضًا لم تكن عدوًّا. أبطأ خطواته مرة ثانية، ومسح العرق من وجهه بمناديله المبلول. لماذا درجة الحرارة مرتفعة هكذا؟ نحن في بروكسل، وليس في الكونغو!

عندئذٍ لمح أخيرًا المربعات التي تعلوها صلبان بيضاء. وهناك، لا بد أن النصب التذكاري الذي قصده فيليب هناك.

لقد رأها بوضوح أمامه، ومشى ومشى، ولكنه شعر بأنه لا يقترب.
لقد كان كابوسًا.

مرت أسابيع منذ أن زاره فيليب في المستشفى حتى يخبره بما
استطاع عبر وسائله الخاصة أن يعرفه عن «قضية أطلس»؛ أو الأخرى
بنا أن نقول: عن اختفاء قضية أطلس.
شرح له فيليب قائلاً:

- قسم المعلوماتية لدينا ليس سيئًا، بمقدورنا أن نفعل بعض
الأشياء، وقد قمت بتفسير حدود المشروعية تفسيرًا حرًا للغاية.
لكن عليك ألا تنسى: إننا نعمل لدى شرطة بروكسل؛ أي أننا لم
نكن في يوم من الأيام على أحدث مستوى تقني. ومما يصعب
الأمر كله أن هناك شبكة من درجات السرية، كيف أستطيع أن
أشرح لك هذا؟ تقريبًا الأمر هكذا: على سبيل المثال، إذا كانت
هناك معلومات، أو بالأحرى: مؤشرات على وجود معلومات،
تهتم، مثلاً، المخابرات الفرنسية اهتمامًا خاصًا بالحفاظ على
سريتها، فربما يحصل عليها جهاز أمن الدولة لدينا، وليس
الشرطة. فإذا حاولنا اختراق المعلومات بالقرصنة، فإنهم
يتلقون بالطبع تحذيرًا. والآن تخيل أنهم يلاحظون أن الاختراق
والقرصنة جاءت من الشرطة. كما أن لدينا الشرطة الأوروبية
«يوروبول». على أجهزة الشرطة في الدول الأوروبية الأعضاء

أن تتعاون مع اليوروبول وتبادل المعلومات. لكن المشكلة أن التبادل لا يحدث. كل دولة تريد بالطبع أن تعرف كل شيء عن الآخرين، ولا يريد أحد أن يبوح بمعلوماته. في تلك الحالات يتحججون بالدستور، ويقولون لك إن دستورهم لا يسمح، للأسف الشديد، بهذا وذاك. معنى هذا، لا شيء يحدث، وكل معلومة تصبح كالإبرة في كومة قش. ثمة شخص واحد يعرف دائماً أين الإبرة، ولكن مَنْ يعلم أين هو هذا الشخص؟ إذن، لدينا كومتان من القش. لا، لدينا مئات الأكوام من القش، واثنان تضم كل منهما إبرة نبحت عنها. ولكن إذا نجحنا في العثور عليها، فإن هذا معناه أننا وجدنا الخزينة التي يُحفظ بداخلها ما نبحت عنه. إذن، علينا أن نخترق الخزينة. فإذا نجحنا في ذلك، فإن أول ما نراه عند فتح الخزينة هو خزينة جديدة ذات نظام أرقام معقد. أنفهمني؟ سأعطيك الآن مثلاً محدداً من الحياة العملية: عندما تحدث عملية إرهابية، يكون لدينا كل المعلومات التي يمكنها أن تمنع وقوع تلك العملية، لكنها محاطة بكافة درجات السرية على كل المستويات، كما أنها محفوظة خلف أبواب الخزائن المغلقة. هذه المعلومات ظلت حبيسة، ولم تتلاق. هذا ما تخبرنا به الصحف أحياناً. عندئذٍ يتحتم على وزير داخلية في مكان ما في أوروبا أن يستقيل. لكن استقالته لا تغير شيئاً من النظام. العكس أيضاً صحيح، إذا كان من الممكن منع عملية إرهابية بناء على المعلومات المخبرانية المتوفرة، لكن خطأ يحدث،

فإن أجهزة المخابرات لا تريد أن يُنشر ذلك في الصحف، عندئذ تختفي القضية. إن ميتاً في غرفة فندق لا يشبه ثلاثين قتيلاً بعد تفجير قبلة في المطار. هذا شيء من الممكن إخفاؤه. هذا شيء لا بد من إخفائه؛ فأجهزة المخابرات لا تريد أن تبدأ التحريات والتحقيقات وأن يتناقش الرأي العام حول السبب الذي جعل شرطياً يطلق الرصاص على سائح في غرفة فندق. وبهذا نكون قد وصلنا إلى قضية أطلس. لا أستطيع البرهنة على ما أقول، لكنني مقتنع مائة في المائة بأن الموضوع له علاقة بالمخابرات. أمن الدولة؟ لا. المخابرات العامة؟ الموضوع أكبر منها. أكبر بكثير. لقد بدأنا باستعادة البيانات الموجودة على القرص الجامد في جهازك. يمكننا استعادة كل ما يُحفظ في الكمبيوتر أو يُمسح. إلا إذا لو مُسحت المستندات ليس في الكمبيوتر، بل في الحاسوب المركزي. حسن، هذه معلومات معروفة. على كل حال، فهكذا سرنا في الأمر. عليك أن تجد مواطن الضعف التي تخترق عبرها نظاماً أخرى، ليس هذا فحسب، عليك أن تفعل ذلك على نحو لا يسمح للآخرين بتتبع آثار الاختراق الذي قمت به. طالما نحن نتحرك في إطار النظام البلجيكي، فإن الأمر سهل نسبياً. فالنظام أعرفه إلى حد كبير، وأعرف كيف يفكر الزملاء، كما أنني أعرف أين يجب عليهم أن يوفروا، وأي القيود والعوائق التي يعملون في ظلها. هذا أمر بلجيكي أصيل: لقد استثمرت شرطة أمن الدولة أموالاً كثيرة حقاً لتشفير مستنداتها، وفي إجراءات الأمن

والدفاع ضد الهجمات من الخارج. لكن ما نسيوه كان هو حماية سلة المهملات الخاصة بهم. ما يسمح مركزياً، يصل إلى سلة المهملات المركزية، هذا منطقي طبعاً. ربما تكون لديهم نسخة احتياطية في مكان ما، ولكني لا أستطيع الحصول عليها بالطبع. غير أنها، وبكلمات مبسطة، موجودة أيضاً في سلة المهملات. هذه السلة بإمكانني أن أفتش فيها. أليس هذا غريباً؟ لقد اعتقدوا أن المُخترق من الخارج يهتم بالحصول على مستنداتهم السرية، لكنهم لا يستطيعون أن يتخللوا أن أحداً سيبحث في سلة المهملات الخاصة بهم. لقد بحثنا بحذر هناك على كل حال. لا بد أن هناك في مكان ما نقطة ضعف نستطيع عبرها الحصول على معلومات، ليس فقط بشأن ما مُسح وما أخفي، ولكن أيضاً بشأن من أراد ذلك ولماذا؟ لا تنظر لي هكذا. سأقول لك فوراً ما أعتقد، لأنني لا أستطيع البرهنة على أي شيء. لقد عثرنا بالفعل على نقطة ضعف. بالنسبة لنا من المستحيل أن نخترق أجهزة الكمبيوتر الخاصة بالمخابرات، هذا أمر يشبه أن تقوم بمحاولة فتح خزانة باستخدام عود تنظيف الأسنان. ولكن بإمكاننا أن نتعرف على الشبكة التي تكونت، وإذا قمت بتحليل كل الشواهد على نحو صحيح، فإن الناتو في القلب من تلك الشبكة. نعم. الناتو- ولكن مهلاً! الآن ستأتيك المعلومة المهمة: النظام به نقطة ضعف، وهي الحاسوب الموجود في أبرشية بوزنان. نعم، في بوزنان. ما معنى هذا، وما هي هذه الأبرشية؟ إنها أقدم أبرشية

كاثوليكية رومانية في بولندا. هناك تتلاقى بعض معلومات
المخابرات، ولكن وبقدر أكبر بكثير تصل من هناك معلومات
إلى الناتو وأجهزة المخابرات المتعاونة معها. أنت تنظر مندهشاً!
تعرف أن أرمين دو بور يساعدني.. عندما وصل أرمين وأنا إلى
تلك النقطة، تبادلنا نظرات متعجبة، ووجد أرمين نفسه يضحك.
قال لي: هذا جنون، بسرعة اكتب كود الدخول! الكود ليس إلا
كلمة، كلمة واحدة فحسب. نعم، قلت له، ولكن أي كلمة؟
علينا أن نحاول أن نخترق سلسلة المفاتيح. ضحك وقال: ألا
ترى؟ إنهم يفكرون ببساطة تامة، أكتب «يهودا» *Judas*. لا بد
أنها كلمة لها معنى بالنسبة إلى قس كاثوليكي. ولكن «يهودا»
لم تكن كلمة السر. قال أرمين، دقيقة، ربما يُكتب اسم يهوذا
بالبولندية على نحو آخر. فتح برنامج الترجمة، فعرنا أن يهوذا
تُكتب بالبولندية هكذا: *Judas*. لكنها لم تكن الكلمة المطلوبة.
أحضر أرمين بيرة من الثلاجة، وأخذنا نحتسيها، ثم قال فجأة:
الأمر واضح! طبعاً كلمة السر ليست يهوذا، فهم لا يريدون إفشاء
سر، بل معرفة كل شيء. راح يكتب شيئاً في برنامج الترجمة، ثم
كتب كلمة الدخول - فانفتح الباب. كلمة السر هي *Bozeoko*،
أي عين الرب.

- عين الرب؟

- نعم.

- الكنيسة الكاثوليكية؟

- نعم، أبرشية بوزنان.

تأوه إميل برنفو. فسأله فيليب:

- ماذا بك؟

- الطحال.

ألا ترجع التعمية على جريمة القتل في فندق أطلس إلى المدعي البلجيكي العام فحسب، بل أن يكون للناتو صلة ما بالأمر: كان ذلك بالنسبة إلى إميل برنفو حقاً «أكبر منه». قال لفيليب:

- سننسى الأمر.

رد فيليب:

- لن أستطيع النسيان، ولكنني لن أفعل شيئاً آخر.

- لن نمس الموضوع بعد اليوم.

- لا، لن نمس الموضوع بعد اليوم! متى ستخرج من المستشفى؟

يوم الأحد المقبل في الثالثة ظهراً سيلعب النادي ضد فريق

«بروج».

- لا بد أن نحضر المباراة.

- لا بد أن نحضر المباراة!

في الأسابيع التالية اهتم إميل برنفو في المقام الأول بصحته؛ أي أنه كان يدخن، ولكنه كان يفعل ذلك مع وخزات من ضميره، ولا يحتسي

إلا بصورة استثنائية يبرته المفضلة «دوفيل»، ثم كأسا وراء كأس من النبيذ «الروزيه» الذي يعشقه، لكنه كان يمتنع عن شرب بيرة «مورت سويت»، كما كان يتخلص من الدهون المرئية في كل شيء يأكله، ثم يزيحها على حافة الطبق. مرتابًا كان يحرق طويلاً في البطاطس المقلية قبل أن «يجرب قليلاً منها فحسب»، وذلك بأن يلتهم ثلثي الكمية على طبقه. كان ذلك هو برنامج «الريجيم» الذي اتبعه، أما المحار فما هو إلا بروتين. على أي حال كان يتمشى الآن أكثر مما سبق. لكنه بعد ثلاثة أسابيع عاد إلى عاداته القديمة، معتبرا الشعور بالتححرر والاستمتاع الذي انتابه أثناء ذلك علامة واضحة على التعافي. عاد إلى العمل، وحصل على بطاقته المهنية، وعلى جهاز الكمبيوتر، وكمية من العمل البيروقراطي. كان لديه من التقارير أكثر مما لديه من القتلى. لم ينزعج المفتش برنفو، وتعامل مع الأمر بهدوء مرح. كان مايجرت يمر عليه في الغرفة حتى يختبر عبر حديث ملتبس ما إذا كان برنفو قد نسي حقاً جريمة القتل في فندق أطلس. ولكن كيف يمكن اختبار ما إذا كان شخص نسي شيئاً، من غير أن نذكره به؟ كان برنفو يضحك على سذاجة مايجرت، وهكذا تأكد إحساسه بشكل نهائي أنه عاد إلى لياقته الأولى تماماً. لا، لم يمس القضية أبداً.

لكنه لم يقدر على التخلي تماماً عن الأمر.

الناتو.. كان ذلك بالنسبة إليه شيئاً جسيماً. لم يكن يعلم أيضاً كيف يمكنه أن يتحرى في هذا الاتجاه، حتى لو التزم أقصى درجات الحذر. ما حصل عليه كان اسم الضحية، أو بالأحرى أسمائه الثلاثة، إذ عُثر

في غرفة الفندق على ثلاثة جواز سفر مختلفة. سجل برنفو الأسماء في دفتره ذي السلك اللولبي فور استدعائه إلى الفندق، والدفتر لا يزال بحوزته، إذ لا يستطيع أحد محوه. شغلته أيضًا علاقة الكنيسة الكاثوليكية، أو إحدى الأبرشيات، بالموضوع. لم يساعده الاسم كثيرًا، لا اسم من الأسماء الثلاثة كان مسجلًا لدى الشرطة، كما لم يكن مسجلًا في مكاتب السجل المدني أو سجلات الزواج في أي مكان في أوروبا. كان الأمر الأخير لا يعني غير أن جوزات السفر الثلاثة مزورة. كان ذلك يعني بالنسبة إليه وبالنسبة إلى إمكانياته أن الطريق مسدود. واشترك أبرشية بوزنان في القضية؟ في الملاحظات التي سجلها كتب دائمًا الحروف الثلاثة «فات» كاختصار للفتايات، لأنه لم يستطع أن يتخيل أن تتعاون أبرشية كاثوليكية مع المخابرات دون علم الفتايات. لم يكن بمقدوره سوى إطلاق التكهّنات. لم يكذب إذن عندما أوضح لفيليب، ثم لمايجرت أنه رفع يده عن هذه القضية. كل ما كان يفعله هو التحديق في مربعات فارغة، وكأنه يحدق في لعبة سودوكو معقدة لا يستطيع حلها.

لذلك كانت المفاجأة كبيرة عندما طلب منه فيليب فجأة أن يراه في المدافن من أجل هذا الموضوع. على ما يبدو فإنه أيضًا ظل يواصل جهوده في القضية بصمت، والآن لديه سمكة في الصنارة.

عندما وصل برنفو أخيرًا إلى النصب التذكاري *des Fussilés* Mur، لاهثًا، يتصبّب عرقًا، تلفت حوله باحثًا عن المقعد الذي يجلس عليه فيليب و«صديقه». غير أنه لم يجد مقعدًا. لا يوجد مقعد أمام

هذا النصب التذكاري الهائل المُهْدَى «إلى الأبرياء، ضحايا العدوان
الجرماني».

ربما خلفه، من الناحية الأخرى؟ أو في الجانب؟ أم أن فيليب
يقصد نُصبًا تذكاريًا آخر؟ ألقى نظرة على الساحة التي يغطيها عدد
لا يُحصى من الصلبان البيضاء. لقد رأى العديد من مقابر جنود
الحرب في حياته، غير أنها المرة الأولى التي يشعر فيها بالصدمة؛
لأنها وجدها... جميلة. وقف هناك وتنفس بعمق، وشعر بجمال هذا
المربع الكبير، المحاط بالنباتات والذي تعلوه صلبان بيضاء متساوية
الارتفاع. بعد كل تلك المقابر في التلال، والألواح التي تغطي القبور،
وشواهد القبور، والمغارات، والأضرحة، والكنائس الصغيرة التي
أراد بها الموتى، أو أبناءهم وأحفادهم، أن يتفوقوا على الآخرين،
بعد كل تلك التماثيل للأطفال الباكين، والملائكة الباكين، والأمهات
الباقيات؛ تلك التماثيل المنحوتة من الجرانيت والمرمر والبرونز
والحديد الصلب، بعد كل تلك النباتات الكثيفة، الزاحفة أو المتسلقة،
بعد كل ذلك القلق في الساحة اللانهائية التي ينعم فيها الموتى بالراحة
الأبدية.. أخيرًا ساد الهدوء هنا. الهدوء البصري المطلق. وجد المنظر
جميلًا، بالمعنى الاستاتيكي الراديكالي، وكأن هذا الجزء من المقابر
عمل فني تركيبى، مشروع فنان يشتغل على اللغة الشكلية للهدوء،
متحررًا من كل معنى. إذا خطا خطوة إلى اليسار، أو خطوة إلى اليمين،
يتغير المنظور في هذه الساحة ذات المسافات المتساوية في صرامة،
والصلبان المنتصبة في صفوف متشابه، كما تتغير الخطوط والأقطار

ونقطة التلاشي. وجد أن الكلمة ذات دلالة: نقطة التلاشي. تتغير النقاط، لكنها تشير دائماً إلى الاتجاه نفسه، إلى الأبدية. الأبدية في كل مكان، تماماً كما أن النهاية تحمل معها التحرر من كل معنى ومغزى. تمجيذاً للمصائر مُحي مصير كل فرد، إحياء ذكرى الضحايا ضُحي به من أجل الفكرة التي تقول إن حياة كل فرد فريدة ولا تُعوض. لا شيء سوى الشكل، والسميترية، والهارمونية. الاندماج في صورة جمالية. لا مقاومة في الموت تحديداً. ارتعد برَنفو لأنه -وهو الكائن اللاهث المتصبب عرقاً ذو الرائحة البغيضة- يجد ذلك جميلاً. ليس حسناً، بل جميلاً.

ولكن أين فيليب؟ وقف برَنفو أمام النصب التذكاري وتلفت حوله. عندئذٍ رأى خنزيراً يخرج فجأة من وراء الشجيرات، ثم شرع ينبش الأرض بين الصلبان البيضاء. الخنزير! مد خطمه في الأرض، مرة بعد مرة، حافراً فيها، ثم نبش بحوافره، واصطدم ظهره بأحد الصلبان، فمال الصليب. واصل الخنزير الحفر والنبش في الأرض، ببطء شرع الصليب يقترب من الأرض. خلال حياته المهنية لم يواجه المفتش برَنفو يوماً رجلاً مسلحاً، لكنه تدرب على هذا الموقف في التمرينات التي تحاكي الواقع، والآن شعر تجاه هذا الحيوان بخوف وعجز غريب عليه. لم يعرف ماذا يفعل. الفكرة التي خطرت على ذهنه كانت أن يسير إلى الخنزير، وكأنه يستطيع القبض عليه. يا لسخافة الفكرة! أراد أن يعدو. هو، يهرب، من خنزير؟ أيّاً كان ما فعله برَنفو في هذه اللحظة -فهو نفسه لم يستطع بعدها أن يتحدث حول ذلك- هل خطأ خطوة

أو خطوتين إلى الأمام، أم تراجع إلى الوراء عدة خطوات، أم فعل كلا الأمرين معاً، التردد بين السير إلى الأمام وإلى الخلف؟ رفع الخنزير رأسه، وأصدر صوتاً مربعاً، ثم ركض، بقوة حيوانية، في خط قطري مستقيم عبر الساحة السيميترية الهارمونية.. وجد برنفو نفسه جالسا يتأوه. كان يجلس على الطريق المفروش بالحصى، ممسكا بيد المنديل المبلول، وغارزا يده الثانية في الحصى. بخدوش في كلوة اليد وألم مبرح ينطلق من العصعص إلى الظهر.

هبت الرياح فوق القبور.

بعد العودة إلى الفندق أخذ البروفيسور إرهارت دُشاً، وارتدى قميصاً نظيفاً، وبدلة كتانية زرقاء خفيفة - نظر إلى نفسه في المرأة: لون علم أوروبا الأزرق. ابتسم ابتسامة باطنية. صدفة! تخلى عن ارتداء رباط عنق.

عندئذ أخرج الملف الذي يضم كلمته من حقيبته المدرسية. تشقق اللسان المثبت به القفل. فكر أنه عليه في البيت أن يدهنه بورنيش الجلود. بجانب الفراش الفوتي، هو في الحقيقة كرسي مجوف، غير مبطن، ومكسو بالجلد الأحمر المحبب الخشن. جلس إرهارت عليه واضعاً قدميه على الفراش. شعر بالضيق وعدم الراحة. نهض بصعوبة من نصف البيضة هذه، ثم جلس على السرير. أراد أن يقرأ كلمته مرة أخرى قبل أن يذهب إلى الاجتماع. كتبها بالإنجليزية، وإنجليزته ممتازة منذ أن عمل أستاذاً زائراً قبل سنوات عديدة في كلية لندن

للاقتصاد وجامعة شيكاغو، ورغم ذلك أعطاها إلى بروفيسور صديق
في اللغة الإنجليزية لكي يراجعها.

- هل تريد إلقاء هذه الكلمة حقاً؟

- نعم.

- أود لو أكون هناك.

راح إرهارت يقرأ كلمته بصوت منخفض، وبالسرعة التي سيلقيها
بها. شغل قبل بدء القراءة ساعة الإيقاف في هاتفه المحمول. سبع عشرة
دقيقة. دقيقتان أطول مما ينبغي. ليس مهمًّا. الأمر لا يتعلق بدقيقتين، بل
بحياته. كانت تلك عبارة مسرحية. سأل نفسه عما حدث له. شعر أنه
سقط خارج الزمن. قعد على الفراش وأوراق محاضراته على حجره،
وأخذ يحدق في ورق الحائط الكثيب الذي يكسو جدران غرفته في
الفندق. لماذا خطرت على باله تلك الكلمات الآن؟ الكلمات الغريبة
التي لا يعرفها، متأثراً تذكر الكلمات التي كان يطلب من أمه وهو طفل
أن تشرحها له عندما كان يقرأ في كتاب شيئاً لا يفهمه: أذعن، شديد
المراس، بلسم، بيد أن، خيل إليه، عليل...

- ماما، هنا مكتوب. «النسيم العليل.» لا أفهم ذلك.

- أنت تعرف ما معنى النسيم. النسمة هي هبة الريح الرقيقة.

- نعم، أعرف. ولكن عليل يعني مريض. كيف يكون الهواء

مريض؟

- لا، عليل هنا معناه لطيف.

ظل مدة طويلة جالسًا وهو يشعر بالتعجب الشديد من أن النسيم
العليل لا علاقة له بالعلة أو الأمراض.
انتزع البروفيسور إرهارت نفسه من أفكاره، وانطلق في طريقه إلى
الاجتماع.



الفصل التاسع

النهاية امتدادٌ للحاضر –

نحن أنفسنا شرطٌ مُسبقٌ للماضي^(١٦).

(١٦) في الأصل بالفرنسية:

La fin, un prolongement du présent – nous-mêmes une condition
préalable du passé.

إحدى كاميرات المراقبة في فندق شيراتون في ساحة «شارل روجيه» صورت الخنزير. المشهد قصير جدًا، المرء يرى الخنزير يدخل إلى الصورة، ببطء، مرفوع الرأس وكأنه يتجول ويستمتع باستنشاق نسائم مطلع الصيف، أحد المارة يقفز إلى الجانب، في حين يظل آخرون واقفين مندهشين، البعض يخرج هاتفه المحمول حتى يصور الخنزير، وعلى الفور كان الخنزير قد اختفى من الصورة. رفع أحدهم الفيلم على يوتيوب، وأعطاه العنوان التالي بالهولندية: «وصول أحد أعضاء وفد مؤتمر الحيوانات».

*Aankomst van een afgevaardigde op de conferentie
van de dieren.*

أطلق المستخدم على نفسه «تسينيكه». بدأ تحقيق في فندق شيراتون لمعرفة مَنْ من بين العاملين في الأمن الذين يستطيعون الحصول على البيانات المحفوظة من كاميرات المراقبة هو هذا الـ«تسينيكه»، خشي مدير الفندق أن تُصاب سمعة الفندق بالضرر عندما ينتشر فيديو يُظهر خنزيرًا طليقًا أمام مدخل الشيراتون. ولكن سمعة الفندق لم تتضرر،

على العكس: شارك الناس الفيديو على فيسبوك، وخلال مدة قصيرة نال إعجاب أكثر من ثلاثين ألف متصفح. استطاعت صحيفة «مترو» أن تنشر صورة للخنزير، وبعدها أرسلت إلى الصحيفة صور أخرى التقطتها كاميرات المراقبة بمتجر «كارفور» في «شوسيه دو لوفان»، وكاميرات مكتب البريد في ميدان «لا برابانسون»، وكذلك السفارة النمساوية في شارع «كورتنبرج». كانت تلك الصور غير واضحة أو مهزوزة إلى درجة جعلت البروفيسور كورت فان دير كوت، الذي كان قد حصل في تلك الأثناء على عمود ثابت في «مترو»، لا يستطيع أن يؤكد تمامًا ما إذا كانت الصور تظهر كلها الخنزير نفسه أو عدة خنازير. وقال إنه يعتقد أن قطيعًا من الخنازير سيثير القلق في نفوس الناس، ولكن خنزيرًا منفردًا يتمشى في بروكسل سيمس قلب الناس، بل سيوقظ مشاعر حب الحيوان الطفولية لديهم، هذا أمر صالح لنشأة الأساطير. لم يكن كورت فان دير كوت عدوًا لشهرته، ولذلك لم يرد أن يقف في وجه الاحتياجات الجمعية. وهكذا بدأ بعد مرور خمسة أيام فحسب على نشر أول فيديو حملة على يوتيوب وفي «مترو» بعنوان: «في بروكسل خنزير! ما اسمه؟»، وطلب إرسال الاقتراحات الخاصة بالاسم إلى هيئة التحرير. آخر موعد بعد ثلاثة أسابيع.

خلال تلك المدة قدم البروفيسور فان دير كوت سلسلة من المقالات بعنوان: «الخنزير كاستعارة بلاغية عالمية». في مقالات يومية جديدة عرض البروفيسور النطاق الواسع للاستعارة التي تتضمن الخير والشر، السعادة والشقاء، الحب الرومانسي، الاحتقار والكراهية

الدفينة، الإيروتিকা والدناءة التي يرمز إليها الخنزير، إنه الحيوان الوحيد الذي يستخدم كاستعارة بلاغية تغطي كافة المشاعر الإنسانية والصور الإيديولوجية عن العالم، ابتداء من «الخنزير الذي يجلب الحظ» حتى «الخنزير القذر»، بل لقد تجرأ واقتحم المجال السياسي، مطلقاً تأملاته حول مصطلحات مثل «الخنزيرة اليهودية» و«الخنزير النازي»، ثم تحدث مرة أخرى عن منع الخنازير في بعض الأديان، أو ورود الخنزير في الأفلام (خنزير اسمه بيبي) والأغاني (بيجي) وكتب الأطفال (الخنزير الصغير شلاو). لاقت سلسلة المقالات نجاحاً جماهيرياً كبيراً، أيضاً بسبب الرسومات: صور لخننازير صغيرة لطيفة، فاكسيميلي لرسوم كاريكاتورية قديمة تصور القياصرة والجنرالات والرؤساء كخننازير، استنساخ للوحات تُظهر الخنازير في الأعمال الفنية (عدد كبير من «اللايكات» حصلت عليها صورة للرسام تومي أونجيرر تظهر خنزيرة تقرأ لأطفالها حكاية شعبية: كان يا ما كان، كان هناك جزار ...»)، أشكال وتمثيل، من الحصالة على شكل خنزير وصولاً إلى الطباخ كخنزير، من الفريسة إلى الصياد، وصور لأشياء تستخدم في الحياة اليومية، ليس هناك شيء من أشياء الحياة اليومية -هكذا كتب فان دير كوت وقد سيطرت عليه دهشة كبيرة- لم يتخذ يوماً شكل الخنزير: كأس البيرة الخزفية، الملائحة، الأحذية المنزلية، الكاب، بل وحتى جهاز «التوست»...

كونت هيئة التحرير لجنة تحكيم من المشاهير تختار في البداية من الاقتراحات المقدمة قائمة طويلة، ومنها تختار لاحقاً قائمة قصيرة

بالاقتراحات قبل أن تعلن اسم الفائز. كان من أعضاء تحكيم اللجنة: المغني الشعبي بارتولد جابالير، والممثلة ساندرا فاليه، وياب مولدر، لاعب الكرة المحترف وملك حراس المرمى في دوري الدرجة الأولى البلجيكي، ودانيلا كورير، أرملة عمدة بروكسل السابق، وروجر لافارج، رسام الكاريكاتور الموضوع تحت حراسة الشرطة منذ رسوم النبي محمد، والكاتب والمؤرخ البلجيكي جيرت فان إستيندال، والطباخ كيم كينج الحاصل على نجمتين، رئيس الطهاة في مطعم «لا كوشون دور»، والفنان فيم ديلفوي المشهور بأنه يضع رسوماته كوشم على الخنازير. أما رئيس لجنة التحكيم والمتحدث باسمها فكان بالطبع الأستاذ الجامعي البروفيسور كورت فان دير كوت.

رومولو ستروتسي رجلٌ لا يمكن إخراجه عن طوره تقريبًا. ما يمكن أن يثير الدهشة لدى الآخرين، يتسبب في جعل مزاجه ساخرًا على أقصى تقدير. لا يستغرب شيئًا، فما الذي يمكن أن يثير دهشته؟ لقد مر بخبرات كثيرة، وما لم يمر به بنفسه، عرفه عبر كنز الخبرات الذي جمعه أفراد عائلته وأسلافه. كما أنه يطالع كثيرًا من الكتب. وفي المجال المهني الذي يعمل به كان يعرف كل صغيرة وكبيرة، وكل شاردة وواردة. ولهذا وجد نفسه يتسم دون أن يلاحظ ذلك أحد عندما استشهدت فينيا كسينوبولو فجأة بالكتاب المفضل للرئيس، باذلة كل جهدها حتى يبدو ذلك عَرَضًا، ولكن من الواضح أنها خططت لذلك. يُبرهن ذلك على أنها استعدت للقاء بنوع من الهوس. لكن ذلك لم يدهشه. كان يعرف أن

بإمكان البشر فعل كل شيء. لكن مناورتها كانت فاشلة. أتوقع حقاً أن يقول للرئيس: بالمناسبة، هذه المرأة، كسينوبولو، تحب الرواية نفسها التي تحبها، سيادة الرئيس؟ هل ظنت حقاً أن ذلك يزيد من رصيدها؟

جلس إلى مائدة أمام مقهى فرانكلين، على ناصية شارع «فرانكلين» وشارع «أرشيמיד»، جلس من ناحية شارع «أرشيמיד»، أي في الجانب الظليل. كان اليوم شديد الحرارة، وهو انتابته رغبة في أن يدخن سيجاراً صغيراً خلال انتظاره أتيلاً هيديكوتي، مدير قسم المراسم الخاصة برئيس المجلس الأوروبي. يجب أن يتحدث معه على نحو غير رسمي حول السيدة كسينوبولو ومشروعها المسمى «مشروع اليوبيل».

فجأة وقف أمامه خنزير كبير. إنسان يرتدي زياً غريباً عجيباً على شكل خنزير، زياً مخملياً وردياً يغطي جسمه كله. يمسك بيده عصا مثبت بها لوحة. أسند اللوحة على جدار المنزل، وجلس إلى المائدة المجاورة، ثم نزع الرأس، أي رأس الخنزير، فظهر وجه رجل علتة حمرة ويتصبب عرقاً، وشعر أشقر مبلل من العرق. مسح الرجل -الذي كان في مثل عمر ستروتسي تقريباً- بكمه المخملي الوردي وجهه عدة مرات، وقال للنادلة التي كانت تضع القهوة أمام ستروتسي:

- بيرة من فضلك!

ثم قال ملتفتاً لستروتسي:

- أنت مستغرب؟ أنفهم ذلك. ولكن من فضلك لا تحتقрни. أنا عاطل عن العمل منذ شهور. الأمر صعب في عمري. وفي النهاية أمسكت بلافتة في شارع «أنسباك»، أمام البورصة، وكتبت

عليها: «أقبل أي عمل!» بعدها حصلت على هذه الوظيفة. أن
أتجول بلافتة في الحي الأوروبي. مرتدياً زي خنزير. دعاية.
ومسح الرجل عرقه مجدداً.

استدار ستروتسي وقرأ اللافتة:

Slagerij

Van Kampen

Fijnste vlees, beste worst!

Voor bestellingen:

Let op! Nieuw telefoonnummer!^(١٧)

- عديد من الناس يضحكون. البعض يسألني: لماذا أفعل ذلك؟ ألم
يعد الناس يستطيعون أن يتخللوا ما يمكن أن يفعله المحتاجون؟
أتعتقد أنني أكون مسروراً عندما أرتمي هذا الزي في هذا الحر؟
أخرج ستروتسي محفظته، في حين أحضرت النادلة البيرة للرجل،
وابتسمت وسألته:

- شيئاً آخر؟ ربما كوز ذرة مع البيرة؟

ألقي ستروتسي بورقة من فئة الخمسة يورو على المائدة، وغادر
المقهى. على الجانب الآخر من الشارع كتب «إس إم إس» إلى أتيل:
اللقاء ليس في فرانكلين! أنا في «كيتي أوشياس، بوليفار شارلمان».

(١٧) بالهولندية، ومعناها: «جزارة فان كامبن/ أفخر اللحوم، وأفضل أنواع السجق! / للطلب: /
انتهوا! رقم تليفون جديد!». (المترجم).

وقف بسرواله الداخلي والجوربين في الشرفة الصغيرة، وبعناية راح ينظف بدلته بالفرشاة. الطرق المفروشة بالحصى في المقابر تكون في هذه الأيام الدافئة الجافة متربة للغاية، كل خطوة بين صفوف الموتى تشير غبارًا يتصاعد من السروال ليستقر في قماش الجاكيت أيضًا. كان دافيد دو فريند يتعامل مع ملابسه بعناية فائقة. منذ عودته إلى الحياة، بعد التحرير، كان يهتم اهتمامًا بالغًا بأن تكون بدله أنيقة مصنوعة من قماش ممتاز. لم يكن ذا دخل كبير كمعلم، لكنه كان يكسب ما فيه الكفاية للذهاب إلى الخياط، وهكذا لم يعد يرتدي بدلًا جاهزًا. كان ينظف البدلة بالفرشاة ويفكر في الخبز. لماذا فكر في الخبز؟ راح ينظف بعناية وصبر، كان سعيدًا بفرشاة الملابس التي اقتناها قبل أربعين عامًا من محل الخردوات «فالتر فيته» في «بوليفار أنسباك». نصحه السيد فيته شخصيًا باقتناء هذه الفرشاة قائلًا:

- جودة لا مثيل لها، يا سيد دو فريند، هذه الفرشاة ستعيش بعدك، إنها أفضل فرشاة ملابس، من شعر الجياد الألمانية، أدخل الشعر يدويًا في القاعدة المصنوعة من خشب البلوط!

اندهش دافيد دو فريند لوهلة، وسأل صاحب المتجر: «ألماني - ماذا؟ شعر جياد ألماني»، ولاحظ فجأة، ودون مقاومة داخلية، أن كفة الجودة كانت بالنسبة له أهم من أشباح الماضي. اشترى الفرشاة الألمانية التي ستعيش بعده، الفرشاة البريئة، وربما كانت الأيدي التي صنعتها بريئة كذلك. فرغ من تنظيف البدلة بالفرشاة، وفي الغرفة رن التليفون. سمع الرنين، لكنه لم يعتبر ذلك شأنًا يخصه. نغمة رنين

التليفون لم تكن مألوفةً بالنسبة إليه، كما أنه لا ينتظر مكالمته. يقولون دائماً إن مَنْ نجا من معسكر تصفية أو معسكر إبادة، لن يستطيع طوال حياته الباقية أن يرمي قطعة خبز. كتبوا ذلك الآن في الصحف مرةً أخرى. ابنة جوستاف ياكوبوفيتش قالت تلك العبارة في حوار مع صحيفة «دو مورجن»، بعد وفاة والدها، المحامي الحقوقي الشهير: كان علينا، نحن الأطفال، أن نأكل في كثير من الأحيان خبزاً جافاً قاسياً، ولم نحصل على خبزٍ طازجٍ إلا عندما نستهلك القديم كله، لم يكن قلب أبي يطاوعه على رمي الخبز، ببساطةٍ لم يكن يستطيع.

واصل دو فريند إزالة الغبار بالفرشاة. جوستاف، يا جوستاف! رن التليفون ثانيةً. كان جوستاف يعشق البدل الممتازة، وخبز «الباجيت» الفرنسي الطازج عندما يجده في سلال المطاعم. لم يعد يرتدي ملابس ذات قماش بال شفاف، بل منسوجات جيدة سمكة! لا يشتري شيئاً جاهزاً، ناهيك عن أن يكون مخططاً، ولا يرتدي قبعةً، لا غطاء للرأس! مَنْ عاش في المعسكر كان يعرف ماذا يعني ارتداء الطاقية. معنى ذلك الموت. ولهذا كان الشعار بعد ذلك: الحياة. الحرية. أجود الأقمشة، ورأس عار. واصل دافيد دو فريند استخدام الفرشاة بإيقاع ثابت وهو يقف بالسروال الداخلي في الشرفة، فاردًا رجل سروال البدلة على ذراعه اليسرى، كان مستغرقاً في هذه الحركة كعازف كمان. في مكان ما رن تليفون من جديد. كانت لديه أربع بدل تفصيل. للشقاء اثنتان من صوف التويد السميك، واحدة بنقشة عظم السمك ماركة «هاريس»، والأخرى «دونيجال» رمادية اللون من قماش أكثر ليناً. لفترة ما بين الشتاء والصيف

بدلة زرقاء غامقة من صوف الغنم، وأخرى أخف، لكنها مع ذلك تمنح دفئًا جميلًا، وهي مصنوعة من ألياف الموهير الرمادية. ليس لديه بدلة صيفية. لقد شعر بالبرودة كثيرًا في حياته، بالنسبة له كان الصيف فترة بين الفصول فحسب. لم يضايقه أن يكون الطقس حارًا، والبدلة الموهير الرمادية، التي كان ينظفها لتوه، كانت خفيفة على نحو رائع. منذ متى وهي عنده؟ سنوات عديدة، بالتأكيد... سنوات عديدة.

في تلك اللحظة شعر بيد تمسك بعضده بقوة، سحبته هذه اليد إلى الورا، فكادت الفرشاة تسقط من يده. صاحت السيدة جوزفين:

- ما هذا الذي نفعله؟ لا نستطيع الوقف في البلكونة عراة، أليس كذلك يا سيد دو فريند؟

حدّق فيها وهي لا تزال تضغط على عضده، ثم أكملت كلامها بصوت عالٍ جدًا:

- والآن سندخل، ونرتدي ملابسنا، أليس كذلك؟

ليس هو بثقل السمع. لم يفهمها على الفور لأنه كانت تصرخ في وجهه. واصلت الصراخ:

- ألم تسمع التليفون؟ إذن، سندخل الآن، هيا، تعال، وهناك، أترى، هناك قميصك، سنرتديه الآن... ولكنه مبلول للغاية، لقد كان عرقك غزيرًا، أليس كذلك؟ إذن، علينا أن نرتدي قميصًا آخر، أليس كذلك؟ فلنأخذ قميصًا نظيفًا.

بقوة وعزم فتحت الخزانة، ونظرت داخلها، ثم مدت يدها، فصاح

دو فريند: «لا!» لم يرغب في ذلك، لم يرغب في السماح لأحدٍ بأن يفتح ببساطة خزانته وأن يعبث في أشياءه... ولكنها كانت قد واصلت كلامها:

– هذا قميصٌ جميلٌ، قميصٌ أبيضٌ جميلٌ. سنرتديه الآن!

أخذت السيدة جوزفين الفرشاة التي كان لا يزال يمسك بها في يده، ووضعتها على الطاولة الصغيرة. كان السروال قد انزلق من ذراع دو فريند، فظل ممدداً على الأرض الآن. ساعدته على ارتداء القميص، فرأت مرةً أخرى الرقم الموشوم على ذراعه. بسرعةٍ أدخلت ذراعه في كم القميص، أرادت أن تقول له «برافو!»، لكنها لم تقل شيئاً.

رفعت السروال من الأرض، وأمسكت به أمامه. دون أن تنطق بكلمة. زرر القميص، وأغلق حزام السروال. تلفتت حولها، فرأت الحذاء بجانب الفراش، تتبعع هو بصرها، ثم سار إلى الفراش، وجلس، ولبس الحذاء. نظر إليها، ونظرت إليه، ثم انحنى وربط حذاءه. استقام ظهره، ونظر إليها، فأومأت.

السيدة جوزفين موظفةٌ محنكةٌ، تعمل في دور المسنين منذ عشرين عاماً تقريباً، وخلال تلك الفترة رأت في مجال عملها أشياء كثيرةً جداً. كما أنها في إطار التدريب المهني ترددت على دورة في علم النفس، وكانت آخر دورة تدريبية ذهبت إليها قبل عامين فحسب. ولذلك كانت دهشتها هي الأكبر عندما سمعت نفسها تقول:

– أوشفيتس؟

أوماً دو فريند.

أراد النهوض، غير أنه لم يستطع. ظل جالسًا على الفراش.
فكرت أنها قد تجاوزت حدودها. تراجعت الآن خطوة، وقالت:

- وكيف كان ذلك؟ هل تود أن تحكي؟

شعرت بفزعٍ خانقٍ؛ لأنها طرحت هذا السؤال.

جلس دو فريند على الفراش، ثم نظر إليها وقال:

- كنا نصطف في طوابير. كنا نصطف في طوابير كي يحصوا
عددنا. هذا هو كل شيء.

بعد أن غادرت جوزفين الحجرة، ظل دو فريند جالسًا على الفراش
لفترة، ثم نهض، وتمشى في الغرفة متلفتًا حوله... عندئذ رأى الفرشاة.
بيبّ راح يخلع ملابسه، تناول الفرشاة، ووضع قاعدة السروال
على ذراعه اليسرى، ثم وقف عاريًا في الشرفة وراح ينظف السروال
بالفرشاة.

كان ستروتسي، مدير مكتب الرئيس، يعرف بالطبع أن الرئيس
من المستحيل أن يعارض مبادرة هدفها تحسين صورة المفوضية
ورفع أسهمها أمام الرأي العام. لهذا أكد لفينيا كسينوبولو على الفور
دعم الرئيس لمبادرتها. منحها صكًا على بياض. في الوقت نفسه كان
ستروتسي يعرف أيضًا أن مشروعًا غريبًا كهذا سيخلق مشاكل أكثر مما
سيجنون عبره من ثمار. فكرة مشروع اليوبيل فكرةٌ مجنونة، وحتى لو
استطاع المرء أن يقدم الأسباب الداعمة لها بشكلٍ جيد جدًا - وكما

برهنت السيدة كسينوبولو- فإنها تظل من الناحية السياسية بعيدة كل البعد عن أن تكون فكرة مناسبة. لذلك كان الصك الأبيض مجرد مناورة، حيلة مفضلة من حيل ستروتسي الخبير بالمبارزات البيروقراطية: إذا أردت أن تطعن فكرة طعنة قاتلة، فعليك أن توافق عليها في البداية، وأن تعد بتقديم الدعم الكامل لها. على إثر ذلك فإن كل شخص يخرج من تحصينات الدفاع بكل سرور. أجمل شيء هو أن المبارز في معظم الأحيان لا يكون بحاجة عندئذ إلى توجيه الطعنة الحاسمة بنفسه. هذه نكتة قديمة يتداولها المبارزون: إذا نجحت في جعل خصمك ينتحر بغرز سيفه في أحشائه، فلست بحاجة إلى مهاجمته بعد ذلك، كل ما عليك هو أن تحذر ألا يقع متحشرج الأنفاس بين ذراعيك. هذا التكتيك أثبت نجاحه مرة أخرى مع فينيا كسينوبولو: لقد غلبها الحماس بعد أن وافق، فوافقت هي بالطبع، ولم تنتبه إلى اقتراحه باطلاع ممثلي الدول التي أسست المفوضية على هذا المشروع. هل بإمكانها أن تعترض؟ في الوقت نفسه كان هو قد نهض مشيراً إلى نهاية للمحادثة. لن تقول في المستقبل أبداً أنه طعنها في ظهرها. على العكس: اللعب هنا على المكشوف. والآن، ليس عليه غير الانتباه بألا تسقط بين ذراعيه وألا تلتطخ الصديري الذي يرتديه بدمائها. ومن أجل الوصول إلى ذلك كان يكفيه أن يتحدث مع صديقه أتيل، مدير قسم المراسم الخاصة برئيس المجلس الأوروبي.

كان موقفاً عبثياً: هذان الموظفان عالياً الدرجة الوظيفية يجلسان في الحانة الأيرلندية «كيتي أوشياس» الواقعة خلف مبنى «بيرلمون»، مقر

المفوضية، أمامهما -على مائدة لزجة من البيرة المسكوبة- كوبان من الشاي المثلج، وتحيط بهم مجموعة لا تنقطع عن الصراخ من شاربى البيرة الأيرلندية ولاعبى النيشان بالسهام (دارت).

بادره أتيلا هيديكوتي قائلاً بلغته الساحرة «المجرىي»، أي الإنجليزية ذات اللكنة المجرية:

- على الأقل لن يستطيع أحد هنا التنصت علينا، وسط كل هذا الضجيج.

ابتسم ستروتسي. منذ عدة أعوام تربطه علاقة ممتازة مع أتيلا، تسمح لهما بحل مشكلات عديدة عبر التنسيق الدقيق بينهما. إذا حدثت مشاكل بين المفوضية والمجلس، وهو ما يحدث كثيراً، أو إذا كان رئيس المفوضية يريد شيئاً من رئيس المجلس، وهو ما يتكرر كثيراً، عندئذٍ كان ستروتسي يفضل الحديث مع هيديكوتي عن الحديث مع مدير مكتب رئيس المجلس الأوروبي، لارس إيكولوف، ذلك اللوثري المتشدد من السويد الذي كان بطبيعة الحال يخشى الدوق الإيطالي الباروكي. والعكس صحيح، فذات مرة قال ستروتسي باحتقار بالغ عن إيكولوف: إننا لا نستطيع الوصول إلى اتفاق في النقاط الخلافية مع رجل يشعر بالتفوق الأخلاقي في كل نقطة، ولهذا يعتبر كل تنازل خيانة لأخلاقه! ثم أضاف مبتسماً في سخرية: لا يمكن إخراج إيكولوف من تحصينات الدفاع التي يختبئ وراءها؛ لأنه لا يتكون إلا من تحصينات دفاع، إنه الحصن نفسه. فإذا استطاع المرء الالتفاف حوله، فلن يجد وراءه شيئاً، لن يجد سوى رائحة متطايرة، رائحة التعالي على الآخرين.

التباين بين الشمال والجنوب يتجلى ويتجسد في هذين الرجلين
اللذين يعملان شمالي وجنوبي شارع «دو لا لوي» في بروكسل.
ونحن المجريون سنُدْهَس بين رحي الشمال والجنوب!
(هيديكوتي).

نظر هيديكوتي بقلقٍ تجاه اللاعبين الرامين بالسهام الذين كانوا
يقفون على نحو غير مريح بجانبه تقريبًا. قال:
- السهام هنا تطير على ارتفاعٍ منخفضٍ.

حياه أحد اللاعبين، رد هيديكوتي بإيماءة، وانتحى بكرسيه جانبًا
بعض الشيء، عندئذٍ رفع أحد اللاعبين كأس بيرته محييًا، وقرع نخبي
هيديكوتي وستروتسي.

قال ستروتسي:

- هيا، فلنقف هناك في الناحية الأخرى.

ثم أضاف:

- هؤلاء هم البريطانيون. وهذه هي النهايات البريطانية. منذ بداية
مفاوضات الخروج من الاتحاد الأوروبي والبعض هنا لم يعد
يفعل شيئًا سوى الاستعداد للعودة إلى الوطن باليرة ولعبة
النيشان. إنني أفضلهم على الإنجليز الذين يواصلون العمل
طالما أن خروجهم لم يتقرر بشكلٍ نهائيٍّ، لكنهم لا يفعلون شيئًا
سوى إعاقة عملنا بكل جدٍّ واجتهادٍ.

- هل طلبت لقائي هنا من أجل ذلك؟ هل لديك مشاكل مع

موظفين من المجلس؟

نفى ستروتسي ذلك، وحكى له عن مشروع اليوبيل.

أدرك هيديكوتي على الفور أن هذا المشروع سيؤدي لا محالة إلى الرفض والاستياء؛ ليس فقط لأن المفوضية تخطط للأمر بمفردها، ضد رغبة المؤسسات الأوروبية الأخرى، أو على الأقل دون إشراكها، حتى وإن كان ذلك أمراً إشكالياً للغاية؛ كلا، الفكرة نفسها هي المشكلة: تنظيم مسيرة لمن عاصر أوشفيتس، ليشهد بسيرته ومصيره على أن القومية هي إحدى أكبر الجرائم في تاريخ البشرية، وهي التي أدت في نهاية المطاف إلى أوشفيتس، ولذلك فإن من واجب المفوضية الأخلاقي أن تعمل على تجاوز القوميات. لن يقبل رؤساء الدول والحكومات أبداً أن نشق من الشعار الأجوف «أوشفيتس لن تتكرر أبداً» مطلب «التغلب على القومية، والتغلب - في نهاية المطاف - على القوميات»، ثم تسويق ذلك للرأي العام الأوروبي كمطلب أخلاقي ومهمة سياسية للاتحاد الأوروبي.

قال هيديكوتي:

- لدينا خبراء لكل شيء. يُمكننا أن نجعل السماء تمطر، ويمكننا أيضاً أن نجعلها تمطر فوق رؤوسنا في المفوضية.
- أعرف. ولهذا أحكي لك الأمر.
- «أوشفيتس لن تتكرر أبداً»... شعارٌ جيدٌ وصحيحٌ.
- نعم.

- يمكنكم أن ترددوه في خطاب كل يوم أحد.
- نعم. حتى لا ننسى. لا ننسى أبدًا، علينا أن نكرر ذلك المرة بعد الأخرى.
- بالضبط. لكنه ليس برنامجًا سياسيًا.
- الأخلاق لم تكن يومًا برنامجًا سياسيًا.
- وخصوصًا إذا نجم عن الأخلاق صراعات.
- بالضبط. لن يقبل المجلس الأوروبي بذلك أبدًا: التغلب على القوميات. هذا معناه الحرب. الحرب على المفوضية. وثورة الشعوب في كل البلدان ضد أوروبا.
- بالضبط.
- إذن؟
- لقد فهمت. سنفرم هذا المشروع فرمًا قبل أن يرى ضوء الرأي العام.
- كان ستروتسي يعرف أن بإمكانه أن يعتمد على صديقه أتيل.

أنجز هيديكوتي العمل كاملاً. لم يكن عملاً كثيرًا. توقيع، اتصال تليفوني، في الحقيقة مجرد طقطقة أصابع. وهكذا دُفعت كرة ستدفع بدورها كرة أخرى وهكذا. نشأت ديناميكية ذاتية، وقریبًا لن يعود أحدٌ يعرف من كان المتسبب فيها، لكنها مصدر طاقة لا تقطع، إلى أن تندرج الكرة الأخيرة تجاه اللا شيء، إلى الخارج، إلى الثقب الأسود.

هذا هو الهدف. هذه هي وظيفة هيديكوتي. وفي النهاية فإن الذي تسبب في كل شيء ليس سوى إحدى هذه الكرات التي تصطدم بأخرى، في الحقيقة مجرد كرة زجاجية صغيرة، أو حبيبة من الحبيبات، شيء غير مرئي، ذرة.. النواة القابلة للانشطار في قلب الطاقة السياسية المهولة. في اليوم التالي مباشرة اتصل وزير الخارجية المجري بـ«زميله القدير وصديقة العزيز» وزير الخارجية النمساوي، وأبلغه بأن المفوضية -تحت ستار الاحتفالات باليوبيل- تريد أن تبدأ في عملية ستؤدي إلى إلغاء القوميات الأوروبية. وسأله:

- أنت تعرف، يا صديقي العزيز، ماذا يعني أن يقرر الاتحاد الأوروبي أن النمسا ليست دولة قومية؟

لا يمكن أن نتهمه بالمرائية، فالقومية كانت بالفعل شيئاً مقدساً بالنسبة له. ولكن قومية بلده، أي القومية المجرية. أما إذا كانت النمسا دولة قومية أو مجرد حدث عابر من أحداث التاريخ، دولة مصابة بجنون العظمة فاستحقت تقليص أظافرها لتصبح بلداً صغيراً من المهجنين، فهذا شيء لا يعنيه في حقيقة الأمر، حتى وإن كان «بصورة شخصية» -كما يحب أن يردد- يميل إلى الفرضية الأخيرة. غير أنه كان يعلم أنه سيجد حليفاً عندما «يداعب خصيتي جاره قليلاً» -هكذا قال لرئيس حكومته- ويدغدغ شعوره بالقومية.

نحو ٨٦ مليار خلية عصبية تتبادل الإشارات، في جزء من الثانية تحدث عمليات كهربائية معقدة في آلاف من الخلايا، تقوم الناقلات

العصبية الكيميائية بمهمتها، وتشابك الخلايا العصبية، باختصار: راح وزير الخارجية النمساوي يفكر في الأمر. وبعد أن رف جفنه عدة مرات، كان قد استعرض البدائل المختلفة، واتخذ قرارًا. البديل الأول هو الانتظار وعدم الإقدام على فعل شيء في البداية، إلى أن تعلن المفوضية مشروعها على الرأي العام، عندها سيدخل الحلبة كمدافع عن الأمة النمساوية ضد «الاتحاد الأوروبي». توهجت المشابك العصبية باستمتاع وشهوة. ولكن ما هذا؟ لقد بدأت في إرسال إشارات باللون الأحمر. كان قد أَرْضَى المعارضين للاتحاد الأوروبي بموقفه من سياسة اللجوء الأوروبية، فإذا سار خطوة أخرى في هذا الاتجاه، إلى حقل الرافضين مبدئيًا للفكرة الأوروبية (وهو أمر جيد أن تكون تلك الفكرة في نهاية الأمر غائمة ضبابية)، فإنه لن يصيب «الاقتصاد» بالاضطراب فحسب، بل سيقربه من حزب اليمينيين العنيف الذي يلتقى شعبية متزايدة بسياسته القومية التي ترفع شعار «النمسا أولاً». لا يريد أن يصب الزيت في نار الشعبويين، وأن يكون محض مساعدٍ لهم؛ كان يريد أن يصبح شعبيًا دون أن تفوح منه رائحة الشعبوية، إذن، كان الأمر واضحًا: إذا أصبحت الأمة والقومية في حد ذاتهما موضوعًا كبيرًا عامًا، فإن فرصه سيئة. ولهذا البديل الثاني: عليه أن يمنع هذا المشروع. إذا استطاع منع تفجر نقاش حول مبدأ الأمة وحول الدفاع عنه، استطاع أن يظهر في كل نقطة منفردة كممثل للمصالح النمساوية، لمصالح ناخبي أمته، وأن يظهر في الوقت نفسه كأوروبي.. عندئذٍ يكون هو الممسك بزمام الأمور.

شكر صديقه العزيز، الزميل المجري، ووعده «طبعاً» بالتعاون والتنسيق، ثم جمع موظفي مكتبه، ووزع المهام. بحماسة متعجلة غادروا كلهم مكتبه ما عدا المتحدث الصحفي الذي بقي جالساً يتنحى. ذكر الوزير بالأسئلة التي عليه أن يجيب عنها.

- أي أسئلة؟

- لـ«مادونا»، المجلة النسائية. لهذا التقطنا صوراً في الأسبوع الماضي.

- آه، نعم. أجب عنها إذن.

- أود أن أقرأ عليك الأسئلة، معالي الوزير. الأسئلة الشخصية. مثلاً: كتابك المفضل؟

- ماذا تقترح؟

- لدينا تقليد في النمسا بأن يقول الساسة إن كتابهم المفضل رواية «رجل بلا صفات». لا يمكن أن تهبط عن هذا المستوى. على كل حال، من المحرمات اختيار كاتب حي. لا يريد الناس كاتباً حياً.

- جيد، إذن، فلنكن نمساويين ذوي تقاليد. رجل بلا صفات. هذه الرواية كان يحبها، على حسب معلوماتي، برونو كرايسكي.

- وسينوفاتس، وكليما، وجوزنباور.

- الاشتراكيون فقط؟

- لا، أيضاً موك وكول، وحتى مولتيرر.

- لن أهبط إذن عن مستواهم.
- والآن: الشخصية الأدبية المفضلة لديك؟
- ماذا حدث لهذه المجلة النسائية؟ هل كل المحررات هناك من دارسي الأدب الألماني؟
- لا، معالي الوزير. هذان السؤالان فقط. بعد ذلك الموسيقى، ثم الطعام.
- طيب. الشخصية المفضلة. ما اسم بطل «رجل بلا صفات»؟
- أولريش. ولكنني لا أنصح به. كما يقول العنوان: بلا صفات. كما أنني بحثت عنه في جوجل: لديه مشكلة زنا محارم. أقترح: أرنهايم.
- ومن هو؟
- مناسب لك يا معالي الوزير. يوصف بأنه «رجل عظيم»، سياسي ومثقف. عاشق أفلاطوني مقيم.
- بجد؟
- نعم، في «رجل بلا صفات».
- فشيخ!

في اليوم التالي أصدرت الحكومة البولندية أوامرها إلى الموظفين البولنديين في المفوضيات بمواجهة «حملة» المفوضية الأوروبية التي

تستهدف كبرياء الأمة البولندية. وينبغي خصوصًا لفت نظر الإدارة العامة للتواصل إلى أن معسكر الإبادة في أوشفيتس جريمة ألمانية، وبالتالي فهو، حصراً، مشكلة ألمانية. إننا ندعو جمهورية ألمانيا الاتحادية دعوة قلبية إلى تفكيك معسكر الإبادة الألماني ونقله من الأراضي البولندية إلى ألمانيا ليقام هناك كمتحف. على كل حال، فإن ثقافة إحياء ذكرى جريمة ارتكبتها قوات الاحتلال على الأراضي البولندية لا تصلح أن تكون مظلةً أخلاقيةً فوق السوق الأوروبية المشتركة.

أرسل وزير الخارجية النمساوي مذكرة إلى رئيس المجلس الأوروبي يوضح فيه وضوحاً لا لبس فيه أن جمهورية النمسا تؤيد وتعارض: إنها تؤيد مبادرة المفوضية الأوروبية، لكنها لا يمكن أن توافق عليها بالشكل المخطط له. إن وزارة الخارجية، وباسم الحكومة النمساوية، تؤيد بلا تحفظات مبادرة المفوضية الأوروبية، من أجل «التواصل بشكل أفضل في أوروبا المواطنين»، ولكن لا يمكن أن تقنع النمسا مواطنيها بأن معسكراً بولندياً -لقي فيه آلاف مؤلفة من الضحايا النمساويين حتفهم- هو الآن السبب في التشكيك بالأمة النمساوية.

كما بعث سفير البعثة الدائمة للجمهورية التشيكية لدى الاتحاد الأوروبي مذكرة احتجاج دبلوماسية كانت عباراتها أكثر حدة: إن الحكومة التشيكية لن تسمح بأن يقوم الاتحاد الأوروبي بالتخطيط لحملة ينفذها أولئك الداعون إلى مراجعة التاريخ والتعلم من دروسه، فههدف هذه الحملة هو محو التشكيك مرة أخرى من الخريطة. لا تفويض يخول للاتحاد ذلك، ولن يحصل على تفويض كهذا.

بعد عدة ساعات وصلت رسالة مشابهة من البعثة الدائمة لسلوفاكيا.

ابتسم هيديكوتي. كانت الدول الصغيرة، وكما توقع، هي الأسرع في إبداء المقاومة إذا وضعت... ماذا؟ إذا وضعت الهوية الوطنية موضع شك وتساؤل؟ أم الشرف الوطني؟ أم حق الوجود في حد ذاته؟ يستطيع المرء أن يكون متأكدًا من حدوث رد الفعل هذا. والعمل بناء عليه. السؤال المهم والحاسم هو: ما رد فعل ألمانيا؟ وفرنسا؟ إنجلترا خرجت من اللعبة، حتى وإن كانت لا تزال تقف في الملعب. لم يستبعد هيديكوتي أن تكون المملكة المتحدة قد أصدرت توجيهاتها إلى موظفيها في الاتحاد الأوروبي بدعم المشروع، والإلحاح على إعلانه على الرأي العام، ثم مهاجمته في بريطانيا باعتباره دليلاً آخر على ضرورة «البريكزيت». يمكن استخدام إنجلترا، هكذا فكر هيديكوتي، كوسيلة ضغط أخرى على «الفلك» وعلى الإدارة العامة للتواصل لإيقاف المشروع تمامًا قبل أن يخرج إلى النور.

تحكم لارس إيكلوف في أعصابه جيدًا قبل أن يدخل حجرة هيديكوتي. لقد اعتاد أن يسلك سلوكًا صائبًا، في كل وقت، وفي كل مكان. للحظة فحسب فكر في أن يحتاج حجرة هيديكوتي ويصرخ فيه قائلاً: «ما هذا الخراء؟» غير أنه لا يسمح لنفسه بالانفعالات الجموح، أو باستخدام لغة قذرة تسب شخصًا آخر أو تهينه. أبدًا. بالطبع كان يشك في أن يكون لهيديكوتي يدٌ في هذه الاحتجاجات الغريبة التي وصلت

إلى مكتب الرئيس من وزارات الخارجية وسفارات بعض الدول الأعضاء؛ فهذا المجري -سليلى أسرة الفرسان، بعينه اللتين ترمشان دائماً ببخبثٍ مرحٍ، وابتسامته الصفراء اللزجة التي تعلو لُغده المترهل- له دائماً يدٌ فيما يحدث. لم يستطع إثبات ذلك، لكن الشك يراوده في أن هيديكوتي يخترع بين الحين والآخر مشاكل، ثم يقدم حلها، مؤكداً بذلك أهميته لدى الرئيس. وفي كل مرة كان الأمر لا يمر عليه، وهو مدير مكتب الرئيس. أخذ نفساً عميقاً، ثم دخل وقال:

- لدي مشكلةٌ صغيرةٌ، وأنا متأكدٌ من أنك تستطيع مساعدتي.

وكان هيديكوتي يستطيع. قال شارحاً:

- شخص مجتهد للغاية يحاول أن يدعي الأهمية في المفوضية. غير أنني تحدثت مع الرئيس. سننتظر قليلاً. وسيلفظ الموضوع أنفاسه من تلقاء نفسه.

لم يكن لارس إيكولوف من الناس الذين ينتظرون ويتفرجون على الأشياء وهي «تلفظ أنفاسها». ما هذه الكلمات الفظيعة التي يستخدمها رئيس البروتوكول؟ استقصى عن الأمر.. وهو ما أدى، بدايةً، إلى وصول المشكلة إلى مسز أتكينسون.

ابتسم هيديكوتي. لقد سار كل شيءٍ كما توقعه.

من يحب الحرية، ومن يحب الحقيقة، يفقد القدرة على الحب. هذا ما قاله جده ذات يوم، وإميل برنفو -آنذاك لا يزال تلميذاً- شعر

بالصدمة، دون أن يدرك تمامًا السبب. فكر طويلاً في هذه الجملة، كما يفكر المرء في لغز يثير قلقه الدائم، وعلى الأرجح فقد حفظ هذه الجملة بسبب ذلك. رأى برنفو جده أمام عينيه، وهو يحكي، ثم يختتم حديثه بهذه الجملة، وجهه المتغضن المستاء الذي كان الصغير إميل آنذاك يفسر ملامحه على نحو خاطئ تمامًا، باعتبارها تعبيراً عن جمود المشاعر، وإحساساً بالتعالي والافتناع بأنه على حقٍّ دائم، وهو ما كان يدخل الخوف إلى قلبه - لو كان آنذاك يعرف تلك الكلمات! الأرجح أن جده كان يحكي عن زمن المقاومة - وهل يحكي عن شيء آخر؟ - وعن الشك، الشك الجذري كان بوليصة التأمين على حياته، ليست بوليصة جيدة، ولكنها الوحيدة. لا يستطيع المرء أن يحمي نفسه بعض الحماية، وأن يحمي المقربين منه، إلا إذا احتفظ بكل شيء لنفسه قدر الإمكان، وألا يثق حتى في أولئك الذين يحبهم. لقد عرف رجالٌ ونساء شجعانٌ ورائعون الغدر على يد أصدقاء وأشقاء وآباء، بل وحتى على يد أبناء من صلبهم، عرفوا الغدر على يد من يحبونهم. لم يكن الحب فضاءً للحرية، ولم يقدم حمايةً.

فيما بعد، وبعد أن توفي الجد بسنواتٍ طويلةٍ، بدأ برنفو يفهم الجملة شيئاً فشيئاً، بعد أن أصبح شرطياً. عندما تعلم أن يكون - مبدئياً - شخصاً شكاكاً، وألا يصدق حرفاً مما يقال له، وأن يعتبره محاولةً واضحةً للتعمية على الحقيقة، وأن ينظر إلى كل كلام يُقال بسرعةٍ وصراحةٍ باعتباره محاولةً لطمس الحقيقة. لكنه أقسم على عدم قبول هذا المرض المهني، وألا يسمح بأي حال من الأحوال بأن يؤثر

هذا المرض على حياته الخاصة، وعلى علاقته بالناس الذين يحبهم.
بالطبع لا يفكر الإنسان كل يوم من أيام حياته فيما تعهد به أمام نفسه. غير أن برنفو لديه الآن الدافع لكي يفكر في ذلك، ولأنه في الحقيقة أحسن التصرف في حياته، فقد التمس لنفسه العذر: كان حبه للقريبين منه يتميز بالحنان ويخلو من الريبة، كان يحب الحرية دون خوف، ويحب الحقيقة بثقة لا تتزعزع، سواء كانت تتجلى في صورة صراحة أمام أحبائه، أو نتيجة للتقصي والتحري، أو حتى إذا كانت سمة من سمات الصحافة الحرة.

في الوقت نفسه كان عليه أن يعترف -هذه الفكرة صدمته وأربكته الآن- أن كل ذلك ربما لم يعد صحيحًا. هل يحب؟ حقًا؟ أليس عليه الاعتراف بأن عليه بالأحرى أن يقول: كان يحب؟
لم يعد يستطيع أن يحب بلا قيد أو شرط. فجأة فقد القدرة على ذلك. أومن المعقول أن يكون ذلك صحيحًا؟

ما مرّ به في المدافن. لقد هزه ذلك من الأعماق. لم يكن الخنزير هو الذي أوقعه في اضطراب ورعب كبيرين، كلا، ولكن ما تسبب في ذلك هو أنه ظل بعدها، بسرّوالم ممزق وآلام في الظهر وخدوش في اليد، يتيه على وجهه نحو نصف ساعة دون أن يعثر على فيليب، ناهيك عن «صديقه» الذي كان سبب تواعدهما في هذا المكان. وجد مقعدًا، فجلس عليه واتصل بفيليب مرات عديدة، لكنه لم يسمع سوى الرسالة المسجلة. ثم مرّ به رجلٌ مسنٌّ، وجلس بجواره قائلًا: هل تتحدث أنت أيضًا مع الموتى؟

كل ذلك كان مريعًا. فرّ برَنفو من المكان، بكل معنى الكلمة وبخطواتٍ سريعةٍ، الطريق الطويل كله، مارًا بقبر جدّه، كان يعدو ويلهث إلى أن وصل إلى بوابة الخروج ثم إلى سيارته. كان يشعر بنخزاتٍ حادةٍ في جنبه، وكأن علامة استفهام عظيمة كالمنجل تقطع في روحه، هذا الألم أعمق من كل الخدوش، ألمٌ تذكره حتى بعد عودته إلى المنزل واستلقائه في البانيو. ما أوجعه كان ذلك الشك الفجائي العميق، أو بالأحرى: فقدان الثقة.

حتى الشك الاحترافي الذي اكتسبه كشرطيّ كان يركز على أساسٍ من الثقة: الثقة في دولة القانون. حسنٌ، السياسة تتدخل بين الحين والآخر عندما يتورط رجال ذو نفوذٍ في فضائح، ولكن في الحقيقة فإن تلك التدخلات كانت «لعب عيال»، بإمكانها أن تعيق دوران رحي العدالة، ولكنها لا تستطيع أن تعطل القانون لأجلٍ بعيدٍ، لا سيما في الجرائم التي يتحتم على النيابة العامة أن تحقق فيها، مثل جرائم القتل. إن طمس جريمة «أطلس» قد زعزع ثقته بقدر أكبر مما يريد الاعتراف به. السؤال هو: كيف يتعامل المرء مع الأمر؟ مثل جدّه؟ أم مثل فيليب؟ كان ما أوجعه كثيرًا الآن، هو أنه لم يعد يثق في فيليب، أفضل أصدقائه، والد جويل، ابنته الروحية. رآه فجأةً في ضوء آخر، كل ما حكاه له حتى الآن كان مشوشًا، ما حكاه عن الناتو والفايكان، حكايات رعب، لقد نصحه بأن يكف عن التحقيق في هذه القضية، وفجأةً يجيئه بمعلومات جديدة، ضبابية، سيشرح لك ذلك شخص آخر هو مصدر المعلومات، في المدافن - ثم لا يجده ولا يجد ذلك الشخص الغامض، وفجأةً لا يستطيع أيضًا الاتصال به تليفونيًا.

دفعَ برَنفو البطة البلاستيكية التي كانت تتأرجح فوق الماء بين ركبتيه، وسأل نفسه: ربما كان فيليب مكلفًا بإقناعه بأن مواصلة البحث والتحري لن تجدي شيئًا، بل ستجعله في خطرٍ عظيمٍ، وبالحكاية المخترعة عن مصدر المعلومات كان يريد أن يفحص ما إذا كان فعلاً قد تخلّى عن التحقيق في هذه القضية، أم أنه لا يزال يدرس القضية باهتمامٍ وشغفٍ؟

أراحه الحمام. لم يخفف من آلامه، ولكنه جعله يسترخي. شعر بأنه يفكر تفكيرًا صافيًا الآن، غير أن ما فكر فيه، سبب له القلق. صنع موجات في مياه البانيو، فرقصت البطة بهدوءٍ وثباتٍ، واصطدمت ببطنه، ثم استدارت وظلت تتأرجح بين ركبتيه، دفعها بيده، فقفزت ثم توازنت على المياه من جديد.

لم يحب برَنفو المدعي العام يومًا. احترامه، نعم. لكنه كان يحقّره أيضًا. رجلٌ يثق في الدولة ثقة مطلقة عمياء حتى إنه يخلط بين الدولة وذوي النفوذ والسلطة في الدولة، ولذلك -وبالطبع في حالات استثنائية- فقد كان مستعدًا أن يخالف القانون من أجل صالح الدولة، القانون الذي يجب على الدولة أن تضمن تطبيقه. أكان على برَنفو أن يحبه حتى يفهمه؟ لا. بمجرد ظهوره كان واضحًا أن هناك مصالح معينة. وهذه المصالح كانت واضحة. في الحقيقة كان موقفه صادقًا، وهذه الحقيقة لم تكن تحتاج إلى علاقة ثقة أو إلى حب. آه يا فيليب! خبط برَنفو بكفه المفرد سطح المياه. لقد وثقت بك. هل خدعتني؟

بردت المياه، ووجد برَنفو نفسه يتساءل ما إذا كان ضحية خطأ عظيم بسبب مصادفة تعيسة. ربما لا تكون شكوكه صحيحة مطلقاً، ولا يزال فيليب هو الصديق المخلص الذي يستطيع أن يشعر تجاهه بالحب والثقة.

لكن بذرة الشك انزعت في قلبه، لقد استقرت هناك ولا يمكن نزعها بقرار منه.

لم تكن البطة سوى غطاء زجاجة الشامبو، شامبو أطفال، «لا دموع بالتأكيد»، كان يعشق هذه البطة وهو طفلٌ، وبعد أن فرغت الزجاجة احتفظ بالغطاء - البطة، حتى بعد أن غيّر مسكنه، وتغيرت ظروف حياته عدة مرات. من ذيل البطة كانت ثمة فتحة ينساب منها الشامبو إذا ضغط المرء على الزجاجة.

ضغط برَنفو على البطة بكلتا قدميه حتى أغرقها. عندما يسحب قدميه، تطفو البطة على سطح المياه ثانية، وتتأرجح ثم تسبح.

لا يمكن أن تغرق. ستطفو دائماً على السطح. يمكنك أن تثق في ذلك. فتح برَنفو الغطاء وضغط على البطة لأسفل، فنفذت المياه إلى الزجاجة، وضع ذراعيه على حافة البانيو، وفتح ساقيه، وراح يشاهد البطة وهي تغرق ببطء.

مرة أخرى كاد البروفيسور إرهارت يصل متأخراً. ركب المترو كعادته، ونزل في محطة «شومان»، لكن المخرج المؤدي إلى شارع

«يوستوس ليسيوس» كان مغلقاً، لذلك خرج من جهة «بيرلمون»، فوجد نفسه عندئذٍ ليس فقط على الجانب الخطأ من شارع «دو لا لوي»، بل أيضاً تحت مستوى الشارع، في ذلك المنخفض الغريب الذي ينهض في وسطه مقر المفوضية الأوروبية، بمبنى «بيرلمون». عندما سار بحذاء السور المحيط بالمنخفض، صاعداً إلى الشارع، لاحظ أنه لا يمكن عبور شارع «دو لا لوي». على طول الرصيف توجد حواجز، وخلفها وقفت سياراتٌ عسكريةٌ، نافدي الصبر كان أفراد الشرطة العسكرية يشيرون للصاعدين من المترو بأن يواصلوا السير. واصلوا السير! الوقوف ممنوع!

قال إرهارت:

- أريد أن أعبر الشارع، لا بد أن...

- عليك مواصلة السير! واصل السير!

كان من الأفضل لو صعد إلى ميدان «شومان»، ومن هناك يسير إلى شارع «يوستوس ليسيوس»، لكن إرهارت فهم من إشارة الشرطي أن عليه أن يسير إلى الاتجاه الآخر، إلى ذلك المكان حيث ضل طريقه المرة السابقة. سار بخطى سريعة وهو يحرك ذراعيه، حيث كان يحمل بيمناه حقيبته المدرسية التي كانت بسبب حركته السريعة القلقة تصطدم مرةً بعد أخرى بركبته من الأمام أو من الخلف. عليه أن يسير إلى مالبيك، ومن هناك يستطيع أخيراً أن يعبر الشارع. في المرة القادمة، قال لنفسه، لن يركب المترو حتى محطة «شومان»، بل سينزل مباشرةً في محطة «مالبيك». إذا كان ثمة مرةً قادمةً. بعد الكلمة الافتتاحية التي سيلقيها

بعد عشر دقائق. سار المسافة كلها عائداً، حتى وصل إلى ورشة البناء بجانب مبنى يوستوس ليسسيوس، وهناك بحث عن الفتحة بين الأسوار التي تحيط بورشة البناء وألواح الخشب، الممر المؤدي إلى «ريزيدنس بالاس» حيث يعقد الاجتماع. بالطبع تغير كل شيء هنا منذ آخر مرة، ولكن المشهد لم يتغير في فوضويته. اتجه يساراً، ثم سار عدة خطوات إلى اليمين، لم ير سوى الأسوار الحديدية الشبكية، خلفه السيارات العسكرية، وأمامه الحواجز، شعر كأنه حيوانٌ حبيسٌ أو مطارداً. راح يلهث، ويضغط حقيقته على صدره، بالحقيبة المحاضرة، هي في الحقيقة كلمة عن الحرية. عن التحرير. على الأقل كلمة عن تحرير الذات.

كان إرهارت بالطبع آخر الواصلين. لم يصل متأخراً جداً، لكنه كان الأخير. قال مستر بينتو مهلاً:

- الآن اكتمل عددنا. هل تريد قهوة قبل أن نبدأ؟ ماء؟

- نعم، من فضلك.

تلفت حوله، مومئاً بالتحية هنا وهناك، تلقى تحيات. ما أبهى منظرهم جميعاً! ولا ذرة غبار ضئيلة من غبار الشارع على أحذيتهم.. هل يستخدمون طريقاً آخر؟ ألم يتوجب عليهم أن يعبروا ورشة البناء؟ لا كسرة أو ثنية في سروال أو جاكيت، القمصان ناصعة ليس بها أدنى اتساخ من العرق. كيف جاءوا إلى هنا؟ الطقس بالخارج رطب وخانق، حتى لو لم يضطر المرء، مثله، إلى الدوران حول الحواجز، فإن العرق

يتصبب من المرء حتى إذا سار ببطء.

سأله مستر بيتنو:

- حضرة البروفيسور، هل أنت مستعدٌّ؟

كان البروفيسور إرهارت مستعدًّا. دائمًا. ليست حياته سوى استعدادٍ لمواجهة الطوارئ. الزمن يتغير، لكنه في الحقيقة لا يفعل شيئاً سوى فصل العابر عن الأبدي. شرب قهوته كلها، ثم أوماً.

عندما دعي إلى مؤتمر لأول مرة في حياته، كمساعد أستاذ في مستقبل العمر، اشترى خصيصاً لتلك المناسبة بدلةً جديدةً. آنذاك دُعي لإلقاء كلمةٍ أمام منتدى العلوم في ألباخ، وهي قريةٌ على سفح جبال الألب في إقليم التيرول، حيث تتقابل في كل عام لتبادل الآراء نخبة من مجال الاقتصاد، وكوكبة من مشاهير العلماء من مختلف التخصصات، وعدد من الفنانين الناجحين. كان أستاذه، الدكتور شنايدر، هو الذي جلب له هذه الدعوة لدعمه، أو على الأقل لتشجيعه على مواصلة الجهد. كان إرهارت قد كتب بعض المقالات العلمية التي نشرها له البروفيسور شنايدر. شعر إرهارت بالفخر، وداعت الدعوة غروره، ولم يعرف إلا متأخرًا جدًّا إلى أي طاعة عمياء سخيصة قاده ذلك الأمل في نيل الفخر: لن يلقي محاضرة، بل كلمة قصيرة في مجموعة عمل. لكنه، على كل حال، سيكون موجودًا في ألباخ، وستتاح له فرصة التواصل مع المشاهير وذوي النفوذ. كان يريد إذن أن يترك أفضل انطباعٍ لدى الآخرين، ولذا اشترى بدلة جديدة، أول بدلة يشتريها مع صديري، كما اشترى حذاءً

جديداً. راح يدهن الحذاء -الذي لم يلبسه من قبل- بالورنيش، وبعد ذلك لمّعه. وهكذا وقف في الحجرة حيث قدموا القهوة والجاتوه، كان الحذاء الجديد يضغط على قدميه، وفي بدلتة الجديدة كان يشعر وكأنه متنكر. لم يكن هو الشخص الذي ارتدى تلك البدلة.

شاهد الفيلسوف، السير كارل بوبر، يلقي نظرة على ظهور السياسيين والموظفين النمساويين المنحنية الذين تفرقوا فجأةً، والتفوا حول وزير الخارجية الأمريكي الذي دخل القاعة لتوه، ثم يزداد انحناءهم، ويمد كل منهم كفه المقوس ليلتقط رماد سيجار الوزير.

ثم لمحّه: أرماند مونس.

أول مؤتمر يحضره إرهارت. وآخر ظهور علني لأرماند مونس قبل أن يتوفى بعد أسابيع. اللقاء الوحيد بين المعلم والتلميذ، ربما كان إرهارت سيقول آنذاك: بين الرب ورسوله. ولم يتحدثا إلا عن الملابس.

فوجئ إرهارت بتواضع ملابس هذا الرجل المشهور. كان يرتدي سروالاً من القطيفة متكوراً عند الركبتين، وكنزة صوفية رمادية على صدرها بقع (من القهوة؟)، وفوقها سترة زرقاء رخيصة من النايلون.

اقترب إرهارت منه ليعرفه بنفسه وليبدي احترامه وإجلاله أمام العالم المبجل.

كان مونس شيخاً مريضاً. كان قد انتهى. ندم إرهارت في تلك اللحظة على أنه بادره بالحديث. كان يود لو ناقشه في كتابه الجديد، «نهاية الاقتصاد القومي والنظام الاقتصادي في الجمهوريات ما بعد

القومية»، لكن عندما وقف أمامه أدرك فوراً استحالة ذلك. بشرة الوجه الصفراء وعليها بقع بنية اللون، الأعين المبللة بالدموع، الشفتان المبللتان بلعابه.. في تلك اللحظة اقترب طالب ومعه كتاب لمونس، وطلب توقعه. لم يتحمل إرهارت النظر إلى مونس الذي احتاج إلى وقتٍ طويلٍ حتى استطاع أن يكتب اسمه بيد مرتعشة. لم يعد إرهارت يتذكر ما قاله، كل ما يتذكره أن مونس لم يرد عليه، بل قال:

- كل الحاضرين هنا يبدون وكأنهم يرتدون أزياء تنكرية.

- نعم؟

- ألا ترى ذلك؟ كل أولئك الناس الذين يرتدون البديل، البديل التي يرتدونها في فيينا أو باريس أو أوكسفورد...

صعّب عليه مواصلة الحديث لبرهة، ثم واصل قائلاً:

- هذه، هذه الأزياء، هنا، أمام أشجار الصنوبر وجبال الألب بكل جماله... متذكرون! يبدون كالمتنكرين. أما الآخرون الذي حضروا مرتدين الأزياء الشعبية لمنطقة التيرول، فهم حقاً يرتدون أزياء تنكرية. انظر! ما أكثر المتنكرين! كرنفال علمي!

لم يدرِ إرهارت كيف يجيب، وفي النهاية قال:

- علينا ألا نتنكر أبداً!

وبصوت عالٍ أدهشه، وبنبرة خشنة قال أرماند مونس:

- لا!

عندما عاد إلى فيينا، وذهب إلى المعهد، كتب ألويس إرهارت على ورقة:

«لا!».

أرماند مونس

... ثم ثبت الورقة على الحائط أمام مكتبه. كان يعرف أن ما يفعله طفولي، وفي الوقت نفسه لم يكن طفوليًا. مجرد صعقة صغيرة من التيار الكهربائي. لا يمكن أن تكون «لا!» خطأ أبدًا. أبدًا؟ لا!

زرر الجاكت المكرمش حتى يخفي البقع التي سببها عرقه على القميص، ثم تتبع مستر بيتنو إلى القاعة التي سيلقي فيها كلمته.

في ذلك اليوم، قادت كاسندرا مركوري دراجتها إلى المكتب، وفي شارع «دارنبيرج» -وهو ما يحدث في الغالب- التقت بوهوميل. كانت كاسندرا مضطربةً ونافذة الصبر، وأرادت على الفور أن تنطلق في الشرثرة، وأن تحكي عن نهاية الأسبوع، إذ إنها كانت فخورةً للغاية بما اكتشفته، إذ كان شيئًا مدهشًا، ومهمًا جدًّا.. ولكنها بدلًا من أن تتكلم، سألته:

- هات ما عندك؟ ما الجديد؟

راح سائق الدراجة بوهوميل -الذي يتسم دومًا بالمرح والفرح،

والمجازفة الجسورة- يدوس على بَدَال الدراجة صامتًا وبوجهٍ عابسٍ، دون أن يخرج من شنطته مرةً الملتصق «أنت تقف في الطريق!» عندما يرى سيارة تقف في طريق الدراجات. كانت دائمًا تشعر بالقلق عندما يقوم بمناوراتهِ الخطرة، ولكنها الآن شعرت بالقلق لأنه لم يفعل ذلك.

- والآن، احكِ لي! ماذا حدث؟

- كنت في نهاية الأسبوع في مدينتي براغ.

تحتم على كاسندرا أن ترجع وراء بوهوميل عندما دارت حول سيارة تقف في الصف الثاني، في حين انطلق من اليسار باص بصوته المزمجر، ثم لحقت به. لزم بوهوميل الصمت.

- إذن، لقد كنت في براغ. في زيارة للعائلة؟ هيا! ماذا حدث؟

رد بالفرنسية:

- العائلة هي موت العقل!

- بوهوميل!

- في الحقيقة لا جديد في الأمر، ولم يفاجئني شيءٌ. أو فلنقل: إنني أتعجب الآن من أن الأمر فاجأني. كنت عند والداي. جيدًا! الوالدان هما الوالدان. ثم أردت أن أقابل أختي، لتناول الطعام في مطعمنا المفضل، بطة مع كرنب أحمر، كما نفعل دائمًا. لكنها رفضت!

- أختك رفضت أن تقابلك؟

- رفضت مقابلتي في المطعم. أرادت أن تراني وحدي، وأن أذهب إليها في البيت.

- هذا لطيف منها.

- لا. هي تعرف أنني أحب تناول البط في هذا المطعم. ونحن دائماً نفعل ذلك! كنا نتقابل هناك، نتناول طعامنا، ونحكي عن كل شيء، كل الأخبار الجديدة، كل الأسرار، كل الشائعات! لا، لم أكن أريد أن أذهب إلى بيتها. لقد تزوجت منذ فترة...

- أنت تعرف زوجها؟ لقد كنت إذن مدعواً عند الاثنين؟

- قالت لي: أنت لم تحضر حفل زواجنا! وقالت: أنا أعرف بالطبع السبب. والآن، ستأتي إلينا وتصافح زوجي. سأطبخ بطة. ولكنك ستصافح زوجي. في بيتنا.

- وما المشكلة؟

انفتح باب سيارة واقفة أمامهما. فرمل بوهوميل على نحوٍ فجائيٍّ لدرجة أنه كاد يسقط على رأسه. حادت كاسندرا إلى اليسار، ثم إلى اليمين، فكادت سيارة نقلٍ تدهسها. توقفت ونزلت من على الدراجة. قلبها يخفق وينبض بقوة في قفصها الصدري وفي صدغيها. نزل بوهوميل، وصاح في سائق السيارة الذي فتح الباب دون أن ينظر إلى الورا. اعتذر الرجل مرةً بعد أخرى. دفع بوهوميل دراجته ماراً بالسيارة وبكاسندرا، ثم ترك الدراجة تقع على الأرض، وجلس على غطاء محرك سيارة واقفة، وانخرط في البكاء.

جلست كاسندرا بجانبه، ووضعت ذراعها حول كتفه، وقالت:
- لم يحدث شيءٌ. لم يحدث شيءٌ. الحظ حالفك مرةً أخرى،
وسارت الأمور على خير!
- لم يسر أي شيءٍ على خير!

وقف سائق السيارة بوجهٍ شاحبٍ كالطباشير، فأشارت له كاسندرا
بيدها أن ينصرف. كرر بوهوميل وهو يدعك عينيه بظهر يده:

- لم يسر أي شيءٍ على خيرٍ. ذهبت إذن إلى بيت أختي. كانت
تريد أن أصافح زوجها. وهناك، رفض هو أن يصافحني. هو،
رفض أن يمد يده إلى يدي الممدودة. تجاهلها. حذق فيّ،
بوجهه المنفوخ الراضي عن ذاته، ويداه في جيبي بنطلونه، ثم
قال لي: *Y smrade zasranej!*

- نعم؟

قال لها بوهوميل بالفرنسية:

- أنت مغفل!

- لا، غير معقول!

- بلى! قال لي إن الشركات الكبرى قد اشترتني، وإنني أخون
المصالح الوطنية لجمهورية التشيك مقابل المرتب الضخم
الذي أتقاضاه في بروكسل، وإنني حشرةٌ ضارةٌ، إلى آخره. كل
هذا في ممر بيته. بالقرب من الباب.

- وماذا قلت؟ ماذا فعلت؟

ضحك بوهوميل بسخرية، ثم سحب الهواء من منخرينه بصوتٍ مسموع، وقال:

- ماذا فعلت؟ سحبت يديّ، ثم قلت لأختي: إذا وقفنا طويلاً في الممر وتناقشنا، ستحترق البطّة. فردت: لا توجد بطّة. لا يوجد سوى توضيحٍ للأمور.

ضمته كاسندرا، وضغطت على رأسه النائم على صدرها، ومسحت بيدها على رأسه. كان الأمر مضحكاً، فقد كانت تمسح على خوذته.

وفجأةً وقف رجلٌ أمامهما وراح يصرخ فيهما. صاحب السيارة التي جلسا على غطاء محركها. تطلع بوهوميل إليه، وسحب من حقيبته المعلقة على كتفه ملصقاً، وبعناية نزع البلاستيك عن الملصق، وبقوة لصقه على جبين الرجل. تأرجح الرجل إلى الوراء، فأخذ بوهوميل دراجته وقال لكاسندرا:

- هيا! علينا أن نذهب إلى العمل!

تعجبت كاسندرا من سرعة القفزة التي جلست بها على الدراجة. أخذاً يضغطان على البدال بقوة، وفي صمت. لم ينطق بوهوميل إلا في «أفنيو دي زار»:

- تصغرنني أختي بخمس سنوات. عندما كانت في المدرسة، كنت أقوم بحل الواجبات المنزلية لها. لم يقل أحدٌ إنها غبية أو كسولة. كانت هي الأميرة. والآن، سترزق بطفلٍ من رجلٍ فاشي.

ولا أحد في كل العائلة يفعل شيئًا. هو لطيفٌ مع الأقارب، ينشد بصوتٍ جميلٍ أغانيَ شعبيةً، مظهره جيد إلى حد ما، ويكسب جيدًا، وهو ليس شيعويًا. هذا هو أهم شيء اليوم. لم تعرف كاسندرا ماذا تقول. لم تتكلم إلا عندما وصلا وربطا دراجتيهما، وسارا إلى المصعد:

- لدي أنا أيضًا بعض الأشياء من نهاية الأسبوع التي يمكنني أن أتحدث عنها.

أمام المصعد كان يقف اثنان من السلمندر. وجها التحية بأدبٍ مبالغٍ فيه، وعندما انفتح باب المصعد، سأل سلمندر:

- الرابع، أليس كذلك؟

ردت كاسندرا بالإيجاب، فضغط السلمندر على زر الطابق الثالث ثم الرابع، وسأل بلطف:

- هل قضيتما نهاية أسبوع جميلة؟

قال بوهوميل:

- نهاية الأسبوع كانت خرائية.

شعرت كاسندرا برغبةٍ وقحةٍ مجنونةٍ، فقالت وهي تشعر بالاندهاش من نفسها:

- نعم، وحتى الآن كان يوم الاثنين أيضًا خرائيًا!

- أوه!

ارتفع بهم المصعد، ببطءٍ شديدٍ، في هذا الموقف كان البطء خائفاً.
قال بوهوميل:

- والمصعد أيضاً خرائي.

ضحكت كاسندرا ضحكةً باطنيةً.

في الطابق الثالث خرج السلمندان من المصعد بخطى سريعة،
وقالا:

- «بون جورنيه».

تمنيا لهما هما أيضاً يوماً سعيداً، وضحك بوهوميل. قالت
كاسندرا:

- يسعدني أنك تضحك من جديد. والآن، أريد أن أحكي عن نهاية
الأسبوع. أحكي لك ولكسينو. الأمر مهم. وسيفاجئك.

كانت فينيا كسينوبولو تجلس إلى مكتبها، وفي يدها كوب قهوة
من الكانتين. الأرصاد تتنبأ بيوم خائق الحرارة. النافذة مفتوحة، وكان
الهواء الآن -نحو الثامنة صباحاً- دافئاً، ولكن بدا أن فينيا كسينوبولو
تشعر بالبرد. أمسكت بالكوب بكلتا يديها وكأنها تتدفأ. ربما كانت
تلك محض عادة. لم تكن تشعر بالبرد. يبرد روعي على أقصى تقدير.
كانت مصابةً بصداع. ليس صداعاً جسدياً، بل أخلاقياً. كانت قد قضت
الليلة عند فريزر، ولم تنجح في أن تقول له إن... ثم اقترحت عليه،
متأخراً جداً، عندما كانت اللحظة غير مناسبة إطلاقاً، أن... وهو كان

يغفو... وهي... أمسكت بالكوب بكلتا يديها وشعرت بالخجل من أنها... ضغطت على وجهه بالوسادة... كانت تريد فحسب أن ترى ما إذا كانت ستصدر منه بادرة انفعال، أم أن الرجال -عندما ينفذ رصيدهم من البروتين- لا يعودون قادرين على الحركة؟ حرر نفسه، وأبعدا بضرباته، وصرخ، فانفجرت باكيةً -حسن، لقد احتضنها و...

دخلت كاسندرا الحجرة، لماذا كانت منفعة هكذا؟

- لا بد أن نتحدث، هل لديك وقت؟ الموضوع مهم، مهم لمشروع اليوبيل. معك قهوة، فكرة جيدة، سأحضر قهوة وأخبر بوهوميل. هل يناسبك أن نلتقي بعد عشر دقائق هنا في حجرتك؟

- معك سيجارة؟

- لا، أنا لا أدخن. ولكن إذا أردت التدخين، فمن الأفضل أن نتحدث في حجرة بوهوميل، لقد نزع هذا الشيء في السقف، ماذا يسمى... هناك يمكن التدخين دون أن تنطلق صفارة الإنذار.

بعد ربع ساعة كانوا يجلسون في حجرة بوهوميل. كانت كاسندرا أحضرت قهوة للجميع. دخت كسينو لأول مرة أمام شهود ثلاث سبائير متتالية، وراحت كاسندرا تحكي عن معسكر دوسين في ميشيلين.

كانت كاسندرا تعشق القيام برحلات بالقطار في نهاية الأسبوع. كانت تستمتع «بقرب كل شيء من بروكسل»، كما اعتادت أن تقول، أوروبا الخاصة بها؛ في أقل من ساعة ونصف كان المرء يصل إلى

باريس، وفي خلال ساعتين ونصف إلى لندن، أما أمستردام وكولونيا فالوصول إليهما يستغرق أقل من ساعتين. في بعض الأحيان كانت تنطلق بالقطار في صباح يوم الأحد الباكر وتعود في المساء، وأحياناً كانت تبدأ رحلتها يوم السبت وتبيت في إحدى المدن. كانت تزور المتاحف وقاعات الفن، تتقابل مع أصدقاء في مقاهٍ، وبين حين وآخر تشتري لنفسها قطعة ملابس من أحد البوتيكات. في نهاية هذا الأسبوع لم تستقل القطار السريع، «التاليس»، بل قطار الضواحي، متجهة إلى ميشيلين التي تبعد نحو ثلاثين كيلو متراً عن بروكسل، أي أقل من نصف ساعة.

قرأت كاسندرا في صحيفة «لو سوار» نعي جوستاف ياكوبوفيتش، المحامي الشهير من بروكسل الذي اضطلع بدورٍ مهمٍّ -وهو ما كانت تعرفه- في تاريخ المحكمة الأوروبية العليا لحقوق الإنسان. كان الرجل أسطورة، وظل نشيطاً نشاطاً كبيراً حتى آخر أيام حياته، إلى أن توفي عن عمر ناهز التسعين. ما أثار اهتمام كاسندرا على وجه خاص في هذا النعي كان السطر الذي يعرف بالكاتب: «جان نيبنتسال، باحث في مركز توثيق الهولوكوست وحقوق الإنسان في ثكنة دوسين في ميشيلين». أثناء الاحتلال كانت ثكنة دوسين المعسكر المركزي في بلجيكا الذي كان فيه جنود الإس إس النازيون يجمعون فيه اليهود والروما والمقاومين للنازية، ومن هناك كانوا يرحلون إلى أوشفيتس. ربما سمعت كاسندرا ذات مرة أن هذه الثكنة تحولت إلى متحفٍ، لكنها لم تكن تعرف أن هناك مركزاً بحثياً، مؤسسة علمية تبحث على نحوٍ منهجيٍّ في تاريخ الترحيل

إلى أوشفيتس. كتبت رسالةً إلكترونيةً إلى نيتتسال الذي أجاب عليها فوراً مبدئياً استعداده لمقابلتها يوم الأحد، والتجول في المعرض معها، والإجابة -قدر استطاعته- على كل أسئلتها.

كاسندرا موظفةٌ مجتهدةٌ. سافرت إلى ميشيلين وقابلت نيتتسال؛ لأنها اعتقدت أن ذلك من الممكن أن يكون مفيداً لمشروع اليوبيل. لكنها لم تفكر أبداً في أن تحسب ذلك كساعات عمل إضافية، أو أن تسافر إلى ميشيلين بعد أن تتم الموافقة على ذلك «كرحلة عمل»، ثم تحاسب جهة عملها على تكاليف الرحلة. لقد أثار الأمر اهتمامها، وهي بالنسبة لها رحلة في يوم الأحد سترى خلالها وتتعلم أشياء جديدة، فإذا كانت الرحلة فوق ذلك مفيدة للمشروع، فإنها تكون أصابت عصفورين بحجر واحد.

كما أن جان نيتتسال باحث مجتهد، يضع نفسه بالطبع في خدمة العمل -حتى يوم الأحد، خارج أوقات العمل الرسمية- إذا كان شخص من المفوضية الأوروبية يهتم بعمله ويسافر من أجل ذلك إلى ميشيلين. إن اهتمام الناس بعمل هذا المركز البحثي يتضاءل يوماً بعد يوم، وهو ما يقلل الموارد المالية له. ولذلك كاد يشعر بالتأثر من اهتمام هذه الموظفة الأوروبية، وعلى الفور بحث عنها في جوجل: مجال العمل، التصوير.

قال لها: لا تشكريني، لست من البيروقراطيين عديمي الإحساس، حتى وإن كنت أجلس هنا إلى مكتب إيجرت ريدر. من هو؟ كان رئيس الإدارة العسكرية الألمانية في بلجيكا، وهو الذي نظم ترحيل أكثر من ثلاثين ألف يهودي إلى أوشفيتس. بعد الحرب حُكم عليه بالسجن

اثنى عشر عامًا، ثم عفا عنه المستشار الألماني كونراد أدناور. لقد كان يجلس إلى مكتب فحسب، هكذا قالوا. ولم يكن مسؤولاً عن قتل اليهود في أوشفيتس. كل ما فعله أنه أدرجهم على قوائم خلال ساعات عمله في المكتب حتى يتم تسليمهم للذبح بصورة نظامية. لم يكن متعصبًا بكل تأكيد، ولم يعمل ساعاتٍ إضافيةً أبدًا. بعد العفو حصل على معاشٍ كموظف في جمهورية ألمانيا الاتحادية، فقد عمل سنوات كافية. واليوم، أجلس إلى مكتبه وأشتغل على هذه القوائم.

جان نيتسال رجل جيد المظهر، في عمر كاسندرا تقريبًا، كما أنه يشبهها كثيرًا في القوام: ليس نحيفًا - كانت كاسندرا ترتاب في الرجال النحفاء، كانت ترى أنهم يميلون إلى الزهد، والجمود، والكآبة؛ كما أنه لم يكن بدينًا أيضًا - كانت كاسندرا ترى أن البدناء لا شكل لهم ولا جاذبية، لا يتحكمون في أنفسهم، ولكن، يجب ألا نعمم، فلنقل إذن: أغلبيتهم، على كل حالٍ كان البدناء يثيرون لدى كاسندرا الشبهات بأنهم لا يسيطرون على شهواتهم.

كان جان رجلًا بكل معنى الكلمة، طويلًا، قويًا ولينًا في الوقت نفسه، هكذا كانت كاسندرا ترى ما كان جان نفسه ربما يراه «ميلًا إلى البدانة». سحرتها عيناه العسليتان وشعره الأسود المجعد.

سألته كسينو:

- ولماذا تعتقدين أن وقوعك في الحب أمر يهمننا؟

بمكتب بوهوميل كرسيان فحسب، كرسي المكتب، وكرسي للزوار. عرض بوهوميل على كسينو أن تجلس إلى المكتب، لكن

كسينو فضلت الوقوف. كانت تسدد نظراتها بوجه عصبي إلى كاسندرا التي كانت تجلس على كرسي الزوار. قفزت كاسندرا من مكانها قائلة:
- ألا تفهمان؟ لقد قلتها بكل وضوح! لديهم قوائم! في ميشيلين! أرشيف مخابرات الإس إس الذي كان مسؤولاً عن الترحيلات موجودٌ بأكمله هناك. لقد راسلنا العالم كله، في حين أن لدينا كل شيء على مرمى حجر: على مبعدة ثلاثين دقيقةً من هنا بقطار الضواحي! أعرف الآن أيضًا عدد الناجين من أوشفيتس الذين لا يزالون على قيد الحياة، ولديّ أسماءهم.

- كم عددهم؟

- ستة عشر.

- ستون؟

- ستة عشر!

- ستة عشر؟ في العالم كله؟

- ممن ورد أسماءهم على قوائم الترحيل، ثم سجلوا بعد ذلك كناجين، باختصار: كل الذين سجلوا على نحو من الأنحاء، ومعروف أنهم... نعم.

- ويوجد عناوين لهم؟

- قال جان إن العناوين ليست حديثةً بنسبة مائة في المائة. من الممكن ألا تكون بعض العناوين صحيحة الآن لأنه ليس هناك اتصالات منتظمة معهم كلهم. ولكن مبدئيًا: نعم.

- وفي أي... ماذا أقول؟ حالة؟ أعني هل هم من الناحية الصحية...

أعني، هل يمكنهم السفر والتحدث أمام جمهور؟

- من المعروف عن خمسة منهم أنهم يشاركون بانتظام في لقاءات،
في المدارس مثلاً، أو في برامج أخرى لشهود تلك الفترة.

- خمسة؟

- نعم. وهناك حالة خاصة. شخصٌ يُدعى دافيد دو فريند. يعيش
هنا في بروكسل. قال لي جان إنه إذا كان فهم مشروعنا على نحو
صحيح، فإن المدعو دو فريند هو شاهدا المثلالي؟

- لماذا؟

- إنه ليس أحد آخر الناجين من أوشفيتس فحسب، إنه أيضاً آخر
اليهود الأحياء الذين نجوا من قطار الترحيل الأسطوري رقم
عشرين. كان ذلك القطار هو قطار الترحيل الوحيد الذي هاجمه
أفراد من المقاومة وأوقفوه في الطريق، ثم قطعوا بالكماشات
السلك الذي كان يغلق أبواب عربة ترحيل المواشي في الأساس،
ثم صاحوا في اليهود أن عليهم القفز والهروب. مَنْ قفز، كان
يُدس في يده خمسون فرنكاً وعنوان آمن. تملك الخوف أغلب
الركاب، كانوا يخشون أن يقتلهم الألمان بالرصاص إذا حاولوا
الهرب، فظلوا في القطار الذي واصل رحلته بعد تبادل إطلاق
نيران قصير بين حراس الإس إس وعناصر المقاومة. كل الذين
لم يقفروا، ساروا بعد وصولهم إلى أوشفيتس مباشرة إلى غرف
الغاز. لكن دو فريند كان أحد الذين قفروا من القطار.

لكنك قلت إنه كان في أوشفيتس.

- الهروب من قطار الترحيل العشرين حدث في إبريل ٤٣. وهو
لجأ إلى عائلة في قرية، لم أعد الآن أتذكر اسمها، والعائلة
ادعت أنه ابن الأخت القادم من بروكسل. كان آنذاك في ريعان
الشباب، ويعاني من صدمة نفسية ثقيلة الوطأة؛ إذ إن الوالدين
ظلا في القطار. كان بإمكانه أن ينتظر انتهاء الحرب لدى العائلة
التي احتضنته، لكنه أراد أن يناضل، ويحرر الوالدين ربما؟ أن
يحرر أوروبا؟ في يونيو ٤٤ انضم إلى مجموعة المقاومة «أوروبا
الحرّة» ليصبح أصغر أعضاء المجموعة التي التفت حول جان
ريشار برنفو الذي ربما تكونا سمعتما عنه، على الأقل تعرفان
شارع برنفو. أضحت هذه المجموعة أسطورة بسبب عملياتها
الجريئة، وأيضاً لأنها كانت تختلف سياسياً عن كل جماعات
المقاومة الأخرى: لقد كانت هي الوحيدة التي أعلنت باسمها
أنها تنشط ليس فقط من أجل أن تكون بلجيكا حرة، بل أوروبا
كلها. كان هدف أعضاء المجموعة، فور نهاية الحرب وبعد
الانتصار على النازيين، إلغاء الملكية في بلجيكا وتأسيس
جمهورية أوروبية. قاوم برنفو وزملاؤه حتى نهاية حياتهم أيضاً
النظام الفاشي في إسبانيا والبرتغال، أي ضد فرانكو وسالازار
الذين نسيتهم القوى المنتصرة عند تحرير أوروبا، وهو أمر
مثير للغرابة. على كلّ: وُشي بدافيد دو فريند في أغسطس ٤٤،
فاعْتُقِل ورُحِل إلى أوشفيتس. لكنه لم يرسل إلى غرف الغاز.

كان شابًا وقويًا، وظل على قيد الحياة إلى أن تم تحرير المعسكر بعدها بشهور. بعد الحرب عمل مدرسًا. لم يفعل مثل كثيرين من الناجين ولم يظهر بين الحين والآخر في المدارس ليتحدث كشاهد على تلك الفترة، لقد أراد العمل مدرسًا لكي يهتم كل يوم بالجيل القادم. لم يكن يريد أن يكون شاهدًا، بل مُربيًا. ها، ما رأيكما؟ إذا طورنا فكرة مارتن - ونحن حصلنا على مباركة الرئيس - فعلينا أن نضع هذا الرجل في مركز الاحتفال. عندئذ يكون لدينا كل شيء: ضحية من ضحايا العنصرية، مناضل في حركة المقاومة، ضحية الوشاية والخيانة، شاهد على معسكر الإبادة، رجل لديه رؤية عن أوروبا ما بعد القوميات على أساس حقوق الإنسان، لدينا التاريخ والدروس التي نتعلمها منه في شخص واحد، في شخص هذا المعلم.

ردت كسينو:

- جميل جدًا. يا للحماسة الأخاذة! ولكن لدينا مشكلة صغيرة.

شعرت الممرضة جوزفين بالقلق تجاه دو فريند. كانت امرأة عادلة تحاول أن تعامل كل «رعاياها»، مثلما كانت تقول، معاملة متساوية قدر الإمكان، سواء كانوا لطفاء أو مزعجين أو حتى مقرفين، متعاونين أو رافضين للتعاون، بشوشين أو عدوانيين. كانت جوزفين ترى أنهم كلهم لديهم أسبابهم ليكونوا مثلما يتصرفون، أسباب لها علاقة بسيرة حياتهم التي كانت تظهر بوضوح في دار المسنين، عندما يدركون أنه

ليس بمقدورهم فعل أي شيء آخر في «دار هانسنس» سوى انتظار نهاية حياتهم، في حين أنهم يتصرفون وكأنهم ضيوف في فندق للاستشفاء.

كل الذين تشملهم برعايتها كانوا في نهاية حياتهم، لكنهم لم ينتهوا من حياتهم بعد. كانت هذه هي خبرة جوزفين وقناعتها. كانت تتخيل في كل يوم ماذا يعني ذلك. بالنسبة لكل فرد. كلهم متساوون في ذلك، وفي هذه المساواة لم تعد تفرق بين الرعايا المزعجين والذين يسهل الاهتمام بهم، بين اللطفاء وغير اللطفاء. لم يظهر دافيد دو فريند أبدًا الرغبة في أن يتحدث معها أكثر من الضروري. وإذا شكرها على شيء، كان ذلك يبدو بالأحرى وكأنه يودعها، أكثر منه تعبيرًا عن الشكر. لا يمكننا إذن أن نقول إن دو فريند من الذين يجد المرء نفسه يحبهم، ولذلك يوليهم اهتمامه بعطفٍ خاصٍّ. رغم ذلك شعرت جوزفين أنها تتحمل مسؤولية خاصة تجاه السيد دو فريند. هل كان سبب ذلك الرقم على ذراعه؟ وجهت لنفسها هذا السؤال، وفي الوقت نفسه منعت نفسها عن التفكير فيه. كانت عادلة، وتولي الجميع الاهتمام نفسه. لم يسلم أحد من جراح الحياة.

وهكذا اقتحمت غرفة دو فريند متسلحة بأفضل النوايا، وفي يدها صحيفتان، ثم صرخت فيه:

- أنت لا تذهب أبدًا...

كان دو فريند يجلس في كرسیه المبطن، لا يرتدي سوى سروال داخلي.

صرخت جوزفين:

- لم أرك منذ أيام في القاعة المشتركة حيث تعرض الصحف. ولكن علينا أن نقرأ الصحف، أليس كذلك يا سيد دو فريند؟ أم أننا لم نعد نريد أن نعرف ماذا يحدث في العالم؟ لا، لا، إننا نريد أن نعرف ما يجري حولنا، نريد أن نطل متعطشين (أكدت على الكلمة بشكل خاص) إلى المعرفة، أليس كذلك يا سيد دو فريند؟ ما الذي تفضل قراءته يا سيد دو فريند؟ «لو سوار» أم «دو مورجن»؟ أعتقد أنك من قراء «دو مورجن»، أليس كذلك؟ والآن نريد أن نمّر قليلاً خلايانا الصغيرة الرمادية، وأن نقرأو... بالطبع كانت لا مبالاة دو فريند تشير أعصاب جوزفين، رغم ذلك راحت تحاول أن تشجعه على أن يبقى يقظ الحواس، وفضولياً، أن يتواصل مع الناس قبل أن يغفو الغفوة الأخيرة.

تناول دافيد دو فريند الصحيفة، وراح يحملق فيها، ثم شرع يُقلب صفحاتها ببطء، إلى أن أخذ فجأةً يحدق في الصحيفة وهو مُنَحْنٍ.

- هل تريد أن نقرأ مقالةً معاً؟ هل يثير اهتمامك...

نهض دو فريند، وسار في الغرفة، راح وجاء، ملقياً نظراتٍ وباحثاً عن شيء. تطلعت إليه الممرضة جوزفين متعجبةً:

- عن أي شيء تبحث؟

- دفتر الملاحظات. ألم تقرئي؟ صفحة الوفيات. لا بد أن أحذف اسماً، اسماً جديداً، من قائمتي.

الفصل العاشر

إذا كان كل شيء هباءً
فلن تعزينا حتى أجمل الذكريات.
كيف يمكننا أن نبرر ذلك^(١٨)؟

(١٨) في الأصل بالبولندية:

Gdy wszystko było na próżno,
nawet najpiękniejsze wspomnienie nas nie pocieszy.
I jak tu szukać usprawiedliwienia?

وقف إميل برنفو في الحمام عارياً وظهره إلى المرأة، وحاول أن يلقي نظرة على كتفه لمعرفة ما إذا كان بإمكانه رؤية كدمة أو خدوش في مستوى عظمة العجز أو العصعص. في البداية شعر بالاسترخاء بعد الحمام، لكن الألم في مؤخرته زاد بمرور الوقت عليه في البانيو، بلا شك من تبعات وقوعه.

صدرت عن فقرات عنقه طقطقةٌ وصريرٌ، لكنه فشل في أن يدير رأسه إلى الخلف حتى يرى عجيزته في المرأة. والآن شعر بالآلام وتوتر في عضلات الرقبة إلى جانب آلام العصعص. بالطبع كان برنفو يعرف أن جسده ليس ليناً ومرناً وقابلاً للحركة مثل جسد لاعبة جمباز روسية، رغم ذلك شعر بالإحباط لتيسر أعضائه على هذا النحو. زميله جول مونييه كان يمارس تمارين اليوغا في مكتبه خلال أوقات الاستراحة من العمل، وذلك حتى لا «يصدأ جسده»، بل كان حتى يقف على رأسه خلال الاجتماعات الطويلة. كم كان الأمر مثيراً للضحك في عيني برنفو! من ناحية أخرى كان ما يفعله غريباً إلى حدٍّ يكاد يثير التعاطف. غير أن برنفو لن يعترف بهذا أبداً. ربما كان جول محقاً. برنفو مقتنع بأن جول يستطيع دون أي عناء أن يدير رأسه إلى الوراء، وأن يلقي بمنتهى الهدوء نظرةً في المرأة على ظهره وعظمة العصعص، دون أن يشعر بالآلام

أو توتر في العضلات. آه، يا جول! كم كنت مرناً ولبناً قياساً إلى عمرك عندما سُحبت مني قضية «أطلس» وتحتم عليّ ترك العمل. وكيف استطعت أن تدير ظهرك لي، دون آلام أو توتر في العضلات!

حاول برنفو أن يدلك رقبتك، هناك، في الخلف، كل شيء قاسٍ كالحجر. في تلك اللحظة دق التليفون. سار من الحمام إلى غرفة النوم حيث خلع ملابسه، لكنه لم يجد التليفون هناك، سار إلى غرفة المعيشة، وهناك وجده على المكتب. استقبل المكالمات، وتجمد في مكانه. كان فيليب على الخط. قال له برنفو:

- اسمع، لن نتحدث في التليفون عن الموضوع. نعم، أريد أن تشرح لي الأمر. طبعاً. فلنتقابل... أين؟ مقهى كافكا؟ أين يقع؟ «رو دو بواسونير»؟ على ناصية «رو أنطوان دانسرت». موافق.

بعد ساعة ونصف؟ *D'accord!*

عندما وصل برنفو إلى المقهى، لم يكن فيليب هناك بعد. وصل نحو ربع ساعة قبل الموعد، إذن، لا يعني ذلك أي شيء بالضرورة، ومع ذلك انتابه على الفور شعورٌ مقبضٌ بأن فيليب يلعب معه لعبة ما، وأنه سيتركه جالساً، ولن يحضر إلى هذا الموعد أيضاً.

سيتركه جالساً - ولكن كيف؟ لا يكاد إميل برنفو يستطيع الجلوس. العصب يصيب له آلاماً لا تحتمل. لم يكن يتحمل الجلوس إلا إذا مال إلى أحد جنبه وجلس على إحدى عظمتي الحوض. ولكن ما المدة التي يستطيع أن يتحمل فيها الجلوس هكذا؟ نهض، ووقف عند البار. مُعذّباً راح يبدل ارتكازه على هذه القدم أو تلك، وبجرعة واحدة شرب

بيرته حتى الثمالة، ثم طلب كأساً أخرى ومعها شنابس «جينيفر». ألقى نظرة على ساعته. بالتأكيد لن ينتظر فيليب نصف ساعة أو ثلاثة أرباع ساعة، فهو لن يأتي على أي حال. بالتأكيد لا. عشر دقائق على الأكثر. تجرع الشنابس، ثم أمسك بكأس البيرة وتمشى حتى وقف أمام القهوة. يا لحرارة الجو! لا يستطيع أن يتذكر ربيعاً أو صيفاً مبكراً في بروكسل كان حاراً هكذا، وخانقاً هكذا، ووحشياً هكذا. الإسفلت وبلاط الرصيف وجدران البيوت كانت تخزن الحرارة ثم تطلقها بعد ذلك، وحتى هبات الهواء لم تكن عزاء، بل كانت تضرب الوجه بالحرارة مثل لكمية. وفوق ذلك كانت الإضاءة، في هذه اللحظة، غريبة تماماً، وغير طبيعية مطلقاً، كان الوقت قبل الغروب بقليل، لكن المرء لا يرى في الشارع أي شمسٍ بالطبع، ليس سوى الحزم الضوئية الصفراء الوردية التي كانت -تطلع برنفو إلى أعلى- تكسو السماء بطبقة من الطلاء المسموم.

إميل برنفو شخصٌ شاعريٌّ. لكنه لم يكن يعرف ذلك، لأنه قليلاً ما يقرأ. ولا يقرأ الشعر مطلقاً. من كل القصائد التي تعلمها آنذاك في المدرسة -وهي لم تكن كثيرة- لم تعلق في ذاكرته سوى قصيدة يتيمة: قصيدة «إلى عابر»، وذلك لأن البيت الذي يقول «برقٌ... ثم الليل.. جمال هارب» مس شغاف قلبه على نحوٍ غريب. فيما بعد، عندما عمل مفتش شرطة، كان يشجع الفريق العامل معه عندما يتخبطون في الظلام قائلاً: «الليل... ثم البرق! الهارب مرئي». كان ذلك في رأيه هو الإنجاز الشعري الوحيد في حياته. لكنه كان يقلل من شأن نفسه. والآن حرك هذا الضوء مشاعره بقسوة، وأحس به كصورة بلاغية.. كان ذلك بلا

شكّ فعلاً شعريّاً. الضوء السيئ. فجأة رأى كل شيء يغوص في إضاءة سيئة. اكتسب المؤلف طبقة مسمومة من الطلاء، و... ألقى نظرة على اللافطة التي تحمل اسم الشارع والمثبتة على البيت على الناصية أمامه: *Poissonniers*، «تجار السمك». اكتسب الضوء المتلون لون السمك.

كان يود لو بقي فترة أطول في هذا الضوء، في هذه الأجواء، ليس لأنها لطيفة، لكن، نعم: لأنها كانت تناسب وحالته النفسية. الأجواء مناسبة، نعم، تناسبه. هذا هو، هذا هو ضوء أوجاعه الروحية، لكنه لا يتحمل الأوجاع الجسدية. احتسى كأس بيرته حتى الثمالة، وأراد أن يدخل المقهى ويدفع الحساب، ويذهب إلى المنزل. عندئذ وقف فيليب فجأة أمامه، واحتضنه. ما سبب ابتهاجه هكذا؟ ولماذا يعانقه بقوة هكذا؟

ندت عن برنفو آهة قصيرة، وتخلص من ذلك العناق. علا القلق وجه فيليب، وسأله:

- ماذا بك؟ هل لديك آلام؟

لماذا شعر برنفو بأن ملامح وجه صديقه القلقة مبالغ فيها؟ لماذا اعتقد فيليب أنه سيصدق هذه المسرحية المبتذلة؟ ولكن، ماذا لو لم تكن مسرحية؟ لماذا اعتقد هو أن أفضل أصدقائه قادر على فعل ذلك؟ بلغ الغضب منه غايته، فقال له وكأنه يريد أن يخبط الأرض بقدميه حتى يؤكد لنفسه أن الأرض لا تهتز، وأنها لم تُسحب بعد من تحته:

- نعم، عندي آلام. لقد وقعت في المدافن. في المدافن. هل تتذكر؟

أخذ نفسًا عميقًا وزفره، ثم واصل:

- كنا على موعدٍ هناك، أليس كذلك؟ ولكنك لم تحضر. بالتأكيد يمكنك أن تشرح لي ذلك.

- يا إلهي، لماذا وقعت؟ هل جُرحت؟

- وإذا قلت لك: لأنني لم أرك هناك، ورأيت بدلًا منك شيئًا؟

من الواضح أن فيليب يريد أن يقول شيئًا، لكنه لم يتكلم، بل هز رأسه، ثم أشار إلى كأس برنفو الفارغة قائلاً:

- فلندخل، نريد أن نشرب شيئًا.

كان ذلك هو الوقت الذي يزدحم المقهى فيه بسرعة. والآن، لم تعد هناك مائدة شاغرة. قال إميل برنفو إنه على أي حال لن يستطيع الجلوس.

- لقد أصبت في مؤخرتي. خلال موعدنا في المدافن. وبالتحديد في العصعص. الآلام فظيعة.

أعطى البارمان إشارة: كأسان من البيرة!

لن أستطيع أيضًا الوقوف مدةً طويلةً. إذن، لا داعي للرف والدوران كثيرًا. ماذا حدث؟ لماذا لم تحضر؟ وما حكاية هذا الصديق الغامض الذي كان علينا أن نقابله؟ هل صديقك هو الرجل العجوز الذي سألتني ما إذا كنت أتحدث مع الموتى؟ هل تريد أن تقول لي إن تلك كانت هي كلمة السر حتى أعرفه؟ ولماذا لم تعجب على التليفون؟ من فضلك يا فيليب، اشرح لي الأمر. وأرجوك من كل قلبي: اشرح لي الأمر بكلمات أفهمها.

- لن تصدق، ولكن...

في تلك اللحظة حصلنا على بيرتهما.

رفع برنفو كأسه وقال:

- «سانتيه!» لن أصدقك إذن. وغير ذلك؟

قال فيليب:

- اسمع! من الممكن تفسير كل ذلك ببساطة شديدة. لكن المشكلة

هي: صحيح أن كل شيء منطقي جدًا، لكنه في الوقت ذاته يبدو غير قابل للتصديق مطلقًا.

- ستنبج في أن تجعلني أصدقك.

- لا أظن. لم أرك يومًا شكًا هكذا، أنت في طريقك لأن تصبح

مثل جدك، عليك أن تنتبه، إنه هذا الشك الذي يدمر الثقة. أيًا كان

الأمر، سأحكي لك الحكاية الآن، بكل اختصار، حتى تستطيع

النوم مرة أخرى. على فكرة، جويل ترسل لك تحياتها وتسأل

متى ستمر علينا مرة ثانية بعد طول غياب. سأقول لها إن عليها

أن تصبر لأنك مريض. إذن: بدأ الأمر بحصولي على رسالة.

كنا قد اعتبرنا الموضوع -وأنت تعرف ما أعني- منتهيًا. ثم

جاءتني الرسالة. أؤكد: رسالة. لا «ميل» أو رسالة إلكترونية.

كدت ألا أرها، لأنني أتناول كل ما يصلني في صندوق البريد

في العمل وألقي به على الفور في سلة المهملات، إذ لا يصلني

سوى الدعاية والإعلانات. على كل حال، في هذه الرسالة كتب

شخصٌ -يسمى نفسه فعلاً «الشخص»- أنه استطاع تتبع آثارى.
- تتبع آثارك؟

- نعم. على ما يبدو أنني خلال محاولاتي آنذاك أن أحقق تقدماً في موضوعنا، وأن أعرف كيف مُحيت ملفات قضية أطلس على جهاز الكمبيوتر الخاص بك، قد اقتربت على الأقل من شبكة نظام -فلنقل بحذر- مُشارك في الأمر. لا أعرف طبعاً على وجه الدقة. على كل حالٍ، لقد لاحظ شخصٌ هناك أنني حاولت اختراق الشبكة. فإذا كان ما فعلته أمراً خطيراً، فإن هذا الشخص يعرف في لمح البصر أنني كنت هناك. ويعرف اسمي، ومحل إقامتي، كل شيءٍ. لديهم هذه الإمكانيات. إذن، كتب لي الشخص رسالةً، وكتب لي أيضاً تبريره لهذا الشكل من أشكال الاتصال: البريد العتيق البطيء الجميل هو وسيلة التواصل الوحيدة التي لا تُحفظ في مكان ما، أو تُقرأ قبل أن تصل إلى المرسل إليه، ولا يتم تقييم محتواها أو استخدامه ضدك. ما كنا نسميه في الماضي «صندوق البريد الميت»، أي مخبأ الرسائل السرية، هو اليوم صندوق بريد بيتك العادي تماماً. جيد. أنت تعرف ليو أوبري من المعمل. شاب طيب. ودائماً على استعداد لتقديم المساعدة لغيره. ومن الممكن الثقة به ثقة مطلقة، أليس كذلك؟ إذن. لقد أعطيته الرسالة. الورق: ورق عادي تماماً، يُباع في كل مكان، في أي متجر تحصل على ٥٠٠ ورقة مقابل أربعة يورو. الطابعة، إذا استطعنا من الحبر استنتاج نوعها، فهي طابعةٌ

بسيطة ماركة كانون، أكثر الطابعات مبيعاً في بلجيكا. ليس على الورقة أدنى أثر من آثار الحمض النووي أو أي شيء من هذا القبيل يمكن أن يعطينا مؤشراً على المرسل.

- *Bien*، ولكن ماذا كان مكتوباً في الرسالة؟

- أنني تجرأت كثيراً، وأن ذلك من المستحيل أن يكون بموافقة رئيسي في جهة عملي. وأنه من الواضح أنني، خارج نطاق عملي، أحارب بمفردي. وأنه أيضاً كذلك.

- أنه؟ من أين عرفت أن «الشخص» رجل؟

- سؤال وجيه. هذا هو ظني.

- فعلاً؟ وماذا بعد؟

- أنه إذن... أنا متأكد أنه رجل. كتب يقول إنه ليس *Whistleblower*، ليس من مسربي المعلومات وكاشفي الفساد الذين يكونون مستعدين لتدمير حياتهم، لكنه يتعاطف مع كل الذين يبحثون عن شقوق تنفذ عبرها الحقيقة.

- هل كانت تلك صياغته؟

- نعم. وعرض عليّ المساعدة. إذا كنت مهتماً بمواصلة الاتصال به، فعليّ أن أتوقف عن القيام بمحاولات أخرى لاختراق النظام، لأنه لا يستطيع أن يضمن عدم إطلاق إشارة التحذير بسبب اختراقي فترة أطول من ذلك؛ وأنه عندئذٍ سيمدني بالمعلومات التي أحتاج إليها. إذا كنت موافقاً، فعليّ أن أقوم في وقتٍ محددٍ

من اليوم التالي بالبحث في جوجل عن: رقصة المطر عند «الهوبي» من الهنود الحمر.

- الهوبي؟ ما هذا الذي تحكيه لي؟ هذا جنون!

- لا، هذا ليس جنوناً. من الواضح أن هذا الشخص لديه إمكانية لأن يرى ما أفعله على جهاز الكمبيوتر الخاص بي. وعندما أكتب الكلمات التي يطلبها، وعندما أفتح صفحة من الصفحات التي يسفر عنها البحث، عندئذٍ يعرف أنني قبلت باقتراحه، دون أن يلفت ذلك نظر أي أحد في النظام.

- وهذا ما فعلته أنت؟

- نعم.

- أحتاجُ إلى بيرةٍ أخرى.

- أنا أيضاً. أتعرف ماذا حدث عندئذٍ؟ لقد كتبت: «رقصة المطر هنود حمر الهوبي»، وعلى الفور اقترح جوجل عليّ: «نظرية الأنظمة والحركة الاجتماعية الجديدة. إشكاليات الهوية في مجتمع المخاطرة».

- لم أفهم.

- ليس هناك ما يُفهم. هذا عنوان كتاب، وعلى ما يبدو فإن هذا الكتاب يضم فصلاً عن هنود «الهوبي» ورقصات المطر. أيّاً كان السبب. فقرت على الرابط.

- وماذا حدث؟

- بعد يومين حصلت على الرسالة التالية.

- وكيف أجبت عليها؟

- بالبحث في جوجل على جهاز الكمبيوتر الخاص بي عن كلمات في أوقات معينة حددها هو. الكلمات المفتاحية كانت هي إجابتي، أو بالأحرى أسئلتي. على ما يبدو فإنه يجلس في مكان ما يستطيع من خلاله مراقبة مَنْ يبحث في جوجل، ومعرفة عن أي شيء يبحث.

- كم مرة... أعني: منذ متى يسير الأمر على هذا النحو؟

- منذ ثلاثة أسابيع؟ ربما أربعة.

- ولم تذكر لي الأمر بكلمة؟ كنا معًا في مباراة أندلخت ضد ميشيلين، وبكيننا معًا ومسح كل منا دموعه في كوفيته، وتساءلنا: كيف استطاع ميشيلين الفوز علينا ٢ / صفر؟ ثم شربنا معًا خمس كؤوس بيرة، على الأقل، وتحدثنا عن كل شيء ممكن، ولكنك لم تذكر لي كلمة عن هذا الشخص. كان ذلك بالتأكيد... كان ذلك بالتأكيد في تلك الفترة.

- نعم، ولكنني كنت أريد أن أعرف أولاً ما إذا كان الأمر جادًا. ربما كان مجرد شخص مجنون.

- لكنه لم يكن مجنونًا؟

- لا. أو بالأحرى: لا أعرف. لقد أعطاني معلوماتٍ مثيرةً جديةً بالتصديق. لقد حصلت منه على ملفٍّ عن التعاون بين الفاتيكان

وأجهزة المخابرات الغربية. لقد قرأته، وهو مذهلٌ، بل خياليٌّ، وفي الوقت نفسه معقولٌ ومنطقيٌّ إلى أبعد حدٍّ، كانت قطع صغيرة من «البازل» تتناسب مع بعضها البعض تناسبًا تامًّا. انظر: لا يوجد جهاز مخابرات في العالم لديه الموارد، سواء فيما يتعلق بالمال أو بالموظفين، لتكوين شبكة من العملاء تستطيع أن تغطي العالم كله، وتكون مناظرة بعض الشيء لشبكة العولمة. هم الآن لديهم عملاؤهم في بؤر الصراع. ولكن من يثق فيهم؟ من يعطيهم المعلومات؟ إنهم فقط أولئك الذين يتعاونون على أي حال مع حكومات أجهزة المخابرات، معنى هذا: ما يكتبه العملاء في تقاريرهم لا يختلف كثيرًا عما يرسله السفير إلى بلده. السؤال التالي: أين تقع بؤرة الصراع التالية؟ ماذا سيبدأ غدًا في الانفجار، في حين يتم استثمار الملايين في عمل ثلاثين عميلًا تقريبًا، لا يفعلون في مناطق الأزمات شيئًا سوى الجلوس في قاعات الاستجمام والاسترخاء في بضعة فنادق لا تزال تعمل وتستقبل نزلاء؟ عشرون من الثلاثين عميلًا يعملون لدى السي أي إيه، وهم يقبعون في مكان واحد معًا، غير ذلك لا يعرفون أحدًا. هذا هو حال أقوى جهاز مخابرات في العالم. طيب، الآن سؤال بسيط: من لديه عميل في كل قرية نائية؟ الفاتيكان. لماذا؟ في كل قرية نائية يوجد قسٌّ. من يعرف في كل مكان أكثر الأسرار سرية؟ القسيس، على الأقل عبر سر الاعتراف. ولكن حتى إذا لم تغطَّ شبكة القسس كلَّ مكان، فإنها بالتأكيد

تستطيع الحصول على معلومات تزيد أضعافاً عما تحصل عليها
أفضل أجهزة المخابرات وأكثرها إمكانيات. ولهذا، يا صديقي،
تتنافس أجهزة المخابرات بكل الوسائل على خطوة الفاتيكان،
لكي تتعاون مع الكنيسة وتتبادل معها المعلومات. كان هذا هو
الوضع في الحرب الباردة، وهو ما لم يعد سرّاً الآن. الآن هناك
عدوٌّ آخر. لم تعد الشيوعية الملحدة، العدو اليوم اسمه الإسلام.
- ولكن... انتظر! المسلم لن يذهب إلى القس ويعترف له بأنه قام
بعملية إرهابية أو يخطط للقيام بها. هذا جنون!

- لا، بالطبع لا. ولكن المسيحيين المطيعين يحكون للقسيس كل
ما يشير اشتباههم، مثلاً فيما يتعلق بالمستأجرين الجدد في الشقة
المجاورة، أو في المنزل المجاور، أو في البيت على الناحية
الأخرى من الرصيف، إنهم يجلسون عند الشباك بالمنظار المكبر
ويتطلعون إلى شبابيك المنازل على الجانب الآخر من الشارع.
هل الفضول خطيئة؟ فضولنا بالتأكيد لا. تمامًا كما نحكي نحن
في المعتاد عما نتحرى حوله، هكذا يعترف المسيحي. ولهذا،
لا يزال المحور قائماً الذي أُسس في الحرب الباردة بين أجهزة
المخابرات والفاتيكان.

- هل تعتقد ذلك؟

اندهش فيليب، ثم قهقه ضاحكاً:

- لست متدينًا. أنا لا أعتقد في شيء. وبإمكانك أن تعتقد فيما
تريد. إنني أعطيك وقائع. بالمناسبة، كيف حال العصعص؟

- بيرة أخرى، وكأس من «الجينيفر» وستكون حالتي أفضل.

- طيب، سأشرب معك. لدي الآن من الشخص معلومات حول سيطرة الكنيسة على ما يشبه فرق الموت التي تقوم بدم باردٍ بتصفية الإرهابيين المحتملين أو ما يُطلق عليهم «دعاة الكراهية»، وذلك بموافقة أجهزة المخابرات. المقصود إذن أشخاص يُتوقع أن يقوموا بعمليات إرهابية، لكن دولة القانون لم تجمع ضدهم ما يكفي لوضعهم في السجن على نحو مشروع. وبهذا نكون وصلنا إلى قضية أطلس. محاربو الرب يقومون بالعمل، والمخابرات تساندهم بأن تجعل القضية تتبخر بعد ذلك في الهواء. لقد أرسل لي الشخص قائمة بأربع عشرة حالة من حالات القتل حدثت في أوروبا خلال العام الماضي دون أن تقوم صحيفة واحدة بالحديث عن إحدى هذه الحالات.

- هل تأكدت من ذلك؟

- نعم. لم أجد أدنى مؤشرٍ على وقوع أي جريمةٍ من الجرائم المدرجة على القائمة. هذا معناه: هذه الجرائم لم تحدث، أو أن طمس آثارها كان كاملاً لدرجة عدم وجود مؤشراتٍ عليها.

- وبذلك نقرب من نظريات المؤامرة.

- لا، لن نقرب؛ لأنك إذا قمت اليوم بالبحث عن معلوماتٍ بشأن جريمة القتل في «أطلس»، فلن تجد شيئاً أيضاً. لا شيء. لا شيء مطلقاً. ولكننا نعلم أنها وقعت. لسنا بحاجة إلى دليلٍ على وقوع جرائم القتل الأربع عشرة المدرجة على القائمة، إن ما نحتاج إليه

هو تفسير لجريمة القتل في فندق أطلس. والتفسير الذي قدمه الشخص يبدو منطقيًا إلى أبعد حد! في صحتك، «سانتيه»!

شيء ما كان يثير ضيق برنفو. وخبرته كشرطي تقول له: إذا ضايقتك شيء في حكاية، فعلى الأرجح أنها حقًا حكاية فاسدة. قال لفيليب:

- أنا لا أفهم لماذا لم تخبرني بالأمر وبالتطورات.

- لقد فعلت ذلك. أعني، أنا أعرفك جيدًا. وكنت أعرف أن عليّ أن أقدم لك ما هو أكثر من مجرد حكاية. وقائع. إذن، أردت مقابلة الشخص. ولهذا قمت في الموعد المحدد بإدخال كلمة «لقاء» وتنويعاتها في ماكينة البحث على جهاز الكمبيوتر الخاص. بعد ثلاثة أيام وصلتي رسالة وبها اقتراح: اللقاء في المقابر، وهو ما قلته لك.

قال له برنفو:

- وحصلت أخيرًا على موعد مع هذا الشبح... ثم لا تذهب؟

- ماذا تقول؟ أنا كنت هناك. بالطبع. لا أعرف أين كنت أنت. ربما أمام النصب التذكاري الخطأ، ربما في الوقت الخطأ، لا أعلم. لكنني كنت هناك. وجلست على المقعد. ورحت أنتظر الشخص، وانتظرك. ثم رن تليفوني المحمول. استقبلت المكالمة، فسمعت صوتًا يقول: مستر فيليب جاولتير؟ قلت: نعم. سألني: هل تجلس على المقعد حيث تواعدنا أن نلتقي؟ أدركت من يتحدث معي، وقلت: نعم. هو: قف من فضلك.

أنا: نعم؟ لماذا؟ هو: قف من فضلك! وقفت. هو: استدر من فضلك، وقل لي ماذا ترى. وجدت الأمر عبثيًا، فقلت له: اسمع، لا أريد أن ألعب أي ألعاب. فقال هو: لا ألعاب! ماذا ترى؟ قلت: شجرة! وفكرت: يا للسخافة، ما معنى هذا كله؟ قال لي: وخلفها؟ أنا: مقابر. مقابر جنود. صلبان بيضاء! هو: ممتاز. وخلفها؟ أنا: لا شيء. لا شيء سوى حقل هائل من الصلبان البيضاء. هو: إذن، ارفع بصرك. ماذا ترى الآن؟ أنا: لا شيء. لا أعرف ما تود أن تسمعه. هو: أريد أن أسمع ما تراه. أنا: لا شيء، أشجار، سماء. هو: وبين الأشجار والسماء؟ خلف المدافن؟ أنا: نعم، أرى مبنيين كبيرين، وكأنهما قطعتان هائلتان من جبن الإمتالر. هو: بالضبط. هل تعلم ما هذا؟ الناتو؟ هو: صحيح. والآن، ها قد حصلت على المعلومات التي أستطيع أن أعطيها لك. استغلها في عملك، أو توقف! مع السلامة، أيها الشرطي!

- أنت كنت في المدافن وجاءتك هذه المكالمات؟

- نعم. وبعد ذلك انتظرتك ثلاثة أرباع ساعة، ثم انصرفت.

- ولماذا أغلقت تليفونك؟ لقد اتصلت بك عدة مرات لأنني لم أعثر عليك و...

- تليفوني أصابه عطلٌ ما. فجأةً لم أعد أستطيع الاتصال أو تلقي اتصالات. وعندما عمل التليفون مرةً أخرى، اتصلت بك على الفور. ولهذا تقابلنا هنا.

كانت الحكاية في نظر برنفو رائعةً. مثيرةً حقًا. لم يكن يتوقع أن

يحكي فيليب حكايةً مثلها. لكنه لم يصدق كلمةً واحدةً. كم أوجعه ذلك. قال له:

- لدي آلام قوية. لا تغضب مني، لا بد أن أذهب إلى البيت.

لاحظ أن فيليب لم يحتس كأس «الشنابس»، فتناوله إميل وشربه جرعةً واحدةً، ثم ودعه قائلاً:

- أراك قريباً يا صديقي!

ثم عرجَ خارجاً من المقهى. لاحظ أنه يعرج، وهو شيءٌ لم يرده، فحاول أن يسير مستقيم القامة ودون أن يظهر أي إصابةٍ به، لكنه أخفق في ذلك، فواصل طريقه وهو يعرج، وخرج من مقهى «كافكا» وقد اجتاحتته رغبةٌ في الصراخ.

لقد عرفوا في اليوم نفسه أن ماتيك ليس في إسطنبول، بل سافر بالطائرة إلى كراكوف. كما عرفوا بعد ثلاثة أيام أن مؤشرات سفره في اليوم التالي إلى وارسو هي آثار مضللة صنعها بنفسه. لم يكن ماتيك متأكداً، لكنه اعتقد ذلك. وعرف أيضاً أنه سيوقع الأب سيمون، صديقه المقرب من أيام المعهد، في صراع مع ضميره إذا لم يسافر بعد ثلاثة أيام. قدم له سيمون مأوى في دير القديس أوغسطينوس، معتقداً أن ماتيك يحتاج مرةً أخرى إلى وقت للتوبة والتأمل. يدين سيمون بالولاء التام لماتيك الذي كان يعرف أنه يستطيع الوثوق فيه، غير أنه كان يعلم أيضاً أن سيمون لن يفهم أبداً أنه -ماتيك- في الحقيقة يختبئ هنا في

الدير من وجه كبار رجال الدين في الكنيسة. إنهم يعرفون اتصالاته، لذلك كان بديهيًا أن يصبح سيمون هدفًا لهم بدءًا من اليوم الرابع. كما كان بديهيًا كيف سيتصرف سيمون إذا وقع في صراع بين وفاء الصداقة وبين القسم بالسمع والطاعة الذي أداه قسًا. استفاد ماتيك من الثلاثة أيام للتأمل، والتفكير في وضعه، وتجميع قواه. والآن، عليه مغادرة الدير. أمامه إمكانيتان: مواصلة السفر والنزول في فنادق رخيصة حيث لا يأخذون بدقة أمور التسجيل وإبراز الهوية، وعدم استخدام بطاقة البنك وبطاقة الائتمان، وتجنب كاميرات المراقبة في الأماكن العامة قدر الإمكان، وعدم فتح اللابتوب أبدًا. عندئذ سيكون مثل غواصة، غير مرئي، ولا يمكن العثور عليه. ولكن: لن تكون لديه فرصة لمعرفة الخطأ الذي حدث في بروكسل، في فندق أطلس، وماذا ينوون أن يفعلوا معه الآن. نقوده السائلة ستكفيه أسبوعًا على أقصى تقدير. هذا الأسبوع كغواصة لن يحسن موقفه، ولن يكسبه معلومات. الإمكانيّة الثانية: أن يقتحم عرين الأسد! عليه أن يعرف ما حدث، وما هو وضعه الآن. لم يكن هناك سوى مكان واحد يستطيع فيه معرفة ذلك: بوزنان. لن يتوقعوا أن يأتي إلى المركز مباشرة بعد أن اختفى تحت الأرض. من ناحية أخرى: إذا سارت الأمور سيرًا سيئًا، يمكنه أن يظهر انسحاقًا ويؤكد على أنه عاد إلى بيته طواعية.

احتضن سيمون وودعه قائلاً: شكرًا يا أخي، ثم ضغط على يديه قائلاً: الرب يحميك!

ابتسم سيمون: الرب يحميك! ورحلة طيبة إلى بوزنان!

كان من الصعب إخراج ماتيك عن طوره. كان دائماً حذرًا، يحسب كل الإمكانيات، وكان -هكذا اعتقد- مستعدًا في كل موقف لأي احتمال. كان لديه الدم البارد الذي يسري في عروق رجل يمتهن الجندية في الجيل الرابع. غير أنه لم يتوقع هذه الجملة. «رحلة طيبة إلى بوزنان!»... ضربته الجملة مثل لكمة، وخدرته لوهلة. تنفس عميقًا، ووضع حقيبة الظهر على الأرض وقال:

- أنت تعرف...

أوما سيمون.

- ... أنني مسافر إلى بوزنان؟ لكنني لم أقل لك.

- ينتظرونك هناك. ولا تخف.

- ماذا تعرف، أخي سيمون؟ ولماذا لم تقل لي شيئًا؟

- أنت لم تسألني. كنت تظهر في التدريبات الروحية، وتجيء

إلى الصلاة المشتركة وإلى تمرينات الصمت وتشاركنا الطعام،

باستثناء العشاء، لكنك التزمت الصمت، ليس فقط خلال تناول

الحساء. غير ذلك، كنت تركع بالساعات في الكنيسة الصغيرة

أمام صورة «والدة الإله المعزية». إذا سألني أحد الإخوة، فإنني

أجيب، لكنك لم تسألني.

- لكنك أجبت؟

- نعم.

- سئلت عني؟

أوماً سيمون.

نظر ماتيك إلى الأرض، ثم رفع ببطء رأسه. رأى هيئة سيمون السوداء، الحزام الجلدي الأسود، الرداء الأسود الملقى على كتفيه والذي يبرز من فتحة عنق رمادي ينتهي بوجه سيمون الرمادي تحت القلنسوة السوداء، خفض ماتيك بصره ثانيةً، وتأمل يديه، كانتا رماديتين أيضًا، تركهما تتهاويان، فاخفتتا في اللون الرمادي الأسود فوق أحجار الأرضية السوداء في هذه الغرفة الصغيرة المعتمة. حلق ماتيك في وجه سيمون مباشرة. كانت شفتا سيمون حمراوين. وكأنه عضهما حتى أدماهما. قال ماتيك: والآن أسألك، ماذا تعرف؟ ماذا يمكنك أن تقول لي؟

- كانت لديك مهمة. لا أعرف ماهي. وحدث خطأ ما. لا أعرف ما هو. لم يكن الذنب ذنبك. وهم ينتظرونك. لا تخف. هذا ما عليّ أن أقوله لك إذا سألتني.

حلق ماتيك في سيمون، وأوماً، ثم تناول رأسه بين يديه، وسحبه تجاهه وضغط فمه على شفتي سيمون الحمراوين. اللون الأحمر الدموي، الشيء الوحيد البراق في هذه الغرفة التي كانت في تلك اللحظة فضاءً خارجيًا، وفي الوقت نفسه لم يكن سوى مَعْبَرٍ إلى العالم. ثم خرج من الدير إلى الهواء الطلق، إلى الهواء المُهْدَد والمُهْدَد. بعد أيام من الكآبة الصامتة خلف الجدران السمكية أصابه ضوء النهار الباهر كالبرق.

عندما طُرح مشروع اليوبيل للمشاورات الداخلية، لم يصدر رد فعلٍ من الإدارة العامة للزراعة، كما لم ترسل أحدًا إلى الاجتماع. تنظيم الاحتفالات وأيام اليوبيل لا يهم أحدًا في هذه الإدارة، لا سيما إذا كان الاحتفال لا يتمحور حول إبراز إنجازات السياسة الزراعية الأوروبية. ويقل الاهتمام كثيرًا عندما تعهد الإدارة العامة للتواصل بالتحضير للاحتفال إلى قسم الثقافة تحديدًا، هذا «الفُلك الرابض على الأرض» مثلما أطلق عليه جورج مورلاند ذات مرة. الفيل يعرف أن من المستحيل أن تصنع من البعوضة فيلاً.

والآن، وبعد أن انطلقت الرصاصات الأولى المعارضة للمشروع من المجلس الأوروبي، فقد كان جورج مورلاند تحديدًا، من إدارة الزراعة، هو الشخص الذي بدأ في تجميع الخيوط في المفوضية لتصبح حبلاً يلتف على عنق المشروع حتى يختنق.

كان جورج مورلاند، كمعظم الموظفين الإنجليز، غير محبوبٍ كثيرًا في المفوضية. إن البريطانيين -وهذا ما قاله الرئيس بنفسه ذات يوم- لا يقبلون هنا إلا بقاعدة واحدة ملزمة، ألا وهي أنهم -مبدئيًا- استثناء من القاعدة. وفي الحقيقة فقد كانت الشبهات تحوم دائمًا حول الإنجليز بأنهم يضعون مصالح الاتحاد الأوروبي خلف مصالح لندن. في عديد من الحالات كانت الشبهات مبررة. في حالات أخرى كان الأمر أكثر تعقيدًا: المملكة المتحدة هي حقًا من حيث المبدأ -سواء أردنا أو لم نرد- حالة استثنائية. للتاج البريطاني ممتلكات ليست من الناحية القانونية جزءًا من المملكة المتحدة، مثل جزيرة مان أو جزر القنال، ما

يمثل مشكلةً غير قابلةٍ للحل بالنظر إلى السياسة الضرائبية الأوروبية: فهذه الجزر واحات ضرائبية لدولة عضو في الاتحاد، غير أنها مستقلةٌ قانونيًا عنها. الملكة هي -شكليًا- رئيسة دول الكومنولث، الأمر الذي يؤدي إلى تعقيدات قانونية في كل العقود التجارية التي يبرمها الاتحاد الأوروبي مع الدول الأخرى. لو لم يُراعَ هذا الموقف الخاص بقواعد استثنائية في كل عقد، لأصبحت أستراليا، مثلاً، فجأة جزءاً من السوق الأوروبية المشتركة. منذ البداية لم يكن الأمر سهلاً مع إنجلترا، ولكن ثمة إنجليز أيضاً أمسوا في بروكسل أوروبيين بحق. كما أن علينا أن نضع في كفة حسنات جورج مورلاند أيضاً أنه خلال سنواته في بروكسل تعلم بعض الجمل الفرنسية، ليس هذا فحسب، لقد أنجز أيضاً إنجازات مهمة في السياسة الأوروبية. بحكم منصبه في إدارة الزراعة كان من المدافعين الشرسين عن صغار المزارعين ومن داعميهم، وحتى إذا كان قد فعل ذلك لأنه كان يراعي الطبيعة الإنجليزية بمعناها التقليدي، ولم يكن يريد أن يراها تنهار بسبب شركات الصناعات الزراعية العملاقة أو الزراعات الأحادية، فقد كان ذلك يصب في المصلحة الأوروبية العامة أيضاً. ولم يكن مورلاند -سليل الطبقة العليا في إنجلترا- يقبل الرشاوي من الصناعات الزراعية وشركات البذور العملاقة وجماعات اللوبي التابعة لها. كان، أو بالأحرى كانت عائلته تمتلك أراضي ضخمة المساحة شرقي يوركشاير مؤجرة إلى عدد من المزارعين الصغار. كان مورلاند يعرف ما ينجزونه، وما يعانون منه. والدفاع عن مصالحهم ضد الاستغلال الزراعي المكثف والراديكالي كان حالة من الحالات

الكلاسيكية التي تخدم فيها المنفعة الذاتية المنفعة العامة. الزراعة الأحادية الوحيدة التي كان يقبل بها هي ملعب الجولف.

كان مورلاند إذن حالة تتسم بالتناقض. كان يعرف أنه ليس محبوبًا، لكن ذلك لم يكن له علاقة مباشرة بعمله في المفوضية. لقد عانى في شبابه من ذلك، تلميذًا، ثم طالبًا في أوكسفورد. كان شخصًا تقيسًا، يثير الاستغراب للوهلة الأولى، ورغم كل جهوده لم يكن من الذين يربحون الآخرين. وجهه المستدير ذو اللون الوردى، أنفه المسطح، شعره الأحمر القوي الشبيه بشعر الفرشاة، وجسده القصير مفتول العضلات.. كم من ليلة قضاهَا باكيًا في وسادته وهو بعد طفل، بسبب الأسماء الساخرة التي كانت تطلق عليه. حماه أصله من أشياء أسوأ من الرياضة، لكن ذلك الأصل -وكنوع من الدفاع النفسي عن الذات- جعله في نهاية الأمر متعجرفًا، وشديد الطموح في الوقت نفسه. تعلم اكتساب الاحترام عبر المناصب والترقي المهني، مع أنه كان، بابتسامته الساخرة، من الطراز القديم؛ كان يرى أن مَنْ لا يريد أن يمنحه حق قدره، فعليه، في حالة الشك، أن يخشاه.

Now is the winter of our discontent / Made glorious summer by this sun of Brussels.^(١٩)

لكن الشمس تتوارى خلف السحب الداكنة. كان مورلاند أحد الخبراء الموفدين من قبل دولتهم، وقد انتهت فترته في بروكسل. في

(١٩) الترجمة: «الآن شتاء سخطنا / لكن شمس بروكسل جعلته صيفًا رائعًا»، والبيت تحويل لأحد أبيات شكسبير، وفيه يتحدث عن «شمس يورك». (المترجم).

خضم كل تلك الفوضى التي صاحبت مفاوضات خروج بريطانيا العظمى من الاتحاد ارتكب خطأً جسيماً نال كثيراً من سمعته الطيبة في وطنه. لقد أبرم الألمان فعلاً معاهدةً ثنائيةً مع الصين تفتح لهم السوق الصيني أمام منتجات لحوم الخنزير. خنازير! لم يأخذ الأمر مأخذ الجد. كان له نصيب كبير في مقاطعة كل المحاولات المبذولة لإبرام معاهدة جماعية بين الاتحاد الأوروبي والصين، كان يريد الدفاع عن المزايا التي تتمتع بها المملكة المتحدة، دون أن يرى عواقب ذلك. هذا المدعو كاي-أوفة فريجة كان على حقٍّ، قولاً وفعلًا! الإضرابات التي حدثت في سوق المال في لندن كانت جسيمة، وسرّعت من انتقال صناديق مالية مهمة إلى فرنسا. بسبب الخنازير! شعر مورلاند بالذهول. لقد عجز تمامًا عن فهم الأهمية الاقتصادية الهائلة الكامنة في رغبة الصين في استيراد مخلفات ذبح الخنازير أيضًا. في زمن المجاعة كان الأيرلنديون يشترون بينسات قليلة «كوارع» الخنازير، ثم يضعونها على النار لساعات. كان ذلك طعامًا بائسًا في أشد الأزمات، أما آذان الخنازير فقد كان الجزار في لندن يهديها لزبائنه الدائمين ليطعموا بها كلابهم. ورؤوس الخنازير... لا داعي. في فم خنزير ميت أدخل عضوه، مؤديا طقس الدخول في عضوية «نادي بالينجدون» في أوكسفورد، النادي الخاص بالطلبة من أبناء العائلات الراقية. إجباره على فعل ذلك للحصول على عضوية النادي كان آخر إهانة حدثت له، وإنْ خفف من وقعها السُّكْر وصيحات التهليل. بعد ذلك لم يلقَ سوى التقدير. قد يحتوي الخنزير على آثار من حزب المحافظين. نعم. هاهاها! ما أكثر ضحكهم الآن، الألمان.

يبيعون نفايات بأسعار قطع الفيليه، وتخرج إنجلترا بلا نصيب، وقريةً ستصبح المملكة البريطانية كلها خارج الاتحاد.

كان الأمر جنونياً، يخرج على كل منطقٍ، لكن حكاية الخزائير هذه كانت سبباً أساسياً جعل جورج مورلاند ينتقل إلى تعطيل كل المراكب السائرة. إذا كان الضرر سيلحق بإنجلترا، فلا بد أن يكون بمقدورها على الأقل التهكم من المتسبب في الضرر. وكل ما أخفقت فيه المفوضية حتى الآن يعزز من الموقف البريطاني في المفاوضات القادمة. وإذا كانت المفوضية -تحت رعاية الرئيس كما يزعمون- تحضر لإطلاق حملة لتحسين سمعتها، فلا بد أن تفشل هذه الحملة. السمعة السيئة للمفوضية أمرٌ جيدٌ لإنجلترا.

اتكأ مورلاند على ظهر كرسي مكتبه ورجع به إلى الوراء، ثم راح يساوي بالمبرد أظافر أصابعه. لماذا أصبحت أظافره تنقص فجأةً وتنكسر؟ أعمل مبرده مستغرقاً في التفكير. بين حين وآخر نفخ في الذرات المتجمعة على صدره.

ومسر أتكينسون! ابتسم مورلاند. صحيح أن الأمر لا أهمية له من الناحية القومية، ناهيك عن أن يكون مهماً بالنسبة لأوروبا، ولكنه بالتأكيد خبرٌ لطيفٌ عابرٌ في تاريخ جهوده السياسية عندما يفشل مشروع اليوبيل، ويلحق الضرر بهذه المرأة الباردة التي تتدقّ بالفرو. لقد حصلت بفضل الكوّة النسائية فحسب على هذه الوظيفة التي طمح إلى الفوز بها، وكان في البداية أيضاً أوفر المرشحين حظاً.

لن يعترف جورج مورلاند أبداً بما يشعر به، فهذا أمر لن ينطبق

عليه تمامًا ما يُطلق عليه «الضرورة الموضوعية»، رغم ذلك فإن مجرد التفكير في الإيقاع بمسز أتكينسون كان يشير إعجابه البالغ.

عندما يفكر في كل شيء، يكتشف أن لديه تصورًا واضحًا بخصوص ما ينبغي فعله. التواعد على الغداء مع عدة زملاء مهمين من الإدارات العامة الأخرى، ويفضل أن يكون في مطعم «مارتنس» ذي الحديقة الجميلة، هناك يشعر المدخنون بين الزملاء بالسعادة، ويصبحون أكثر استرخاءً وانفتاحًا، وهناك عليه أن يقدم لهم حجبًا على مقاسهم تمامًا، تدخل الطمأنينة إلى قلوبهم، وتجعلهم يعارضون المشروع.

بدل مورلاند المبرد. بعد الخشن يجيء الآن الناعم.

سيجعل ذلك الأمور تتطور من تلقاء نفسها، قيل وقال، ضحيجٌ وصخبٌ، على المرء عندئذ أن يوجه هذا الاضطراب بحذرٍ في اتجاه الشعور باحتياج إلى تكوين مجموعة عمل في المجلس الأوروبي لمناقشة المشكلة وحلها.

«حل المشكلة.» فيما يتعلق بهذه الصياغة اللغوية أيضًا اتسم جورج مورلاند بالمحافظة. في السنوات الأخيرة شهدت المفوضية تحولًا لغويًا مدهشًا فرض نفسه، دون أن يلفت نظر أحد، أو على الأقل دون أن يعلق أحدٌ على ذلك أو يضعه موضع تساؤل. سابقًا كان يُقال: «حل المشكلة»، أما اليوم فهم يقولون: «إيجاد حلٍّ للمشكلة». في الماضي كان يُقال: «اتخاذ قرار»، أما اليوم فيقولون: «الحث على اتخاذ قرار». بدلًا من «تحليل شيء»، لا بد أن يُقال اليوم «إخضاع الأمر للتحليل». إذا كان يُقال في السابق «اتخاذ التدابير اللازمة»، فاليوم يقولون «وضع

التدبيرات اللازمة على بداية الطريق». من الممكن وضع معجم كامل لهذه اللغة المستحدثة في المفوضية، وكان من المدهش ملاحظة أن ظواهر لغوية معينة تصبح على الفور شيئاً مألوفاً في كل اللغات السائدة في برج بابل هذا. لدى جورج مورلاند ما يكفي من الحساسية لكي يلاحظ ذلك. لم يكن عالماً في السيميولوجيا أو الهرمينوطيقا، ليس عالماً لغوياً، ومع ذلك كان لديه شعورٌ واضحٌ بأن هذا التطور علامةٌ على شيءٍ، وله أهميةٌ، وأنه يعكس حالة المفوضية بامتيازٍ، حالة العجز والجمود. إن «وضع شيءٍ على بداية الطريق» أمرٌ مختلفٌ تماماً عن «فعل شيءٍ»، كما أنه أكثر سلبيةً. تشي هذه الصياغات اللغوية بأن الهدف لم يعد هو المهم، بل الطريق، والطريق وحده. هكذا رأى الأمر على وجه التقريب. لكنه لم يقبل به. كان يصر على استخدام الصياغة القديمة الجيدة، «حل المشكلة»، وفي هذه الحالة كان ذلك يعني دون لف أو دوران: قتل المشروع، وقتل مسز أتكينسون.

عندئذٍ تناول فرشاة الأظافر الناعمة؛ لكي يزيل بقايا الغبار الضئيل المتساقط من أظافره، ثم أحضر من درج مكتبه طلاء أظافر لا لون له. مستمتعاً راح يطلي أظافر أصابعه، ويفكر بقليلٍ من الاستهزاء في مسز أتكينسون التي كانت تخفي أصابعها الباردة مقضومة الأظافر داخل قطعة من الفرو.

لم يكد يمر أسبوعان حتى استجاب، دون إثارة أي شبهات، إلى الرغبة العامة المطالبة بتشكيل مجموعة عمل في المجلس الأوروبي، تحت قيادة مفوضية الشؤون الثقافية.

أدركت مسز أتكينسون على الفور: كانت هذه نهاية المشروع.. المشروع الذي لم تكن حقاً تريده. لقد كانت محض مبادرة من «الثقافة». كان المشروع مرتبطاً في أذهان الجميع بهذه المدعوة كسينوبولو التي أكدت من خلاله على أهميتها البالغة. أما كسينو فلم تكن مقتنعةً بذلك تماماً، كانت ترى أنه إذا نشأ نقاش حول الموضوع، فعلى مارتن أن يواجهه. فالمشروع فكرة مارتن سوسمان. وهي قد عهدت إليه بكل العمل التنظيمي.

ومارتن لم يكن موجوداً.

بني بيت المسنين «دار هانسنس» على أرض مصنع سابق لشواهد القبور. «بيت هانسنس»، ابن الجيل الرابع من عائلة نحّاتين، لم ينجب، ولم يجد أحداً يريد أن يتولى المصنع ويستمر في العمل فيه. في عمر الثالثة والسبعين عجز عن مواصلة العمل، وتحتم عليه بسبب مرض رئته الناجم عن استنشاق غبار الكوارتز أن يبدأ متاهة أوديسية مهينة في المستشفيات ودور الرعاية، كتب في وصيته أن يؤول البيت ومبنى المصنع والأرض المقام عليها إلى مدينة بروكسل، شريطة أن تشيد المدينة، أو إقليم بروكسل، في هذا المكان داراً لائحة لرعاية المسنين. وبعدها أغلق عينيه. قبلت المدينة قليلة الموارد المالية بالإرث، لكنها احتاجت إلى سنوات حتى تحول مصنع شواهد القبور أخيراً إلى مركز حديث متخصص لرعاية المسنين، وذلك بمعونة من الاتحاد الأوروبي، وتحديدًا من الصندوق الأوروبي للتنمية المحلية والصندوق الاجتماعي

الأوروبي. تحولت قاعة المصنع السابقة إلى مطعم، وقاعة العرض إلى مكتبة وقاعة مشتركة للمسنين، باستثناء ذلك لم يبق شيء من البناء القديم، لا شيء يذكر الآن بتاريخ المكان.

لا شيء تقريبًا. بجانب المكتبة، وخلف المخرج الجانبي الذي كان في الأصل بابا للخروج في حالة الطوارئ تنتصب على شريط أخضر نحو عشرة أحجار ملساء دون حفر، ما تبقى من معروضات المصنع القديم. كان الأمر مبهمًا: هل نسيت هذه الأحجار ببساطة؟ أم أنها تركت عمدًا كتذكاري لتاريخ المكان؟ في المعتاد لم يكن يراها أحد سوى المكلف بأعمال الصيانة في الدار، مسيو هوجو، الذي كان يقوم بقص الحشائش أيضًا في المساحات الخضراء المحيطة بالدار.

ثم اكتشفها دافيد دو فريند. كان يريد مغادرة الدار، لسبب لم يعد يتذكره، كان مشوش الذهن للحظة عندما غادر المصعد في الدور الأرضي، ماذا كان يريد؟ إلى أين يريد الذهاب؟ إلى الخارج. سار يسارًا بدلًا من الاتجاه إلى اليمين إلى المخرج، ووقف فجأة أمام مخرج الطوارئ، فضغط على الذراع الأحمر ليفتح الباب، فوجد نفسه أمام شواهد القبور، فتطلع إليها متعجبًا.. إنه لم يذهب إلى المدافن، لقد أراد أن يأكل شيئًا فحسب. لاحظ أن شواهد القبور هذه تخلو من الأسماء، أهذه مدافن من لا اسم له؟ ولماذا هذا العدد القليل من الأحجار؟ وما سبب صغر هذا المدفن؟ آلاف، مئات الآلاف من البشر لم تكن لهم أسماء عندما احتضروا، أسماء ملايين من الناس مُحيت قبل أن يُرسلوا إلى الموت، أصبحوا محض أرقام، لا حصر لهم، وهنا -ألقي نظرة وبدأ

يحصيها- لا تزيد عن اثنين، ثلاثة، أربعة، خمسة... في تلك اللحظة أمسك أحد الممرضين بذراعه، إذ إن دو فريند تسبب في إطلاق جرس الإنذار عندما فتح باب الطوارئ.

- ماذا تفعل هنا؟ هل تريد أن تخرج؟ نعم؟ ليس هذا باب الخروج. تعال، سأرافقك... إلى أين تريد الذهاب؟

قال دافيد دو فريند بحسم إنه يريد أن يتناول طعامه.

- إلى مطعم الدار؟

- لا! بالخارج، إلى المطعم، إلى...

وأشار بسبابته قائلاً:

- إلى، هناك! بجوارنا.

بعد قليل كان يجلس في «لا روستيك». أحضرت له النادلة كأس نبيذ الأحمر، فشعر بالخجل. كانت تلك، من جديد، لحظة صفاء. والصفاء يعني الخجل. سأل نفسه: لماذا هو...

بالطبع كان يعرف لماذا هو...

تملكه الغضب. على هذا النحو لا يريد أن...

الحر لا يطاق. خلع دو فريند الجاكت، وشمر كمي قميصه، ومسح بمنديله العرق من جبينه. لم يعد يستطيع التفكير. الضجيج لا يحتمل. إلى المائدة المجاورة كانت عائلة كبيرة تجلس وتثرثر، الأطفال يصرخون. فاقد الأعصاب ألقى نظرة إليهم.. وابتسم. رد فعل تلقائي.

إنه يبتسم دائماً عند رؤية أطفال. سعيداً، أو متفهماً، أو ببساطة تهذباً.
عندئذ رأى فتاة تتطلع إليه في فضولٍ. كم عمرها يا تُرى؟ ربما في
الثامنة. التقت نظراتهما، فسارت إلى مائدته.

قال لنفسه: من فضلك، لا تفعلي!

- رُوّش!

قالت وهي تشير إلى الرقم الموشوم على ذراع دو فريند:

- هل هو حقيقي؟

قال لها: «نعم»، ثم ارتدى الجاكيت.

«رُوّش!»، ردت عليه، وأشارت إلى «التاتو» الملصق على ساعدها.
ثلاث علامات صينية.

قالت البنت:

- لكنه ليس حقيقياً. غير مسموح لي بالحقيقي بعد.

سألها دافيد دو فريند:

- هل تعرفين ما معنى ذلك؟ لا؟ ولكنه يعجبك؟ نعم؟

نقر على العلامات الصينية.

على الأولى: كل،

الثانية: الناس،

الثالثة خنازير.

...

- لقد أخطأتُ في القراءة.

قال ونقر على العلامة الثانية: العواجيز

والثالثة: صامتون.

سار البروفيسور ألويس إرهارت وراء أنطونيو أوليفيرا بيتو ودخل قاعة الاجتماعات. نظر إلى أعضاء مجموعة الخبراء الجالسين في نصف دائرة حول مقعد مخصص له: نصف دائرة من اللابتوب والتابلت، وخلفها نظرات منكسة، مصوبة على الشاشات، سمع التكات السريعة الخافتة الصادرة عن الدق على الحروف.

ظل إرهارت واقفًا، ثم جلس. شيئًا فشيئًا بدأت الأنظار تتجه إليه. هل سيجري هنا نقاش فحسب؟ هذا خداعٌ. إنهم يريدون إعدامه، وضع نهاية لحياته في عالم الخبراء. ولكن، ألم تكن هذه خطة إرهارت؟ ماذا يقول المرء الذي يتوقع إعدامه؟ الكلمات الأخيرة. لقد آن الأوان، قال لنفسه، هذا بالضبط ما كان يريد الوصول إليه: الكلمات الأخيرة.

يا لمرح السيد بيتو وهو يرحب بالحاضرين كلهم! البروفيسور اليوناني وحده -الذي يدرس في أوكسفورد- ظل يدق بسرعة شيئًا على اللابتوب، لا بد أنه شيءٌ مهمٌ جدًّا ومُلِحٌّ، على الأقل كان ما فعله استعراضًا للأهمية والإلحاح. ابتسم إرهارت، وقال:

- هل انتهيت، أيها الزميل؟ هل نستطيع أن نبدأ؟

الكلمات الأخيرة. كانت تلك حكاية تعود إلى أول مقالة علمية لإرهارت نُشرت في المجلة الفصلية للأبحاث العلمية التي تصدرها جامعة فيينا. كان آنذاك لا يزال مُعيدًا في الكلية. في تلك المقالة قدّم إرهارت عرضًا لنظرية اقتصاد ما بعد الدول القومية لأرماند مونس، داعيًا إياها ببعض الإحصائيات الحديثة عن تطور التجارة العالمية. مفعّمًا بالفخر أرسل إرهارت آنذاك نسخةً من مقالته إلى أرماند مونس الذي -لدهشة إرهارت- أجاب بلا إبطاء. كان ألويس إرهارت يحمل الرسالة في ذلك اليوم معه، وقد اقتطع منها جزءًا، وضمّنه المحاضرة الصغيرة التي يلقيها الآن.

افتتح إرهارت كلمته بمقولة لأرماند مونس:

«كان على القرن العشرين أن يشهد تحولًا للاقتصاد القومي من القرن التاسع عشر، ليصبح اقتصادًا إنسانيًا للقرن الواحد والعشرين. لكن ذلك مُنِعَ على نحوٍ وحشيٍّ وإجراميٍّ، والنتيجة أن الحنين إلى ذلك قد بعث من جديد وعلى نحو أكثر إلحاحًا. حدث ذلك في وعي نخبة سياسية صغيرة فحسب، أما مَنْ جاء بعدها فلم يعد يفهم كلا الأمرين: الطاقة الإجرامية للمذهب القومي، والدروس المستقاة من معاشة هذا المذهب».

أخذ البعض ينقر على اللابتوب. لم يعرف إرهارت، هل يكتبون ما يقوله أم يردون على رسائل إليكترونية؟ لم يكثرث لذلك. ما زالت أمامه ١٣ إلى ١٥ دقيقة، لديه وقت، لقد حانت فرصته.

شرح إرهارت باختصار التطورات الاقتصادية في العالم حتى

الحرب العالمية الأولى، وبيعض الإحصائيات بين الانتكاسة الحادة التي عانى منها بسبب القومية والفاشية. لاحظ أن البعض يشعر بالسأم قبل أن تمر خمس دقائق على بدء كلمته. لا شيء يثير سأمهم مثل ذكرى الفاشية والقومية الاشتراكية^(٢٠). كان ذلك فصلًا مظلمًا، والكتاب الذي يضم هذا الفصل أُغلق، ومنذ أمد بعيد فُتح كتاب جديد، هذا النوع من إمساك الدفاتر شيءٌ رائعٌ، إلا في بعض الدول الفاسدة، وهناك علينا التدخل، هذه هي مهمتنا، إننا لا نقيم وزنًا لما ورد في فصول الدفاتر القديمة، نحن، القائمين الجدد على إمساك الدفاتر.

قال إرهارت:

- مجرد مثال على التحول الفارق الذي حدث خلال السنوات بين ١٩١٤ و ١٩٤٥: إذا ظلت التجارة العالمية تتطور على النهج نفسه في السنوات القادمة كما حدث خلال العشرين عامًا الماضية - رغم أننا لا نستطيع أن ننطلق من ذلك بشكلٍ مؤكدٍ - فسيصل حجم التجارة العالمية في عام ٢٠٢٠ إلى الحجم الذي وصلت إليه في عام ١٩١٣. معنى هذا أننا نقترّب ببطءٍ إلى مستوى العولمة الذي وصلنا إليه قبل الحرب.

- كلامٌ فارغٌ! لا يمكن أن يكون صحيحًا!

لقد استيقظوا! آه لو عرفوا أن اليقظة فارقتهم منذ فترةٍ طويلة!

(٢٠) القومية الاشتراكية Nationalsozialismus هي حركة عنصرية لها صبغة قومية وطابع اشتراكي، ومنها انشق «حزب العمال القومي الاشتراكي الألماني» الذي ترأسه هتلر وفاز به في انتخابات عام ١٩٣٣ ليصبح مستشارًا لألمانيا. وكلمة «نازي» Nazi هي اختصار للكلمة الألمانية «القومية الاشتراكية»، لذلك تترجم الحركة في معظم الأحيان إلى «النازية». (المترجم).

- لماذا تقول «كلام فارغ»، أيها الزميل؟ هذه إحصائيات موثقة.
كل ما أردته هو أن أذكركم بها، لم أكن أظن أنكم لم تسمعوا
عنها.

عندئذٍ استشهد إرهارت بثلاثة اقتباسات لمونس، استنبط من
خلالها -وبالنظر إلى تطور الاقتصاد العابر للقوميات- ضرورة نشوء
مؤسسات ديموقراطية جديدة تحل محل البرلمانات في الدول القومية.
صحيح أن الخط الذي وصل به إرهارت بين الماضي والحاضر كان
قصيرًا جدًا، غير أنه لم يكن لديه الكثير من الوقت. لقد أراد الوصول
إلى الصدمة.

أخذ نفسًا عميقًا، ثم قال:

- والآن، أريد أن أحكي لكم شيئًا. لقد استشهدت حتى الآن
عدة مراتٍ بعبارات لأرماند مونس. لقد ابتلعتهم هذا. ربما
قلت: أوكي، مونس لا ينتمي إلى التيار السائد، لكنها على كل
حال اقتباسات من أقوال رجل اقتصاد مشهور، وأنتم، سيداتي
ساداتي، تقبسون في أعمالكم ومدخلاتكم من أعمال آخرين،
وتستشهدون بأسماء هي من التيار السائد الآن. إنكم لا تبحثون
عن الحقيقة، لأنكم تعتبرون التيار السائد هو المرحلة الأخيرة
التي وصلت إليها الحقيقة. انتظروا! انتظروا! لا أقول إنني أعرف
ما الحقيقة. كل ما أقوله هو أن علينا أن نتساءل حول ذلك. وأقول
إننا لن نقرب منها بالضرورة إذا سرنا وراء روح العصر، أي وراء
المصالح الحالية لفئةٍ قليلةٍ من ذوي النفوذ تنظر إلى غالبية الناس

كأرقام تكتب في خانة «الإهلاك والاندثار» في دفاتر حساباتهم. سيان. ما أريد أن أقوله: أول مقالة علمية نشرتها كان موضوعها نظرية أرماند مونس. أرسلت له المقالة وكلني فخر. لم أتوقع أن يرد عليّ، لكنه فعل. أود أن أقرأ عليكم فقرة من رسالته: عزيزي السيد إرهارت إلى آخره إلى آخره... وهنا: ما فعلته يرضي غروري، ويشهد على جودة عملك. لقد استشهدت بعباراتي وأيدتها، ملتزمًا في ذلك بكل القواعد العلمية للاقتباس. مقالتك الأولى المنشورة كانت ممتازة، حسب القواعد العلمية السائدة. ولكن تخيل أن تموت الآن، وهذه المقالة هي الأثر الوحيد الذي تتركه. هل ستظل عندئذٍ راضيًا عنها؟ لا أفكار لك، لا رؤى تتعدى ما اقتبسته؟ هل هذه المقالة هي حقًا ما تريد اطلاع العالم عليه، أهذا هو كل ما تستطيع قوله، أهذا هو ما سيظل تأثيره باقيًا إذا لم تعد الفرصة أمامك متاحةً لكي تضيف شيئًا؟ أقول لك: لا!

توقف إرهارت، ثم أكمل قائلاً:

- كتب «لا» وتحتها خط، ثم قال: والآن أقول لك شيئًا: إذا كنت تعتبر نفسك حقًا تلميذًا لي، وكما كتبت في الرسالة المرفقة، فعليك أن تتعلم في البداية شيئًا: في كل ما تقوله علانيةً، وكل ما تنشره، عليك أن تنطلق من التصور التالي: قد تكون هذه كلماتك الأخيرة. ماذا سوف تقول - تخيل أنك تعرف أنك ستتموت بعدها مباشرة - في محاضرتك القادمة؟ مرةً أخرى يمكنك أن تقول شيئًا، مرةً أخرى، أن تخاطر بحياتك ومماتك.

كيف سيكون الأمر؟ إنني متأكد من أنك ستقول شيئاً آخر غير الذي كتبته في مقالتك. فإذا لم تفعل، فإنك تعرف أنه ما كان عليك أن تكتب هذه المقالة. أنفهمني؟ هناك جملاً لا حصر لها، يستطيع المرء بها أن يدعي حياته، أن يغزو بها وظيفة من الوظائف وأن يدافع عنها، جمل تدخل في النهاية في أعمالك الكاملة وفي الكتيبات الاحتفالية؛ لا أقول إنها كلها خاطئة أو غير ضرورية، لكن ما نحتاج إليه احتياجاً مُلِحاً هي الجمل التي تستحق أن تكون كلماتٍ أخيرةً، عندئذٍ لن تنام هذه الكلمات في أرشيفٍ ما، بل ستوقظ البشر، وربما حتى توقظ بشراً لم يُولدوا بعد. إذن، عزيزي السيد إرهارت، أرسل لي نصّاً آخر. أود أن أعرف ماذا ستكتب، بشرط أن تعلم: هذه هي فرصتي الأخيرة لقول شيءٍ. عندئذٍ سأقول لك ما إذا كان من المفيد أن تستمر في النشر.

تطلع إرهارت إلى الحاضرين. لم يحكِ لهم أنه ظل بعد هذه الرسالة لمدة أسابيع عاجزاً عن أن يكتب حرفاً، إلى أن عرف بوفاة أرماند مونس. سادت القاعة حالةٌ نفسيةٌ غريبةٌ، لاحظها إرهارت ولم يستطع أن يقدر كنهها. صاح أنطونيو بينتو:

- شكراً جزيلاً، حضرة البروفيسور، لهذه... أأأ... الكلمات الشيقة المحفزة، هل يريد أحد أن...

قاطعه إرهارت:

- لحظة من فضلك، لم أنتهِ بعد.

«متأسف»، قال بيتتو، «ستأتي الآن إذن *last words* الكلمات الأخيرة. تفضل، السيد البروفيسور!».

- لقد حاولت أن أبين أننا بحاجة إلى شيء جديد تمامًا، إلى ديموقراطية ما بعد القوميات حتى نستطيع أن نبني عالمًا لا يعرف الاقتصاد القومي. هذه النظرية -التي سأظل أثبتها حتى وفاتي- تعاني من مشكلتين. الأولى: حتى أنتم، أي نخبة علماء الاقتصاد في العالم، وأعضاء عدد لا حصر له من بيوت الخبرة والهيئات الاستشارية في دول الاتحاد الأوروبي، لا تستطيعون أن تتصوروا ذلك، أو أن تقبلوا بهذه الفكرة. ما زلتكم تفكرون بمعايير الموازنات الوطنية والديموقراطيات القومية، وكأنه لا وجود للسوق المشتركة والعملية المشتركة وحرية انتقال الموارد المالية، ولا وجود لسلاسل القيمة. إنكم تصدقون حقًا أن شيئًا ما سيتحسن في أوروبا عندما يتم إصلاح موازنة الدولة اليونانية، أي موازنة دولة قومية، وعندما يتم هذا الإصلاح على نحو يجعل النظام الصحي والنظام التعليمي ونظام المعاشات في اليونان ينهار. عندئذ يكون كل شيء في نظركم على ما يرام. أتعرفون ما هي مشكلتكم؟ أنتم قطط في صندوق، ووجودكم ليس مؤكدًا من الأساس. الناس يفترضون أنكم، أنتم ونظرياتكم، واقعٌ. هذا الافتراض يتيح للمرء أن يقوم بحسابات، ولأن هذه الحسابات ممكنة، فإنها على الفور تُعتبر دليلًا على أن هذه الحسابات تعكس الواقع، وأن شيئًا آخر

مستحيل. انتظروا، انتظروا! يمكنكم أن تنفعلوا فيما بعد، أريد أن أضيف فقط عدة عبارات. أوكي، أعترف أنكم خبراء الأمر الواقع. لا أحد يعرف هذا الأمر الواقع أفضل منكم، لا أحد لديه معلومات «من الداخل» مثلكم! ولكنكم لا تفقهون شيئاً في التاريخ، ولا صورة لديكم عن المستقبل. أم أنا مخطئ؟ انتظر، بروفيسور ستيفانيدس، لديّ سؤال: لو كنت تعيش في اليونان في زمن تشغيل العبيد، وسألوك: أتستطيع أن تتخيل عالماً بلا عبيد؟ لكنت أجبت: لا. أبداً ومطلقاً. كنت ستقول: إن تشغيل العبيد هو شرط الديموقراطية! أليس كذلك؟ لا، لا، بروفيسور ماثيوس، انتظر. من فضلك. إنني أتخيلك في مانشستر، في عهد رأسمالية مانشستر. لو سألوك آنذاك: ما الذي ينبغي فعله لضمان استمرار مانشستر كمكانٍ للعمل والإنتاج؟ كنت ستقول: لا يجوز بأي حالٍ من الأحوال الرضوخ للنقابات التي تطالب بالعمل ثماني ساعات في اليوم بدلاً من أربع عشرة ساعة، وتطالب بمنع عمل الأطفال، بل وتريد أيضاً معاشاً بعد التقاعد وفي حالة العجز؛ لأن كل ذلك يهدد جاذبية مانشستر كمكانٍ للعمل والإنتاج تهديداً كلياً. بروفيسور ماثيوس، ما الوضع الآن؟ هل ما زالت مانشستر قائمة؟ السيد موزيباخ، دعك من هذه الابتسامة المتعجرفة! إن الراديكالية التي تدافع بها اليوم عن المصالح الألمانية كانت ستجعلك -لو كنت ولدت في زمنٍ سابقٍ- متهمًا في محاكمات نورمبرج. إنك حتى لا تدرك ذلك. لا ترتعش، عزيزي موزيباخ،

أمثالك يحصلون دائماً على عفو؛ لأن كل خبير يدرك أن نيتك لم تكن الشر، أنت أعمى فحسب. إمعة. سابح مع التيار. وهذه هي مشكلتكم جميعاً. كلكم تسبحون مع التيار. أنتم مستاؤون؛ لأن شخصاً يقول لكم ذلك اليوم، ولكنكم -أنتم تحديداً- وعندما تحدث كارثة وتُجرى المحاكمات، ستقولون التماساً للعذر إنكم سبحتم مع التيار فحسب، وإنكم مجرد تروس صغيرة. والآن أتوجه إليك بالسؤال: هل تعرف أساساً حول أي شيءٍ نناقش؟ إننا نناقش حول مواصلة تطوير الاتحاد الأوروبي -وهو اتحاد ما بعد قومي، وُلِدَ بعد إدراك الخطأ التاريخي الذي تعبّره أنت مرةً أخرى «خطأً عادياً»: هكذا هو العالم، وهكذا هم البشر، إنهم يريدون تحديد هويتهم عبر الانتماء إلى أمة وقومية، وهم يريدون أن يشعروا بالأفضلية عن الآخرين، ويريدون أن يحطموا جماجم الآخرين إذا شعروا بالخوف منهم، هذا أمرٌ عاديٌّ للغاية، هكذا هم البشر، المهم أن تكون الميزانية الوطنية في إطار المعايير المتفق عليها.

قال أنطونيو بينتو:

- شكراً جزيلاً، بروفيسور إرهارت. هل هناك أسئلةٌ من جانب...
- من فضلك، مستر بينتو، لم أنتهِ بعد. من فضلك دقيقتان أخريان.
- انزلت الحقيبة المدرسية من حِجر إرهارت، ووقعت على الأرض، وكذلك أوراق المحاضرة. كان يتحدث منذ فترةٍ طويلةٍ حديثاً حراً، أفلتت منه دفعة الحديث، لكنه أراد بأي ثمنٍ أن يذكر هدفه مما قال،

وسبب تدخلاته الراديكالية.

- من فضلك، دقيقتين آخرين، لتلخيص ما ذكرت. كلا، لشرح رؤيتي. فعلاً *Last words*. أوكي؟ أوكي! إذن أُلخّص في البداية ما قلت: الدول القومية المتنافسة لا تكوّن اتحادًا، حتى إذا كان لها سوق مشتركة. الدول القومية المتنافسة داخل اتحاد تعوق كلا الأمرين: تعوق السياسة الأوروبية وسياسة الدولة. ما الضروري الآن؟ مواصلة التطوير ليصبح الاتحاد اتحادًا اجتماعيًا، اتحادًا نقديًا.. أي خلق ظروف إطارية تحول أوروبا الدول المتنافسة إلى أوروبا المواطنين المستقلين المتساوين في الحقوق. كانت تلك هي الفكرة، وكان ذلك ما حلم به مؤسسو مشروع الاتحاد الأوروبي؛ إذ كانت لهم خبرتهم. ولكن ذلك كله لا يمكن تطبيقه طالما أن الوعي القومي لا يزال يُشحن، رغم كل الخبرات التاريخية، وطالما أن القومية لا تزال، تقريبًا بلا منافسٍ، هي الهوية الوحيدة التي تُقدم إلى المواطنين. هناك إجراءات كثيرة يمكن استخدامها من أجل ذلك. يمكن، على سبيل المثال، استبدال كل جوازات السفر الوطنية بجواز سفر أوروبي. جواز سفر الاتحاد الأوروبي يُسجل فيه مكان الميلاد، ولكن دون جنسية. أعتقد أن هذه الخطوة وحدها ستحدث تأثيرًا في وعي الجيل الذي ينشأ ومعه جواز سفر مثل هذا. وهو أمر لن يكلف شيئًا أيضًا.

لاحظ إرهارت أن المثاليين بين الحاضرين يهزون رؤوسهم يمينًا

ويسارًا، لكنهم كانوا مستعدين على الأقل للتفكير في الاقتراح. واصل قائلاً:

- لكن هذا لا يكفي. إننا بحاجة أيضًا، وعلى وجه الخصوص، إلى رمزٍ قويٍّ للتضامن والترابط، لا بد من مشروعٍ مشتركٍ محدّدٍ يبرز في العالم -بجهدنا المشترك- القواسم المشتركة بيننا، إننا بحاجةٍ إلى شيءٍ هو ملك للجميع، شيء يربط بين مواطني الاتحاد الأوروبي؛ لأن مواطني أوروبا المشتركة هم الذين أرادوا ذلك وأنتجوا تلك الوحدة التي لم تكن محض إرث قبلوه. سيكون ذلك أول إنجاز ثقافي جسور، أول إنجاز عظيم وواعي ينبثق عن التاريخ ما بعد القوميات، على أن يكون في الوقت نفسه ذا أهمية سياسية وله رمزية نفسية. إلى أي شيء أريد الوصول؟

لاحظ إرهارت أن البعض يثير الانطباع وكأنه الآن متشوق لسماع ما سيأتي. أخذ نفسًا عميقًا، ثم قال:

- على الاتحاد الأوروبي أن يبنى عاصمةً، عليه أن يهب نفسه عاصمةً جديدةً، عاصمةً مثاليةً جيدة التخطيط.

ابتسم البروفيسور ستيفانيدس وعقب:

- لقد انتهى النقاش حول أي مدينة في أوروبا يجب أن تحصل على لقب العاصمة. هذا النقاش عفا عليه الزمن. لقد كان قرارًا عقلائيًا ألا نمنح مدينةً بعينها هذا اللقب، ولا حتى بروكسل، بل توزيع المؤسسات الأوروبية على مختلف المدن في مختلف البلدان.

- الزميل ستيفانيدس، أنت لم تفهمني. أنا لم أقل إن مدينة ما يجب أن تحصل على لقب العاصمة. إنني أدرك طبعًا أن ذلك لن يزيد نار القومية إلا اشتعالًا، في تلك البلدان التي سيشعر فيها مواطنوها أن العاصمة -وهي في الوقت نفسه عاصمة دولة قومية أخرى- هي التي تتحكم فيهم. وهذه هي أيضًا مشكلة بروكسل. رغم أنني أعتبر بروكسل، بدايةً، عاصمةً جيدةً للاتحاد الأوروبي: عاصمة دولة قومية فاشلة، عاصمة دولة ذات ثلاث لغات رسمية. ولكن لا، أنا أقصد أن على أوروبا أن تبني عاصمة جديدة. مدينة جديدة يكون تشيدها إنجازًا للاتحاد، وليس عاصمة قديمة للمملكة أو دولة قومية يكون فيها الاتحاد مؤجرًا من الباطن.

- وأين تريد بناء هذه العاصمة؟ في أي منطقة محرمة خالية من السكان؟ في القلب الجغرافي للقارة؟ لقد أخفقت أغني أمة في أوروبا وأعظمها نفوذًا في بناء مطار لعاصمتها^(٢١)، وأنت تحلم بأن تبني مدينة بأكملها؟

هز موزياخ رأسه مبتسمًا في وداعة.

قالت دانا دينسكو، الباحثة السياسية الرومانية التي تدرّس في مدينة بولونيا الإيطالية:

(٢١) المقصود برلين عاصمة ألمانيا، حيث كان من المفروض أن يفتتح مطارها الجديد في صيف ٢٠١٢، وبسبب مشاكل تقنية تم تأجيل الافتتاح أكثر من مرة، ولم يُفتتح حتى الآن (٢٠١٨)!

(المترجم).

- إذن نوع من «برازيليا» الأوروبية؟ أرى أن الأمر يستحق التفكير فيه.

رد إرهارت قائلاً:

- بالطبع، لا يمكن بناء هذه المدينة في منطقة محرمة. لم تعد في أوروبا مناطق محرمة خالية من السكان، ليس هناك كيلو متر مربع من الأرض ليس له تاريخ. ولهذا لا بد أن تُبنى العاصمة الأوروبية في مكان كان تاريخه حاسماً بالنسبة لفكرة توحيد أوروبا، تاريخ تريد أوروبا أن تتجاوزه، وفي الوقت نفسه لا يجوز أن تنساه أبداً. يجب أن يكون مكاناً لا يزال التاريخ فيه محسوساً ومُعاشاً، حتى لو كان الشخص الأخير الذي عاشه أو نجا منه لم يعد على قيد الحياة. مكان يطلق إشارة أبدية للسياسة المستقبلية في أوروبا.

تطلع إرهارت في وجوه الحاضرين. هل هناك مَنْ يدرك ما سيأتي الآن؟ ابتسمت دانا ونظرت إليه نظرة فضولية. سدد ستيفانيدس إلى النافذة نظرة تؤكد على شعوره بالملل. أخذ موزيباخ يكتب شيئاً على اللاتوب. تطلع بيتتو إلى الساعة. ولكن بعد عشر ثوانٍ حدقوا كلهم فاغري الأفواه في إرهارت. غير مصدقين. بعد ثلاث عشرة ثانية أضحي إرهارت- البروفيسور المرموق المتقاعد، عضو خلية التفكير «حلف جديد من أجل أوروبا» - نسيّاً منسياً.

قال إرهارت:

- ولهذا، على الاتحاد أن يبني عاصمته في أوشفيتس. في أوشفيتس ينبغي أن تعلق العاصمة الأوروبية الجديدة، أن تُخطط

وتُشيد باعتبارها مدينة المستقبل، وفي الوقت نفسه المدينة التي لا تستطيع النسيان. إن مقولة «أوشفيتس لن تتكرر أبدًا» لهي الأساس الذي بني عليه مشروع الوحدة الأوروبية. في الوقت ذاته فهي عهدٌ ينبغي الالتزام به دائمًا في المستقبل. هذا المستقبل ينبغي أن يكون مركزًا قريبًا من الناس ويعمل على نحو جيد. هل لديكم الشجاعة للتأمل في هذه الفكرة؟ سيكون ذلك بالفعل نتيجةً لمجموعتنا المتأملّة: إصدار توصية إلى رئيس المفوضية، وإطلاق مسابقة للمعماريين لتخطيط وتصميم عاصمة أوروبية جديدة في أوشفيتس.

وضع ألويس إرهارت الحقيبة على سريره في فندق أطلس كي يضع فيها أشياءه. وجهه ساخن، لذلك ظن أنه محموم. ما عايشه قبل قليل أشعل النار في أحشائه. شد الستائر جانبًا، وألقى نظرةً من النافذة على الميدان أسفلهِ. وكأنه مشهّدٌ بالتصوير البطيء، فكر إرهارت. فوضى الحشد بالأسفل كانت تتحرك ببطءٍ. في الحرارة الخانقة كان كل شيء يتحرك ببالغ البطء، وكأن حركات الجميع تكون حركةً مشتركةً بهدف مشتركٍ، أو وهو تأجيل الوصول إلى الهدف أطول فترةٍ ممكنةً.

تعلم إرهارت أن مشروع الوحدة الأوروبية يركز على هذا الإجماع: لقد أدت القومية والعنصرية إلى أوشفيتس، ولهذا لا يجوز أن يتكررا أبدًا. «يجب ألا يتكرر ذلك أبدًا!» كان الأساس لكل شيء لاحقًا، تخلي الدول الأعضاء عن سيادتها لصالح مؤسسات فوق دولية،

والتأسيس الواعي لاقتصاد متشابك عابر للقوميات. كان هذا هو أيضًا الأساس الذي بني عليه عمل أرماند مونس الأساسي، فهو قد بدأ يفكر كرجل اقتصاد كيف يجب تنظيم الاقتصاد ما بعد القومي سياسيًا. لقد وهب البروفيسور إرهارت حياته كعالم لهذا السؤال. حياته، حياة معلم، والتاريخ الذي عايشه، الحفاظ على السلم الاجتماعي، مستقبل القارة، كل ذلك يركز على كلمات خمس: «يجب ألا يتكرر ذلك أبدًا!»، هكذا كان يرى إرهارت الأمر. إن مقولة «يجب ألا يتكرر ذلك أبدًا!» هي وعدٌ مستمرٌ حتى الأبد، هو مطلبٌ صالحٌ إلى الأبد. إنهم يحضرون الآن، آخر من نجوا من الشيء الذي يجب ألا يحدث ثانيةً أبدًا. وبعد؟ هل للأبدية تاريخ انتهاء صلاحية؟ لقد تولى المسؤولية جيل يشعر بالالتزام -على الأقل في الخطب الاحتفالية- لأن يقول هامسًا ومحدّرًا: «يجب ألا يتكرر ذلك أبدًا!»، لكن، ماذا بعد؟ عندما يموت آخر من يستطيع أن يشهد على الفظائع التي خرجت منها أوروبا، واخترعت نفسها بعدها من جديد- عندئذ ستكون أوشفيتس بالنسبة إلى الأحياء قد توارت تمامًا مثل الحروب البونية بين روما وقرطاج.

عندما يحتاج ألويس إرهارت إلى سبب موضوعي قوي لشرح آلامه، لكي يواجهها دون مقاومة، عندئذ كان يفكر في مثل هذه التصنيفات السياسية والفلسفية التاريخية الكبيرة. عندئذ تغدو آلامه هي آلام العالم كله، ولا شيء يستطيع التخفيف منها.

يعرف البراجماتيون وسائل لمواجهة ذلك. مثل أبيه. في عام ١٩٤٢ حصل والد إرهارت على استدعاء إلى شرطة الانضباط والنظام، الفرقة

رقم ٣١٦ التي نقلت إلى بوزنان حتى تنفذ هناك -متخفية تحت اسم «مكافحة الفدائيين»- أوامر قتل اليهود رميًا بالرصاص. وجد ألويس إرهارت هذا أمر الاستدعاء بعد وفاة والده في ملف مع أوراق في مكتبه. كان الأب قد أصبح قبل ضم النمسا إلى ألمانيا عضوًا في حزب العمال القومي الاشتراكي الألماني (الحزب النازي)، ثم أصبح مورد التجهيزات الرياضية والميدانية لشبيبة هتلر ورابطة الجمباز في فيينا. وهكذا استطاع أن يتحاشى طويلًا استدعاءه على اعتبار أن نشاطه «مهمٌ للحرب». وعندما تحتم إغلاق المحل، أصبح لا مفر من استدعاءه. لكنه لم يُرسل إلى الجبهة بسبب علاقاته الجيدة وخدماته، بل إلى فرقة من فرق الشرطة خلف خطوط المواجهة.

هل كان أبوه في الحرب في بوزنان؟ لقد رأى هو -ألويس إرهارت- نور العالم في مخزن المحل، في حين أن أباه كان يصفي اليهود في بولندا باعتباره «شرطيًا»؟ ولم يتحدث بعدها عن ذلك أبدًا؟ درس إرهارت هذه الوثائق طويلًا غير مصدق، وفي الختام سأل أمه. كانت عندما توفي الأب قد أصيبت بالخرف، وبعد شهور قليلة لحقت بالأب. حاول إرهارت وهي لا تزال على قيد الحياة أن ينعش ذاكرتها، غير أنها نظرت إليه فحسب، ثم ضحكت فجأة قائلة: بولندا؟ وشرعت تغني *Sto lat, sto lat*، كانت تغني بصوت فخيم وبملايح وجه سعيدة. لم يفهم ألويس كلمة واحدة، هزها في كتفيها صائحًا: ماما! ماما! ماذا تغنين؟ حاول إرهارت أن يحفظ الكلمات، حتى وإن لم يفهمها، استطاع أن يحفظ *sto lat* و *Jeszcze raz*، لأن الأم راحت تكرر في غنائها هذه

الكلمات. جرى إلى دورة المياه، وكتبها، كما سمعها بالتقريب، ثم عاد إلى الأم، كانت تجلس هادئة، حالمة، ولم تقل أي شيء آخر.

في اليوم التالي سأل إرهارت زميلة له من القسم السلافي، فقالت له إن الكلمات التي كتبها تعني «مائة عام» و«مرة أخرى». وعبرت عن ظنها أن والدة إرهارت كانت تغني أغنيةً بولنديةً شعبيةً قديمةً. ولكن *Sto lat* تُقال أيضًا عند قرع الأنخاب. هل استطاعت مساعدته؟
لا.

كيف لأمه أن تعرف أغنيةً شعبيةً بولنديةً؟ ماذا كان يفعل أبوه في بوزنان؟ وكيف تغني الأم -التي فقدت ذاكرتها- بالبولندية «مرة ثانية! مرة ثانية! مرة ثانية!»؟

غارقا في أفكاره وذكرياته راح ألويس إرهارت يحزم حقيته. توقف برهةً. لماذا يجمع أشياءه؟ إن طائفة العودة ستقله بعد الغد، وحجرتة في فندق أطلس محجوزةٌ ومدفوعةٌ حتى بعد الغد، ففي الغد ستعقد جلسةٌ لخبراء «الحلف الجديد». ولكن، لا تعني عدم مشاركته، وأنه لن ينوي أن يضع قدميه هناك بعد اليوم، أن يغادر المدينة على الفور. كما أنه تذكرته ليست من النوع الذي يمكن تغييرها. إذن سيقضي يومًا آخر في بروكسل. جلس إلى المكتب، وفتح اللابتوب، أراد أن يكتب محضرًا للجلسة من الذاكرة، وأن يكتب باختصار ردود أفعال أعضاء المجموعة. بالترتيب، وحسب التقسيم الذي قسمه لهم. بدأ بفئة «النخبة»، ولكن

قبل أو يواصل الكتابة، لاحظ أن برنامج التصحيح الآلي يصحح الكلمة إلى «النخب».

طيب، قال لنفسه، وأغلق اللابتوب.

استقل ماتيك القطار السريع الذي انطلق في الحادية عشرة وأربع دقائق من كراكوف في اتجاه بوزنان. من المفروض أن تستغرق الرحلة نحو خمس ساعات وعشرين دقيقة. غير أن رحلته وصلت إلى نهايتها قبل أقل من ثلاثة ساعات. فبعد مغادرته مدينة وودج بقليل شد سائق القاطرة فرامل الطوارئ. كان ماتيك قد نهض في تلك اللحظة ليذهب إلى دورة المياه، فوجد نفسه يندفع في الممشى في وسط العربة، ثم يصطدم بمسند كرسي وبأحد الأبواب، إلى أن سقط على الأرض. حاول الجلوس، غير أنه لم يستطع أن يستند على ذراعيه، التوت ذراعه اليمنى على نحو غير طبيعي، ولم تستجب له قدماه، لم يستطع ثنيهما أو الارتكاز على ركبتيه، كما أن بطنه أصيب على نحو ما وكأن شيئاً انفجر خلف سرتة، وكأن طاقة هائلة قد تحررت وتنساب الآن متوهجة في أحشائه، سمع أناساً يركضون، ولا بد أن هناك مصابين أيضاً، حاول النهوض مرة أخرى، غير أنه لم يقدر إلا على رفع رأسه قليلاً، ثم خفضه ثانية وهو يتأوه. انحنى شخص عليه، وقال شيئاً، كان صوتاً نسائياً بعث الثقة في نفس ماتيك، بل كاد أن يمنحه شعوراً بالطمأنينة، فأغلق عينيه. رأى صبيّاً صغيراً يجري في الحقل ويطير طيارة ورقية. ركض أطفال آخرون خلف الصبي، أرادوا أن يخطفوا منه الطائرة، لكن الصبي كان

أسرع، وكلما زادت سرعته، علت الطائرة في السماء، انسل الجبل بسرعة من البكرة حتى إنه حفر شقاً في كف الصبي وكأنه منشار، ظهر الآن رجال بالمسدسات والبنادق وصوبوا أسلحتهم على الطائرة، لكن القماش الأحمر والأبيض الذي كان يغطي هيكل الطائرة حلق عاليًا فلم يصل الرصاص إليه، نزلت يدا الصبي، ونزلت قطرات الدماء على الحقل، واصلت الطائرة تحليقها إلى عنان السماء، عندئذ رأى الأم تقف إلى الجانب وهي تصفق ضاحكة، أطلق الصبي الجبل على الغارب، فصعدت الطائرة إلى الشمس، هناك لم تعد تبهر الأنظار، بل تحولت إلى اللون الأحمر القاني، ثم الأسود.

في اليوم التالي كتبت الصحف في كل أوروبا عن حادثة القطار. ألقى انتحاري بنفسه أمام القطار السريع المتجه إلى بوزنان، وذلك في المسافة بين «وودج» و«زجيرش»، ما أدى إلى تعطيل حركة القطارات على هذا الخط لأكثر من ثلاث ساعات.

كان هذا الخبر غير معتاد. فالحادثة صغيرة نسبياً، ومحلية، وهناك اتفاق بين كل وسائل الإعلام فيما يتعلق بعدم نشر تقارير حول مثل هذه الحوادث، حتى لا يقلدها آخرون. لكن هذا الخبر وجد طريقه إلى الإعلام، حتى إلى وسائل الإعلام الأوروبية، وذلك لسبب بسيط: كان هناك اهتمام عام بالميت، على الأقل وهو ميت. كان الرجل الذي ألقى بنفسه أمام القطار هو آدم جولدفارب البالغ من العمر ثمانين عاماً.

بدءاً من عام ١٩٤٢ كان يوجد بجوار جيتو «وودج» معسكر تصفية مخصص للشبيبة، وكان يُحبس فيه الأطفال اليهود من عمر سنتين

فصاعداً. وآدم جولدفارب هو آخر الناجين من معسكر تصفية الشيبية
في وودج. كان آخر الناجين. وليس معروفاً -هكذا كتبت الصحف-
لماذا فعل «المُحذّر» فعلته.



الفصل الحادي عشر

إذا انهار شيء،

فلا بد أن أجزائه كانت مترابطة معاً.

عُقدت الجلسة الأولى لمجموعة العمل في المجلس الأوروبي -بخصوص: مشروع يوبيل المفوضية الأوروبية- تحديدًا في عصر يوم علّقت فيه الصحف البلجيكية، وكذلك بعض الصحف الألمانية والفرنسية، على الفضيحة التي أثارها معرض في متحف الفنون الجميلة التابع للمتاحف الملكية في بروكسل. ومثل بعض الفضائح الكبيرة بدأت هذه الفضيحة أيضًا صغيرة. في البداية نشرت وسائل إعلام محلية عدة تقارير قصيرة، نمطية، محدودة الإبداع، وذلك بعد افتتاح معرض حمل عنوانًا رمزيًا «الفن المُخزّن في القطارات الصدئة- الحداثة المنسية». عندما يعرض معرض جماعي أعمالاً لفنانين منسيين، عندئذٍ يصعب على أي ناقد فني، والطموحين بشكل خاص، أن ينتقدوا الأعمال المختارة المعروضة، أو أن يشتكوا من نسيان هذا الفنان أو ذاك، أو أن يؤكدوا أحقيته في الوجود في مثل هذا المعرض. فالمعرض لا يعرض سوى أعمال الفنانين المنسيين، وكل ناقد يفتقد بين المنسيين أحد الفنانين الذين نساهم المدير الفني للمعرض يكون قد وقع في فخ: سيُذكر بفنان منسي ليضيفه فحسب إلى قائمة المنسيين. عندئذٍ يُطرح سؤال في غاية التعقيد من الناحية الفنية النظرية: أيوجد فنٌ يتمتع بالأهمية في عصر معين، لكنه يستحق أن يُنسى بعد ذلك؟ على ما يبدو.

لكن لماذا؟ إننا لا ننسى العصر، لماذا ننسى أمثلة فن ذلك العصر؟ هل هناك فن منسي مثالي، هل ثمة وجود للفنان المنسي النموذجي؟ وإلى أي حد يستحق فنان منسي الحكم بأنه «منسي» عندما يُذكر به ناقد، وهل يكون عندئذٍ غير منسي أم أنه يستحق النسيان عندما يقول الناقد محذراً إنه لا يجوز أن تنساه قائمة المنسيين؟

لهذا السبب لم يحقق المعرض نجاحاً كبيراً لدى النقاد. كان الموقف السائد هو: إن المعارضات الفنية لم تستطع في نهاية الأمر أن تفرض نفسها على السوق. لكن المعرض لم يكن فاشلاً أيضاً؛ فكل الأعمال الفنية المعروضة اقتنتها على كل حال المتاحف الملكية في فترة ما بعد عام ١٩٥٤، أي أنها في وقت معين لقيت تقديرًا مختلفاً، واعتُبرت أعمالاً بارزة في سياق الأعمال المعاصرة، أو على الأقل كأعمال لفنانين شبان واعدين. ولذلك راح بعض النقاد يناقشون، بدرجات مختلفة من التنظير الأصيل، السؤال التالي: كيف يمكن أن يطوي النسيان شيئاً كان يُنظر إليه قبل فترة قصيرة على أنه مهمٌّ؟

في حوار لصحيفة «دو ستاندارد» باح توماس هبيلينك، المدير الفني للمعرض، بالسبب المدهش في تفاهته الذي كان وراء تصميم هذا المعرض: كانت المتاحف الملكية تستعد لتنظيم معرض ضخم عن فرانسيس بيكون، فابتلعت مبالغ التأمين على المعارضات المستعارة من متاحف أخرى وحدها جزءاً كبيراً من الميزانية، ولذلك كان ضرورياً، لسد الثغرة الزمنية وحتى الانتهاء من الاستعدادات للمعرض الجديد، تنظيم معرض لا يكلف شيئاً، وذلك بأعمال من ممتلكات المتحف،

أي من المخزن. وهكذا ولدت فكرة عرض لوحات اقتناها المتحف لفنانين منسيين، وهي فكرة مثيرة حقاً، وتستحق النقاش. فالسؤال حول ما ننسأه، ولماذا ننسأه، وما إذا كانت الأعمال الفنية المعروضة تعبيراً ربما عن رغبة جمعية في الإزاحة والنسيان، هو سؤال يتمتع بالأهمية من الناحية المبدئية.

وبذلك اعتبرت وسائل الإعلام موضوع المعرض منتهياً.

عندئذ نشرت صحيفة «دومورجن» المقالة اللامعة التي ألفها جيرت فان إيستندال، المثقف الشهير في بروكسل الذي لفت أنظار الإعلام في الآونة الأخيرة كعضوٍ في لجنة تحكيم مسابقة «بروكسل تبحث عن اسم لخزيرها». فتح فان إيستندال جبهةً جديدةً تماماً للنقاش الذي استمر شبه فاطر طوال يوم، لكنه توقف في اليوم التالي: لم يناقش مسألة الفن المنسي، بل الشكل الذي قدمه من خلاله المدير الفني هبيلينك. كان عنوان المعرض «الفن المُخزَن في القطارات الصديقة». في قاعة العرض الكبيرة وُضعت قضبان سكك حديدية، وفي نهاية القاعة أقاموا مصداً كما في نهاية أرصفة محطات السكك الحديدية، وهو ما يُعبّر -مثلما كتب إيستندال- عن أن هذه هي المحطة الأخيرة. كان يتم اقتياد زوار المعرض على الجانب الأيسر من القضبان، في حين علقت الأعمال الفنية والتماثيل واللوحات والرسومات، تقريباً متلاصقة، على الجانب الأيمن.

افتتح جيرت فان إيستندال مقالته بالجملة التالية: «ينقص هذا المعرض، الذي يثير التفكير العميق لدى زائره، تفصيلٌ صغيرٌ،

لكنه مهمٌ؛ أعني الجملة التي يجب أن تعلق أعلى البوابة المؤدية إلى المعرض: «الفن يُحرَّر» (٢٢).

طرح فان إيستندال السؤال حول ما إذا كان المتحف، أو المدير الفني للمعرض، يرى أنه من الممكن مقارنة العلاقة بين الفن الناجح والفن الفاشل، بعملية الفرز التي كانت تُجرى للمعتقلين أمام بوابة أوشفيتس. الحياة إلى اليسار، وإلى اليمين الموت. عرض الفن الذي لم يفرض نفسه في سوق الفن ككتلة من الأعمال التي تُرسل في نهاية خط السكة الحديد إلى الموت - وإلا فكيف يمكن تفسير وضع القضبان الحديدية والمصد؟ - أما الرسالة الموجهة للزوار على الجانب الأيسر بأنهم من الناجين، فهي ليست فحسب تهويناً من شأن أوشفيتس، إنها تظهر أيضاً أن من الغباء وعدم اللياقة الإحالة الدائمة إلى أوشفيتس. كما أن السؤال يطرح نفسه، يقول فان إيستندال، «ما الفضيحة الأكبر: مساواة الفن السيئ باليهود، أم تشبيه سوق الفن بالدكتور مينجيله الذي كان يفرز المعتقلين؟» (٢٣) هذا المعرض، في كلتا الحالتين، فضيحة، ونأمل أن تكون الأخيرة من نوعها: فمنذ الآن أضحت عصا الفاشية ديكوراً مسرحياً مصنوعاً من الورق المقوى، مأخوذاً من كتالوج معرض فني

(٢٢) هي تحوير للعبارة المشهورة التي كتبت أعلى بوابة معسكر أوشفيتس مستهزئة بالداخلين: «العمل يحرر»، وهناك كان يتم فرز المعتقلين إلى ثلاث فئات: غير صالحين للعمل، وعمال السخرة، والسجناء. (المترجم).

(٢٣) Josef Mengele: يوزف مينجيله (١٩١١ - ١٩٧٩) عمل طبيباً في أوشفيتس، وهو الذي كان يقوم بعملية فرز المعتقلين، كما أشرف على قتل السجناء بالغاز. بعد الحرب العالمية الثانية بحث عنه القضاء ليحاكم كمجرم حرب، لكنهم لم يستطيعوا الإمساك به أبداً. توفي مينجيله في أحد مصايف البرازيل، عندما فاجأته جلطة دماغية وهو يسبح في البحر. (المترجم).

سبىء بعد وقوعه في الماء، كتالوج لرفاق من الورق يسمون أنفسهم فنانيين».

وجهت هذه الكلمات طعنة نجلاء إلى المعرض. وفجأةً أمسى المعرض -الذي لم تعلق عليه الصفحات الثقافية حتى الآن إلا بجهد جيهد- فضيحة يتم تناولها على نحو واسع في التعليقات السياسية والمقالات الافتتاحية.

حتى توم كورمان، عميد الصحافة البلجيكية البورجوازية الذي تقاعد منذ أكثر من عشرة أعوام بعد أن كان رئيس تحرير الصحيفة الاقتصادية «دو فينانسيل إيكونوميشه تيد»، تدخل في النقاش وكتب تعليقاً في صحيفة «دو تيد»: هذا المعرض جريمة؛ لأنه يساوي بين اللاتجريمة وبين أعظم الجرائم. إن العالم الحر حر في أن ينسى، وكذلك السوق الحرة، أيضاً سوق الفن لا يستمد قيمته من عبادة الرماد.

"عبادة الرماد": إن ذكر هذه الصياغة التعيسة، أو على الأقل غير الموفقة في سياق أوشفيتس أدت إلى ردود فعل انفعالية أخرى، حتى وإن كان كورمان لم يعنِ ما تم تأويله. أيضاً المدير الفني للمعرض، هيلينيك لم يقصد ما اتهمته به ردود الفعل والتعليقات الصحفية. على كل حال، لم تخلُ صحيفة في ذلك اليوم -يوم اجتماع مجموعة العمل- من مقالة تتحدث عن «استغلال أوشفيتس».

على الفور في بداية الاجتماع قال جورج مورلاند -ولكن من فضلكم لا داعي لكتابة ذلك في محضر الاجتماع- إذا كان ذلك المعرض، وهو بلا شك قريب الصلة بالفكرة التي طرحتها الإدارة العامة

للتواصل والإعلام، جزءاً من اليوبيل المخطط إقامته... well، لن يكون ذلك هو بالضبط ما أفهمه من عبارة «تحسين صورة المفوضية».

عندما قرأت مسر أتكينسون محضر الاجتماع عرفت أن المشروع بشكله الحالي.. نعم: يمكن نسيانه. هناك الآن إمكانيتان: اعتبار «الفلك» مسؤول عن المشروع مسؤولية نهائية، ومن ثم تركه يفشل. لن يثير ذلك أي تدمر في المفوضية، فلا أحد يتوقع من «الفلك» أمراً ذا شأن. ماذا قال زميلها جان-فيليب دوبون عن الفلك قبل فترة طويلة:

- أنا أحب الخنافس المضيئة، حقاً، فهي جميلة. لكن عندما أريد العمل، فهي، ببساطة، لا تمنحني الضوء الكافي^(٢٤).

الإمكانية الأخرى هي أن تصر على الفكرة الأساسية لمشروع اليوبيل، أي تحسين صورة المفوضية لدى الرأي العام، وتفصلها عن مضمون الفكرة التي تبناها الفلك. كان ذلك اقتراحاً من مجموعة العمل: «لماذا اليهود؟ لم لا تكون الرياضية؟».

نعم، قالت لنفسها. لم لا؟ فكرة الرياضة هي الجمع بين الشعوب، هذه الفكرة من الممكن الاستناد عليها، انطلاقاً من البند رقم واحد من المادة ١٦٥ من المعاهدة التي تنظم عمل الاتحاد الأوروبي، كما ذُكر في محضر الجلسة. إن القسم المختص بالرياضة هو أحد أقسام الإدارة العامة للتعليم والثقافة، وهكذا يمكنها أن تواصل التعاون مع

(٢٤) العبارة في الأصل بالفرنسية:

“J’adore les lucioles, vraiment, elles sont magnifiques. Mais quand je veux travailler, elles ne me donnent simplement pas assez de lumière!”

السيدة كسينوبولو، ويمكنهما أن يستندا أيضًا على أن الرئيس قد أعلن عن تقديم دعمه المبدئي لمشروع اليوبيل. كان ذلك أيضًا مسجلًا في محضر الجلسة. ولكن، لقد رُفض رفضًا قاطعًا أن تتولى المفوضية وحدها تنفيذ المشروع، وهو ما ينسف فكرة المشروع، أي تحسين سمعة المفوضية. تمت الموافقة فقط على أن يُمول المشروع بشكل كامل من موازنة المفوضية، لكن ذلك كان من الصعب قبوله عندما يشارك المجلس والبرلمان في المشروع، ويتدخلان في التخطيط باعتراضاتهما المستمرة. وهل يرضى قسم الثقافة أساسًا برفض فكرته وتكليفه في الوقت ذاته بتنفيذ فكرة أخرى تمامًا، وبلا أمل في تحسين سمعته بشكل حصري؟

راحت جريس أتكينسون تدعك أصابعها. أفادها المطبخ البروكسلي. زادت ثمانية أرطال، وشعرت بالدهشة لأن التروية الدموية ليديها وقدميها قد أصبحت، على ما يبدو، أفضل. لم يعد هناك أي أثر للشحوب، أو بياض بشرة وجهها الذي يُذكر بالورق. توردت وجنتاها الآن، مثل بورتريرات السير توماس لورنس، الرسام المفضل لدى الملكة. وربما كان ذلك أيضًا نتيجة كأس الشمبانيا الذي كانت تحتسيه بين الحين، أو كأس البروسيكو، فهي لم تكن تريد أن تبلغ^(٢٥). بالخبرة عرفت أن كأسًا، كأسًا صغيرة فحسب -أو كأسين كحد أقصى- تثير خيالها، وتجعل عقلها أكثر تفتُّحًا، وتجعلها أكثر حسماً، لكنها ظلت تدلك أصابعها بحكم العادة فحسب.

(٢٥) Prosecco مشروب إيطالي يشبه الشمبانيا، لكنه أقل ثمنًا بكثير. (المترجم).

راحت تدلك وتفكر. عليها، بدايةً، معرفة رد فعل فينيا كسينوبولو على محضر الجلسة.

هل تكتب لها «ميل» أم تقترح لقاء لمناقشة كيفية الرد على الاعتراضات وتعديل الاقتراح؟

هراء. لا يمكن تعديل أي شيء. كما أن رسالة مثل هذه تعني التخلي النهائي عن الفكرة التي قدمها «الفلك».

شعرت جريس أتكينسون بمشاعر سلبية. كانت تتسم بالولاء، وهي تقدر جهود فينيا كسينوبولو تقديرًا مخلصًا. الولاء والاستقامة، لم تكن هاتان الصفتان محض كلمات فارغة، فهي من المبادئ المغروسة بعمق في روحها، ومن المهارات الإنسانية التي تمكنها من السير في طريقها بكرامة، وأمل في النجاح أيضًا. لقد تورطت في شيء، والخلاص من هذه الورطة يتوقف على عوامل أخرى تمامًا، ولا تعرف ما إذا كان لذلك علاقة بأن الناس هنا لهم طبائع ثقافية متباينة كل التباين وعليهم التعاون مع بعضهم البعض، أم أن النظم البيروقراطية الكبيرة تؤدي - مبدئيًا - إلى مثل هذه التناقضات. كانت قد عملت سابقًا في هيئات مختلفة في جامعة لندن، ثم في مكتب وزير الخارجية الإنجليزي. في كلتا الحالتين كان الهيكل الإداري رشيقيًا، وإن لم يتسما بالشفافة. في الحقيقة، كان كل شيء يجري خلف الأبواب المغلقة؛ الأبواب المبطنة الشهيرة كانت صورة بلاغية وواقعيًا في آن واحد. ولكن هنا، هنا هي تحت المراقبة الدائمة، وكل الرسائل الإلكترونية تُحفظ في ملف يُرسل بعد مضي فترة ما إلى فلورنسا حيث مقر أرشيف الاتحاد الأوروبي،

وهناك يجلس المؤرخون ويفتشون عن أي ثغرة. إذا كان على مكتب الوزير أن يتخذ قرارًا، فإن النقاش حول ذلك كان يستغرق ثلاثين دقيقة على أقصى حد، تشمل أيضًا عبارات المجاملة وطقوس البداية والنهاية. كان الأشخاص الذين يجلسون معًا لهم الخلفية نفسها، وأصل متشابه، وبالتالي دخلوا المدارس نفسها، ويتحدثون اللغة ذاتها، ربما باللكنة نفسها وعن طريقها يتعرفون على بعضهم البعض، كلهم كانوا متزوجين من الطبقة الاجتماعية نفسها؛ كانت سيرة حياتهم متشابهة بنسبة ثمانين أو تسعين بالمائة، وخبراتهم متطابقة إلى حد بعيد. أتوجد مشكلة؟ في عشرين دقيقة كان هؤلاء البيض البروتستانت، خريجو مدارس النخبة، يتوصلون إلى اتفاق. ما يقوله أحد الأشخاص في تلك الدائرة كان يبدو وكأنه مناجاة للنفس. أما هنا في بروكسل؟ يجتمع دائمًا أناسٌ يتحدثون لغات مختلفة، ومن أصول ثقافية مختلفة، لا سيما من دول شرق أوروبا كان كثيرون يتحدثون من عائلات عمال أو حرفيين، خبراتهم متباينة كل التباين، ما اعتادت جريس أنكينسون أن تشرحه في عشرين دقيقة، يستغرق هنا ساعات، وأياما، وأسابيع.

كان ذلك يسحرها. عليها أن تعترف أن القرارات التي كانت تصدر بسرعة في دائرة النخبة في إنجلترا لم تكن في المعتاد تتطابق مع مصالح أغلبية الشعب البريطاني، أيًا كان من يحكم. العكس كان يحدث هنا. الحلول الوسط كانت كثيرة، ومرهقة إلى أقصى حد، وهكذا لا يعود أحد، أيًا كان مكانه، يفهم أن مصالحه ممثلة بطريقة ما في هذا الحل الوسط. الأمر أكثر تعقيدًا، لكنه أكثر إثارةً أيضًا، غير أنها كانت في

بعض الأحيان تقول لنفسها: ينبغي أن يستطيع المرء التدخل بسلطوية، وأن يصدر أوامر وتوجيهات...

ابتلعت مسز أتكينسون ريقها. صدمتها الفكرة. على كل حال لن ترسل «ميل». ليس سلوكًا مستقيمًا أن تثبت في الملفات أنها تنأى بنفسها عن السيدة كسينوبولو. ليس مستقيمًا على الإطلاق. صبت لنفسها كأسًا أخرى من البروسيكو وقررت أن تتصل بالسيدة فينيا كسينوبولو تليفونيًا.

عندما اتصل فريزر وسألها عن إذا كان لديها وقت في استراحة الظهيرة، فكرت كسينو أن الأمر يدور حول ما أثاره مشروع اليوبيل من رفض. قال لها إن الأمر مهمٌ جدًا بالنسبة لها، لديه معلومات لا بد أن يخبرها بها بشكلٍ عاجلٍ. اقترح أن يتناولوا الغداء في «روستيشيريا فيوريتينا»، في شارع أرشيميد. قالت له: أوكي، بعد ساعة في «روستي». لم تكن كسينو ساذجةً. ولكنها تساءلت الآن، وهي تقرأ محضر اجتماع مجموعة المجلس الأوروبي، لماذا تفاجأت على هذا النحو من هذه التفاعلات التي كان عليها، بكل خبرتها، أن تتنبأ بها وتتوقعها؟ ولماذا تقززت فجأةً من تلك المناورات والمؤامرات الصغيرة، رغم أنها أمر روتيني؟ لقد خبرت ذلك منذ سنوات. موافقة عامة على الفكرة، ثم اعتراضات واقتراحات كثيرة بالتغيير إلى حدٍّ لا يُبقي من الفكرة شيئًا.

في الرواية التي قرأتها كسينو، رواية الرئيس المفضلة، فقرة يعد فيها القيصر عشيقته أنها سيسعى بكل سلطته الممنوحة له من الآلهة

إلى تحقيق حلم البشرية القديم: الطيران. هذه المعجزة -إذا استطاع الإتيان بها- ستوطد أركان حكمه، ليس هذا فحسب، بل إنها ستفتح طاقات البشر في الإيمان بقدراتهم، وبذلك ستزيد من السعادة والرخاء في مملكته. استدعى القيصر أهم الفلاسفة والكهنة والعلماء في عهده لكي يعملوا على إنجاز هذه المهمة، لكنهم أخفقوا سريعاً؛ لأن الرجال الحكماء لم يستطيعوا حتى أن يتفقوا على نوع الطائر الصالح لنزع سر الطيران منه. لم يروا الطيران، بل الفروق بين الطيور فحسب.

ما أدهش كسينو دهشةً كبيرةً كان رد فعل الألمان. بدأ المحضر بكلمات روتينية مثل «موافقة عامة على الاقتراح المُقدم من «الإدارة العامة للتواصل» و«برنامج وإجراءات الثقافة» لتنظيم احتفال باليوبيل الذهبي لتأسيس المفوضية الأوروبية، بهدف تحسين صورة المفوضية لدى الرأي العام (البرتغال، إيطاليا، ألمانيا، فرنسا، المجر، بلغاريا، سلوفينيا، النمسا، فرنسا، المملكة المتحدة، الأراضي المنخفضة، كرواتيا، لاتفيا، السويد، الدانمرك، إستونيا، التشيك، اليونان، إسبانيا، لوكسمبورج). أظهرت بلغاريا اهتماماً فائقاً بهذه المبادرة التي تقع في فترة توليها رئاسة المجلس الأوروبي».

وهكذا سار الأمر، موافقة مهذبة، إلى أن تتوالى الاعتراضات: «موافقة على اقتراح الموازنة، لكن عدة دول أعضاء (إيطاليا، ألمانيا، فنلندا، إستونيا، التشيك، المجر، سلوفينيا، كرواتيا، فرنسا) طالبت بموافقة ملزمة بأن يكون تمويل المشروع من موازنة إدارة المفوضية وحدها، حتى في حالة تجاوز التكاليف المتوقعة، وعدم اللجوء إلى

الموازنة العامة. لن يوافق المجلس والبرلمان على ذلك. بالرغم من ذلك أصرت دول عديدة (ألمانيا، إيطاليا، فرنسا، المجر، بولندا) على إشراك المجلس والبرلمان في مضمون المشروع وتوجهه».

يا للوقاحة! لكن ما أخرج كسينو عن طورها كانت قراءة الاعتراضات على المحتوى، لا سيما من جانب ألمانيا: «إن ألمانيا تضع الفكرة -أوشفيتس كأساس للوحدة الأوروبية- موضع التساؤل، وتؤكد أنه لا يجوز استبعاد المسلمين في أوروبا من مشروع الوحدة الأوروبية. (موافقة: المملكة المتحدة، المجر، بولندا، كرواتيا، التشيك)».

كانت كسينو تعتبر نفسها محنكة. لقد كوَّنت خلال مسارها المهني خبرات كافية فيما يخص العوائق والموانع والعقبات البيروقراطية. وحتى وإن كانت في الفترة الأخيرة قد أضحت قلقة بشأن مسارها المهني المستقبلي، لكنها كانت تستطيع دائماً الوثوق في قدرتها على تخطي العوائق، ولهذا كانت تستعدُّ لمواجهةها. لكن هذا الاعتراض من جانب الألمان وقائمة الدول الموافقة عليه، هذا الاعتراض تحديداً أفقدها النطق فعلاً. لم تكن تتوقع ذلك: أن يشعر الألمان بالقلق من أجل المسلمين، وأن تلك الدول على وجه الخصوص، الأكثر راديكالية في الدفاع عن «الغرب المسيحي»، توافق الألمان على موقفهم. وأن تعبّر المجر بالذات عن قلقها لأن قطاعاً عريضاً من الرأي العام الأوروبي لا يوافق على أن تتمحور الاحتفالات التي ينبغي أن ترسخ الهوية الأوروبية حول الجريمة التي ارتكبت بحق اليهود دون التذكير بأن اليهود الآن يفعلون مع الفلسطينيين نفس ما حدث لهم من قبل.

هذا الاعتراض نال التصفيق من جانب النواب اليساريين (من ألمانيا، اليونان، إسبانيا، البرتغال، إيطاليا). كما قام المجريون بتذكير الحاضرين أيضًا بأنهم في العام القادم سيتولون رئاسة التحالف الدولي لإحياء ذكرى الهولوكوست، وبالتالي فإنهم يحضرون لإقامة سلسلة من الفعاليات التذكارية. ثم الإيطاليون: «اقترح من إيطاليا بإقامة احتفالات اليوبيل في روما، للتذكير بمعاهدة روما. إقامة احتفالية في قصر «مونتيشيتوريو» بحضور رؤساء البرلمان والمجلس والمفوضية ولجنتي الاقتصاد والشؤون الاجتماعية والبنك المركزي ولجنة المناطق...» وجدت كسينو الجملة التالية خسيصة للغاية: «... إذا استطاعت الدول الاتفاق على إعلان احتفالي مشترك (موافقة: المملكة المتحدة، ألمانيا، المجر، التشيك، لاتفيا، النمسا)». لأول مرة تتساءل كسينو: لماذا يشارك أشخاص في قرارات لا يعرفون عنها حتى الأساسيات؟ «للتذكير بمعاهدة روما» - لم تنبثق المفوضية عن معاهدة روما، بل عن معاهدة باريس، وفي شكلها الحالي عن قمة لاهاي. ولا أحد في مجموعة العمل يقول شيئًا معارضًا لاقتراح الإيطاليين بالاحتفال بيوبيل المفوضية في روما؟ ولا حتى الفرنسيون الذين من المفترض أنهم يعرفون الأمور بشكل أفضل؟ لم يعرف أي أحد أي شيء! كيف يستطيع المرء نسيان كل هذه المعلومات، ثم يتحدث بكل هذا الكلام؟ إذا أخذنا ذلك بعين الاعتبار فقد كان الاقتراح الفرعي من جانب الإيطاليين اقتراحًا مؤثرًا: «إقامة مهرجان شعبي في الختام في قلب روما».

أما الاقتراح الذي تقدم به البولنديون - «لماذا اليهود؟ لم لا تكون الرياضية؟» - فقد اعتبرته فضيحة لدرجة أنها لم ترفضه باطنياً فحسب، بل هزت رأسها خلال القراءة. إذا استجبنا لهذا الاقتراح -الذي نال استحساناً هائلاً- فسيبقى المشروع في قسمها، فالفلك مختص أيضاً في الرياضة الأوروبية، لكن كفاءتها وإمكانياتها ستكون أقل كثيراً من مجال الثقافة. إن الأحزاب القومية الشعبوية لا وزن لها مقارنة بالشعور القومي لدى الاتحادات الرياضية في الدول الأعضاء.

في تلك اللحظة دخلت كاسندرا إلى الحجرة حتى تقول لها إنها حصلت من مكتب السجل المدني على آخر عنوان لدافيد دو فريند: في ميدان «دو فيوه مارشييه أوه جران» في «سانت كاترين». لكن المنزل هُدم قبل فترة قصيرة.

- من هو دافيد... دافيد ماذا؟

- لقد تحدثنا عنه من قبل. إنه الشخص المثالي لمشروعنا. ليس لدينا أي تأكيد بأنه رحل. على الأرجح يعيش الآن في دار للمسنين. سنجده.

- رحل؟

شعرت كسينو بالتعب البالغ، ثم أضافت:

- ليس هناك تأكيد؟ أشكرك!

ألقت نظرة على الساعة، ثم قالت:

- عليّ الذهاب الآن. استراحة الغداء، واجتماع!

عندما وصلت كسينو إلى «روستي»، وجدت فريزر في انتظارها. جلس إلى مائدة على الرصيف أمام المطعم، في الشمس الحارقة، وكان الشارع مسرحاً، والشمس كشاف مسلط عليه وحده. خطرت على بالها هذه الفكرة عندما لمحتته من بعيد وسارت في اتجاهه.

لم تستطع أن تعرف ما إذا كان قد رآها هو أيضاً. كان فريزر يضع على عينيه نظارة ذات زجاج عاكس يحول دون رؤية عيني صاحبها. كان ذلك بالنسبة لكسينو أبشع أنواع التخفي، أسوأ من النقاب أو الحجاب، إذ كان بإمكان المرء في الحالة الأخيرة رؤية العينين على الأقل، نافذة الروح، كما يقولون. كما أن هذه النظارة ذكرتها برجال من طفولتها كانت تخشاهم، وحذرها أبوها من أمثالهم: مَنْ يستخدم مثل هذه النظارة، مَنْ لا يُظهر عينيه، لديه أسرار مظلمة. وَمَنْ لديه أسرار؟ البوليس السري بالطبع. لهذا يسمي نفسه هكذا. والبوليس السري يشي بالناس الذي يُسجنون عندئذٍ، أو يُقتلون على الفور، قال أبوها، ثم وضع ذراعيه حولها ليحميها، ثم ضمها إليه.

حسب معرفتها بفريزر، فلا بد أنه اشترى هذه النظارة من سوق البراغيث، ولكن طالما أنه يستخدمها الآن، فمعنى ذلك أن علينا أن نتوقع قريباً عودة موضة النظارات العاكسة.

انتفض واقفاً لكي يرحب بها. ولأنها لم ترَ عينيه، لاحظت لأول مرة وبوضوحٍ فائقٍ أن لديه شعراً في أنفه. برزت الشعيرات من فتحتي أنفه مثل أرجل العناكب. في الوقت نفسه رأت نظرتها في زجاج نظارته. تكره كسينو الشعر في الأنف. إنها تحلق شعر إبطيها وساقيها، وتقص

شعر عورتها، في حين أن الرجل غير قادر على إزالة هذه الشعيرات
السخيفة من فتحتي أنفه. الآن سألها فريزر أيضًا:

- ماذا حدث؟ ماذا بك؟

- مشاكل...

- هل تضايقتك...

- بسبب المشروع.

- الشمس الباهرة؟ يمكننا...

- نعم.

- أن ندخل. لقد...

- نعم؟

- حجزت احتياطيًا مائدة في الداخل، وأخرى في الخارج.

قالت كسينو لنفسها: كم يهتم بها! وفي الداخل سينزع نظارته.

«المشروع، انسيه! سنتحدث عنه لاحقًا»، قال لها ذلك وهو
يمسك بباب المطعم لتدخل أولاً، ثم تابعها بنظره، وتحسسها بنظراته
باعتراز رجلٍ غزا قلب امرأةٍ، وفي الوقت نفسه كان يشعر بالتأثر؛ لأن
هذا الاعتزاز ملاءم بمشاعر الرقة. الرقة الرقيقة. هل هذا حشوٌ وإطنابٌ؟
بالتأكيد هناك درجاتٌ من الرقة. أرق الرقة! وكأن المرء يضع راحته
على بطن امرأة حامل - فيم يفكر؟ لم يفكر في أي شيءٍ مطلقاً، لم
يفكر بكلمات، ولكن إذا استطاع إدخال عواطفه في برنامج ما يترجم
المشاعر إلى كلمات، لربما خرجت جملة شبيهة.

شعر فريزر مفروقٌ بصرامةٍ تشير إلى الدقة البالغة والصوابية، ما حير كسينو. ما الذي لا يحيرها الآن؟ عندما جلسا، ونزع فريزر النظارة وانحنى على المائدة في اتجاه كسينو، مرت بيدها في شعره إلى أن دمرت الفرق، وضحكت، ربما ضحكة بها تصنع ما، ثم قالت:

- أحسن الآن! هكذا تبدو أصغر بخمس سنوات.

- وهل أريد هذا؟ قبل خمس سنواتٍ لم أكن سعيدًا كالآن!

رد الفعل هذا أفقدها النطق. في تلك اللحظة جاءت صاحبة المطعم وأحضرت قائمة الطعام، وكتبت ما يريدانه من مشروبات. طلب فريزر ماء، وطلبت كسينو نبيذًا. قالت النادلة:

- وبهذا يكون لديكما كل ما تحتاجان إليه للوعظ والشراب^(٢٦).

أومات كسينو بأدبٍ، لم تفهم ما تعنيه. تحدثت صاحبة المطعم باللهجة البافارية. كانت إيطالية، من ميلانو، لكنها، قبل أن تأتي إلى بروكسل، كانت تدير لسنوات مطعمًا في ميونيخ، وهناك تعلمت الألمانية. كانت تعرف فريزر، وتعرف أنه ألماني.

جاءت إلى بروكسل بسبب رجلٍ، كانت تقول «جدع» عندما تحكي عنه، كان فائق الوسامة، «شابٌ مُز»، لكنه -وكما اتضح- «لم يكن مضبوطًا»، باختصار: «من بره هالًا هالًا، ومن جوه يعلم الله».

كان فريزر يعشق هذا المطعم، وكان يعرف كل الحكايات.

مؤخرًا، وبعد إغلاق المطعم، شغلت بالسماعات نشيد الأُممية،

(٢٦) إشارة إلى معجزة تحويل الماء إلى خمر الواردة في الأناجيل. (المترجم).

قال لها فريزر. تعجب عندئذٍ بعض الحاضرين. هل تعرفين لماذا؟ لأنها كانت تشعر بالحنين إلى ميلانو، هكذا قالت.

نظرت إليه كسينو نظرةً تنم عن عدم الفهم.

ضحك فريزر، وحكى لها التالي:

- كان والدها من المشجعين المخلصين لـ«إنترناسيونالي ميلانو»، أي نادي كرة القدم الشهير في ميلانو. وعندما لعب الفريق في نهائيات كأس أوروبا ضد ريال مدريد، سافر إلى فيينا.

- ولماذا فيينا؟

- لأن النهائي أُقيم هناك. إذن، إنتر ميلان ضد ريال مدريد. قبل المباراة كان ينبغي أن تعزف الفرقة الموسيقية العسكرية النمساوية النشيد الوطني لكل فريق.

- ولماذا الفرقة الموسيقية العسكرية؟

- لا أعرف. هذا ما حدث. أعتقد أن فرقة فيينا الفلهارمونية ستعزف في ملعب كرة قدم؟ على كل حال: عزفت الفرقة بدايةً النشيد الوطني لفريق ريال مدريد. وعندئذٍ حان وقت عزف نشيد إنتر ميلان. لكنهم كانوا قد أعطوا الفرقة الموسيقية بالخطأ نوتة «نشيد الأممية»، بدلاً من «إنترناسيونالي ميلانو»^(٢٧). إذن، علت فجأةً نغمات نشيد الأممية الشيوعي. وبالفعل، قام بعض

(٢٧) وسبب الخطأ هنا هو تشابه الكلمتين بالحروف اللاتينية: Internationale (الأممية) - Interna- zionale Mailed (فريق ميلانو الدولي). (المترجم).

اللاعبين الإيطاليين بالغناء مع نغمات النشيد: «هيو، ضحايا الاضطهاد!»، لا أعرف ما الترجمة الإيطالية. كان يلعب في ريال مدريد فيرينتس بوشكاش، آنذاك ربما أحسن لاعب كرة قدم في العالم. هذا المجري، الذي هرب من أمام الدبابات السوفيتية في بودابست في عام ١٩٥٦، شعر بالذهول عندما سمع قبل بدء المباراة النشيد الشيوعي، لدرجة أنه ظل يهيم على وجهه في الملعب كالمصدم؛ وهكذا فاز إنتر ميلان ٣/١ على ريال مدريد الذي كان مرشحاً للفوز. ولهذا، وتذكراً لهذا الفوز، كان أبوها لا يمل من سماع «الأممية»، ولهذا فإنها...

لاحظ فريزر أن كسينو ليست مهمةً إطلاقاً بما يحكيه. لكنه كان فرحاً جداً، وسعيداً جداً، كان قلبه مفعماً، فسأل الكلام من فمه. في تلك اللحظة جاءت صاحبة المطعم وأحضرت المشروبات. لم يلقيا نظرةً حتى الآن في قائمة الطعام، لذلك طلبا ببساطة «وجبة اليوم».

قال فريزر:

- على كل حال، ما أردت قوله لك، وهو مهمٌ جداً: اسمعي، مشروع اليوبيل...

- هل قرأت محضر اجتماع مجموعة العمل؟

- طبعاً.

- وما هو المهم غير ذلك؟

- لا شيء...

قاطعته، بصوت عال أكثر مما ينبغي، لدرجة أن الجالسين إلى
الموائد المجاورة نظروا إليهما:

- ماذا تقول؟ لا شيء مهم، وهذا هو الشيء المهم الذي أردت أن
تقوله لي ولذلك جعلتني أجيء إلى هنا؟

- لا، اسمعيني! ما أردت قوله: لا تستطيعين فعل أي شيء الآن
للمشروع، لقد مات. وسوف يظل شبحة يحوم لفترة ما في
بعض الأقسام والهيئات كنموذج لأحد المشاريع «الزومبي»
للمفوضية، وبعد ذلك سيدفن دفنًا نهائيًا. ما عليك الآن أن
تفعله هو التالي: أن تنسحبي بهدوء. دعي ممثلي الحكومات
يحملون المشروع إلى المدافن. لن تستطيعي الدفاع عن الفكرة.
لن تنجحي. لقد أصبحت خارج اللعبة. الإدارة العامة للتواصل
أرادت إقامة احتفال باليوبيل، والرئيس قال إنه سيدعم الفكرة
الجيدة، في حين قالت مجموعة عمل المجلس الأوروبي إنه لا
توجد فكرة جيدة، لقد قدمت بالأحرى اقتراحات سيئة أخرى
لا نصيب لها من النجاح، لأنها اقتراحات صورية، هدفها مجرد
تقديم اقتراحات، أتفهمين؟ إذا كان شخص ما لا يزال يظن أن
بإمكانه أن يحصد ورق الغار، فدعيه. أما إذا أخفق أحد إخفاقات
مشيئًا، فلن تكوني أنت. أوكي؟ أنت خارج اللعبة، لأنك، والآن
هذا هو المهم،...

أراد فريزر أن يقلد نغمات النفير قبل أن ييوح لها بسبب اللقاء،
لكن صاحبة المطعم أحضرت في تلك اللحظة سلطة الخس، وتمنت

لهما باللهجة البافارية «شهية طيبة»، لكن ما قالتها كان غير مفهوم، وبدأ
كـ«شهط»!

أكمل فريزر قائلاً:

- لأنك ستكونين في مكانٍ آخر تمامًا. بخطوةٍ جميلةٍ في طريقك
المهني، ستكونين مثلاً في إدارة «التجارة»، أو «الهجرة والشؤون
الداخلية».

- ماذا تقول؟

- أليس هذا ما تريدين؟ لقد اكتشفت الوسيلة إلى ذلك. اسمعي!
أنتِ قبرصية، أليس كذلك؟

- نعم، وأنت تعرف ذلك.

- وهل كانت قبرص عضوًا في الاتحاد الأوروبي عندما جئتِ إلى
بروكسل؟

- لا. آنذاك...

- جئت بتذكرة يونانية.

- نعم، أنا يونانية.

- ما الوضع الآن؟ يونانية أم قبرصية؟

- لماذا تضحك هكذا؟ هل تسخر مني؟ ما المضحك في ذلك: أنا
قبرصية يونانية.

- واحدة واحدة: اليونان عضو في الاتحاد الأوروبي. والآن

أصبحت جمهورية قبرص أيضًا عضوًا في الاتحاد الأوروبي.
آنذاك، عندما لم تكن قبرص عضوًا بعد، جئت إلى هنا وأنتِ
القبرصية باعتبارك يونانية.

- نعم، كانت تلك فرصتي آنذاك. كقبرصية يونانية كان بإمكانني
الحصول على جواز سفر يونانيّ و...

- والآن، لديك فرصة أخرى تمامًا؛ لأن جمهورية قبرص أصبحت
منذ فترة عضوًا في الاتحاد الأوروبي. جزيرة صغيرة، بل نصف
جزيرة صغيرة. عدد سكانها أقل من مليون نسمة، دولة لا يزيد
عدد سكانها عن سكان فرانكفورت تقريبًا. شيء غير معقول،
أليس كذلك؟ وماذا يفعل الناس هناك؟ هل هم مرشدون
سياحيون، أم معلمو غوص، أم فلاحون يزرعون الزيتون؟ لا
أعرف. أعرف شيئًا واحدًا...

حدثت كسينو فيه، في عينيهِ المبتهجتين، كان يهدف إلى الوصول
إلى شيءٍ، لكنها لم تدرك ما يقصده، شيء ما كان يشير في نفسها عدم
الارتياح، وكأنها تشعر بالإهانة على نحو طفيف للغاية، لكنها لم تفهم
كنها. الآن لم تكن تمنع لو وضع نظارته العاكسة.

- قبرص، هذه الجمهورية الصغيرة جدًا، لا تستطيع أن تمتد الاتحاد
الأوروبي بالموظفين المطلوبين هنا في كافة مستويات السلم
الوظيفي، لا يستطيعون شغل الوظائف التي تحق للقبارصة. ليس
لديهم ما يكفي من المؤهلين. أتفهمين الآن ما أقصده؟

- وهذا هو الشيء المهم الذي أردت أن تقوله لي؟

- نعم. أليس هذا رائعاً؟ الأمر منطقيّ وبسيطٌ جدّاً. عليكِ استصدار جواز سفر من جمهورية قبرص، وبسيرتك الذاتية ستحصلين فوراً على إدارة.

- على شخصٍ آخر أن يذهب عندئذٍ.

- البريطانيون سيذهبون. آخرون سيحاولون إلى التقاعد. خلال شهرٍ ستصبح هناك إدارةٌ شاغرةٌ لدينا في «التجارة». وبعدها إدارة أخرى في «الهجرة والشؤون الداخلية». وإذا اقترح القبارصة، الذين لا يشغلون سوى خمسين في المائة من الوظائف التي تحقق لهم، شخصاً...

- ولكنني اجتزت اختبار المسابقة، منذ فترةٍ طويلةٍ لم أعد أجلس هنا بتذكرة وطنية.

- أحسن وأحسن! ستضمن جمهورية قبرص جدّاً اختيار امرأةٍ قبرصيةٍ محنكة، لا يمكن فصلها، لكي تشغل منصباً مهماً في المفوضية.

- وعليّ فقط... جواز سفر جديد؟

- نعم. وستحصلين عليه بالطبع فوراً.

تهللت أسارير فريزر. وتعجب لأن فينيا لم تُظهر أدنى قدر من التحمس.

مُقلداً صاحبة المطعم قال لها: «شهط»!

تناولا الآن «الرافولي»، ولم يتحدثا إلا قليلاً. عليها، قال فريزر

لنفسه، أن تهضم أولاً هذه المعلومات. أما الشيء المهم الآخر الذي أراد قوله، الشيء الخاص، فقد أجّله. من الصعب للغاية فهم المشاعر، وما أن يشرع الإنسان في صياغتها في كلمات، حتى تهتز ثانية. قال لنفسه: من الأفضل أن تشعر تجاهه بدايةً بالعرفان.

بعد الغداء جلست فينيا كسينوبولو مرةً ثانيةً إلى مكتبها وشرعت ترد على الرسائل الإلكترونية التي وصلتها. راحت تكتب شاردة الذهن العبارات الفارغة المعتادة، ولم يمر وقتٌ حتى توقفت. كيف تتعامل مع الاقتراح الذي قدمه فريزر؟ لم تعد ترى شاشة الكمبيوتر، بل صوراً من الذاكرة. أصبحت أصابعها ساكنة على لوحة الحروف. اتكأت إلى الوراء. موضوع جواز السفر، هذا.. انتفضت واقفةً، وفتحت النافذة. انسأب إلى الغرفة المكيفة هواء ثقيل دفأته الشمس، فذكّرها بصيفيات الطفولة في قبرص. إذا كانت السماء آنذاك بلا غيوم كما هي الآن، فلم تكن بالنسبة لها فترة خالية من السحب مثل تلك التي كان يعايشها أطفال العائلات البرجوازية بين المداعبات واللعب على المروج المشمسة. رأت صورتها المنعكسة على زجاج النافذة المفتوحة، لكنها كانت صوة ضبابية غائمة، وكأنها صورة آتية من زمن بعيد، لا، كلا، رأت كيف أصبح فمها قاسياً، والتجاعيد يمين الفم ويساره التي بدت في الصورة المنعكسة كأنها مرسومة بالفرشاة. كانت صورتها هي، ومع ذلك كانت الصورة لشخصٍ آخر، كانت... سارت عائدةً إلى المكتب، وتناولت سماعة التليفون واتصلت ببوهوميل:

- هل تستطيع أن تمر عليّ؟

جاء على الفور، فطلبت منه كسينو سيجارة.

- السجائر في غرفتي، سأحضرها حالاً.

قال تلك الجملة ثم نظر إلى أعلى، إلى جهاز إنذار الحريق:

- هل أحضر معي سلماً وألصق هذا الشيء في السقف؟

- ليس ضرورياً، سأدخن عند الشباك.

عاد وأعطاها العلبة:

- يمكنك أن تحتفظي بها. ليس بها سوى خمس سجائر. لدي علبة

أخرى في الحجرة.

- شكراً، هذا من لطفك البالغ. معك ولاعة؟

وقفت عند النافذة، وراحت تدخن وتنظر إلى بوهوميل بطريقة لم تكن مريحة بالنسبة له. وكأنها تقف جوار نفسها. وكأنها تخترقه بنظراتها. هل بسبب مشروع اليوبيل؟ كان يعرف بالطبع أن هناك مشاكل، كان في الحقيقية يتوقع أن يكون ذلك سبب حديثها معه. لكنها لم تذكر الموضوع بكلمة. ساد جو مخيف. إنها امرأة عملية، صلبة، لم يرها مذهولة هكذا من قبل.

«أوكي»، قال ثم تراجع خطوة وأراد الانصراف، عندئذ قالت

كسينو:

- معك جواز سفر؟

حملق فيها بوهوميل مندهشًا.

- أعني، أي نوع من جوازات السفر لديك؟

توقعت أن يقول: بالطبع جواز تشيكي. كانت ستهز رأسها وتحسده على كلمة «بالطبع». لكنها ظلت هنيهة صامتة، لأنه قال:

- لدي جواز سفر نمساوي. لماذا تسألين؟

نظرت إليه، ممسكة بالسيجارة أمام فمها دون أن تسحب نفَسًا، ضيّقت عينيها، ثم مدت يدها الممسكة بالسيجارة من خارج النافذة، وهزت رأسها قائلة:

- هل قلت إن معك جوازَ سفر نمساويًا؟

- نعم. لدي جواز سفر نمساوي. لماذا؟

- هذا ما أريد معرفته منك. لماذا؟ أنت تشيكي.

- نعم، لكنني وُلدت في فيينا. جدي وجدتي، في عام ١٩٦٨، عندما

سحقت الدبابات الروسية ربيع براغ- تعرفين: ربيع براغ؟

أومأت كسينو.

- آنذاك هرب جدي إلى النمسا. مع أبي. كان آنذاك في السادسة

عشرة. بعد عشر سنوات تزوج أبي من أمي التي كانت قد هربت

إلى فيينا هي أيضًا وهي بعد طفلة تشيكية. عندما تزوجا كانا

قد أصبحا من مواطني الدولة النمساوية. ثم جئت إلى العالم،

وحصلت بالطبع أيضًا على الجنسية النمساوية. في ديسمبر

١٩٨٩، أي بعد الثورة مباشرة، عدنا إلى براغ. كان ذلك

نصرًا لوالديّ، نقطة التحول في حياتهما. ٢٠٠٢ اشتركتُ في

اختبارات القبول بالمفوضية في بروكسل. لقد درست العلوم السياسية، في براغ، غير أنني كنت أريد الخروج منها، ولهذا كان من الجيد أن يكون بحوزتي جواز سفر نمساوي، فالنمسا كانت قد أصبحت عضوًا في الاتحاد الأوروبي، أما التشيك فلم تكن قد انضمت بعد. ولهذا جئت إلى هنا، (مبتسمًا) ولهذا أصبحت مدخنًا، ولديّ دائمًا عدة علب من السجائر.

تطلعت إليه كسينو متسائلة.

- عندما كنت طفلًا كنت أجلس كل مساءً مع والديّ في أكثر الحانات امتلاءً بالدخان في فيينا، في «أزويل»^(٢٨)، ملتقى المنشقين التشيكيين الهاريين والمنفيين. كان والداي يذهبان كل مساءً إلى... هناك، لم يكن معهما من النقود ما يكفي لاستئجار «جلیسة أطفال»، وهكذا أخذاني معهما. هناك كانا يتناقشان لساعاتٍ مع فاتسلاف هافيل عندما يكون في فيينا، ومع بافيل كوهوت، وكارل شفارتسنبرج، وياروسلاف هوتكه، وكل أولئك الأشخاص. وخلال ذلك كانوا لا يتوقفون، كلهم، عن التدخين. كنت أجلس بجوارهم، أو أنام، وهكذا كنت مدمنًا على النيكوتين قبل أن أدخن أول سيجارة في حياتي.

وضحك بوهوميل، لكنه قطع ضحكته عندما رأى واجه كسينو التي سألته:

- And?

(٢٨) كلمة Azyl بالتشيكية تعني «لجوء». (المترجم).

لم يسمع الكلمة جيدًا، وظن أنها قالت end? -، فواصل قائلاً:
- لم تكن تلك النهاية، أو ربما كانت كذلك بالفعل: بالنسبة إلى
أبي. أصبح هافيل رئيسًا، وشفارتسنبرج وزيرًا للخارجية، وكاد
كوهوت أن يحصل على جائزة نوبل في الآداب، هو يقول ذلك
على الأقل، أما هوتكه، الذي كان نجمًا على موجات «راديو
أوروبا الحرة» فقد تجول بأغانيه الاحتجاجية في طول البلاد
وعرضها إلى أن كبرت أجيال لم تعد تفهم شيئًا من تلك الأغاني.
عندئذ أُحيل إلى التقاعد بعد أن حصل على لقب «أسطورة حية».
أصبح والدي وزيرًا للتعليم، وفي يوم أداء القسم أُصيب بنوبة
قلبية. ودخل التاريخ التشيكي كـ «وزير الدقائق العشر».

- هذا يؤسفني.

- شكرًا. يؤسفني أنا أيضًا.

- على كل حال، إذن فأنت تعيد الألمانية.

أجاب بوهوميل بالألمانية:

- مكسّر.

- مكسّر؟

- نعم.

- لكن لماذا؟ إذا كنت...

- لأنني منذ عودتي إلى براغ لم أتحدث الألمانية أبدًا، أي منذ أن
بلغت العاشرة. صحيح أنني في الفترة الفيناوية تعلمت الألمانية

في المدرسة الابتدائية، لكنني كنت أتحدث في البيت دائماً
التشيكية. في الحقيقة لم يبقَ سوى شيء واحد: إنني أضحك
دائماً على الكلمات الألمانية التي دخلت التشيكية. مثلاً كلمة
pinktlich؛ هذه الكلمة التشيكية مأخوذة من الألمانية، وهي
تعني في التشيك كل ما هو غير لطيف ومقزز، كل ما يُعتبر صفة
ألمانية: إنها تعني متحذلق، غير مرن، جلف، دقيق دقة لا ترحم،
شخص يدعي أنه معصوم من الخطأ، شخص لديه انضباط
بروسي - الشخص الذي يتسم بهذه الصفات، يوصف بالتشيكية
بأنه: *pinktlich*^(٢٩).

ضحك بوهوميل، ثم قطع ضحكته فوراً عندما رأى وجه كسينو
الشبيه بالقناع. قالت له:

- *I see* ... وماذا عن ... جواز السفر؟ لم تواجه مشكلة بسببه أبداً؟
- لا، لماذا؟ أي مشكلة؟ الأمر سيان، أي جواز سفر يحمله المرء،
إنه جواز سفر أوروبي.

ألقت كسينو سيجارتها من الشباك، وسحبت سيجارة أخرى من
العلبة، ووضعتها بين شفتيها، ثم مدت فمها تجاه بوهوميل. بدا المنظر
كأنه قبلة، إذا نسينا السيجارة.

أشعل سيجارتها، فشكرته، ثم ألقت نظرة من النافذة ما اعتبره
بوهوميل إشارة رقيقة لكي ينصرف.

(٢٩) الكلمة التشيكية شبيهة بالكلمة الألمانية *pünktlich* التي تعني «دقيق في مواعيده». (المترجم).

قال: «أوكي، إذن»، لم تقل هي شيئاً، وواصلت النظر من النافذة.
انصرف بوهوميل. شعر بأنه يغادر مشرحةً. هل استطاع تحديد هوية
الموتى؟ إنه يعرفها، لكنه لم يكن متأكداً تماماً.

ما مشكلة كسينو؟ لقد فاجأتها حكاية بوهوميل إلى درجة أنها
تحجرت في مكانها تقريباً. بوهوميل المرح هذا. لا، ليس الأمر بهذه
البساطة. شعرت بالتمزق. كانت منقسمة إلى اثنين. لم تفهم لماذا هي
هكذا. حكايتها كانت إلى حد ما حكايتها. بالرغم من ذلك، فإن حكايتها
مختلفة تماماً. هذا ما حيرها. الآن.

جواز سفرها كان بالنسبة لها دائماً جوازاً أوروبياً، وليس بطاقة
هوية وطنية أو عرقية. كان بالنسبة لها بطاقة الدخول إلى مملكة الحرية،
عالم حرية التنقل والإقامة في أوروبا، كان وثيقة اعتناق من العبودية،
وثيقة تسمح لها بأن تشق طريقها في أوروبا.

.Χαῖρε, ὦ χαῖρε, Ἐλευθερία

هكذا كانت تشدو بحماسة وهي طالبة في قبرص عندما يُعزف في
المناسبات النشيد القومي: التحية لك، أيتها الحرية الرائعة! لكنها لم
تفكر أبداً بأن تصبح من القوميين القبارصة باعتبارها قبرصية يونانية،
هذا شيء غريب عنها تماماً. لماذا تعطي إذن مكان الميلاد أهمية أكبر
مما يستطيع المرء أو يتحتم عليه؟ الحرية، هذا شيء تفهمه، ولكن
قبرص فوق كل شيء، هذا أمر لم تفكر فيه أبداً. ولهذا لم تندعش مطلقاً
عندما ذهبت إلى اليونان للدراسة لتجد أنهم هناك ينشدون النشيد نفسه.

.Χαῖρε, ὦ χαῖρε, Ἐλευθερία

لم يكن هذا النشيد إذن تعبيرًا عن إيمانها بالقومية، كما لم يكن بالنسبة لها أمرًا غريبًا إطلاقًا أن تنشد بلدان النشيد الوطني نفسه، هذا النشيد كان بالنسبة لها، ببساطة، أنشودة للحرية، وكم كانت الأنشودة مناسبة لها: إنك تشتعل غضبًا، يا سليل العظام اليونانية المقدسة!

كان على غضبها أن يحملها بعيدًا. الغضب وقود، قوة إبداعية. لا يمكن أن يعني وعد الحرية: تضاعل في مكانك الضيق، لكن الأفكار حرة! انظر إلى أشجار الزيتون في البستان الصغير أمام منزلك! ما أقل ما تحتاج إليه، رغم ذلك فإن أوراقها تبرق في الشمس كالفضة!

إذا كانت أفكارك حرة، فلا بد أن تكون طاقاتك حرة كذلك، أفعالك، أعمالك. هذا ما اتضح لها وهي في الثانية عشرة، عندما كانت تحمل زجاجات المياه المعدنية إلى حمام أفروديت الجاف لتبيعها للسياح من كل ربوع العالم. «من كل ربوع العالم» - هذا ما تعلمته في المدرسة - كانوا يأتون إلى قبرص، السادة كانوا يأتون إلى قبرص؛ لأن قبرص كانت قريبة من تركيا واليونان وسوريا ومصر، أي أنها كانت دائمًا مفصلًا بين أوروبا وآسيا وإفريقيا. ليست قبرص دولة قومية، هذه الجزيرة كانت سفينة صغيرة تتأرجح فوق أمواج التاريخ، بين الممد والجذر الذي يتلاعب بالأمم والممالك التي كانت تظهر قبل أن تغرق مرة أخرى.

عندما حصلت على جواز سفرها اليوناني، لم تفكر يومًا أنها بذلك تكون تغادر البلد الذي نشأت فيه أو تخونه. جواز السفر اليوناني كان في عينيها مجرد وثيقة سفر، من الجزيرة التي رسمت على شعارها

حمامة، إلى القارة التي كانت تصف نفسها بأنها مشروع سلام وكانت تقدم لها فرصاً مهنيةً. والآن فإنها شعرت أن من الجنون أن تتخلى عن جواز السفر هذا لتحصل على جواز آخر لا يختلف ولا يعد بأي شيء أكثر من الجواز القديم - لكنه كان يطلب منها أن تقرر قبرصية يونانية ما إذا كانت يونانية أو قبرصية. كان علينا أن نستبدل بجواز سفرها - الذي كانت تعتبره وثيقة سفر أوروبية - جواز سفر هو اعتراف بالقومية، حتى تستطيع أن ترتقي السلم المهني في أوروبا. نعم، هذا جنون. إنها تعمل في المفوضية منذ فترة طويلة كافية تجعلها تعرف تلك الخبرة: أن القوميين يهاجمون أوروبا على نحو يزداد وحشيةً، لكنها بسيرها في طريقها بحرية، مع كل الغضب الذي تحمله معها من عالمها الضيق، هذا الغضب - هكذا فكرت الآن فجأةً - هو ربما عن غير وعي غضب على القيود المفروضة على الشخص الذي يقول: أنا... قبرصي، أو يوناني، أو أي شيء آخر. من يقول: أنت - فهو يعني: ابقَ في مكانك!

لقد قلب اقتراح فريزر حياتها رأساً على عقب. الهوية ليس إلا ورقة. هل ستغدو شخصاً آخر إذا غيّرت الورقة؟ هل ستغدو شخصاً آخر عندما تشدو الآن «تحية لك أيتها الحرية!»، «بدلاً من «تحية لك أيتها الحرية!»، النشيد الوطني لجواز السفر الجديد المطابق تماماً للنشيد الوطني لجواز السفر القديم؟ نعم - هل سيكتسب النص نفسه والنعمة نفسها مغزى جديداً تماماً لأنها استبدلت بنشيد الحرية النشيد القومي؟ لقد ولدت في قبرص، كيونانية، وعاشت في اليونان كيونانية مولودة في قبرص. كان من الجنون أن يُطلب منها الآن أن تنظر إلى هذه

الهوية باعتبارها هويةً مزدوجةً تتطلب منها قرارًا: أنتِ تعانين من انقسام في الشخصية، قرري مَنْ أنتِ!

أُبشع شيءٍ هو أنها تعرف عمومًا أنها بأفكارها كانت تكذب على نفسها. طبعًا ستنتهز الفرصة وتغير جواز سفرها. تحتاج إلى ساعتين حتى تستبدلها. كانت امرأةً عمليةً. وهذا ليس إلا قرارًا عمليًا. لماذا تتورع عن هذه الخطوة؟ لأنها تشعر شعورًا مبهمًا بأن شيئًا ما بداخلها قد مات. ومَنْ يحب الموت؟ إن الأمل في حياة أفضل، وسواء كانت تلك الحياة تدعى الله أو الترقى المهني، فإن ذلك لا يمنح سوى عزاء يائس. كتبت رسالة إلكترونية إلى مسز أتكينسون، ثم توقفت وأغلقت المستند. ظهر لها شباك يسألها: «حفظ المستند كمسودة؟».

تتمنى أن تتيح الحياة ما يعرضه عليها الكمبيوتر: حفظ المسودات. نقرت «عدم الحفظ»، واتكأت إلى الوراء ثم قالت: أوكي. كانت الساعة الخامسة عصرًا تقريبًا. كتبت رسالةً إلى جميع العاملين في قسمها: «اجتماع بمناسبة دفن مشروع اليوبيل، غدًا في الحادية عشرة».

عندئذٍ سيكون مارتين سوسمان قد عاد.

مسحت كلمة «دفن» ثم نقرت «إرسال».

أطفأت جهاز الكمبيوتر وانصرفت. لم تكن لديها رغبة في الذهاب «إلى البيت»، إلى شقتها الصغيرة العملية، إنها في الحقيقة ليست سوى مكانٍ للنوم وغرفة صغيرة تحولت إلى خزانة ملابس كبيرة مفتوحة.

لكنها لم ترد البقاء هنا أكثر من ذلك، في مكان عملها الذي غادرته في الحقيقة اليوم بالقرار الذي اتخذته. أتشرب شيئاً في مكانٍ ما؟ كانت مترددةً. إذا فعلت ذلك، ففي «هت لاختنده فاركين»، المقهى الذي يقع في الشارع الذي تسكن فيه.

سارت في شارع «جوزف الثاني» إلى محطة مترو مالبيك. على رصيف المترو تطلعت إلى لوحة الاستعلامات: القطار التالي بعد ست دقائق.

لقد حدث هذا بالفعل. أن يتحول رجلٌ إلى خنفسةٍ.

هذه الفكرة لم تكن سوى عَرَض صغير، لكنه دال على أن فلوريان سوسمان القوي والمتين البنية قد أصبح فجأةً شخصاً آخر: مصدوماً، يائساً، لا حول له ولا قوة. لم يكن قارئاً. قارئ الكتب كان دائماً أخاه الصغير مارتين سوسمان.

- ماذا تقرأ هذه المرة؟ قصص الهنود الحمر؟

- لا. رجل يتحول إلى حشرة، إلى خنفسة.

- على يد ساحر؟

- لا. هكذا، دون سببٍ. فجأةً. يستقيظ فيجد نفسه خنفسةً.

آنذاك اعتبر أخاه الصغير مجنوناً. كيف يقرأ أحدٌ شيئاً كهذا، ويضيع وقته مع تلك الكتب الغريبة؟ كان هو الابن المفضل لأبيه، ولي العهد،

يحبّه أبوه بجنونٍ، وإنْ كان يعامله دون حنانٍ. هو الذي سيتولى المزرعة يوماً ما، غير مسموح له بأن يكون رخوّاً، ولا أن يكون ضعيفاً أو حالماً، أبداً. لم يعبر الأب عن مشاعره. وإذا أظهر مشاعره، فعبر نظرة تقدير، أو إيماءة، أو بوضع ذراعه بخشونة على كتف فلوريان، ضاغطاً عليه ضغطة خفيفة تقول: ابني!

أما مارتن فهو ابن أمه، طفل حالم يبكي كثيراً، ويقرأ كثيراً، ويخاف من أشياء كثيرة. عندئذ كان يجري إلى «ماما» التي تحميه، لكنها في الوقت نفسه تجد صعوبةً أيضاً في أن تكون حنونة: أصبحت قاسية في صراع الحياة، تقضي ليالي بلا نوم بسبب الديون التي استدانها لتوسيع المزرعة وتحويلها إلى شركة لعلف الخنازير وذبحها. كل عضلاتها متوترة. من يحمل أثقالاً، لا يستطيع أن يداعب أحداً. لا يعني هذا أنها كانت ترفضه، حتى وإن تساءلت حائرة في بعض الأحيان عن سبب كونه هكذا، ولهذا كانت تعتقد أن عليه أن يخشوشن، وأخيراً أن يظهر استعداداً - حتى وإن كان لا يتسم بالمهارة - للقيام بنصيبه من العمل في المزرعة. عندما تضبطه يقرأ، كانت ترسله إلى الزريبة. كان أمراً بلا معنى، فالحيوانات كانت تُعلف آنذاك بطريقة آليّة، وكان عاملان يتوليان تنظيف الزرائب آلياً، أي أن مارتن كان يقف في الطريق فحسب. في الختام كان يعدو ثانيةً إلى المطبخ، فيُسمح له بالمساعدة في الطهي، أو القراءة على مائدة المطبخ. إلى أن يقوم ليفرش المائدة، عندما يأتي الرجال لتناول الطعام، الأب، والأخ الأكبر، واثنان من العاملين برائحتهما النفاذة. رجال. التحول إلى خنفسة؟ دون سبب؟ ساحر؟ يا للسخافة!

هل تذكر، سأله فلوريان، كم كان عمرنا آنذاك؟ ١٤ و١٦؟ والآن، يرقد مثل خنفسية وقعت على ظهرها. لقد تحول إلى خنفسية عاجزة. فجأة. دون سبب. ينتظر المساعدة. ينتظر حقنة تخفف الألم، ينتظر الطعام، ينتظر الاهتمام من الآخرين. كان يقرأ إذا استطاع، الصحف في البداية، ثم الكتب التي يحضرها مارتن معه. إذا أرهقته القراءة، إذا تعبت عيناه وثقلت ذراعاه، يغفو، ويطلق لأفكاره العنان، ويحلم. أخوه الأصغر يهتم الآن بسلسلة من الأشياء التي لا بد من إنجازها، في حين يرقد فلوريان على ظهره عاجزاً: أحاديث مع طبيب المستشفى، اتصالات تليفونية مع شركة التأمين التي أبرمه لديها فلوريان عقد تأمين خاص إضافي. كان يحصل على معلومات حول الجراح الذي يتمتع بأفضل سمعة للحصول عليه حتى يجري العملية المعقدة والخطيرة في ظهر فلوريان، لا بد أن يكون أستاذاً في تخصصه...

- ساحر؟

- لا، بل، بكل بساطة، أستاذ في تخصصه.

أبلغ مارتن النقابة، والرابطة الاقتصادية، وشركاء فلوريان، ومجلس إدارة كبار منتجي لحم الخنزير الأوروبيين، وطلب، بناءً على رجاء من فلوريان، من حزب الشعب الأوروبي تقريراً عن المؤتمر في بودابست؛ كما كان مارتن على اتصال دائم بمارلينه، زوجة فلوريان، التي كان عليها أن تسيّر أمور الشركة. بحث مارتن عن محام متخصص في قضايا المرور والتعويض عن الحوادث، وكلفه بأن ينوب عن أخيه أمام شركة تأمين سائق التاكسي الذي تسبب في الحادث المريع، ما يعني رفع قضية

مدنية ضده للحصول على تعويض عن الأضرار المادية وغير المادية التي لحقت به.

كان فلوريان يقضي وقته الآن في القراءة أو الحملقة في السقف. تبادل مدهش للأدوار بينهما، هكذا، دون سبب، فجأة، ودون ساحر.

حصل فلوريان على شريحة من التيتانيوم واثني عشر مسمارًا في الظهر، تم تثبيت العمود الفقري، ولم يكن النخاع الشوكي مصابًا، فنجاة من الإصابة بالشلل. هناؤا فلوريان على حظه الجيد رغم سوء الحظ الذي حلّ به.

رقد على ظهره، يحلم، ويتنهد في بعض الأحيان أو يتأوه، وكان يتسم عندما يهمس أخوه بشيء، أو يمسح العرق من جبينه، أو يتناول يده.

عندما توفي والدنا، قال فلوريان، كان في مثل عمري الآن. كنت صغيرًا آنذاك، لكن كان بمقدوري... أطفالي، لو مت الآن، إليزابيت في السابعة، وباول في الخامسة... سيكون ذلك...

أليس غريبًا أن يحدث ذلك لي الآن، في عمر أبي عندما... أتعرف ما الغريب في الأمر؟ أنني لم أفكر في الموت أبدًا. ولا حتى عندما وقفت عند قبر أبي المفتوح. ألقيت بحفنة من التراب، ثم... نعم، كنت تحت الصدمة. لكنني لم أفكر في الموت، بل في نفسي. الموت بالنسبة

لشخصٍ حيٍّ هو دائماً موت الآخرين.

طافت برأسه الأفكار.

إذا مت الآن، فلن أستطيع توديع أحدٍ. كما لم يستطع أبي أن يودع أحداً.

صمت فلوريان، ثم قال: هل من الأفضل أن يودع المرء الآخرين؟ أم أن ذلك يزيد المعاناة فحسب؟

راح يفكر في ذلك.

لو كنت أُصبت بالشلل الآن، هل كنت ستساعدني على إنهاء الأمر؟ لن أريد عندئذٍ أن أواصل الحياة. هل كنت سأستطيع الاعتماد عليك؟ أعتقد الآن أنني أستطيع الاعتماد عليك.

لا، قال مارتن.

استغل مارتن كل الإمكانيات للحصول على إجازة، فاستنفذ كل أيام الإجازات المتبقية له، وقدم على طلب للحصول على إجازة خاصة لرعاية أخيه، وفي الختام لجأ أيضاً إلى إمكانية الحصول على إجازة دون راتب. جاء الربيع، وهبَّ الهواء الدافئ داخلاً من النافذة المفتوحة، حبوب اللقاح الأولى، كان غرفة المستشفى مدفأةً أكثر من اللازم، فحسب التقويم كان على الطقس أن يكون أبرد من ذلك، وإدارة المستشفى تشغل التدفئة حسب التقويم لا حسب الواقع. أزاح فلوريان الغطاء جانباً، وصرخ متأوها عندما عطس، فالهزة كانت تؤلم

ظهره. تصيب العرق منه، ثم شعر بالبرد في تيار الهواء القادم من النافذة المفتوحة. توجب على مارتن أن يغطيه مرة أخرى، إلى أن أزاح فلوريان الغطاء ثانية، غاضبًا. كان الغضب هو الشيء الوحيد الذي يستطيع ممارسته بقوة وعزيمة، هذا الراقد على ظهره كالخنفسة.

احتفظ مارتن بشقةٍ صغيرةٍ في فيينا، في الحي الثاني، كي يجد مكانًا للمبيت عندما يأتي إلى مسقط رأسه لقضاء بضعة أيام. لم تصبح الشقة أبدًا بيتًا له، كانت مكانًا للمبيت، به ركن للطبخ لم يستخدمه أبدًا لغير إعداد القهوة، ولم يفتح أبدًا درجًا من الأدراج سوى الدرج الذي يضم فتّاحة الزجاجات. في هذا الركن كانت المربي تتعفن، ومدة صلاحية الزبدة تنتهي. حجرة فيها سرير ومائدة. وكراتين. ثماني كراتين كبيرة استخدمها لنقل حاجياته. وضعها هنا بعد أن أخلى شقته القديمة قبل انتقاله إلى بروكسل. لم يعد يعرف الآن على الإطلاق ما بداخل هذه الكراتين. بيته. ما زالت لديه حجرةٌ في الشركة، في بيت الوالدين، عند الخنازير، على مبعدة ثلاث ساعات من فيينا. هذا أيضًا ليس بيته - ماذا يفعل هناك؟

أحيانًا يذهب في المساء، عندما يخرج من المستشفى، إلى المطعم على الناصية: «إلى النصر». هناك كان يحصل على «جولاش» محترم، وفي يوم الجمعة على سمك ممتاز. ذات مرة حضر مشهدًا دخل فيه شخص ألماني المطعم مع رجل فييناوي، وتساءل الألماني مرتبًا ومرتبًا: إلى النصر؟ أمل ألا يكون هذا مطعمًا للنازيين!

كان النادل يمر بهما في تلك اللحظة وسمع ما قيل، فسند ذراعيه على المائدة وانحنى قائلاً بلهجته الفييناوية:

- نصر الطبقة العمالية يا رجل! أنفهم؟

وجد مارتن نفسه يبتسم. وكأن أشباح التاريخ تلوح بيدها، مثل شقفة فخار تظهر إلى السطح في إحدى الحفريات الأثرية. فيما بعد مرّ النادل به، وقال بلهجته:

- كان مجرد هزار! أكيد أنت عارف! اسمنا «إلى النصر»؛ لأن المطعم موجودٌ من نصر أسبرن، عندما انتصر النمساويون على نابليون!

طبقة أعمق، شقفة فخار أخرى.

في أحد أيام السبت تناول مارتن فطوره في «كارماليتير ماركت»، وهناك قابل فيليكس، زميله القديم من أيام الدراسة الجامعية. لم يكد يتعرف عليه. لكن الآخر تعرف عليه. كَذَبَ: صدفة جميلة أن نتقابل! شربا قهوة، وتحدثا، وهياً مارتن نفسه للحديث عن الزمن الجميل. ونجح في ذلك. زمان، نعم زمان! وهل تتذكر: آنذاك. نعم، آنذاك. رمش كل منهما بعينه في الشمس، شربا القهوة، ثم انتقلا إلى النيذ. وفجأة تحول الحديث عن الزمن الجميل إلى بكائيات. حكى مارتن -لماذا إليه تحديداً؟ هذا الغريب الذي اعتبره- مُتَحَجِّجًا- صديقاً قديماً؟ ربما لهذا تحديداً! حكى له مارتن أنه مريض، مكتئب، يعاني من الاكتئاب و...

قال فيليكس بمرح مفتعل:

- اكتب؟ كف عن هذا الهراء من فضلك! هل تنظف أسنانك قبل النوم؟

تطلع مارتن إليه مندهشًا:

- نعم، بالطبع.

ضحك فيليكس، ثم أضاف:

- إذن فأنت لا تعاني من الاكتئاب. طالما أنك تنظف أسنانك، فلست مكتئبًا. محبط على أقصى تقدير. أنا أعرف عما أتحدث! رفع كُمية وعرض عليه الندبات في شرايين يده.

- متى كان ذلك؟

- ليس مهمًا. على كل حال: آنذاك لم أعد أنظف أسناني!

أخذ فلوريان يتعافى، ببطء، لكنه كان يتعافى. لم يعد يريد القراءة. عاد إلى الحياة. وبدأ.. كان هذا غريبًا: لقد بدأ في الوقت نفسه بإنهاء حياته، على نحوٍ من الأنحاء.

عرف أنه تم انتخاب رئيس جديد خلال الاجتماع السنوي لاتحاد المنتجين الأوروبيين للحم الخنزير في بودابست. كان ذلك متوقعًا. بسبب الحادثة التي وقعت له خلال سفره إلى هناك لم يظهر في الاجتماع، ولم يخبر مجلس إدارة الاتحاد بسبب غيابه. من المفهوم أنهم آنذاك لم يكن باستطاعتهم سوى تأويل الأمر تأويلًا خاطئًا. وكأنه لم يعد مهمًا

بمنصبه، ولا حتى بأن يسلم المنصب بشكل نظامي. كان يتفهم إذن أنهم انتخبوا رئيسًا جديدًا، لم يضايقه ذلك، ما سبب له أعظم القلق، بل ما أغضبه هو انتخاب شخص مجري رئيسًا جديدًا، وتحديدًا ذلك الأحمق بالاچ جيونجيوزي، رجلٌ قوميٌّ متعصبٌ استغل عمله وجهوده في هذه المنظمة الأوروبية من أجل أن يحقق مكاسب لصالح مزرعته الخاصة بتربية خنازير المانجاليكافحسب^(٣٠). حاول استغلال منظمة كبار المنتجين الأوروبيين كجماعة ضغطٍ؛ لكي يسجل «خنزير المانجاليكاف المجرى» كماركة مسجلة محفوظة مرتبطة ببلد المنشأ، وبذلك يستبعد مربى خنزير المانجاليكاف النمساويين والألمان. كما أن جيونجيوزي لفت الأنظار مرة بعد أخرى بأقوال معادية للسامية. الاتحاد الأوروبي في رأيه مؤامرة تقف وراءها اليهودية العالمية لتدمير الأمم الأوروبية، التي كان يطلق عليها «الشعوب الطفيلية». لم تكن كل هذه المتناقضات -أن يطلب الحماية القانونية من الاتحاد الأوروبي من أجل خنازيره المجرية، وفي الوقت نفسه يرفض الاتحاد الأوروبي، أن يقوم بتربية الخنازير ثم يصف أعداءه الألداء، اليهود، بأنهم خنازير- لم تكن غريبة فحسب، بل كانت في عيني فلوريان أشياء تمس الشرف، وتمثل خطرًا على الاتحاد. لهذا كان ينوي أن يقدم طلبًا لاستبعاد بالاچ جيونجيوزي من اتحاد المنتجين الأوروبيين للحم الخنزير. والآن، ها هو هذا الرجل تحديدًا قد أصبح الرئيس الجديد لاتحاد المنتجين. كيف كان ذلك ممكنًا؟

(٣٠) تسمى أيضًا «خنازير الصوف»؛ نظرًا لأنها تتسم بفراء غزير، وهو نوع من الخنازير المجرية الأصل. (المترجم).

كان عدد مربي الخنازير والجزارين المجريين في ذلك المؤتمر المنعقد في بودابست كبيرًا جدًا بالطبع. ويقال إن جيونجيزي «شحن» العشرات منهم بالباصات إلى الاجتماع. المرشح المنافس له، إسباني يدعى خوان رامون خيمينيث، لم يكن يعرفه فلوريان. كانت المشكلة واضحة: أن الألمان والهولنديين امتنعوا عن التصويت، في حين قدم موفدو الدول الصغيرة الدعم إلى المجري، وهو ما كان يكفي لجعل أصواتهم أكثر من أصوات الفرنسيين والإيطاليين والإسبان.

عرف فلوريان فيما بعد السبب: كان الألمان قد اتفقوا بالفعل على معاهدة تجارية مع الصينيين ولم يكن ينقص سوى التوقيع عليها، وكذلك فعل الهولنديون. وهكذا أضحى اتحاد المنتجين الأوروبيين للحم الخنزير ومَن يرأسه...

صاح فلوريان:

- لا يساوي بصلة! لا يساوي بصلة، مع كامل الاحترام!

حملق في السقف، ورقد بلا حراك، لكن مارتن شعر أن في أعماقه حيوانًا يزأر ويقفز ضاربًا القضبان الحديدية لقفصه.

بعد عدة أيام. «ميل» من «جابور سابو»، الزميل المجري الوحيد الذي لا يزال فلوريان على اتصال به. قرأ مارتن بصوت عال. المنتجون المجريون للحم الخنزير يتفاوضون تفاوضًا ثنائيًا مع الصين. زار بكين وفد بقيادة بالاج جيونجيزي. «تخيل: في أول حفل استقبال - مع طعام وكثير من كؤوس الشراب - رفع بالاج كأسه وقال إنه سعيد للغاية ويشعر بالتقدير، وإنه يريد أن يشرب نخب العلاقات الودية إلى آخره. بعد ذلك:

الحكومة الصينية نموذج لنا، نحن المجرمين، لأنها تدافع عن مصالح الشعب بكل وضوح وحسم، من أجل رخاء الشعب. ومما يستحق الإعجاب بشكل خاص الموقف الحازم الذي اتخذته الحكومة آنذاك في مواجهة أعداء الشعب في ساحة «تيان آنمين»^(٣١). بلغت الحيرة لدى الصينيين أعلى درجاتها. لم يكونوا مستعدين لذلك، ولا مهتمين بأن يتحدث أحد عن مذبحة «ميدان السماء». المفاوضات اللاحقة كان من الممكن استبدالها بأن يقرأ كل طرف للآخر دليل تليفونات بودابست أو بكين! خلال رحلة العودة بالطائرة تم عزل بالاچ كرئيس للوفد ورئيس «اللوبي» الخاص بمنتجي لحوم الخنزير في المجر».

ابتسم فلوريان. ثم راح يحدق في السقف ثانية. استغرق في التفكير. ضغط مارتن على يده، فسحبها فلوريان.

ثم جاءت اللحظة التي شعر فيها مارتن بأن أخاه يمتص حياته كمصاص دماء. هل كانت تلك إشارة أن كل شيء عاد إلى مجراه، أو كاد يعود؟ يستطيع فلوريان الآن أن يرقد على جنبه لفترة ما، والنهوض لمدة قصيرة، والمشي عدة خطوات.

- يجب أن أعود إلى بروكسل.

- لن أنسى لك أبداً ما فعلته من أجلي.

(٣١) يُطلق عليه بالعربية أيضاً «ميدان السماء». وقد شهد في الرابع من يونيو ١٩٨٩ مذبحة مثلت نهاية للاحتجاجات التي قام بها لمدة شهور معارضو النظام. (المترجم).

- سأطير يوم الاثنين المقبل. سأساعدك في نهاية الأسبوع عند الانتقال إلى مركز التأهيل الطبي.

- شكرًا.

- ماذا ستفعل عندئذٍ؟ عندما تخرج؟

- أنت ترى!

- ماذا؟

- هه، ماذا أفعل هنا؟ سأرقد ساكنًا.

- أعني عندما تخرج من هنا.

- قلت لك. الاتحاد الأوروبي يدفع مكافأةً مقابل إغلاق مزارع تربية الخنازير. المرء يحصل على نقود مقابل كل خنزير لا يعود يسمّنه. سأفصل كل العاملين لديّ. ومن حجرتي سأراقب كيف تنهار الشركة. في يوم ما سينقب خلفاؤك في العمل عن هذا المصنع ثم يتعلمون الدرس. حتى ذلك الحين سأقبض مكافأة الإغلاق.

- لست جادًا في ذلك؟!

- بلى. سأستثمر رأس مالي في ألمانيا، سأشارك في شركة كبيرة لتسمين الخنازير، ربما لدى شركة لحوم «تونيس»، عبر اتحاد كبار المنتجين الأوروبيين كونت علاقات جيدة معهم، وسأشاركهم بخبراتي ومعارفي. وربما لا. على كلٍّ: سأرقد ساكنًا. هل تستطيع رؤية المستقبل؟

- لا.

- لا ترى أي شيء؟

- لا.

- أنا أيضًا لا أرى. لم أعد أرى أي شيء.

كانت كل مقاعد الطائرة التي يطلق عليها «طائرة البيجامة» إلى بروكسل (صباح الاثنين في السابعة) محجوزة بالطبع. على هذه الطائرة يسافر كل أولئك الموظفين ونواب البرلمان الأوروبي الذين قضوا نهاية الأسبوع في فيينا ويعودون الآن إلى أعمالهم، وكذلك ممثلو جماعات الضغط النمساوية وممثلو اتحادات المصالح الذين لديهم مواعيد قبل الظهر وبعدها يعودون في المساء أو في طائرة اليوم التالي. وعلى الأرجح كان على متن الطائرة أيضًا -وهو ما يحدث كثيرًا- معلم مخلص لعمله مع فصله المدرسي، وذلك في إطار الحملة الممولة «شباب الأوروبيين يزورون البرلمان الأوروبي». حصل مارتن في البداية على مقعد في طائرة بعد الظهر. كان محظوظًا في ذلك لأنه على الأرجح لم يكن سيستيقظ في الوقت المناسب ليلحق بطائرة الصباح، ولا حتى بطائرة الظهرية. حتى الرابعة فجرًا تقريبًا لم يستطع النوم أو التوقف عن التفكير. كان قد أوصل أخاه في عصر يوم الأحد إلى مركز التأهيل في كلوستر نويبورج، ثم مرّ باليوناني في شارع «تابور» واشترى ثلاث زجاجات من بيرة «ميتوس»، وقليلًا من الجبن وزجاجة نبيذ أبيض «دراما»، ومن التركي بجانبه اشترى رغيف خبز.

راح يأكل ويشرب وينظر إلى الكراتين التي خزنَ فيها أشياءه، محاولاً أن يتخيل كيف سيكون الوضع عندما يزور بيت الوالدين في المرة القادمة، ويزور أخاه وعائلته، عندما لا يتبقى أي خنزير في الزرائب، قاعة التسمين الكبيرة، وآلات الذبح، كل المباني فارغة، ساكنة بعد إغلاقها، السيراميك الأبيض، لم يعد دموياً، لكنه أيضاً لا يلمع باللون الأبيض مثلما كان يحدث عندما يرشه السيد هوفر بماء الخرطوم ليغسله، البلاط الآن في لون الغبار، الغبار الجاف، السيد هوفر أُحيل إلى التقاعد المبكر، وتم إنهاء تعاقد كل العاملين، ستغزو الطبيعة القاعات المغلقة، وينمو اللباب والسراخس، ونباتات متسلقة وحشائش، فوق ما تبقى من روث الخنازير، روث آخر أجيال الخنازير قبل غلق المزرعة... انكسرت النوافذ، في الصقيع تنفجر في الزرائب الباردة مواسير المياه، فتصدع الجدران وتستقر في الشروخ البذور المتطايرة مع الريح، ثم تنبت وتمد جذورها، نباتات من كل نوع تلتهم الطلاء وتحدث شقوقاً في الجدران، وتكون بيئة حيوية للفئران والجردان والقنافذ، والنمل والعناكب، وطيور الحائط، والزنابير، والققط المتوحشة. احتسى مارتن الزجاجاة الثالثة من بيرة «ميتوس»، ورأى بخياله سقف قاعة التسمين وهو ينهار، تقع القاعة أمام بيت العائلة، المكان السكني في المزرعة القديمة، تم تعلية البيت وتوسيعه مرتين. فتح مارتن زجاجة النبيذ، وتساءل عما إذا كانوا سيجلسون فعلاً عند الشبايك، أم على المقعد أمام البيت ليشاهدوا كيف تتغلغل جذور الحشائش الضارة والنباتات البرية وأظافر كل أنواع الطيور في تاريخ

العائلة الآفلة. وعندما تنداعى المزرعة وتنهار وتغدو ترابًا.. حتى متى سيزل أخوه يحصل على مكافأة الإغلاق؟

يجب أن يذهب إلى فراشه. نظف أسنانه. وابتسم ابتسامة داخلية: هذه علامة جيدة. العلامة الأقل جودة كانت أنه بعد ذلك جلس إلى المائدة من جديد؛ لأنه رغب في تدخين سيجارة أخرى واحتساء كأس أخرى من النبيذ. راح يفكر فيما ينتظره في بروكسل. بالطبع كان يعرف من الرسائل الجماعية أن مشروع اليوبيل يواجه مشاكل. كما أنه حصل بالطبع أيضًا على محضر اجتماع مجموعة العمل في المجلس الأوروبي. ألقى عليه نظرة سريعة، ولم يأخذه بجدية. كان المهم بالنسبة إليه هو أن كسينو تريد على ما يبدو مواصلة العمل في المشروع، على الأقل لم تصله رسالة منها تقول له: «توقف!» في بعض الأمسيات كان يجلس أمام الكمبيوتر ليستكمل فكرة ما من أفكار المشروع أو يطورها. حتى وإن كان في إجازة، فقد أراد أن يعرض على زملائه في العمل شيئًا بعد عودته. على الأقل كان في بعض الأمسيات، وبعد أن يقضي العصر مع أخيه في المستشفى، لا يعرف ما يمكن أن يفعله.

اهتم بتطوير هذه الفكرة على وجه الخصوص: إذا كان سيتم تقديم الناجين من أوشفيتس كشهود على فكرة مشروع السلام الأوروبي، وعلى المهمة التاريخية للمفوضية الأوروبية، فسيكون من المنطقي والمفيد دعوة الموظفين الذين عاصروا فترة تأسيس المفوضية أيضًا، لكي يتحدثوا عن الأفكار والمقاصد والآمال التي بدأوا بها عملهم آنذاك. كان مارتن مقتنعًا بأن موظفي الجيل الأول كانوا يعرفون أهداف

المفوضية بشكل أدق بكثير من النخبة الحالية من البيروقراطيين. فكر مارتن سوسمان بأن ذلك سيكون طرف الكماشة الآخر. من ناحية الناجون من معسكرات الإبادة الذين يذكرون بالعهد الذي قطعوه على أنفسهم: لن يتكرر ذلك أبدًا! لن تتكرر القومية والعنصرية. من ناحية أخرى ممثلو جيل تأسيس المفوضية الأوروبية الذين يذكرون بأن الهدف كان على وجه التحديد هو تطوير مؤسسة فوق القوميات للتغلب على القومية، والتغلب، في نهاية المطاف، على الأمم.

أرسل رسالة إلكترونية إلى كاسندرا يسألها: ما رأيك؟

كاسندرا: سأهتم بالأمر.

بعد أسبوع كتبت كاسندرا: الجيل الأول من المفوضية: (أ) توفي. (ب) يعاني الخرف. (ج) لا يعاني الخرف لكنه لا يستطيع السفر. هل تريد مواصلة العمل على هذه الفكرة؟ ربما رسائل بالفيديو من (ج)؟

احتسى مارتن نبيذ «الدراما» حتى الثمالة، ولا يزال لا يشعر بأنه يستطيع الذهاب إلى فراشه وأن ينام. وجد في المطبخ زجاجة من الشنابس الإيطالي «جربا». قال لنفسه: لا تفعل! ثم فتح الزجاجة. كان يتأرجح قليلًا عندما خطا الخطوات الثلاث من ركن المطبخ إلى المائدة حيث كان يجلس.

ربما يجب تنظيم مشروع اليوبيل على نحو آخر تمامًا، قال لنفسه. الانطلاق مباشرة نحو الهدف. بلا حلولٍ وسط. إذا كان الخرف والموت

يقفان عائناً دون أن يتحدث أحداً متذكراً هدف تأسيس المفوضية الحقيقي آنذاك، وهو الهدف الذي لا يزال نتطلع إليه حتى اليوم- إذن على المخرفين والموتى أن يظهروا ويدافعوا عن المفوضية. أن يثيروا الرعب والتعاطف، وربما يحققوا نوعاً من التطهير؟ بل حتى الفهم. فجأة يفهم المجتمع الخرف ما كان ينبغي أن يكون عليه، وفجأة تتذكر قارة على فراش الموت الدواء الذي يعد بالشفاء، الدواء الذي توقفت عن تناوله ونسيته. كيف؟ كيف يمكن تجربة ذلك؟ عبر ممثلين؟ ينبغي تكليف ممثلين يظهرون كموظفين في المفوضية في فترة تأسيسها، لا نحتاج إلى ممثلين مشهورين تم الاحتفاء بهم في الأدوار المختلفة التي لعبوها، ففي تلك الحالة سيكونون أنفسهم، ولكن في أدوار أخرى فحسب، نجوم التعددية الذين يتساوى كل شيء عندهم، لا، إننا بحاجة إلى ممثلين مسنين كانوا مثاليين كباراً، لم يكونوا يوماً نجوماً، لم يستطيعوا أبداً أن يفرضوا موهبتهم بشكل كامل، رغم أنهم متمكنون من حرفتهم، وجمعوا الخبرات الحاسمة في عملهم، لكن تلك الخبرات لم تعد تعني شيئاً بالنسبة إلى الأجيال القادمة، حيث يدور الأمر حول الشهرة أكثر منه حول الحقيقة، وحول العبارات الفارغة عن الحقيقة كأساس للشهرة، الشهرة كأساس للعمل بدلاً من أن تكون نارا مضيئة، نارا من المغزى والمعنى. ينبغي ألا يمثل ذلك ممثلون فاشلون، إنهم سيكونون مثل الآباء المؤسسين الموتى لو أحضرناهم ليظهروا غداً على المسرح: الاحترام الذي لا يمكن التفريط فيه أمام مثل الشباب، اليأس بسبب الإخفاق والدخول طي النسيان، الحنين إلى إعادة الاكتشاف

والتذكر وكرامة فكرة هي أجمل من كل الركام الذي دفنوا تحته. أليس هناك ممثلون فاشلون في الثمانين أو التسعين من عمرهم، ممثلون لم يخرفوا بعد، ويستطيعون حفظ نصوصهم؟ سيكونون هم خير من يمثل فترة التأسيس الأوروبية.

احتسى مارتن الشنابس من الكوب الذي يضع فيه فرشاة تنظيف الأسنان.

رأى الأمر كأنه فيلم يمر أمام عينيه: مسيرة الموتى، على الشاشة الكبيرة، يسرون من كل حدبٍ وصوبٍ، عبر كل الحارات والشوارع، نحو مبنى بيرلمون، مظاهرة للتاريخ المسكوت عنه، نبوءة مؤسسي مشروع الوحدة الأوروبية، ثم يجيء التابوت. أي تابوت؟ من يرقد فيه؟ اليهودي الأخير، طبعًا، اليهودي الأخير الذي نجا من معسكر إبادة. مات في تزامن قَدري مع عيد الميلاد الخمسين للمفوضية! في إطار احتفالات اليوبيل يسير موكب فخم، جنازة احتفالية، أكثر من جنازة رسمية، الجنازة الأولى في عمر الاتحاد الأوروبي، جنازة تعلق فوق القوميات، أمام التابوت يجدد رئيس المفوضية العهد: لن يتكرر ذلك أبدًا! لن تتكرر القومية والعنصرية وأوشفيتس! وبهذا يتم تمديد الأبدية -بعد موت الشاهد الأخير على ذلك العصر- ويتم تجاوز نقطة النهاية، ويصبح التاريخ أكثر من مجرد بندول ينقل الناس باهتزازاته إلى حالة من النشوة التي تفتقد إلى أي روح. في فيلم مارتن تمر الآن غيوم سوداء، في مشهدٍ دراميٍّ رائعٍ في السماء، مشهد راديكالي وكأنه كسوف الشمس، تتدافع السحب أمام الشمس، أمام أي ضوء، بسرعة تخطف الأنفاس،

تصوير سريع يختزل الزمن - تتوقف السينما الآن لبرهة؛ لأن مارتن ظل متعلقاً بتعبير «تصوير سريع يختزل الزمن»، كان يدخن ويحملك أمامه ويفكر: اختزال الزمن. عندئذٍ تتابع الغيوم مسيرها، تزداد الظلمة، ثم تهب عاصفة تنزع القبعات عن رؤوس الناس، رأى قبعات تتأرجح في الهواء، وازداد الظلام...

غياب عن الوعي. لم يكن ذلك نومًا. غاب مارتن عن وعيه نحو الرابعة فجراً.

استقل سيارة أجرة إلى المطار، كاد ينام خلال الرحلة. غفا خلال الطيران. راح يتلع الأسبرين كأنه بونبون. في مطار بروكسل استقل من المستوى O الباص إلى الحي الأوروبي. من هناك سار عدة خطوات إلى محطة مترو مالبيك، إذ إن مدخل بيرلمون كان مغلقاً مرة أخرى. لم يكن يريد شيئاً سوى الذهاب إلى البيت. لم يسبق له أن شعر أن شقته في بروكسل هي بيته الحميم مثل الآن. على رصيف القطار نظر إلى لوحة الاستعلامات: بعد أربع دقائق.

كان على البروفيسور إرهارت أن يغادر غرفته في الأطلس في الحادية عشرة صباحاً، الوقت لا يزال مبكراً جداً حتى ينطلق مباشرة إلى المطار. تمشى متمهلاً عبر ميدان «فيو مارشييه أو جران» ساحباً خلفه الحقيرة التي كانت تعلو وتهبط فوق الأحجار الصغيرة التي كست الرصيف، وكأن بروكسل تريد أن تهزه. ماذا عليه أن يفعل حتى يحين

وقت الرحيل؟ الذهاب إلى مطعم؟ نعم. لكنه تناول فطوره متأخرًا جدًا، فلم يكن يشعر بالجوع. سار في اتجاه محطة مترو سانت كاترين. ماذا يفعل؟ كانت الحرارة غير محتملة، بدأ يتصبب عرقًا. كان قد قرأ في الصحيفة عن معرض «الحداثة المنسية»، وما أثاره من جدل عنيف. ربما عليه أن يتفرج على هذا المعرض؟ كان مترددًا. عندما وصل إلى كنيسة سانت كاترين، دخلها دون تفكير. لديه وقت. ستكون الأجواء في الكنيسة أكثر برودة. مرّ بهذه الكنيسة كثيرًا، لكنه لم يدخلها سوى مرة وحيدة، في أمسيته الأولى في بروكسل، آنذاك كان قد هرب من المطر الفجائي الغزير. تبدو الكنيسة في الحقيقة كأنها كاتدرائية. ربما كانت مهمة من منظور تاريخ الفن والثقافة.

بمجرد دخوله، سأل نفسه عما يفعل هنا. في صفوف المقاعد جلس مصلون فرادى، ورفع السياح هواتفهم الذكية أو «التابليت» ليلتقطوا صورًا، بين الحين والآخر لمع الضوء الخاطف، في حين كان لهب الشموع المنذورة يهتز على المذابح الجانبية. حتى في فيينا لم يكن يذهب أبدًا إلى كنيسة. لماذا يزور إذن كنيسة في بروكسل؟ عندما بلغ الثانية عشرة قام مع فصله بجولة داخل كاتدرائية «شتيفان». ليس لأسباب دينية، كلا، بل كجزء من التربية القومية. وفي الخامسة عشر رافق ذات مرة جدته -التي اكتشفت إيمانها في الدقائق الأخيرة عندما سمعت الموت يقرع بابها- إلى قداس عيد الميلاد. لكنه لم يفعل ذلك إلا بعد أن دست في يده عشرين «شيلينج». كانت تلك آخر مرة ذهب فيها إلى كنيسة. كان سعيدًا لأنه لم ينشأ نشأة دينية، وكان راضيًا بالتوجّه

الإلحادي لوالديه، حتى وإن أدرك متأخرًا، متأخرًا أكثر مما ينبغي، أنهما
كانا من القوميين المتشددين، ولهذا من المعادين لرجال الدين.
سار في الجانب الأيسر من الكنيسة متجهًا إلى الأمام، عندئذ خاطبه
رجلٌ يرتدي بدلةً سوداء و قميصًا دون ياقة:

- *Est-ce que vous l'aimez aussi?*

- *Pardon?*

- المادونا السوداء!

تتبع إرهارت نظرة الرجل، فرأى تمثال السيدة العذراء.

- معجزة! أنت تراها بالطبع؟

- ماذا تقصد؟ وجهها؟ لأنه أسود؟

- لا. انظر إلى يديها. أترى؟ الإبهام مكسورٌ. في زمن الإصلاح

الديني عاث البروتستانت في الكنيسة فسادًا، وألقوا بهذا التمثال

في القناة قريبًا من هنا، خلال ذلك انكسر الإبهام. أترى مكان

الكسر؟ والآن، عد الأصابع! هه! أترى؟ خمسة أصابع! انتشل

الكاثوليك التمثال، وأرجعوه إلى الكنيسة وأقاموه. ورغم أنهم

كسروا من التمثال أصبعًا، فقد أصبح له من جديد خمسة أصابع.

معجزة! أتراها؟

بابتسامةٍ مشرقةٍ رسم الصليب على صدره.

قال إرهارت:

- قد يكون عدد الأصابع قبل ذلك ستة؟

حذق الرجل بالبدلة السوداء فيه، ثم استدار، وانصرف.

غادر البروفيسور إرهارت الكنيسة، وواصل السير إلى محطة المترو. كان ينوي أن يستقل المترو حتى «جار سنترال»، ومن هناك يأخذ القطار إلى المطار. ولكنه سيكون في المطار مبكرًا جدًا، ولقتل الوقت سيتجول بلا رغبة في محلات المنطقة الحرة، ليأكل في النهاية «سندويتش» سيئ، ويحتسي البيرة، ثم -مللاً- كأسًا أخرى من البيرة، ثم يتجول مرةً أخرى، ويشرب قهوةً، ثم يجلس في مكانٍ ما ويتنظر. وفي الختام -ولأن الوقت لا يريد أن يمضي- سيشتري شوكولا بلجيكية؛ لأن الناس يأتون من بلجيكا بهدايا من الشوكولا، لكن ليس لديه أحد يستطيع أو يريد إهداءه شيئًا، كانت ترودة تحب الشوكولا، بين الحين والآخر كان يحضر لها معه إحدى تلك علب «ميلكا» المستديرة ذات الشرائط الزرقاء، في البداية كان يفعل ذلك في اللقاءات الغرامية، وبعد ذلك دون مناسبة، كتعبيرٍ عن اهتمامه بها عندما يعود من الجامعة إلى البيت، من محل الحلويات العتيق الذي كان موجودًا على الناصية بجوار المعهد، في «جريلبارتسر-شتراسه»، «بونبون كايزر»، ويديره السيد كايزر الذي كان يقول جملاً مثل: «مع تحياتي إلى السيدة قرينتكم، حضرة البروفيسور»، كان آنذاك لا يزال أستاذًا مساعدًا، وكان يتهج عندما تشعر ترودة بالبهجة، لكنه هو نفسه لم يكن يحب الشوكولا كثيرًا، فلماذا يشتري الآن؟ في المرة الأخيرة اشترى من مطار بروكسل -فقط حتى يضيّع وقتًا- «بونبونيرة» من

شركة «نوبهاوس»، وظلت أسابيع ملقاة في المطبخ. ولا تزال ملقاة هناك في مكان ما. لم ينزل في محطة «جار سترال»، بل واصل بالمترو إلى مالبيك، وهناك، بالقرب من المحطة، كان يعرف مطعمًا إيطاليًا تناول فيه طعام الغداء ذات مرة بعد اجتماع «الحلف الجديد». مكان لطيف وبسيط، والطعام كان من الجودة بحيث أن المرء يستمتع به حتى لو لم يكن جائعًا. استطاع، بالفعل، أن يعثر على «أوستيريا أجريكولا توسكانا» مرة ثانية. أخذ يفكر في مستقبله خلال انتظاره الطعام، ثم أثناء تناول الطعام واحتساء النبيذ. على الأقل انتوى ذلك، وحاوله. لم يكن الأمر بهذه السهولة. الشيء الوحيد الذي يستطيع معرفته بيقين كبير عن مستقبله هو أن كل هذا، الذي يأكله الآن ويشربه، سيمر بعملية تمثيل غذائي، ثم -بعد عودته إلى فيينا- سيتم إخراجه. أنب نفسه على هذه الأفكار المبتذلة. لم يكن الأمر سهلاً. أعجبه الطعام. لكنه بدا له تبذيرًا: طعام طيب كهذا له وحده، دون أن يستطيع الاحتفاء به مع أحد. جودة النبيذ عالية. راح يفكر في مستقبله. قال لنفسه: يمكنه أن يفكر أيضًا فيما إذا كانت ثمة حياة بعد الموت. نعم، قال لنفسه، إنهم يقولون ما بعد الحياة. هل سيخلف شيئًا يمتد تأثيره بعد وفاته؟ ألدیه تركة فكرية تستطيع أن تواصل التأثير؟ وصية؟ لا يزال لديه، قال لنفسه، وقت لكي يكتب كتابًا. هل يمكن التخطيط لكتاب وكتابته لكي يكون وصية وتركة يقبلها اللاحقون؟ سيرة ذاتية ربما؟ ربما عليه أن يكتب سيرة ذاتية، خبراته، أفكاره، حتى تحيا على الأقل ذكرى تلك الأشياء في يوم ما، ذكرى كيف كان بإمكان الأمور أن تتطور، أو أن تتضخم بلا حل. كان

قد قرأ في السيرة الذاتية لأرماند مونس: «ليس التاريخ سردًا لما كان، بل هو أيضًا التحليل المستمر للأسباب التي حالت دون حدوث أشياء أكثر عقلانية». يجب أن تكون هذه الجملة شعار سيرته الذاتية، هكذا فكر، ثم طلب قهوة «إسبريسو» والحساب. أراد أن يكتب سيرة ذاتية لا تسرد حياة متواضعة، بل ما لم يعيشه. ما لم يعيشه عصره. الوقت الآن ضيق. عليه أن يذهب إلى المطار. دفع ثمن زجاجة النبيذ كاملة. اضطرب، لقد تجاوز الوقت.

هل يسير إلى «شومان روندو» ويأخذ الباص إلى المطار؟ أم يرجع إلى محطة المترو، ويأخذه ثلاث محطات حتى «جار سنترال»، ويستقل القطار إلى المطار؟ قال لنفسه إن القطار أسرع من الباص. ركض بحقيقته الوثابة إلى محطة مولبيك، تعثر وهو يستقل السلم الكهربائي الهابط، ولاحظ بعد فوات الآوان أنه لا يعمل، وعلى رصيف المحطة ألقى نظرة عصبية على لوحة الاستعلامات: دقيقتان.

سمع دافيد دو فريند الصرخة: «ابق هنا!»، سد أذنيه، لكنها دوت في رأسه بضجيج أكبر، «توقف مكانك!»، وكأنها تُقذَف من صدغ إلى آخر، ثم إلى الوراء، صدى بعد صدى، «ابق هنا!»، كان يعرف أن عليه أن يذهب الآن. فورًا. لا تفكير بعد الآن، قرأ فقط. على الفور الخروج من هنا، والابتعاد عن هنا.

حتى الباب لم يغلقه خلفه. لم يقابل أحدًا. على الدرج، في البهو بالأسفل، في الناحية الأخرى قاعة الطعام، وفي الأمام المكتبة، ساد

الهدوء في كل مكان، لم يرَ إنسانًا. بعد الغداء ينام معظم ساكني الدار، أو يخرجون للتمشية، إما من شارع «دو لاربر يونيك» حتى الغدير المزروعة على جانبيه أشجار الصفصاف، وهناك يطعمون الطيور؛ أو إلى المدافن، السير حتى المقاعد، ثم الاستراحة، والرجوع على موعد الشاي. العاملات في الدار يتناولن الآن قهوتهن في غرفة العاملين، ويتبادلن الأحاديث حول الحالات الإشكالية.

ترك دو فريند دار هانسنس وكأنه عالمٌ بلا بشرٍ. أو كعربة موتى في قطار. «ستأخذنا معك في داهية!»، كانت تلك آخر الكلمات. كان عليه الذهاب، بأسرع ما يمكن. إلى أين؟

لم يدع له القرار وقتًا لكي يفكر في عيوبه ومزياه. الخروج! انتزاع النفس والخروج!

سار إلى بوابة المدافن، لكنه لم يدخل، لديه عنوان يريد الذهاب إليه.

عندما قفز من القطار، دس شابٌ في يده مظروفًا، وفيه ورقة بها عنوان آمن وخمسون فرنكًا. سار كل شيء بسرعةٍ. بعد تبادل إطلاق النار واصل القطار سيره، رآه يسير بطيئًا للغاية، عجلات القطار تدور، الباب المفتوح لعربة المواشي الذي يبدو كثقب أسود، وخلفه والداه وأخوه الصغير، وكأن هذه الصورة تتعد عنه ستيمةً ستيمةً، طلقات رصاص وطققة ولهات، صليل عجلات القطار المتسارع، ضربات الحديد فوق الحديد، دفعة، رجل يدفعه مرة أخرى صارخًا: اجر! ابحث عن العنوان، الذي -وأشار إلى المظروف الذي دسه لتوه في يده- هنا

بالداخل! تزايدت سرعة القطار، اختفى الثقب الأسود القابعة خلفه عائلته، ثم مرّ ثقب أسود آخر به، وثقب آخر، استدار ورأى أشخاصاً يركضون في الحقول، كم كان عددهم؟ مئات؟ رأى كيف يسقط أو ينهار بعضهم فرادى هنا وهناك، بعد أن أصابتهم رصاصات في الظهر، ألقى بنفسه على الأرض، وتدحرج على المنحدر المثبتة فوقه القضبان، ظل راقداً، باسطاً قامته، إلى أن مرّ القطار الذي كان حراس «الإس إس» يلاحقون منه الهاربين ويطلقون عليهم الرصاص.

عندئذٍ شرع يعدو.

رأى أمامه في الحقل الأشخاص الذين ألقوا بأنفسهم أرضاً وهم ينهضون الآن. ركض متجاوزاً الذين رقدوا ولم يعودوا قادرين على النهوض. ركض ليدخل في الليل. لديه عنوان.

لم يكن يعرف الطريق. عندئذٍ جاء باص ووقف أمام بوابة المدافن. باص رقم ٤ - لم يكن دو فريند يعرف إلى أين يذهب. صعد. وانطلق الباص. أخذه بعيداً. ترك كل شيء خلفه. بعد وصولهم في أوشفيتس ذهب والداه وأخوه الصغير على الفور إلى غرف الغاز. لم يكن بمقدوره إنقاذهم، لو لم يقفز في القطار، لو بقي معهم. ولم يكن هناك وقت أيضاً للنقاش: هل نقفز أم لا؟ ماذا ينتظرنا في الحالة الأولى، وماذا في الحالة الأخرى؟ لقد قفز. ونجا. أبوه، هذا المحاسب القصير، هذا الرجل الضعيف الرقيق بعينه الداكنتين الحزینتين، مساهمته في هذا العالم تنحصر في الاستقامة التي لا ترحم، ثقته في الرقابة على الديون والقروض، يجاهد بكبريائه الذي هو في الحقيقة عناد في وجه

الزمن، وعلى وجه الابتسامة الساخرة المتعجرفة التي تعلو وجوه الكبار والمتلونين. حتى في البيت، وهو في مملكته الخاصة بين جدرانہ الأربعة، عندما لا يراه أحدٌ، كان يقدم مسرحية الاستقامة المطلقة وكأن الملك والحكومة ينظران إليه ويومئان تقديرًا. رأى أمه أيضًا، عندما يتذكرها، دائمًا بتلك النظرة المستكينة الحزينة، عينا كل منهما حزيتان، ليس لأنهما رأيا ما سيأتي، بل لأنهما كانا يعتقدان أن كل شيء سيبقى دائمًا على ما هو عليه. لم يحملها الهم، لقد أقاما فيه وتعايشا معه، واعتبرا الهموم هي حياتهما، وليس أحجارًا تغطي الطريق المؤدي إلى موتهما. مرة واحدة سمعها دو فريد تصرخ، بل تزار: ابق هنا! لو كان قد بقي، لسار إلى الغاز مثلهم. لم ينقذهم، ولم يكن ذلك بمقدوره. هل هذا ذنبه؟

لديه عنوان.

علمه أشخاص غرباء الكبرياء والقدرة على الصمود. أحبوه كأنه من صلبهم. وعندما وُشي به في النهاية، لم يعد الوقت يكفي لقتل شاب قوي من خلال العمل. كان محظوظًا. واجهته مصيبة، لكن حظه كان جيدًا، ثم مصيبة أخرى، وكان حظه جيدًا مرةً أخرى.

لم يجد العنوان. جلس في الباص ولاحظ أن حقائقه فارغة. عليه أن يتذكر. عليه أن يجد الطريق، أن يتعرف عليه مرةً ثانيةً. تأوه. عليه أن يتذكر. ولكن ليس هناك سوى ثقب أسود. ألقى نظرة من الشباك. ما مرّ به، لم يكن ذكريات. لا لافتة إرشادية، لا شيء يرتبط بخبرة مرّ بها. واجهات.

اللا شيء. انفتحت أبواب الباص ثم انغلقت. ثم واصل الباص سيره متأرجحًا، ومرّ بواجهاتٍ أخرى. انفتحت الأبواب ثم انغلقت. هذا هو كل شيء.

انفتح باب عربة القطار عنوة. صوت يصرخ: اخرجوا! اقفروا خارجًا!

انفتحت أبواب الباص. ابق! ستأخذنا في داهية! قفز دو فريند من الباص. كاد يسقط. سنده رجل في محطة الباص.

- اجر! إلى هذا العنوان...

رأى دو فريند أشخاصًا يسرعون الخطى في الشارع، سار خلفهم. أين كان؟ أمام ثقب أسود. مرت به لحظة قصيرة تعرف فيها على شيء: محطة مترو مالبيك. إنها تعني شيئًا له. ولكن ماذا؟ دخلها، وهبط الدرج. لا بد أن يتعرف على الطريق. سار على رصيف المحطة. اعتقد أن هذا هو الطريق.

دقيقة واحدة.

رجلٌ معه شنطة. امرأةٌ تكتب شيئًا على هاتفها الذكي. رجلٌ معه حقيبة. وصل القطار، وتوقف. انفتحت الأبواب. رأى في الباب المفتوح طفلًا يمسك بيد أمه. انتزع الطفل نفسه عندما قفز من القطار. عندئذٍ انفجرت القنبلة.

عندما قامت الأخت جوزفين مع مسيو هوجو، المكلف بالإشراف على أعمال الصيانة في دار هانسنس، بإخلاء غرفة دافيد دو فريند، وجدت ورقة عليها قائمة من الأسماء.

ألقى مسيو هوجو ثلاثة قمصانٍ في كرتونةٍ قائلاً:

- لم يكن لديه الكثير.

أومأت الأخت جوزفين. كل الأسماء في القائمة مشطوبة.

تابع هوجو قائلاً:

- قلائل هم الذين يمتلكون أشياء كثيرة. أعمل في هذه الدار منذ

ثمانٍ سنوَاتٍ، ولا أزال أتعجب: ما أقل ما يخلفه إنسانٌ في النهاية.

«نعم»، قالت جوزفين. جلست وألقت نظرةً متعجبةً على الورقة.

في نهاية قائمة الأسماء المشطوبة كتب دافيد دو فريند اسمه.

«كان لديه مناديل جميلة، عليها حروفه الأولى»، قال هوجو ذلك

وألقى بالمناديل في الكرتونة.

اسم دافيد دو فريند وحده هو الذي لم يُشطب.

- كان عنده بدلٌ رائعٌ! فعلاً ممتازة. سيسر ذلك منظمة إغاثة

المشردين. ولكن إذا ارتدى متسوّلٌ بدلةً كهذه، فلن يحصل

على سنتٍ واحدٍ. رجلٌ يرتدي هذه البدلة، رفع عاليًا بدلةً دو

فريند من صوف التويد السميك.. لن يساعده أحدٌ.

كانت جوزفين تود لو صمت. لم تقل شيئاً. هناك، على المائدة

الصغيرة، قلمٌ. تناولته، وأمسكت به كأنه سكين.

سألها مسيو هوجو:

- ماذا كان يعمل في حياته؟ هل كان مشهورًا؟ سياسيًا أو موظفًا كبيرًا؟ أقصد... لأن المفوضية ستنظم جنازته.

الدفن الصامت لعصر كامل، قالت جوزفين لنفسها.

أضاف مسيو هوجو وهو يلقي في الكرتونة بقوالب أحذية:

- أفتقد الأشياء الاعتيادية في تلك الحالات، ألبوم صور، تقويم جيب صغير، يوميات. أمر غير مألوف إطلاقًا. لم يكن لديه شيء، ولا حتى ألبوم صور، هذا شيء لدى كل شخص.

سألت جوزفين نفسها عما تفعله بقائمة الأسماء هذه. تُلقى بها في الكرتونة؟ أم في سلة الورق؟ هل تشطب اسم دافيد دو فريند أيضًا؟ هل كانت تلك رغبته؟ هل ترك الورقة لهذا الغرض على المائدة الصغيرة، ومعها القلم؟ حتى تقوم بـ...

ألقي مسيو هوجو بفرشاة الأسنان ومعجون الأسنان ومقص الأظافر ومزيل رائحة العرق وماكينة الحلاقة في كيس بلاستيكي، ورماه في الكرتونة. قال:

- لن تمتلئ الكرتونة.

«هذه الميتة البشعة»، قال جوزفين لنفسها. أن يلقى دو فريند بالذات مصرعه في هذه الضربة - من ناحية أخرى: ما معنى «هو بالذات»؟ هذا ينطبق على كل واحد. عليهم كلهم الذين كانوا في التوقيت الخاطئ...

عليهم كلهم... قُتل عشرون، وأُصيب مائة وثلاثون إصابات جسيمة.
طوت قائمة الأسماء، ووضعتها في جيب معطف العمل الأبيض،
ثم دقت بيدها على الشنطة، وقالت لنفسها: طالما أن اسمك لم يُشطب،
إذن...
قال مسيو هوجو: هذا هو كل شيء.



خاتمة

توقعت هيئة تحرير صحيفة «مترو» أن يحتج المدافعون عن حقوق الحيوان. كان كورت فان دير كوت قد حذر هيئة التحرير من ذلك قبل أن يبدأ سلسلة مقالاته. لم يجبه رئيس التحرير سوى بقهقهة: إن احتجاج المتطرفين سيقوي فحسب ارتباط القراء بالصحيفة.

الشيء الوحيد المدهش كان هو أن الاحتجاجات جاءت متأخرة. بعد عدة أسابيع من نشر مقالة في «لو سوار»، هاجم فيها كاتبها صحيفة «مترو» والصحافة المجانية التي تعتمد على الحملات المثيرة.

كانت مقالةً متهمكةً، لمحت فيها «لو سوار» إلى احتمال أن يكون الخنزير الذي عدا وسط بروكسل، على الأرجح، لا وجود له مطلقاً، وأن الصور غير الواضحة التي التقطتها كاميرات المراقبة مجرد تزوير. إن سلسلة مقالات «مترو» ما هي إلا مثالٌ جديدٌ على كيفية عمل الصحف المجانية: إثارة البلبلة عبر حكاياتٍ مخترعة. مع هذه المقالة طبعت صورةٌ التُقِطت من محل جزارة «شلاجيري فان كامبن»، ويظهر فيها شطران من خنزير معلقان على خطاف. وتحت الصورة: «نهاية الخنزير البروكسلي!».

وإلى جانب هذه المقالة كان هناك مقابلةً مع ميشيل مورو، رئيس منظمة «إغاثة الحيوان» في بلجيكا الذي اعتبر حملة «مترو» «أكبر فضيحة منذ عهد السفاح مارك ديترو». إن من العار أن تستغل صحيفة خنزيرًا يعدو في شوارع المدينة من أجل حملة إعلانات، بدلًا من إنقاذ هذا الخنزير، هذا إذا كان له وجودٌ من الأساس. إن شوارع المدينة ليست مجالًا حيويًا طبيعيًا لخنزيرٍ يجد نفسه في حالة من القلق الدائم في مواجهة تحديات الأسفلت، وزحام البشر، والسيارات، ما يمثل تعذيبًا أكبر للحيوان مما لو كان في صندوق التسمين في إحدى المزارع. ثم طالب «الجهات المسؤولة» بأن تقوم أخيرًا بتوضيح الأمور عن إذا كان الخنزير موجودًا في الواقع، وإذا كان ذلك هو الحال فعلى الجهات أن تقوم بواجبها وتمسك به، وتعرضه على الفحص البيطري، ثم تودعه في مزرعةٍ حيث يُربى في ظروف مناسبة. واختتم مورو كلامه قائلاً: «كمدافع عن حقوق الحيوان فإنني أتعامل بحذرٍ شديدٍ مع الاستعارات البلاغية التي تستخدم الحيوانات، ولكن ما يحدث هنا لا يمكن وصفه بشيءٍ غير أنه شغل خنازير».

وصل سيل السباب الآن إلى «لو سوار». اعترض عشرات القراء في رسائل البريد أو في تعليقات على الفيسبوك؛ لأنهم شبهوا تعذيب الحيوانات باستغلال الأطفال جنسيًا وجرائم القتل التي ارتكبتها مارك ديترو. على الفيسبوك نالت المقابلة مع ميشيل مورو خلال ساعاتٍ قليلةٍ مئاتٍ من الوجوه الغاضبة.

ارتد الهجوم على «مترو» إلى الخلف، وخلال فترةٍ قصيرةٍ أصبح

يمثل مشكلة بالنسبة إلى «لو سوار». بالرغم من ذلك واجه مجلس تحرير «مترو» مشكلة أكبر كان لا بد من حلها قبل أن يتبها إليها الرأي العام: لقد كادوا يفقدون السيطرة تمامًا على حملة «بروكسل تبحث عن اسم لخزيرها». كان بإمكان القراء أن يكتبوا اقتراحاتهم «أونلاين»، وأن يضعوا «لايكات» على اقتراحات الآخرين، وفي الوقت نفسه كان ترتيب الاقتراحات يتغير مع كل اقتراح جديد، ومع كل نقرة فأرة، وذلك حسب تكرار الاسم المقترح، وحسب عدد «اللايكات». كان هذا الترتيب هو الأساس الذي كان على لجنة التحكيم أن تستند إليه خلال إعدادها القائمة الطويلة. في البداية جاءت اقتراحات مأخوذة من رسوم وأفلام الكارتون: «ميس بيجي»، «مدام كوشون»، «الخزير الذكي».

لم يكن هناك سوى اقتراح واحد له علاقة ببروكسل، «فاركيثيه بيس»، (١٧ «لايك»)، قد نعتبر «كاترين» أيضًا كذلك؛ لأن الخزير سُوهِد لأول مرة في سانت كاترين (٢١ «لايك»). ثم حدث شيء لا يُصدّق. تكرر اسم مئات المرات وحصل على آلاف «اللايكات»، وبهذا احتل قمة الترتيب: محمد. لا يمكن أن تكون سوى حملة منظمة. عندما لاحظت هيئة التحرير ذلك، أغلقت الصفحة. أعلن عدد من المحكمين خروجهم من لجنة التحكيم، وأعلنوا أنهم لا يريدون المشاركة في حملة تصبح في النهاية فعلًا عدوانيًا موجّهًا إلى المسلمين، شركائنا في الوطن.

سنوقف الحملة، قال رئيس التحرير. سنصمت. وخلال فترة قصيرة سيُنسى الأمر. بالمناسبة يا كورت، قال موجّهًا كلامه إلى فان دير كوت،

هل لفت انتباهك أنه لم تعد تصلنا منذ أسبوعين صورٌ جديدةٌ للخنزير؟
ولا أي خبرٍ بأن أحدًا رآه في مكانٍ ما. لقد اختفى. اختفى دون أن يترك
أثرًا.

يُتبع.

* * *

الكاتب

وُلد روبرت ميناسه في فيينا عام ١٩٥٤. درس الأدب الألماني والفلسفة والعلوم السياسية في فيينا وسالزبورج، ونال درجة الدكتوراه عام ١٩٨٠ بأطروحة عن «نمط الانعزالي في الوسط الأدبي». بعد ذلك قام ميناسه بالتدريس ست سنوات: في البداية أستاذًا للأدب النمساوي، ثم أستاذًا زائرًا في معهد نظرية الأدب بجامعة ساو باولو. يعيش ميناسه منذ عودته من البرازيل عام ١٩٨٨ في فيينا متفرغًا للكتابة الأدبية وكتابة المقالات في نقد الثقافة.

حصل على عدة جوائز، من أهمها «جائزة الكتاب الألماني» (٢٠١٧) عن هذه الرواية، وكذلك جائزة ماكس فريش من مدينة زيوريخ (٢٠١٤)، وجائزة هاينريش مان من أكاديمية برلين للفنون (٢٠١٣)، وجائزة مدينة آخن الألمانية (٢٠١٨) عن مجمل أعماله.

المترجم

درس سمير جريس الألمانية وآدابها في القاهرة وماينتس بألمانيا، وترجم من الألمانية نحو خمسة وعشرين عملاً من الأعمال الأدبية المعاصرة، منها: «عازفة البيانو» لإلفريده يلينك (نوبل ٢٠٠٤)، و«الوعد» لفريدريش دورنمات، و«قصص بسيطة» لإنجو شولتسه. أَلَف كتاباً عن الكاتب الألماني جراس بعنوان «جونتر جراس ومواجهة ماضٍ لا يمضي».

صدرت له عن دار «آفاق» ترجمة رواية «قاتل لمدة عام» لفريدريش كريستيان دليوس (٢٠١٨).

حصل على جائزة معهد جوته للترجمة الأدبية في فئة المترجمين المتمرسين عام ٢٠١٤، وعلى الجائزة الأولى في ترجمة القصة من المجلس الأعلى للثقافة في مصر عام ١٩٩٦.

حصل في عام ٢٠١٨ على جائزة الشيخ حمد للترجمة والتفاهم الدولي.